



مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

الشعر السياسي في العصر العباسي (132 - 334هـ / 750 - 946م)

تأليف

الأستاذ الدكتور طاهر حجار

الكويت

2014



جائزة البتة للغة العربية
مؤسسة محمد السادس للبحوث العربية



التدقيق الطباعي

محمود إبراهيم البجالي

الصف والتنفيذ

أحمد متولي أحمد جاسم

علاء محمود

الإخراج وتصميم الغلاف

محمد العلي

تصدر هذه الطبعة بمناسبة انعقاد الدورة الرابعة عشرة للمؤسسة

«دورة أبي تمام الطائي»

واحتفال المؤسسة بيوبيلها الفضي (١٩٨٩ - ٢٠١٤)

مراكش/ المغرب

٢١ - ٢٣ أكتوبر ٢٠١٤

حقوق الطبع محفوظة

هاتف: +٩٦٥ ٢٢٤٣٠٥١٤

فاكس: +٩٦٥ ٢٢٤٥٥٠٣٩

E-mail: kw@alabtainprize.org

تصدير

هذا الكتاب الذي تصدره مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ضمن إصدارات الدورة الرابعة عشرة «دورة أبي تمام» يُبرز في فصوله الشعر الذي نظمته شعراء العصر العباسي تأييداً ومنافحة عن الخلافة والخلفاء العباسيين وعن مواقفهم وحروبهم ضد أعدائهم وأعداء الدولة، ويبرز كذلك الشعر الذي قيل في الدفاع عن آراء وتوجهات الخارجين عن الدولة وتبرير أسباب خروجهم.

وعلى مدى فترة حكم الخلفاء العباسيين برز كثير من الشعراء من الجانبين، تناولوا هذه الأحداث، وكانوا بمثابة وسيلة الإعلام التي عكست صورة هذا العصر المليء بالأحداث الجسام، وقد أدى هؤلاء الشعراء رسالتهم تجاه ما آمنوا به ورسخ في أذهانهم من آراء وأفكار، وتفاعلوا مع الأحداث ونظموا في ذلك شعراً قوياً سيظلُّ عليه القارئ لهذا الكتاب الذي بين أيدينا، والذي نجد فيه إضاءات مهمة وكاشفة لأكثر من قرنين من فترة حكم الخلافة العباسية، التي ابتدأت غاية في القوة وانتهت غاية في الضعف بعد أن دب في أوصالها الهوان والخنوع نتيجة عوامل كثيرة متعددة ليس أقلها هيمنة العنصر الأجنبي على مفاصل الحكم فيها، مما أدى إلى انبثاق دويلات بأشكال مختلفة انفصلت تماماً عن الحكم العباسي.

وباستعراض الكتاب نجده مليئاً بالمعلومات الهامة التي تتعلق بالأحداث التي جرت في أثناء الخلافة العباسية، فالفصل الأول جاء بعنوان: الشعر والخلفاء العباسيون، واندرج في سياقه موضوعات عديدة منها: تنظيم الدعوة العباسية، وإبادة الأمويين، والأحقية بالخلافة بين العباسيين والطلبيين والصراع على السلطة داخل البيت العباسي، والعباسيون والفرس، والعباسيون والأتراك..

أما الفصل الثاني فجاء بعنوان الشعر ورجال الدولة، وأتى في سياقهِ موضوعات عديدة أيضاً منها: الشعر والوزراء ونكبة البرامكة، والشعر ونزعتا الشعبية والعروبية. وجاء الفصل الثالث بعنوان الشعر والعلاقات الخارجية، أي بين الدولة العباسية وبين الدول الأخرى سواء الدول الإسلامية التي انفصلت عن الدولة العباسية بعد تجزئتها أو الدول غير الإسلامية، والفصل الرابع وموضوعه الشعر والمعارضة والفصل الخامس جاء بعنوان الشاعر في البلاط العباسي، واندرج في سياقهِ عناوين متعددة منها: الشعر السياسي والمدح، ومرتبة الشاعر في هرم البلاط والمراسيم الخاصة به وعادات الشعراء في الإنشاد والأعطيات والجوائز.. وأبرز مؤلف الكتاب القيمة التوثيقية للشعر السياسي في العصر العباسي، وقائمة بالخلفاء العباسيين في العصرين الأول والثاني.

وقد أكد مؤلف الكتاب الأستاذ الدكتور طاهر حجار على أن موضوع الكتاب لا يهتم بالسياسة في العصر العباسي وإنما بانعكاس السياسة على الشعر، فالشعراء لا يعيشون في حصون مغلقة على أنفسهم، إنهم يعيشون في قلب مجتمعهم، ويعيشون الأحداث كغيرهم من الناس، ويتفاعلون معها. وختاماً نرجو أن يكون لهذا الكتاب صدًى طيباً لدى القارئ وأن يجد فيه مادة ثرةً وشعراً يستحق الوقوف عنده لاستلهاً ما فيه من عظات وعبر.

أشكر الأستاذ الدكتور طاهر حجار على هذا الجهد الوافر الذي بذله في تأليف الكتاب وأرجو له دوام التوفيق.

والله ولي التوفيق

عبدالعزیز سعود الباطین

الكويت في ١٨/٧/١٤٣٥ هـ

الموافق ١٧/٥/٢٠١٤ م

إِلَى رُوحِي وَالِدِي الطَّاهِرِينَ
تَغَمَّدَهُمَا اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ



تقديم

لا تهتم هذه الدراسة بالسياسة في العصر العباسي، وإنما بانعكاسها على الشعر، وعند الضرورة، بإظهار ما هو دور الشاعر في أحداث عصره. سنلاحظ فيما يأتي من الفصول أنه من المستحيل أن نحدد صورة للشاعر السياسي عندما نعلم أن الجميع كان يتعاطى الشعر بدءاً بالخلفاء أنفسهم. ولذلك فشعراؤنا هم ملوك ووزراء وقادة عسكريون وقضاة وموظفون وشعراء إلخ. ونلاحظ كذلك في هذا المجال أن الشعر السياسي لم يستطع أن يكون أبداً غرضاً شعرياً مستقلاً بذاته. إنه مبعوث في الأغراض التقليدية، خاصة في المدح والهجاء والثناء. ويحدث أحياناً أن نجد بعض الشعراء أمثال مروان بن أبي حفصة، ودعبل الخزاعي، وعلي ابن بسام يهتمون بوضوح، وبقصد، بقضايا عصرهم دون أن يعني ذلك أنهم يمثلون حركة أدبية محددة. ولذلك فخصائص الشعر السياسي لا تختلف في شيء عن خصائص الشعر العباسي بوجه عام.

انطلاقاً من هذا الواقع فإن مصادرنا هي نفسها المستعملة في دراسة العصر العباسي كالدواوين الشعرية، وكتب الأدب، والتاريخ، والجغرافيا، والكتب الدينية، والمعاجم اللغوية، وكتب السير والأعلام، مع إضافة الدراسات الحديثة التي تهتم بالتاريخ العام لهذه الفترة ومؤسساتها إلخ.

وأمام قلة الوثائق المتخصصة في الشعر السياسي من جهة، وعدم دقة المصادر العربية من جهة ثانية، فإن الطريقة التي تفرض نفسها علينا هي القيام بتجميع ما هو مؤتلف، وإلغاء ما هو مختلف. إن العناوين المسجوعة والفضفاضة للمؤلفات

العربية القديمة كثيراً ما توهم القارئ كما هو معروف، إذ يحدث أن نطلع على عدد كبير منها ولا نجني في النهاية إلا النزر اليسير من المعلومات. ومن ثم، قمنا في مرحلة أولى، بجمع أكبر عدد من النصوص الشعرية ذات الطابع السياسي بهدف استخراج أهم القضايا التي كانت تشغل بال الشاعر في تلك الأوقات. وفي مرحلة ثانية، لجأنا إلى «كتب التاريخ والسير» لإيضاح هذه القضية أو تلك.

وقد استفدنا كثيراً من الأبحاث الحديثة في تحديد إطار العصر الذي ندرسه في مجالات السياسة والدين والنظم والاقتصاد والاجتماع.

لسنا في حاجة إلى القول إن اهتمامنا انصب في الدرجة الأولى على الشعراء والكتاب المعاصرين لتلك الحقبة نظراً لقيمة شعرهم أو أقوالهم، لكن دون أن ننق فيها ثقة مطلقة، لأن صلتهم كانت مباشرة بتلك الأحداث التي تهمنا، فمثلاً شعر بعض الحركات الثورية مثل الخوارج والقرامطة والبابكية وغيرهم كثيراً ما حرفه خصومهم الذين كانوا في أغلب الأحيان هم رواة الوحيدون.

أما دواوين الشعر التي هي مصدرنا الأساس فليست واضحة في أغلب الحالات، دون أن ننسى أن عدداً كبيراً منها لم يحقق أو يجمع أو يطبع بعد. ولذلك كان علينا أن نبحث عن نصوص أكثر وضوحاً في كتب الأدب التي كانت تربط تلك النصوص بأحداث بعينها. وهذا ما دفعنا في أحيان كثيرة إلى استعمال نصوص تنسب لمؤلفين مجهولين وتمس موضوعنا من قريب أو من بعيد عندما ترتبط بأشخاص محددين أو بأحداث بعينها.

إن اختيارنا لهذه الحقبة الزمنية التي تغطي قرنين كاملين ناتج عن كونها تمثل جانبين مختلفين بل متناقضين. يمتد العصر العباسي الأول من خلافة السفاح إلى خلافة المتوكل (١٣٢-٢٤٧هـ / ٧٥٠-٨٦١م)، وهو يمثل العصر الذهبي للعباسيين حيث كان الخلفاء هم الأسياد والحكام المطلقون وحدهم. ويمتد العصر الثاني من

خلافة المنتصر إلى خلافة المستكفي (٢٤٧-٣٣٤هـ/٨٦١-٩٤٦م). وهذا العصر يجسد الفوضى وضعف حكمهم حيث تحولوا إلى دمي في أيدي القادة العسكريين. كان الشعر والشعراء موجودين في العهدين إما كمداحين أو وعاظ، أو كإعلاميين ودعاة، أو كمحرضين وخصوم. وتجدر الملاحظة هنا أن هذا الشعر الملتزم في أغلبه كثيراً ما كان يضحى بالجانب الجمالي لصالح الفكرة والحجة.

وقد كان للمعارضة أيضاً شعرها وشعراؤها، فكثير من الحركات رأت النور في هذه الحقبة التي ندرسها، بينما واصلت حركات أخرى نضالها الذي ظهر منذ عهد الأمويين. لقد ورث العباسيون عن أسلافهم إمبراطورية شاسعة لكنهم لم يستطيعوا الحفاظ على وحدة دولتهم التي بدأت تتجزأ شيئاً فشيئاً، الأمر الذي سمح بظهور عدة دويلات سوف تبدأ بمهاجمة السلطة المركزية نفسها ببغداد.

من جهة أخرى أصبح المجتمع العباسي في حالة حراك وغلجان كبيرين مما سمح بظهور حركات متنوعة في جميع الميادين، وكان الشعر هنا أيضاً حاضراً.

فرض علينا هذا المشهد نوع المقاربة التي عالجت بها هذا الموضوع، وذلك على الشكل التالي: نظراً لكون القضية الأكثر إلحاحاً والتي كانت سبباً في وجود أغلب الحركات والأحزاب في تلك الحقبة هي قضية الخلافة والإمامة فقد رأينا لزاماً أن نرجع على هذا الموضوع في التمهيد والمشكلات المتعلقة به، وأن نتحدث عن مفهوم السلطة في الفكر الإسلامي، وعن الفوارق العامة بين الفرق والمذاهب المتصارعة بسببها.

انطلاقاً من تلك المعاينة، قسمنا هذا البحث إلى خمسة فصول لمحاولة الإحاطة بمختلف الجوانب المتعلقة بالسلطة فكان أن أفردنا للخلفاء العباسيين الفصل الأول بدءاً بتنظيم الدعوة العباسية، والحرب التي خاضوها ضد الأمويين حتى إبادتهم وإبعادهم نهائياً عن السلطة؛ والصراع الذي خاضوه فيما بعد ضد

بني عمهم الطالبيين. ثم ترسيخ نظامهم الجديد بكل ما يتبع ذلك من أمور الدولة المختلفة. ثم الصعوبات المختلفة التي واجهتهم كتسلط الجند عليهم والصراع الداخلي فيما بينهم. وتبعاً لذلك خصصنا الفصل الثاني لرجال الدولة المختلفين الذي كانت لهم سطوة في ذلك العصر كالوزراء ضباط الجيش والقضاة وباقي الموظفين الساميين. وكان لا بد من الحديث في فصل ثالث عن العلاقات الخارجية للدولة العباسية بجيرانها في الحرب وفي السلم. وتكتمل الصورة بالحديث في فصل رابع عن المعارضة التي كانت متنوعة بأصولها وبأهدافها. وهكذا نجد معارضة مذهبية أو دينية ممثلة في حركات الشيعة والخوارج والقرامطة، كما نجد معارضة أخرى شعبية تهدف إلى تحقيق عيش أفضل في كنف العدالة والرفاه. كل هذه الفصول الأربعة كانت مطعمة بشعر الشعراء الذين أدلوا بدلوهم في كل ما يتعلق بالدولة العباسية بمختلف مناحيها. ولكي تكمل الصورة كان لا بد من الحديث في فصل خامس وأخير عن شاعر البلاط بصفة عامة في موقعه في البلاط العباسي ومساره ومعاناته ومواقفه. وخصصنا خاتمة القول للقيمة التوثيقية للشعر السياسي العباسي.

إن بحثنا المقدم والمنجز بهذه الطريقة يحاول الإجابة على بعض الأسئلة التي ما زالت غامضة في الأدب العربي القديم، خاصة في الشعر الذي يحصر عادة في الأغراض التقليدية؛ فهو إذن يحاول أن يخرج قليلاً عن المألوف ويتناول موضوعاً نرى أنه مهم جداً، وأن هذا البحث يريد أن يفتح الطريق أمام كل من يريد أن يتعمق أكثر في الجوانب التي تطرقنا لها. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

والله المستعان

الجزائر في ١٠ ديسمبر ٢٠١٣

التمهيد

الخلافة أو السلطة في الفكر الإسلامي

إن ضرورة الاجتماع فكرة بديهية ليست أبداً في حاجة إلى دليل، فقد صار واضحاً أن الإنسان لا يستطيع أن يلبي حاجاته كلها بمفرده، بل لا بد له من الاستعانة بغيره من بني جنسه. وهذا الاجتماع الحتمي لبني الإنسان، كما هو معلوم، يجعل مصالحهم تتعارض، وقد تتناقض أحياناً، فاضطرهم ذلك إلى إيجاد حل يتمثل في السلطة أو الحاكم الذي «يدفع الظالم عن المظلوم والقوي عن الضعيف»^(١)، ولذلك قيل: «لا بد من سلطان في كل زمان ليعمل بالعدل والإحسان وينهى عن البغي والعدوان»^(٢).

وقد سبق الجاحظ إلى هذه الفكرة بقوله: «الناس يتظالمون فيما بينهم بالشره والحرص المركب في أخلاقهم، فكذاك احتاجوا إلى الحكام»^(٣). وقد صاغ عبدالله بن المبارك، الشاعر العباسي، هذه الفكرة شعراً بقوله: (من البسيط)

كَمْ يَرْفَعُ اللَّهُ بِالسُّلْطَانِ مَظْلَمَةً
فِي دِينِنَا رَحْمَةً مِنْهُ وَدُنْيَانَا
لَوْلَا الْخَلِيفَةُ لَمْ تَأْمَنْ لَنَا سُبُلٌ
وَكَانَ أَضْعَفْنَا نَهْباً لِأَقْوَانَا^(٤)

(١) الخوارزمي: كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم، ص: ١٤٦، المطبعة العلمية، القاهرة، ١٣١٠هـ: ابن أبي الربيع، أحمد بن محمد (٢٧٢هـ/٨٨٥م): سلوك المالك في تدبير الممالك، ص: ١٣٠-١٣٧، تح. ناجي التكريتي، تراث عويدات، باريس - بيروت، ١٩٧٨.

(٢) الخوارزمي: نفسه، ١٤٧؛ ابن خلدون: المقدمة: ٣٣٢-٣٣٣.

(٣) منقول عن محمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم، ص: ٣١٥-٣١٦، ط ٢، بيروت، ١٩٧٩.

(٤) ابن الأزرقي، أبو عبد الله محمد بن علي (٨٩٦هـ/١٤٩١م): بدائع السلك في طبائع الملك، ١/١٢٩، تح. محمد بن عبد الكريم، تونس وطرابلس، ١٩٧٧.

وهذا الاجتماع الذي تفرض عليه مصالحه أن ينشئ سلطة لرعاية تلك المصالح هو ما يسميه أرسطوطاليس بالاجتماع السياسي، لأن كل دولة هي بالبدية اجتماع^(١). «ولا تمثل الدولة ألبتة قوة مفروضة من الخارج، وليست هي أيضاً حقيقة الفكرة الأخلاقية»^(٢) أو صورة العقل وواقعه^(٣) كما يزعم هيغل.

الدولة هي نتاج المجتمع ومرحلة من مراحل تطوره، وهي تشكل الاعتراف بأن هذا المجتمع قد انغمس في تناقض لا يحل تلقائياً، وأنه ينقسم على نفسه في صراعات لا يمكن التوفيق بينها، وهو عاجز عن الخلاص منها. وحتى لا تتوَل هذه الصراعات بتلك الطبقات إلى إفناء بعضها البعض وإفناء المجتمع بنضال عقيم، أصبح من الضروري وجود قوة تبدو ظاهراً فوق المجتمع، من شأنها أن تخفف من غلواء الصراع وتبقيه في حدود النظام؛ هذه القوة هي التي انبعثت عن المجتمع، والتي تضع نفسها فوقه، وتزداد تبعاً تناهياً عنه، هي الدولة^(٤).

وتحتاج الدولة، بطبيعة الحال، إلى قوانين ترعى بها مصالح الناس ومصالحها. وهنا جاء دور الدين لكي يزيد من قوة تلك القوانين ويجعلها مقدسة، لأنه جاء أصلاً لخدمة الإنسان. والدين في حد ذاته عبارة عن قوانين تتمثل في النواهي والضوابط التي يقنن بها حياة المجتمع، وهو «يصلح سرائر القلوب، ويمنع ارتكاب الذنوب...ويدعو إلى الألفة والتعاطف، وهذه قواعد لا تصلح الدنيا إلا بها ولا يستقيم الخلق إلا عليها، وإنما السلطة زمام لحفظها، وباعث على العمل بها»^(٥)

(١) أرسطو طاليس: السياسة، ص: ٩١، ترجمة لطفي السيد، دار الكتب، القاهرة، ١٩٤٧؛ إحصان سركريس: الأدب والدولة، ص: ٧٠؛ دار الطليعة، الطبعة الأولى، ٥/ بيروت، ١٩٧٧.

(٢) إحصان سركريس: نفسه، ٧٠.

(٣) نفسه.

(٤) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (٤٥٠هـ/١٠٥٨م): في سياسة الملك، ضمن مجلة «الفكر العربي»، ص: ٢٠٨؛ تحقيق رضوان السيد.

(٥) القلقشندي، علي الحسين (٤٣٦هـ/١٠٤٤م): مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ١/ ٨-٩، تح. أحمد فراج، الكويت، ١٩٤٦.

ثم سيطر الدين سيطرة تامة في تلك العصور على الحياة الروحية والاجتماعية والسياسية لتلك المجتمعات. ولم تشذ الدولة الإسلامية طبعاً عن هذه القاعدة، فقد عرفت هي الأخرى نمطاً سياسياً مرتكزاً على الدين ارتكازاً قوياً. وقد عرف هذا النظام السياسي أو تلك المؤسسة السياسية الإسلامية بالخلافة أو الإمامة أو السلطة تبعاً للظروف التي كانت تمر بها تلك الدولة. ولذا فمن الواجب التعريف بهذه المؤسسة.

الخلافة هي الزعامة العظمى، وهي الولاية العامة على كافة الأمة والقيام بأمرها والنهوض بأعبائها^(١)، وهي كما يقول ابن خلدون «خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»^(٢). ويوافق هذا الرأي ابن الأزرقي فيرى أن «المراد بها وبالإمامة راجع إلى النيابة عن الشارع في حفظ الدين وسياسة الدنيا به»^(٣)، وهي أيضاً «منصب رئاسة الدولة الإسلامية». وكما هو ظاهر، فهي وظيفة سياسية ترتكز على الدين في نظر المفكرين القدامى، لأن الذي يتولاها ينوب عن الشارع أي الله في تسيير أمور البشر السياسية والدينية، فليس هناك فصل إذاً بين هاتين الوظيفتين في نظرهم.

وقد نشأ هذا المصطلح بمفهومه الديني والسياسي بعد وفاة الرسول ﷺ حين بويع أبوبكر الصديق ليخلفه فسمي خليفة رسول الله وسميت المؤسسة التي يتولى أمرها الخلافة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخلفاء الراشدين لم يسموا خلفاء الله بل خلفاء الرسول، وهذا الفرق سيتضح فيما بعد عندما تتطور تلك المؤسسة ويكتسب هذا المصطلح مدلولات جديدة.

(١) ابن خلدون، ولي الدين أبوزيد عبدالرحمن بن محمد (٨٠٤هـ/١٤٠٦م): المقدمة، ١/٣٨٨؛ تحقيق علي عبدالواحد وافي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٦ دون: المقدمة، ١/٣٣٨.

(٢) ابن الأزرقي: نفسه، ١/١١٠.

(٣) منير العجلاني: عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ٨٠؛ مطبعة النضال، دمشق، د.ت.

وقد استعمل لقب الخليفة بعد وفاة الرسول بمعناه اللغوي المباشر، أي أن أحداً يخلف آخر في أمر ما فيقوم بما كان يقوم به لا غير، ولم تصطبغ بتلك الصبغة السياسية إلا فيما بعد .

وإذا عدنا إلى القرآن الكريم نجد أن هذا المصطلح ومشتقاته قد ورد في عدة آيات منها: ﴿يَا دَاوُدُ، إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١). وجاء في القرآن أيضا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَسَى رِيبًا أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمُ فِي الْأَرْضِ خَوْفَهُمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾^(٢). وورد في القرآن كذلك قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ خِلَافًا﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمُ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٤)، أو قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءَ يُدْهِبِكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ بِعَدْلِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾^(٥).

وكما هو واضح فإن هذه الأمثلة لا تدل على أن المقصود بها تلك الوظيفة التي عرفها المسلمون تحت هذا المصطلح بل فقط تدل على تمييز الأرض بالبشر. أما في الحديث فقد جاء ما يلي: «عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فتكثر. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: بيعة الأول فالأول، واعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»^(٦).

(١) سورة ص، آية ٢٦ .

(٢) سورة النور، آية ٥٥ .

(٣) سورة الأنعام، آية ١٦٧؛ وسورة فاطر، آية ٢٩ .

(٤) سورة الأعراف، آية ١٢٨ .

(٥) سورة الأنعام، آية ١٣٤ .

(٦) مسلم، أبوالحسين الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ/٨٢٢-٨٧٥م): صحيح مسلم، الجزء الثاني، حديث رقم ١٨٤٢؛ تحقيق أبوقتيبة نظر بن محمد الفريابي، دار طيبة، ٢٠٠٦ .

وهذا الحديث يشير أولاً إلى الفرق بين نظام الحكم عند الأوائل، ولكل خليفة أن يخلفه آخر عند الأخيرين. وعرف لهذه المؤسسة مصطلح ثان هو «الإمامة» الذي يستمد معناه من الاستعمال اللغوي لهذه اللفظة، فهي في لسان العرب: «أُمَّ الْقَوْمِ وَأُمَّ بِهِمْ تَقَدَّمَهُمْ، وهي الإمامة، والإمام كل من ائتم به قوم كانوا على صراط مستقيم أو كانوا ضالين»^(١). ويقول ابن سيده: «والإمام ما ائتم به من رئيس وغيره، والجمع أئمة»^(٢). وعند الجوهري: «الإمام الذي يقتدى به، وإمام كل شيء قيمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين، وسيدنا محمد ﷺ إمام الأئمة، والخليفة إمام الرعية، وإمام الجند قائدهم»^(٣).

والإمام لا يدل دائماً على شيء إيجابي إذ نجد في القرآن الكريم: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾^(٤)، وكذلك ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾^(٥). كما نرى، فإن لفظه «إمام» في اللغة العربية تعني الزعيم والقائد الذي يتزعم جماعة ما ولكنه تطور بعد مجيء الإسلام، ثم إنه لم يستعمل بذلك المفهوم حتى في صدر الإسلام، كما يقول القاضي عبد الجبار: «ولذلك لم يُرَوَّ عن الصحابة ذكر الإمامة وإنما كانوا يذكرون الأمير والخليفة، ولذلك قالوا يوم السقيفة: منا أمير ومنكم أمير، وقالوا لأبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، ولعلي «أمير المؤمنين»، ولم يصفوا أحداً منهم بالإمام»^(٦).

-
- (١) ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم: (٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، مادة «أُمَّم»؛ دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٩٦٨.
- (٢) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (٤٥٨هـ/١٠٦٦م): المخصص، مادة «أُمَّم»؛ المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٦هـ. ١٣٢١هـ.
- (٣) الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (٣٩٣هـ/١٠٠٣م): الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) مادة «أُمَّم»؛ تحقيق عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤.
- (٤) القرآن: سورة التوبة، آية ١٢.
- (٥) القرآن: سورة القصص، آية ٤١.
- (٦) القاضي عبد الجبار بن أحمد الأسعد آبادي (٤١٥هـ/١٠٢٥م): المغني في أبواب العدل والتوحيد، ج ١ قسم ١ ص: ١٢، القاهرة، د.ت.

ويرى بعضهم أن لقب الإمام لم يستعمل إلا في العصر العباسي بالعراق، وأن الشيعة هم الذين أنشأوه^(١). أما في الاصطلاح السياسي فقد أصبحت لفظة «إمامة» مرادفة للفظ «خلافة» لأن «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»^(٢)، أو هي «خلافة شخص لرسول الله ﷺ في إقامة الشرع وحفظ الملة على وجه يوجب اتباعه جميع الناس»^(٣). وهذا المصطلح مرتبط بالشيعة، والإمامية منهم بالذات هم الذين آثروا استخدام مصطلحي الإمام والإمامة في هذا المبحث^(٤). والدليل على ذلك أن أول من لقب بهذا اللقب هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم تلقب به العباسيون والفاطميون من بعده^(٥). كل ذلك لأن الشيعة يعتقدون أن «الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها»^(٦) على غرار الأصول الأخرى كالتوحيد مثلاً بعكس المذاهب الأخرى التي لا تجعلها أصلاً. وهذا لا يعني أبداً أن المذاهب الأخرى لم تستعمل المصطلح، فالسنة يستعملونه عادة في مسائل الدين تماشياً مع ما في القرآن الكريم، فقد قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^(٧) وهنا معناه الطريق الواضح؛ أو قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^(٨) وهنا معناه اللوح المحفوظ.

ولا فرق عند الباحثين بين مصطلحي «إمامة» و«خلافة»، فكما يقول البيضاوي: «الإمامة عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول ﷺ في إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة، على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة»^(٩). وأما ابن

(١) محمد عمارة: السابق، ٢٢.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص: ٣، القاهرة، د.ت.

(٣) ابن الأزرق: نفسه، ١/١٢٠.

(٤) محمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم، ٢٦.

(٥) منير العجلاني: نفسه، ٨١.

(٦) الشيخ محمد رضا المظفر: عقائد الإمامية، ص: ١٠٢، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٣٥.

(٧) سورة الحجر، آية ٧٩.

(٨) سورة يس، آية ١١.

(٩) الشيخ علي عبدالرازق: الإسلام وأصول الحكم، ص: ١١٢؛ تحقيق محمد عمارة، بيروت، ١٩٧٢.

خلدون فإنه يعطي تفاصيل أخرى لهذا الترادف فيقول: «إنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به، تسمى خلافة وإمامة، والقائم به خليفة وإماماً؛ فأما تسميته إماماً تشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاقتران به، ولهذا يقال الإمامة الكبرى، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته»^(١).

كان لقضية الخلافة بالذات شأن كبير في تاريخ الإسلام، فقد حدثت بسببها اختلافات كثيرة لم يكتف المتنازعون فيها بالحوار والجدل بل تجاوزوه ولجأوا في أغلب الأحيان إلى السيف لحل ذلك النزاع. وهذا الشهرستاني يقول بصدده: «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان»^(٢). ولهذا، فلا عجب أن تنشأ الفرق في الإسلام انطلاقاً من هذه القضية بالذات. وكما لاحظ عدد من الباحثين، فإن نشأتها كانت نشأة سياسية لأنها كانت تبحث جميعها عن الطرق التي تظنها سليمة لإقامة حكم معين على رأسه حاكم يعين وفق طرق محددة، ويتمتع بصفات معينة. والمتفق عليه بين الفرق الإسلامية جميعاً هو أن الحكم، أي حكم، لا بد أن يكون في خدمة الدين والرعية معاً، بل هم يرون ذلك انطلاقاً من اقتناعهم بضرورة وجود نظام يحافظ على أمن المواطنين ويرعى مصالحهم لعلمهم أن الدين وحده لا يكفي. لذلك يقول الخوارزمي: «..ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن، ولله حارسان في الأرض وفي السماء يحرسان الخلائف، فحارسه في السماء الملائكة، وحارسه في الأرض الملوك»^(٣).

قلنا إن قضايا الصراع على السلطة لدى المسلمين كانت هي مصدر تكوين الفرق والأحزاب السياسية في الإسلام^(٤). والملاحظ كذلك أن هذا الاختلاف في

(١) ابن خلدون: المقدمة، ٢٣٩/١؛ محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ٢٦/١، دار الفكر العربي، د.ت.

(٢) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ/١١٥٣م): الملل والنحل، ٢١/١-٢٢: القاهرة، ١٣١٧ هـ.

(٣) الخوارزمي: السابق، ص: ١٤٦.

(٤) محمد عمارة: السابق، ص: ١٣٣.

الآراء حول السلطة العليا في الدولة كان مستمراً لا ينقطع أبداً^(١). وإذا علمنا أن عدد الفرق الإسلامية قد بلغ ثلاثاً وسبعين فرقة كما تذكر أغلب المصادر أدركنا مدى الخلاف الهائل الذي حدث فيما بينهم، والذي يمكن تلخيصه في ثلاثة أمور هي:

- أولاً: إقامة خليفة واحد أو خليفتين أو أكثر.
- ثانياً: جواز ارتكابه المعاصي أو عدم جوازه قط.
- ثالثاً: أن يكون من قريش دون غيرها أو جواز أن يكون من غيرها^(٢).

ويمكن أن نضيف أمراً آخر وهو وجوب الخلافة أو عدم وجوبها، أو ضرورة وجود سلطة أو عدم وجودها أصلاً، وإن كان الجمهور الأكبر من هذه الفرق متفقاً على وجوبها، فمن ذلك أن نصب الإمام قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين^(٣). ويضيف ابن خلدون، تمشيماً مع نظريته، أن هذا الوجوب عقلي لضرورة الاجتماع البشري وما ينتج عنه من ازدحام المصالح التي تتسبب في خلق نظام يحافظ على حقوق البشر^(٤). وأما الفرق الإسلامية التي جاهرت بالوجوب فهي جميع أهل السنة وجميع الشيعة وجميع الخوارج^(٥). والذين نادوا بعدم وجوبه لا شرعاً ولا عقلاً لم يكونوا فرقةً وإنما كانوا أفراداً مثل الأصم من المعتزلة، وبعض الخوارج^(٦). وأصحاب هذا الرأي لا ينادون بهذا إلا بشرط أن يتعاطى الناس الحق فيما بينهم وأن يتفقوا على إقامة العدل، ففي مثل هذه الحال لا يحتاج إلى إمام ولا إلى سلطة^(٧).

(١) الأشعري، أبوخلف سعد بن عبدالله (٣١٠ هـ/٩١٨م): المقالات والفرق، ص: ٢؛ تحقيق محمد جواد شكور، طهران، ١٩٦٣؛ النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى (٣٠٠ هـ/٩١٢م): فرق الشيعة، ص: ٢٣، المطبعة الجديدة، النجف، ١٩٥٩.

(٢) محمد أبو زهرة: نفسه.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ١/٣٣٩.

(٤) نفسه، ١/٣٣٤.

(٥) ابن حزم، أبو محمد علي بن محمد (٤٥٦ هـ/١٠٦٤م): الفصل في الملل والنحل، ٤/٨٧؛ المطبعة الرحمانية، ط١، القاهرة، ١٣١٧ هـ.

(٦) ابن خلدون: السابق، ١/٣٤٠-٣٤١.

(٧) ابن حزم: نفسه، ٤/٤٧؛ ابن خلدون: نفسه، ١/٣٤٠-٣٤١.

ولعل المدافعين الأشداء على وجوب الإمامة هم الشيعة لكونها أصلاً عندهم سواء أرضي الآخرون بذلك أم لم يرضوا، وسواء أكان هذا الإمام غائباً أم حاضراً^(١). وهي واجبة في نظرهم كالنبوة «فالأرض لا تخلو من نبي أو إمام في كل زمان ما دام التكليف»^(٢)، «فمن مات ولم يعرف الإمام مات ميتة جاهلية»^(٣).

والآن بعد أن عرفنا موقف الفرق الإسلامية من وجوب الإمامة أو عدم وجوبها، نأتي إلى الذين ينادون بوجوبها: كيف يرون ذلك؟ هناك موقفان متعارضان، وموقف ثالث توفيقي يحاول أن يقلص الخلاف بينهما، وهما موقفا الشيعة والخوارج كموقفين متناقضين، وموقف السنة كحل وسط وإن كان أقرب إلى الشيعة منه إلى الخوارج.

من المعروف أن الرسول ﷺ ترك هذه الدنيا ولم يستخلف على دينه وعلى دولته من يقوم مقامه فيها. ومن هنا تعددت الآراء فيمن يخلفه؟ ومن أية جهة يكون؟ لذلك السبب، ظهرت مع مرور الزمن ثلاثة اتجاهات أولها يرجع هذا الأمر إلى القرابة أي أن الخليفة يكون من قريش لأسباب منها أن قريشاً كانت في ذلك الوقت تتزعم القبائل العربية نظراً لنفوذها التجاري والديني، ولأنها كانت قبيلة تحتكم إليها القبائل الأخرى. وهذا الوضع ناجم عن ظروف تاريخية معروفة بالإضافة إلى أن مكة كانت مركز دياناتهم المتعددة. خاصة أن الرسول ﷺ، هذا الذي أنشأ هذه الدولة، كان منهم أي من قريش، على الرغم من الخلافات التي كانت بينه وبينهم في أول دعوته وأمره. ثاني هذه الاتجاهات يحصر الخلافة في ورثته المباشرين. ولأنه لم يترك وريثاً ذكراً فقد عاد الأمر، في نظرهم، إلى نسل فاطمة الزهراء ابنته وزوج ابن عمه علي بن أبي طالب. وهذا الاتجاه يركز على

(١) محمد رضا المظفر: نفسه، ١٠٢.

(٢) محمد بن حسن العاملي: الفصول المهمة في أصول الأئمة، ص: ١٤٠، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٧٨ هـ.

(٣) النوبختي: السابق، ص: ٢٨.

مبدأ الحق الإلهي الذي اختار، في رأيهم، هذه السلالة لتحكم المسلمين. أما الاتجاه الثالث فهو الأكثر ديمقراطية لأنه يرجع هذا الأمر إلى الشعب أي الرعية. وفي رأيهم أن الشعب يجب أن يختار الرجل المناسب ليتولى أمر الرئاسة بين المسلمين دون تحديد القبيلة التي ينتمي إليها. وهم لا يستبعدون أن يكون من قريش كما لا يستبعدون ألا يكون عربياً أصلاً، فالمهم في نظرهم أن يكون مسلماً تتوفر فيه الشروط المطلوبة لتولي المنصب.

أما أهل الشيعة فهم متفقون جميعاً على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، وهذا الإمام يكون معصوماً من الكبائر والصغائر^(١)؛ ولا يحق للبشر، في نظرهم، اختيار إمام بل لا بد فيه من نص سابق^(٢). وأما هذا النص فهو ما أشرنا إليه أن هذا الفريق يركز على فكرة الحق الإلهي. ولا داعي لذكر اختلافات الشيعة المتفرعة عن هذه القضية.

أما الخوارج فهم على عكس الشيعة لا يستندون في وجوب الإمامة على الحق الإلهي أو النص، وهي عندهم بهذا الوصف «لا يمكن أن تخضع لنظام وراثي ولا أن ترتبط بجنس أو قبيلة أو أسرة أو لون وإنما يجب أن يشترط فيها الكفاءة المطلقة: الكفاءة الدينية والكفاءة الخلقية والكفاءة العلمية والكفاءة العقلية»^(٣). وكل الخوارج متفقون على أن الإمامة «تصلح في أفناء الناس كلهم من كان منهم قائماً بالكتاب والسنة، عالمًا بهما»^(٤). ولم يشذ منهم عن هذا الرأي إلا النجدية الذين يرون أن

(١) ابن خلدون: السابق، ٣٤٨/١.

(٢) محمد بن حسن العاملي: السابق، ١٤٢.

(٣) علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ٦٢/١، القسم الأول، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٤.

(٤) النوبختي: السابق، ص: ٣١.

«الأمّة غير محتاجة إلى إمام أو غيره، وأن علينا وعلى الناس، أن نقيم كتاب الله عز وجل فيما بيننا»^(١).

وأما المرجئة، وهم فرقة نشأت أيضاً بسبب الخلاف حول الخلافة، فإنهم يجعلونها لا تصلح إلا في قريش دون تحديد للفرع الذي يجب أن يتولاها، والشروط هو «كل من دعا منهم إلى الكتاب والسنة والعمل بالعدل وجبت إمامته ووجب الخروج معه»^(٢).

والآن وقد تجاوزنا النسب والحق الإلهي، ما هي الشروط التي يجب أن تتوفر في شخص حتى يصبح خليفة في نظر المنظرين المسلمين في هذا المجال؟ هناك طبعاً آراء مختلفة يمكن أن نذكر بعضها، فالخوارزمي مثلاً يجعلها سبعة يجب أن تتوفر جميعها في الشخص الذي يتولى أي سلطة، وإذا اختل واحد منها لم يعد ذلك الشخص يصلح لها، وهي:

١ - حفظ الدين والمذهب.

٢ - حفظ البيضة.

٣ - تقدير الأموال بحسن الجباية.

٤ - مقامات المظالم.

٥ - حفظ عمارة البلدان.

٦ - إقامة الحدود.

٧ - اختيار العمال^(٣).

(١) نفسه، ٣١.

(٢) النوبختي: السابق، ٣٠-٣١.

(٣) الخوارزمي: السابق، ١٤٨.

ولكن يمكن أن نلخصها في أمور أربعة هي:

١- العدل في معاملة الناس وإقامة الحدود.

٢- الدفاع عن الدين.

٣- حسن تسيير الاقتصاد.

٤- الدفاع عن الدولة.

وهذه الشروط عند البغدادي هي «العلم والعدالة والسياسة..»^(١).

وهي عند ابن خلدون «العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء بما يؤثر في الرأي والعمل»^(٢). وأما ابن أبي الربيع فيفصلها أكثر ويجعلها ثلاثة عشر شرطاً هي:

(أن يكون له قدرة على جودة التخيل لكل ما يعمله من أعمال السعادة.

أن يكون صحيح الأعضاء تواتيه على ما يؤيده من أعمال بدنية.

أن يكون جيد الفهم والتصور لما يقال له، عالماً بكتاب الله، عاملاً به.

أن يكون جيد الحفظ لما يراه ويسمعه ولا ينسى ما يدركه من العلم.

أن يكون جيد الفطنة ذكياً إذا رأى على الشيء أدنى دليل فطن إليه.

أن يكون حسن العبارة يواتيه لسانه على إبانة جميع ما في ضميره.

أن يكون محباً للتعلم والاستفادة منقاداً سهل القبول لا يؤلمه التعلم.

أن يكون محباً للصدق وأهله، كارهاً للكذب وأهله، طبعاً لا تكلفاً.

(١) البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر (٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م): الفرق بين الفرق، ص: ٣٤٩؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الموفى، القاهرة، د.ت.

(٢) العاملي محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج٤ قسم ٢ ص: ١٣٩، الطبعة الأولى، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٥

أن يكون غير شره على الشهوات مبعوضاً لما ساءت عاقبته من اللذات.
أن يكون كبير النفس، محباً للكرامة، يفظم نفسه عن كل ما يشين من الأمور.
أن يكون محباً للعدل والصدق وأهلهما، مبعوضاً للجور والكذب وأهلهما،
منصفاً من نفسه.
أن يكون قوي العزيمة على ما ينبغي، غير خائف من الموت ولا ضعيف النفس.
أن يهون عنده الدينار والدرهم وسائر الأغراض الدنيوية الفانية^(١).
يلاحظ أن هذه الصفات هي صفات الحاكم المثالي الذي تمنى المنظرون أن
يحكم المسلمين.

وهنا لا بد من الإشارة ولو قليلاً إلى رأي القرآن في الحكم إذ هناك بعض
الآيات استمد منها المسلمون مفهومهم للحكم. نجد فيها ثلاثة أصول هي العدالة
والشورى والطاعة لأولي الأمر^(٢)، فالشورى هي الطريقة التي يتم بها تنصيب
ال خليفة أو الإمام، وإن كانت مجموعة من المسلمين ترفض هذا المبدأ، وهم الشيعة
الذين يرون أن التعيين يحدث من الله والرسول في شخص الإمام أو في صفاته
وقد يكون هذا النص جلياً أو خفياً^(٣). والملاحظ أنهم اختلفوا حول الإمام المعين
بنص بعد علي كرم الله وجهه^(٤). وهذا ما يعود بنا إلى الاتجاهين اللذين ذكرناهما
في هذا الشأن، أحدهما القول «بأن الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار، والثاني القول
بأن الإمامة تثبت بالنص والتعيين»^(٥).

(١) ابن أبي الربيع: السابق، ص: ٥٥-٥٦.

(٢) أحمد كمال أبوالمجد: الشورى والديمقراطية في الإسلام، ضمن «مجلة العربي»، عدد أبريل ١٩٨٠، ص: ١٦.

(٣) محمد عمارة: السابق، ص: ٣٣٥.

(٤) الشهرستاني: السابق، ١/٢٨.

(٥) نفسه، ١/٢٧.

ولو تساءلنا: من يقوم بهذا الاختيار أو الاتفاق لوجدنا «الخاصة» هم الذين يقومون بذلك دون «العامة»، وهم «أهل الحل والعقد»^(١). والملاحظ أن هؤلاء الخاصة لا يميزهم أصل عرقي أو قبلي، ولا وضع طبقي أو مركز مالي، وإنما يشترط فيهم الكفاءة العلمية في الميدانين السياسي والديني^(٢). وعلى هذا الأساس لا يتم التنصيب إلا بالبيعة، وهي «العهد على الطاعة، كأن المبايع يبايع أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمر المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر»^(٣). ويقال إن أول من عقد البيعة لغيره هو أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب. وعقد معاوية البيعة ليزيد ابنه^(٤). ولليعة شروط لا داعي لذكرها لأنها ليست مهمة في حد ذاتها كتقبيل اليد وعدد المبايعين^(٥)، ولكن أهم شروطها أن تكون بالرضى وليس بالإكراه.

وكانت هذه العملية تتم بطريقتين: الأولى أن يعين الخليفة وليا للعهد فيبايعه أهل الحل والعقد، وهي عملية كانت ضرورية لجعل الولاية بالعهد شرعية؛ والثانية أن يموت الخليفة دون أن يترك وليا للعهد فيلجأ أهل الحل والعقد حينئذٍ للاختيار^(٦). ولكن نجد أصواتاً ترفض هذه الطريقة كالأصم الذي يجعل اختيار الخليفة من مهام العامة لا الخاصة، فهو يقول: «الإمامة لا تتعقد إلا بجمع الأمة عن بكرة أبيهم»^(٧). هو إذاً يدعو إلى الانتخاب العام لرئيس الدولة الإسلامية، وإن كانت هذه العملية في ذلك العصر تتطلب وقتاً كبيراً ومجهوداً أكبر نظراً لعدم توفر

(١) القلقشندي: السابق، ٣٩/١.

(٢) محمد عمارة: السابق، ٤٣٤.

(٣) ابن خلدون: السابق، ٣٧/١.

(٤) الراغب الإصبهاني، أبو القاسم حسين بن محمد (٥٠٢ هـ/١١٠٨ م): محاضرات الأدباء ومحاولات الشعراء

البلغاء، ١/١٦٢: المطبعة الشريفة، د.ت.

(٥) ابن الأزرق: السابق، ١/١١١-١١٢.

(٦) الماوردي: الأحكام السلطانية، ٤-٥.

(٧) محمد عمارة: نفسه، ٤٣٢.

الوسائل التقنية للقيام بذلك في وقت قصير. هو إذاً ينادي بالإجماع العام لكي تتعدد الإمامة؛ ويوافق في هذا الشيخ محمد عبده الذي تستند سلطة الحكم عنده إلى الشعب، وتستمد من عقد البيعة وحده لأنه يرى ما يسمى بالسلطة الدينية في الإسلام غير موجود بوجه عام^(١).

هذا هو مبدأ الشورى في الإسلام، وهو يختلف عن مبدأ الديمقراطية في الغرب، ذلك أن سلطة الأمة في الديمقراطية الغربية سلطة مطلقة بينما هي في التصور الإسلامي مطلقة في نطاق ومقيدة في نطاق آخر.. «فحينما يوجد النص الشرعي القطعي فلا موضع لاجتهاد فردي أو جماعي إلا أن يكون اجتهاداً في التطبيق وكيفية إنزال حكم القاعدة المعلومة على الوقائع المتجددة والظروف المتغيرة، وهو مجال لا يستهان به»^(٢)... وهذا يتماشى مع مفهوم الإسلام في التشريع عموماً الذي يقوم على «إجمال ما يتغير وتفصيل ما لا يتغير».

اتفقت الفرق الإسلامية كالسنة والمعتزلة والخوارج على أن الإمامة تتعدد ببيعة أهل الحل والعقد، وأن نصب الخليفة فرض كفاية^(٣). ويمكن أن نقول إن هذا المبدأ، أي مبدأ الشورى، قد حافظ عليه الخلفاء ليكسبوا ود الجماهير ولو بطريقة شكلية، فقد مر فعلاً بمراحل متعددة منذ وفاة الرسول ﷺ إذ كان حاسماً في عهد الخلفاء الراشدين في اختيار الخلفاء، وأما بعد ذلك، في العصرين الأموي والعباسي، فقد تحول وأصبح يأتي غالباً لتأكيد أمر واقع، ففي العهد الأموي «ظلت مجموعة من رجالات العرب في دمشق تنتظر استشارتها في مسائل عديدة كتلك التي كان السيد يستشير فيها أشرف قبيلته»^(٤). ثم إن هذا الحفاظ على الانتخاب الصوري للخليفة كان يمكنه من احترام تعاليم الإسلام في نظر الرعية؛

(١) أحمد كمال أبوالمجد: السابق، ١٧.

(٢) أحمد كمال أبوالمجد: نفسه، ١٩.

(٣) محمد رشيد رضا: نفسه، ١١.

(٤) م. وات: الفكر السياسي الإسلامي، ص: ٠١، ترجمة الحديدي، دار الحداثة، ط١، بيروت، ١٩٨١.

ولكن المسيطر في المذاهب في هذا الشأن هم أهل السنة الذين كان الخلفاء ينتمون إليهم^(١). وقد أصر كل الباحثين في هذا الميدان من غير الشيعة على ضرورة الشورى والانتخاب^(٢). وفعلوا ذلك حتى عندما أصبحت الخلافة شكلية لا معنى لها، وأصبح القادة العسكريون الأتراك أو البويهيون أو السلاجقة أو غيرهم من المغامرين هم الحكام الفعليون في العصر العباسي مثلاً. ولعل هذا الإصرار على مبدأ الشورى ناتج عن خوف المسلمين من الحكم الاستبدادي الذي لم يألفوه لا في جاهليتهم ولا في صدر الإسلام لأن «تصرف الواحد في المجموع ممنوع شرعاً»^(٣) كما يقول الشيخ محمد عبده.

إن هذا المسؤول (ال خليفة) المختار بهذه الطريقة (الشورى) وبهذه الصفات ينتظر منه بالمقابل أن يلتزم ببعض الواجبات، وذلك لأن الإسلام قرر مسؤولية رجال الحكم أمام الأمة^(٤). ويمكن أن نستدل على ذلك بالحديث المأثور عن الرسول ﷺ: «إن الله يرضى لكم ويكره لكم ثلاثاً. فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأن تعصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا. ويكره لكم قيل وقال. وكثرة السؤال. وإضاعة المال»^(٥). إن هذه الواجبات المفروضة على من يتولى القيادة العليا في الدولة الإسلامية حددها الماوردي في عشرة أشياء: «أحدها تمكين الرعية من استيطان مساكنهم وادعين، والثاني الخلية بينهم وبين مساكنهم آمنين، والثالث كف الأذى والأيدي الغالبة عنهم، والرابع استعمال العدل والنصفة معهم، والخامس فصل الخصام بين المتنازعين منهم، والسادس حملهم على موجب الشرع في عبادتهم ومعاملاتهم، والسابع إقامة حدود الله تعالى وحقوقه فيهم، والثامن أمن سبلهم ومسالكتهم، والتاسع القيام بمصالحهم في حفظ مياههم وقناطرهم، والعاشر

(١) توماس أرنولد: الخلافة، ص: ٩، ترجمة جميل معلى، دار اليقظة، د.ت.

(٢) نفسه، ١٧.

(٣) أحمد كمال أبوالمجد: نفسه، ١٨٠.

(٤) عبد الوهاب خلاف: السياسة الشرعية ونظام الدولة الإسلامية، ص: ٢٧، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٢٥٠ هـ.

(٥) مسلم: صحيح مسلم، الجزء الثاني، حديث رقم ١٧١٥.

تقديرهم وترتيبهم على أقدارهم ومنازلهم فيما يتميزون به من دين وعمل وكسب وصيانة»^(١). ونجد الفكرة نفسها عند ابن الحداد^(٢).

والملاحظ أن النقطة الأولى هي موقف الإمام من الرعية التي هو رئيسها، فكل المنظرين يركزون على أنه يجب أن يعاملها بعدل وأن يهتم بمصالحها، وأن يعمل كل شيء يجلب لها السعادة والطمأنينة والرفاه لأن «التودد إلى الرعية يحسن المملكة»^(٣). وهذا يعني من جهة أخرى أن طاعة الرعية يجب أن تكون إرادية لا اضطرارية لأن الطاعة المفروضة بالقوة لا تولد في النهاية إلا السخط^(٤). الشرط الأول إذاً لنجاح ولي الأمر هو العدل، ولذا يركز المنظرون على هذه الضرورة حتى تتجح الخلافة، لكن هذا لا يعني أبداً أنهم يطلبون من أن يكون ضعيف الجانب «لأن السلطان إن أفرط على الرعية أهلكتها، وإن فرط فيها لم تستقم، وإن اعتدل بين ذلك اعتدلت، كالنار إذا قَوِيَتْ أحرقت مُعَوَّجَ الخشب، وإذا لانت بقي على اعوجاجه، وإذا اعتدلت تَقَوَّمَ بها واعتدل»^(٥). ويتمثل هذا العدل في أمور كثيرة منها أن الولي يجب أن يتتبع أخبار الرعية ليعرف ما يسوؤها وما يرضيها، وألا يرضى لها إلا ما يرضاه لنفسه^(٦)، وأن يعامل كل الناس بمقتضى الحال، فلا يعامل المجرم مثلاً إلا بموجب الشريعة والنواميس^(٧) ولا يعامل المقربين إلا بقدر عملهم وكفاءتهم، ولعل زياداً يعطي فكرة عن ذلك حين كتب على زوايا مجلسه بالكوفة: «الوالي شديد

(١) الماوردي: في سياسة الملك، ضمن «مجلة العربي»، عدد ٢٣، ص: ٢٢٠.

(٢) ابن الحداد (٦٤٨هـ/١٢٥٠م): في فضل السياسة من أرباب الرياسة، ضمن مجلة «الفكر العربي»، عدد ٢٣، ص: ٢٣٤.

(٣) ابن الأزرقي: السابق، ٥٥٨/٢.

(٤) وداد القاضي: جوانب من الفكر السياسي للسان الدين بن الخطيب، ضمن مجلة «الفكر العربي»، عدد ٢٣، ص: ٢٣٤.

(٥) ابن الأزرقي: نفسه، ٥٥٧/٢.

(٦) الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ/٨٦٨م): التاج في أخلاق الملوك (منسوب إليه)، ص: ١٦٨؛ تحقيق محمد أديب، بيروت، د.ت.

(٧) نفسه، ٥٤.

في غير عنف، لين في غير ضعف، العطية لإبانها، والأرزاق لأوقاتها، والبعوث لا تحجر، المحسن يجزى بإحسانه والمسيء يؤخذ على يده..»^(١).

إن الشخص الذي تتوفر فيه هذه الخصائص يعد خليفة وإلا فهو ملك وليس إماماً. ومن هنا نجد المفكرين المسلمين يفرقون بين الملك والخلافة، فالملك في نظرهم لا يكون «إلا لمن تمكن بقهر يده التي لا فوقها يد باستعباد الرعية وجبايات الأموال، وبعث البعوث، وحماية الثغور، والقاصر عن ذلك ناقص عن الملك بقدر الفأنت منه»^(٢). وعليه، يمكن أن نستشف من هذا التعريف الفوارق بين مؤسستي الخلافة والملك، فالأولى تعتمد العدل والثاني يعتمد القهر، والأولى لها وظيفة دينية إلى جانب الوظائف السياسية، والثاني له وظيفة سياسية لا غير. ويؤكد ابن خلدون هذا المفهوم السياسي للملك بقوله متأثراً بابن الأزرق: «الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور، ولا تكون فوق يده يد قاهرة، وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور»^(٣). ولذلك قال الماوردي مبيناً أن الملك يعتمد الجوانب المدنية أكثر «وأن قواعد الملك مستقرة على أمرين: سياسة وتأسيس»^(٤). وهذا ما يجعلنا نفهم لماذا ابتعد المفكرون في الإسلام عن الملك، ولماذا لم يعطوه قيمة كبيرة مع تركيزهم على قضية الإمامة والخلافة^(٥)، ولا نستبعد تأثرهم بالآية الكريمة (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلةً، وكذلك يفعلون)^(٦)، بالإضافة إلى التجارب التي عاشوها والتي عانت منها الجماهير الإسلامية على مر العصور مع الملاحظة أن الشارع الإسلامي لم يذم

(١) ابن الأزرق: السابق، ٥٥٨/٢.

(٢) ابن الأزرق: نفسه، ١٠٧/١.

(٣) ابن خلدون السابق، ٣٣٣/١.

(٤) الماوردي: في سياسة الملك، ٢١٦.

(٥) محمد عمارة: السابق، ٤١.

(٦) القرآن: سورة النمل، آية ٣٥.

الملك في حد ذاته بل ذم الأمور الناتجة عنه من عنف واستبداد واستعباد للرعية وتمتع باللذات^(١).

ويقول ابن الأزرق إن الملك يكون في الشعوب المتحضرة، أما الخلافة فهي تناسب الشعوب البدوية^(٢)، وهذا يتماشى طبعاً مع تطور الدولة الإسلامية التي تحولت منذ العصر الأموي إلى ملك لا يختلف عن باقي الأنظمة الملكية في ذلك العصر.

مع ذلك، فإن هؤلاء الباحثين يركزون على أن الدين ضروري لإقامة الملك العادل أو أي ملك، وذلك بهدف ضبط النفوس سواء لدى الحاكمين أم المحكومين، فقد قيل: «من جعل ملكه خادماً لدينه انقاد له كل سلطان، ومن جعل دينه خادماً لملكه طمع فيه كل إنسان»^(٣).

ولم تنج مؤسسة الخلافة في العصر العباسي، كما حدث في العصر الأموي، من أن تتحول إلى ملك استبدادي يستغل الدين للحفاظ على السلطة والسيطرة على الناس، فقد أدت تصرفات بني العباس على مر الأيام إلى «إقامة حكم استبدادي من طراز حكم أكاسرة الفرس السابقين»^(٤). وهذا الاستبداد يتمثل في أمور كثيرة منها أن الخليفة وحده هو المتحكم في مصير الدولة، يأمر وينهى دون استشارة للرعية، وهو يحكم بصفة مطلقة لا يناقشه أحد فيما يفعل أو يقول. ولذلك يرى سعيد البستاني أن الاستبداد السياسي ليس سوى امتداد للاستبداد الديني^(٥) لأن المستبد يلجأ في نظره إلى الدين لتأكيد استبداده لكي يستطيع أن يقضي على كل من يعارضه دون خوف. ولعل فكرة الحق الإلهي كان لها أكبر دور في هذا الاستبداد.

(١) ابن خلدون: نفسه، ١/٣٤١.

(٢) ابن الأزرق: السابق، ١/١١٤-١١٥.

(٣) الماوردي: في سياسة الملك، ٢١٦.

(٤) ي، هل: الحضارة، العربية، ترجمة أحمد العدوي، ص: ٨١؛ القاهرة، ١٩٥٦.

(٥) فارق أبو زيد: سعيد أفندي البستاني مفكر عربي مجهول، ضمن مجلة «الهلال»، أول يناير ١٩٧٧، ص: ١٧٧.

وفي جميع الحالات، ومهما تنوعت المظاهر في هذه المؤسسة، مؤسسة الخلافة، فليست في نهاية الأمر سوى نظام تيوقراطي يستحوذ على الدولة كباقي الأنظمة الأخرى. ونتيجة لذلك، فكل الأنظمة تجد نفسها مدفوعة موضوعياً للحفاظ على مصالحها لأن الدولة ليست في حد ذاتها سوى وسيلة تستعملها الفئة المسيطرة للحفاظ على وضعيتها تلك أي على وجودها، ولا تتورع من أجل ذلك عن اللجوء إلى العنف والقمع، فالواقع اليومي، فضلاً عن الواقع التاريخي، يكشف عن أن أكبر نسبة من العدوان والظلم تلحق بالناس إنما تأتي من الدولة^(١) على الرغم من أن وجودها الطبيعي إنما كان للحفاظ على مصالح الناس.

ذلك إذاً هو نظام الخلافة أو النظام الشيوقراطي الذي فرضت عليه ظروفه أن يعيش بوجهين، فقد وجد الخلفاء أنفسهم مضطرين، نتيجة للموروث الديني والعقدي أن يظهروا أمام رعيتهم بمظهر الأئمة الورعين المحافظين على تعاليم الإسلام، بينما كان واقعهم المادي يدفعهم لأن يستمتعوا بالخيرات التي كانت تصب عليهم من كل أقاليم الإمبراطورية المترامية الأطراف. ونجد خاصة هذا قبل خلافة المتوكل، فقد كانت الدولة تغطي المحتوى الاجتماعي الاستبدادي لنظامها الشيوقراطي بغطائين سياسي واقتصادي.

ومن مظاهر هذا التناقض ألقاب الخلفاء العباسيين مثلاً ابتداءً من الخليفة الثاني كالمصور والمهدي والهادي وهارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتمد والوائق والمتوكل إلخ. أول لقب عرف في الإسلام هو لقب الخليفة، وقد تسمى به كل من الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس بدون استثناء. وأول من تسمى بلقب أمير المؤمنين هو عمر بن الخطاب ثم عثمان وعلي بن أبي طالب وسائر بني أمية وبني العباس. وظل الوضع على هذه الحال في صدر الإسلام

(١) حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ٢/١٩٨-١٩٩؛ دار الفارابي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٠.

وعصر بني أمية. ويعلل عدم وجود ألقاب فخرية في العصر الأموي وصدر الإسلام ببساطة الحياة الاجتماعية والسياسية التي لم تكن تتناسب معها^(١). واختيار عمر بن الخطاب للقب أمير المؤمنين لم يأت اعتباراً خاصة أن لقب الأمير كان شائعاً قبل الإسلام، فهو بذلك الاختيار يكون قد قيم الوظيفة التي يقوم بها أحسن تقييم^(٢). والحوار الآتي الذي دار بينه وبين المغيرة بن شعبه يؤكد ذلك:

«قال المغيرة بن شعبه: يا خليفة الله!

فقال عمر: ذاك نبي الله داود!

قال: يا خليفة رسول الله!

قال: ذاك صاحبكم المفقود!

قال: يا خليفة خليفة رسول الله!

قال: ذاك أمر يطول.

قال: يا عمر!

قال: لا تبخس مكاني شرفه، أنتم المؤمنون وأنا أميركم.

فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين!«^(٣).

أما لقب «خليفة الله» فقد كان الخلفاء الأوائل يتخرجون منه ويرفضونه صراحة، فقد رأينا كيف رفضه عمر بن الخطاب. وكان أبوبكر الصديق يقول: «لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله»^(٤). وفيما بعد، سيزول ذلك الحرج في العصر العباسي. وخلافة الله كانت عند الصحابة تعني النبوة والرسالة والتبليغ.

(١) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٥.

(٢) محمد عمارة: السابق، ٣١-٣٢.

(٣) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص ١٦٢ (هامش).

(٤) منير العجلاني: السابق، ٨٢.

وبما أن كلا من أبي بكر وعمر بن الخطاب قد اعترفا بأنهما لم يبق لهما إلا الجانب السياسي من سلطات الرسول فإننا نعرف مدى الحرج الذي كان يسببه لهما هذا اللقب.

وقد استحدث العباسيون ألقاباً جديدة بالإضافة إلى الخليفة والإمام وأمير المؤمنين. وهي في حد ذاتها تدل على سير الأحداث في الدولة العباسية؛ وكان أغلبها يدور حول الجانب الديني، دون أن ننفي أن الجانب الذاتي كان له دور ما في اختيار لقب منها يميز كل واحد منهم نفسه عن غيره لما في الألقاب العامة من اشتراك وتعميم ولذلك تسموا بالسفاح والمنصور وهارون الرشيد وغيرهم^(١).

وإذا درست هذه الألقاب انطلاقاً من الوضع التاريخي والسياسي لعهد كل خليفة لوجد التفسير المناسب لها لأنها نوع من الدعاية الرسمية لهم استعملوها للتأثير على خصومهم وعلى الرعية، فلقب السفاح مثلاً يدل على تلك الثورة الدموية التي قام بها بنو العباس ضد خصومهم والتي حاولوا فيها استئصال البيت الحاكم السابق. وكان هذه اللقب مقبولاً في غمرة الانتصار، فلم يستهجنه أحد في ذلك الوقت بل هلّل له الشعراء والأدباء ومجدوه. أما لقب المنصور، ثاني الخلفاء العباسيين، فهو يدل أولاً على بداية الاستقرار النسبي الذي صار يهيمن شيئاً فشيئاً على الأوضاع في الدولة الجديدة، كما يدل من جهة ثانية على بداية الخلاف بين الطالبين والعباسيين، إذ نجد فيه إشارة خفية إلى الحق الإلهي، لأن المنصور سيمى ابنه «المهدي»، وهو ولي عهده والخليفة الثالث، لمجابهة الدعاية الطالبية التي كانت تروج لفكرة المهدي المنتظر بعد فشل ثورتها عام ١٤٥ هـ. وهكذا فهذا باب صالح للدراسة أيضاً.

ونعود الآن إلى الحق الإلهي، تلك الفكرة القديمة الموروثة عن الشعوب السالفة حين كان الزعيم فيها يستمد سلطته من قوة غيبية ضبابية مرتبطة بالجدود

(١) منير العجلاني: السابق، ٨٢.

والطوطمية. وحين جاءت الديانات عدلت الظاهرة وأعطتها سنداً شرعياً. وقد تفرق مفكرو الإسلام حولها فريقين: يقول الأول بالحق الإلهي، ويرفضه الثاني، والفريق الأول هو الغالب عمومًا.

إن فكرة الحق الإلهي هذه تلغي مبدأ الديمقراطية؛ وهي تتنافى عمومًا مع تعاليم الإسلام التي تدعو إلى الشورى، وهذه الشورى نوع من الديمقراطية يسمح فيه للبشر أو لمجموعة منهم باختيار الحاكم.

ويخطئ من يظن أن الإسلام لا يفرق بين صلاحيات الخليفة الدينية والمدنية، ولذا «يعتقد أن الحكومة الإسلامية وجدت بمقتضى عقد مقدس قائم على الشريعة»^(١). وهذا طبعًا ليس صحيحًا لأننا إذا عدنا إلى القرآن الكريم أو إلى السنة الشريفة لما وجدنا إشارات إلى نوع الحكومة التي يجب أن تحكم المسلمين، ولا إلى الطريقة التي يجب أن يختار بها الحاكم، لأن «القرآن الكريم لم يضع في ذلك إلا الخطوط الرئيسة الكبرى التي تعصم الإنسان من الزلل وتوجه خطاه إلى الطريق المستقيم، طريق الحق والعدل والخير»^(٢). وأنه قد «ترك للإنسان التفصيلات وكل ما يتأثر بالزمان أو المكان»^(٣). ونستنتج من كل الآيات القرآنية والأحاديث التي تشير إلى هذا الموضوع من بعيد أو من قريب أن «الدولة في القرآن الكريم دولة الصالح العام»^(٤).

ويفند أحد المفكرين الحق الإلهي بقوله: «ما رسخ في عقول الملوك من حق سماوي أعطته لهم العناية الإلهية للتصرف في الناس والاستبداد فيهم... ليس

(١) إ - ك - س - لامبتون: الفكر السياسي عند العرب، القسم الثاني، ضمن «تراث الإسلام»، سلسلة «عالم المعرفة»، ص: ٢٣؛ الكويت، د.ت.

(٢) محمد أحمد خلف الله: القرآن والدولة، ص: ٥، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨١.

(٣) نفسه، ٥.

(٤) نفسه، ١٣٥.

له من وجود حقيقي أو طبيعي، وإنما هو حق منحه لهم الغلبة.. والغلبة لن تكون يوماً منحة إلهية»^(١).

وتبعاً لذلك نجد لدى المفكرين موقفين متناقضين في مسألة التصدي للملوك ومعارضتهم، فالموقف الأول طبعاً، وتماشياً مع تقديس الحكام الذين يستمدون الحكم من الإله في نظرهم، يمنع أي معارضة بكل حال بل يجب على الرعية عندهم طاعتهم ولو ساؤوا بهم خسفاً وكلفوهم عنفاً^(٢).

وبهذا يكون الخليفة مطلق الحرية في قهر الناس والتكيل بهم عندما يريد، ولكن يلاحظ مع ذلك أن هذا الفريق يرى جواز الثورة عليه فقط في حالة واحدة هي أن يتظاهر بأمر يخالف دين الله.

أما الفريق الثاني فقد جوز الثورة على السلطان الظالم. وهناك جدل واسع في مسألة العمل مع السلطان الغاصب كنتيجة لما آلت إليه مؤسسة الخلافة في العصر العباسي إذ صارت غرضاً لكل طامع ولكل مغامر.

إن ذلك الوضع الجديد فرض على مفكري الإسلام واقعاً جديد كان عليهم أن يجدوا له ما يُسوِّغُه^(٣). ومن هنا جوز بعضهم العمل مع السلطان الغاصب نظراً لوضع الخلافة الشاذ في عهد النفوذ التركي ثم البويهبي فالسلجوقي، ذلك لأن الرعية لا يجوز أن تبقى بدون حاكم في نظرهم.

الملاحظ كذلك أن المعارضة ضد هذا النظام كانت موجودة دائماً، وفي كل العصور. وقد مورست بالطرق السلمية والمسلحة معاً. ولنا في الحاليين أمثلة كثيرة جداً.

(١) سعيد أفندي البستاني: الحاكم والمحكوم، مأخوذ عن مجلة «مصر»، ديسمبر ١٩٨١ نقلاً عن مجلة «الهلل»، عدد ٨ يناير ١٩٧٧.

(٢) الخوارزمي: السابق، ١٥٢-١٥٤.

(٣) الشريف المرتضى، علي بن الحسين (٤٣٦ هـ/١٠٤٤م): مسألة في العمل مع السلطان الغاصب، ضمن مجلة «الفكر العربي» عدد ٢٣؛ الحلبي الحسين بن الحسن (٤٠٣ هـ/١٠٢٥م): المنهاج في شعب الإيمان، ضمن مجلة «الفكر العربي» عدد ٢٣، ص: ٢٢٧.

تسببت هذه المعارضة التي لم تكتف بالجدل النظري في وجود أنظمة ودول انفصلت عن الدولة الأم فساعدت على تطبيق تلك النظريات والمبادئ الخاصة بالحكم. وشاءت الظروف أن يجد كل اتجاه من الاتجاهات الثلاثة الكبرى فرصة لتكوين دولة وممارسة الحكم. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نتساءل: إلى أي مدى احترم المسلمون أو حكامهم المبادئ التي كانوا يؤمنون بها والتي ثاروا مراراً من أجلها؟ الحقيقة المؤلمة والمؤسفة أن النظرية كانت في واد، وكان التطبيق في واد آخر، فالفريق الذي كان ينادي بجعل الخلافة في قريش دون تحديد للفرع القرشي الذي يتولاها لم يكن هذا المبدأ عنده إلا وسيلة للوصول إلى الحكم. ولم يُحترم هذا المبدأ إلا في الأربعين سنة الأولى التي يمثلها عهد الخلفاء الراشدين، فقد كان واحد منهم من بني مخزوم، والثاني من بني تيم، والثالث من بني أمية والرابع من بني هاشم، وكلها فروع تنتمي إلى قبيلة قريش الكبرى. ثم جاء بنو أمية فركزوا الحكم فيهم وجعلوه وراثياً، وخلفهم بنو العباس ففعلوا الشيء نفسه.

وقدّر للاتجاه الثاني الذي ينادي بالشورى المطلقة والذي كان يرى أن الخلافة تصلح في كل الناس شرط أن تتوفر فيهم الكفاءة المطلقة دون تحديد للفرع ولا للون ولا للجنس الذي يتولاها، قُدّر له أن يُكوّن دولة دامت مدة من الزمن، فلم يستطع هذا الاتجاه المنادي إلى الديمقراطية في عصر لم يكن مُهيأً لها أن يحترم المبادئ التي ناضل من أجلها طويلاً فجعلها أيضاً وراثية في أسرة واحدة^(١).

وشاءت الأقدار كذلك أن يُكوّن الاتجاه الثالث الذي كان ينادي بالحق الإلهي دولة كبيرة بل دولاً متعددة. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذا الاتجاه يبدو منسجماً مع آرائه، فهو منذ البداية يجعل الخلافة أصلاً من أصول الدين لا يتم الإيمان بدون الاعتقاد بها، وأنها محصورة في سلالة واحدة فقط، وأن أمرها لا

(١) هذا ما حدث في الدولة الرسمية إذ صار الحكم وراثياً في أسرة عبدالرحمن بن رستم.

يفوض للبشر إطلاقاً لأن الحكام عندهم هم خلفاء الله في الأرض، وهم معصومون من الخطأ إلخ. كان الحكم وراثياً عند أصحاب هذا الرأي أيضاً.

هذا الوضع يجعلنا نستنتج أن هذه الاتجاهات الثلاثة كانت مختلفة في الشكل فقط وليس في الجوهر، فمعنى الحكم عندهم جميعاً لا يختلف أبداً عما كان معروفاً عند الأقوام لأخرى المعاصرة لهم والمجاورة، فهم كلهم يمثلون فكرة حكم فئة معينة للفئات الأخرى بجميع الوسائل.

إن العقلية السائدة في ذلك الوقت عند كل الشعوب كانت لا تتقبل الأفكار والدول إلا إذا كانت في صيغة دينية، فحتى الذين ثاروا ضد الإسلام في ذلك الوقت كالبابكية⁽¹⁾ كان لا بد لهم من غطاء ديني.

إلا أن هذا الصراع الكبير بين تلك النظريات المتناحرة أدخل شيئاً جديداً لم يكن معروفاً من قبل هو الحكم الجماعي الذي جاء نتيجة لأوضاع الدولة الإسلامية التي جُرِّبَتْ فيها كل تلك الأنماط فلم تفلح في التوفيق بين النظرية والتطبيق. إن القرامطة هم الذين أوجدوا هذا النوع من الحكم على الرغم من أنهم لم يغيروا مفهوم الحكم المطلق في حد ذاته لأن ذلك الحكم الجماعي ظل محصوراً في فئة معينة. هذا الوضع الجديد يبدو وكأن القرامطة قلبوا رأس الهرم بجعل الحكام محكومين والمحكومين حكاماً.

وخلاصة القول إن مؤسسة الخلافة هي الدولة التي يتمناها المنظرون الإسلاميون بمختلف اتجاهاتهم، والقاسم المشترك عندهم أن الدولة لا بد أن تكون في خدمة الصالح العام، وذلك بجلب الأمن والطمأنينة والرفاهية في أوساط الرعية، وذلك لا يكون إلا بحسن التسيير وازدهار الاقتصاد وحماية الدولة من الأعداء، وكل واحد من هذه الأمور يمثل باباً واسعاً يصلح للدراسة والبحث.

(1) نسبة إلى بابك الخرمي قائد تلك الثورة.

الفصل الأول: الشعر والخلفاء العباسيون

أ-تنظيم الدعوة العباسية:

ليس في نيتنا هنا دراسة هذا التنظيم بصفة مفصلة، فكثير من الباحثين قاموا بذلك قبلنا^(١)، غير أنه يلاحظ أن هذه الدعوة قد استفادت إيجابيا من التجارب السابقة في هذا المجال أي الحرب وتنظيم الحملات العسكرية آخذة بالحسبان نقاط القوة فيها دون أن تقع في الأخطاء نفسها .

في القديم، كانت الحركات التي من هذا النوع تأتي محدودة في الزمان وفي المكان. وبعبارة أخرى لم تكن تتجاوز حدود إقليم واحد كسورية مثلا أو الحجاز. وقد كانت تعتمد في تجييش الجيوش على عنصر واحد هم العرب عموما. وكان مرد هذا الاختيار إلى العرقية والتطرف. ولذا، لم تستطع قوات تلك الحركات الوقوف أمام القوات الحكومية ذات العدد الأكبر والتنظيم والانضباط الكبيرين على الرغم من شجاعة أولئك الثوار. وبكلمة واحدة، كان ينقص تلك الحركات الاستراتيجية الضرورية التي تضمن لها النجاح والتفوق.

وهكذا ظل العباسيون مدة طويلة وهم يعدون في سرية تامة العدة لهجومهم العام عندما تسنح الفرصة المناسبة. إذاً لم تكن الحركة العباسية وليدة اللحظة التي ظهرت فيها ولكن بدأت قبل ذلك بكثير. لقد اتبعوا مبدأ «التَّيَّيَّة»^(٢) على غرار كثير من الحركات الأخرى، علما أن خصومهم الأمويين قد سهلوا من مهمتهم بسبب التناحر الداخلي فيما بينهم.

(١) انظر: فاروق عمر: العباسيون الأوائل؛ دار الفكر، ١٩٧٣؛ Carl Brockelmann (كارل بروكلمان): Histoire des peuples et des Etats islamiques, traduit par Tazrout, Payot, Paris, 1949

(٢) انظر كامل مصطفى الشبيبي: التقيية، ضمن «مجلة جامعة الإسكندرية»، المجلد ١٦، ١٩٦٢-٦٣.

من جهة أخرى، هناك عناصر أخرى ساعدت على نجاح الدعوة العباسية. سنذكر بعضها دون أن نفصل في ذلك. ولعل أهم سبب من تلك الأسباب هو قيام الدعاية العباسية بإطلاق برنامج جلب كل المتذمرين وجعلهم يلتحقون بالدعوة، وقد كان عدد المتذمرين كبيراً. وما كان أكثر جاذبية في هذا البرنامج هو الوعد بتغيير أوضاع الحياة التي كانت راكدة في العهد الأموي حيث كانت الدولة تعامل رعاياها بعنف. ولا بد من الإشارة هنا أننا سنكون مجحفين لو اعتقدنا أن كل العرب كانوا يستفيدون من الدولة الأموية، وأن كل الذين لم يكونوا عرباً قد أبعدها وصاروا في الدرجة الثانية، بيد أن المستفيدين الحقيقيين عموماً هم الأعيان والأغنياء والقادة العسكريون وجزء غير يسير من رجال الدين. وكانت البقية من المواطنين، عرب وغير عرب، لا تهتم بهم الدولة إلا قليلاً. والدليل على ذلك الانتفاضات الشيعية والخارجية على امتداد العهد الأموي. وقد استفاد العباسيون أيضاً من عنصر آخر مهم جداً هو قرابتهم من الرسول ﷺ، فنحن نعرف مدى الاحترام الذي يكنه المسلمون جميعاً للنبي محمد وآله. إنها عاطفة جياشة تحرك الجماهير وتزرع في قلوب الناس الحماسة والأمل. لقد كانوا يتبركون بهذه القرابة ويرون فيها الخلاص، مع العلم أن الشعار الذي رفعه العباسيون هو «الرضا من آل محمد» كان البرنامج العباسي واعداً جداً مع تركيزه على تحسين أوضاع معيشة الناس، وتأكيد على أحقيتهم في السلطة، لأنهم، كما يصرون على ذلك، ورثة النبي ﷺ على الرغم من أن القرآن الكريم نفى أن يورث الأنبياء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(١).

وكان العباسيون ينشرون الفكرة أن الأمويين استولوا على الحكم بغير حق دون أن يكونوا أهلاً له، وأنهم كانوا جابرة وغير عادلين مع رعيتهم. لقد وجدوا في ذلك التذمر العام معيناً لا ينضب لجمع الأموال اللازمة وتجنيد المحاربين والأنصار

(١) سورة الأحزاب، آية ٤٠.

لمواجهة الأمويين. من هنا، أصبح بإمكان هؤلاء الوافدين الجدد الذين دخلوا الحياة السياسية باعتناقهم الدعوة العباسية أن يكون لهم دور مهم وأساس في مستقبل الدولة العباسية والوصول إلى مناصب ومراتب سيستحوذون في النهاية من خلالها على السلطة؛ وهذا ما سيفعله الفرس والأتراك.

كان شعار «الرضا من آل محمد» يخفي بصعوبة خطة مموهة، فما أن تم القضاء على الأمويين حتى حصر العباسيون هذا «الرضا» في فرعهم وحدهم دون غيرهم مبعدين بذلك بقية الفروع الشيعية والهاشمية الأخرى. وكان على العباسيين بعد إطلاقهم هذا الشعار أن يظهروا بمظهر الأئمة الأتقياء الداعين إلى المعروف والناهين عن المنكر. لكنهم على الرغم من ذلك، سيرتكبون الأخطاء نفسها التي ارتكبتها الأمويون. لقد بقيت مؤسسة الخلافة وراثية عندهم أيضاً وظلت الرعية تتجرع ويلات الظلم والقمع وثقل الضرائب.

ب- إبادة الأمويين

لقد كانت معركة الزاب فاصلة في الحرب التي خاضها العباسيون ضد خصومهم لأن الأمر حُسمَ عسكرياً في تلك الموقعة، وانكسر جيش الخليفة الأموي مروان بن محمد^(١)، وبعثر أنصاره، غير أن الحرب ستبقى مستمرة مدة طويلة بعد ذلك بين الأسرتين. لكن أحد الأمويين استطاع أن ينجو من تلك المقتلة ويؤسس مملكة في الأندلس^(٢). وبدأ الانتقام الكبير من المهزومين حتى أن بعض المؤرخين لقب الخليفة العباسي الأول «السفاح» لكثرة الدم الأموي الذي سفكه.

كانت مهمة الشعر الذي كان يمثل الوسيلة الإعلامية الأكثر نجاعة، المشاركة الفعلية والكاملة في تلك الحرب التي نشبت بين الإخوة الأعداء. لذلك راح عدد

(١) هو آخر الخلفاء الأمويين (٧٢ هـ - ١٢٢ هـ).

(٢) هو عبدالرحمن الداخل الذي كون مملكة أموية في الأندلس استمرت من ٧٦٥ م إلى ١٠٣١ م.

كبير من الشعراء المناصرين للعباسيين يشجعونهم ويحرضونهم على إبادة أعدائهم حتى لا تبقى لهم بقية أبداً. كان على هؤلاء الشعراء كذلك أن ينشروا الدعاية العباسية وينتقدوا سلوك خصومهم. هذا مثلاً الشاعر حفص بن أبي النعمان يصر على ذلك بقوله: (من الوافر)

وكانت أميةً في مُلْكِهَا
تَجُورُ وتُظْهِرُ طَغْيَانَهَا
فلَمَّا رأى الله أن قد طَغَتْ
فَلَمْ يَنْظُرِ اللهُ عُدْوَانَهَا
رَمَاهَا بِسَفَّاحِ آلِ الرَّسُولِ
فَجَذَّ بِكَفِّيهِ أَذْنَابَهَا^(١)

قد يكون هذا الشاعر محقاً فيما يذهب إليه، فالتذمر والسخط كانا سائدين بشدة، وهذا ما يجعلنا نفهم لِمَ ناصر الناس العباسيين في أول أمرهم. إن هذا الشاعر يصف الخليفة العباسي بالمسيح الذي يجلب الخلاص لهذه الأمة، ولعله صادق فيما يزعم. ويقول شاعر آخر هو سُديفُ بن ميمون^(٢) (من الكامل):

أَمْسَتْ أُمِّيَّةٌ قَدْ تَصَدَّعَ شِعْبُهَا
شِعْبُ الضَّلالِ وَشَتَّتْ أَهْوَاؤُهَا
وَلَقَدْ سُرِرْتُ لِعَبْدِ شَمْسٍ أَنهَا
أَمْسَتْ تُسَاقُ مَبَاحَةً أَحْمَاؤُهَا^(٣)

(١) الأزدي، أبوزكرياء محمد بن يزيد (٢٣٤هـ/٩٤٥م): تاريخ الموصل، ١٠٦: تحقيق علي حبيبة، القاهرة، ١٩٦٨.
(٢) سديف بن اسماعيل بن ميمون (توفي سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م. يلتحق بالطلبيين فيما بعد عندما يختلف مع العباسيين ويقتل بسبب ذلك؛ انظر الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٣/، ١٢٦ مطبعة كوستانتسوماس، القاهرة، ١٩٥٤-١٩٥٩.

(٣) المرزباني، أبوعبيد الله محمد بن عمران (٣٨٤هـ/٩٩٤م): أخبار شعراء الشيعة، ١٤١: تحقيق محمد هادي العاملي، المكتبة الحيدرية، الطبعة الأولى، النجف، ١٩٦٨.

هو أيضًا يركز على سوء معاملة الأمويين لرعاياهم، ويشير إلى الفرحة التي
اعترت الناس بعد سقوطهم.

ويضيف السَّيِّدُ الحَمِيرِي كذلك: (من الكامل)

جَزَعَتْ أُمِّيَّةٌ مِنْ وِلَايَةِ هَاشِمٍ

وَبَكَتْ وَمِنْهُمْ قَدْ بَكَى الْإِسْلَامُ^(١)

إن بني أمية لم يحترموا السنة النبوية في نظر هذا الشاعر بتصرفهم الأرعن
نحو الإسلام الذي بكى منهم، وفي هذا غمز واضح يوحي من خلاله أن العباسيين
سيعيدون إلى الإسلام رونقه والمكانة التي تليق به. وليس هذا الموقف غريباً
فالأُمويون قد وصفوا بسوء الأخلاق حتى إبان حكمهم^(٢).

مع ذلك كان العباسيون يخافون باستمرار العودة الممكنة لخصومهم الأمويين
فعمدوا، لكيلا يحدث ذلك، إلى إبادتهم عن بكرة أبيهم بدون شفقة ولا رحمة. وفي
مثل هذه الحالات كانوا يعرفون أنهم يخاطرون بإمكانية عدم تزكية ذلك العمل
من طرف الرعية التي يمكن أن تنقلب عليهم، لذا لجأوا أولاً إلى إعداد الناس
نفسياً للإبادة التي ينوون القيام بها ضد بني عمهم. ولا نستبعد أنهم فعلوا كل ما
باستطاعتهم حتى يوحوا للشعراء بالمشاركة في تلك العملية بطريقة طبيعية.

كما نعلم، قد أشرف الخليفة «السفاح» على عملية الإبادة هذه. وهو يستحق
بجدارة فعلاً هذا اللقب الفريد من نوعه في كل التاريخ الإسلامي، إذ لم نجد
مستبدًا آخر كانت عنده مثل هذه الشجاعة والجرأة في إسداء لقب كهذا على
نفسه على الرغم من أن بعضهم قد فاقه في القسوة والتعطش لإراقة الدماء.

(١) وداد القاضي: الكيسانية في الأدب والتاريخ، ٣٥٢-٣٥٣؛ دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٤.

(٢) أبوحنيفة الدينوري، أحمد بن داود (٢٨٢هـ/٨٩٥م): كتاب الأخبار الطوال، ص: ٢٢٥؛ تحقيق عبد المنعم
أمير، مطبعة البابي، القاهرة، ١٩٦٠.

لسنا في حاجة هنا إلى التذكير بالدور الذي يمكن أن يقوم به الشعر في مثل هذه الحالات، فلم يكن ثمة وسيلة إعلامية أخرى أصلح لنشر أفكار هذا الحزب أو ذلك. ولذا، كان السفاح، حتى قبل انتصار الثورة العباسية، يستعمل الشعر كوسيلة دعائية للحط من خصومه. لقد ذكر القاضي المعافى بن زكرياء أن القائد العباسي كان كثيراً ما يرسل برجال أثناء الليل لينشدوا أمام معسكر مروان بن محمد البيتين التاليين: (من البسيط)

يا آل مروان إن الله مهلككم
ومبديل أمنكم خوفاً وتشريداً
لا عمّر الله من أنسالكم أحداً
وبتلكم في بلاد الخوف تشريداً^(١)

وقد ذكر المسعودي ردة فعل السفاح عندما أوتي برأس مروان بن محمد ووضع بين يديه، فقد سجد فأطال السجود ثم رفع رأسه فقال: «الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك، والحمد الذي أظفرتني بك وأظهرني عليك؛ ثم قال: ما أبالي متى طرفتني الموت، قد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين، وأحرقت شلو هاشم بابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم»^(٢).

ولم يقم السفاح وحده بهذه المهمة بل أغلب العباسيين شاركوه فعلته تلك، فهذا عمه عبدالله بن علي^(٣)، والي الشام الجديد يقول: (من البسيط)

بني أمية قد أفنيت أحراركم
فكيف لي منكم بالأول الماضي

(١) ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ/١٣٧٣م): البداية والنهاية، ١٠/٥٩؛ مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣٢.

(٢) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (٣٤٥هـ/٩٥٦م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤/١٠١؛ تحقيق شارل بيللا، بيروت، ١٩٧٣-١٩٧٤.

(٣) هو عم السفاح، عين والياً على الشام بعد قتله مروان بن محمد، وكانت مهمته تطهير تلك المنطقة من كل الأسر الأموية. وعندما يصح المنصور خليفة يثور عليه سنة ٧٥٥م ثم يقتل سنة ٧٥٩م.

يُطَيِّبُ النَّفْسَ أَنْ النَّارَ تَجْمَعُكُمْ
عُوضْتُمْ مِنْ لَظَاهَا شَرًّا مُعْتَاضِ
فَنَيْتُمْ لَا أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَكُمْ
بَلَيْثِ غَابِ إِلَى الْأَعْدَاءِ نَهَاضِ^(١)

لم يكن هذا الحقد ولا هذا الانتقام ناتجين عن الخلافات السياسية فحسب بل كان للجانب الذاتي والعاطفي دور كبير فيهما لأن العباسيين، وغيرهم كثيرون، قد ذاقوا الأمرين من الاستبداد والظلم الأمويين. ولكن، عندما سنحت الفرصة، انتقموا منهم ببشاعة. يقول أحد العباسيين في هذا الإطار: (من الطويل)

تَنَاوَلْتُ ثَأْرِي مِنْ أُمِيَّةٍ عُنُوَّةً
وَحُزْتُ بِثَأْرِي الْيَوْمَ مِنْ سَلْفِي قَسْرًا
وَأَلْقَيْتُ ذُلًّا مِنْ مَفَارِقِ هَاشِمٍ
وَأَلْبَسْتُهَا عِزًّا وَأَعْلَيْتُهَا قَدْرًا^(٢)

وهذا عباسي آخر لا يخفي فرحته العارمة وهو يشارك في تلك المقتلة: (من الكامل)

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سَقْمَهَا
أَخَذِي بِثَأْرِي مِنْ بَنِي مَرْوَانَ
وَمِنْ آلِ حَرْبٍ لَيْتَ شَيْخِي شَاهِدُ
سَفَكِي دِمَاءٍ مِنْ بَنِي سُفْيَانَ^(٣)

وقد راح بعض الشعراء وهم مبهتجون ولا يخفون تحفزهم إلا بصعوبة، يهتبلون تلك الفرصة ليثبنوا حملة شعواء على بني أمية بتشجيع العباسيين في المضي قدمًا

(١) الصولي، أبوبكر محمد بن يوسف (٣٢٥هـ/٩٤٦م): أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، ٢٩٨؛ تحقيق جون هيبورت ديون (J.H. DUNE)، مطبعة الصاوي، بغداد، ١٩٣٤.
(٢) ابن شاعر الكتبي، محمد بن شاعر بن أحمد (٧٦٤هـ/١٣٦٣م): فوات الوفيات، ٢١٥-٢١٦؛ تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣.
(٣) المسعودي: نفسه، ١٨٨/٤.

فيما يفعلون، فهذا سديف بن ميمون يصرخ قائلاً عندما دخل على الخليفة السفاح
ووجد عنده رهطاً من بني أمية مكرمين معززين: (من الخفيف)

لَا يَغْرُنْكَ مَا تَرَى مِنْ رَجَالٍ
إِنْ تَحْتِ الصُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
فَضَعَ السَّيْفَ وَارْقَعَ السُّوْطَ حَتَّى
لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُويًّا^(١)

وكان من ضمن المدعويين سليمان بن هشام بن عبد الملك فقال لسديف: «لقد
قتلتني يا شيخ»^(٢).

وفي قصة أخرى دخل الشاعر العبدي بالطريقة نفسها على عبدالله بن علي
في فلسطين وفي مجلسه ثمانون أمويًا، فقال: (من الكامل)

أُمَيِّي مَا لِكَ مِنْ قَرَارٍ فَالْحَقِّي
بِالْجِنَّ صَاغِرَةً بِغَيْرِ قَرَارٍ
أَمَّا الدُّعَاةُ إِلَى الْجِنَانِ فَهَاشِمٌ
وَبَنُو أُمَيَّةٍ مِنْ دُعَاةِ النَّارِ^(٣)

(١) الإصفيهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦هـ/٩٦٧م): كتاب الأغاني، ٢٨٤/٤؛ دار الكتب، القاهرة، د.ت؛ والجزء ١٧؛ وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧-ابن المعتز، عبدالله بن محمد (٢٩٦هـ/٩٠٨م): طبقات الشعراء المحدثين، ٤٠؛ تحقيق عبدالستار فراج، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨؛ ابن الطقطقي، أبو جعفر محمد بن علي بن محمد ابن طَبَّاطِبَا (٦٦٠-٧٠٩هـ/١٢٦٢-١٣٠٩م): الفخري في الأدب السلطانية، ١٠٩؛ المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٢٧. الفخري في الأدب السلطانية؛ ابن العماد، عبدالحق بن أحمد (١٠٨٩هـ/١٦٧٩م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١/١٨٧؛ المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٢٧؛ ابن رشيق، الحسن القيرواني: العمدة في صناعة الشعر، ١٦٢؛ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة حجازي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣٤.

(٢) هو أمير أموي توفي سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م؛ التحق بالخوارج بعد خلافه مع مروان بن محمد؛ انظر: الزركلي: الأعلام، ٣/٣٠٠-٣٠١.

(٣) المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (٣٨٤هـ/٩٩٤م): معجم الشعراء، ٤٤٨؛ تحقيق عبدالستار فراج، مكتبة النوري، دمشق، د.ت. ابن رشيق: العمدة، ١/٦٣-٦٤.

وحين استمع الأمير إلى هذا الشعر أمر جنده بوضع العمد على الأمويين
ووطئهم حتى الموت.

ويحكى أيضاً أن سديفاً بن ميمون هو الذي دخل على عبدالله بن علي وهو
يستقبل ثمانين أمويًا فأنشد يقول: (من الخفيف)

أَصْبَحَ الْمَلِكُ ثَابِتَ الْأَسَاسِ
بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ
طَلَبُوا وَتَرَاهَا شِمَّ فَشَفَوْهَا
بَعْدَ مَيْلٍ مِنَ الزَّمَانِ وَيَاسِ
لَا تُقِيلَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عَنَارًا
وَاقْطَعَنَّ كُلَّ نَقْلَةٍ وَغِرَاسِ
أَقْصِرْهُمْ أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ واقْطَعِ
عَنْكَ بِالسَّيْفِ شَافَةَ الْأَرْجَاسِ
ذُلُّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدِ مِنْهَا
وَبِهَا مِنْكُمْ كَحَرَ الْمَوَاسِي
وَلَقَدْ غَاظَنِي وَغَاظَ سَوَائِي
قُرْبُهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَاسِي^(١)

وقد اشتهر الأمير عبدالله بن علي بمقاتل الأمويين حتى أصبحت الشعراء
تتناقل أخباره بها، فهذا السيد الحميري يخلد ذلك بقوله: (من السريع)

لَمْ يُبْقِ عَبْدُ اللَّهِ بِالشَّامِ مِنْ
أَلِ أَبِي الْعَاصِ امْرَأً غَاطِسًا^(٢)

(١) ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (٢٧٦هـ/٨٨٩م): الإمامة والسياسة، ١٢٣/٢؛ تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي، القاهرة، دت - الإصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦هـ/٩٦٧م): السابق، ٣٤٥/٤.

(٢) وداد القاضي: الكيسانية في التاريخ والأدب، ٣٥٢.

وكان بعض الشعراء الآخرين مثل عاصم بن المبرسم، يخشون أن يشفق العباسيون على الأمويين فراحوا يشجعونهم ويحرضونهم بكل الطرق والوسائل ليواصلوا مقتلهم: (من البسيط)

إِيَّاكُمْ أَنْ تَلِيْنُوا لِإِعْتِذَارِهِمْ
فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا الْخَوْفُ وَالطَّمَعُ
لَوْ أَنَّهُمْ أَمِنُوا أَبَدُوا عَدَاوَتَهُمْ
لَكِنَّهُمْ قُمِعُوا بِالذُّلِّ فَاَنْقَمَعُوا
أَلَيْسَ فِي أَلْفِ شَهْرٍ قَدْ مَضَتْ لَهُمْ
سَقْوَكُمْ جُرْعاً مِنْ بَعْدِهَا جُرْعُ
حَتَّى إِذَا مَا انْقَضَتْ أَيَّامٌ مُدَّتِهِمْ
مَتُّوا إِلَيْكُمْ بِأَرْحَامِ الَّتِي قَطَعُوا
هَيْهَاتَ لَا بُدَّ أَنْ يُسَقِّوْا بِكَاسِهِمْ
رِيًّا وَأَنْ يُخَصِّدَ الرُّزْغَ الَّذِي زَرَعُوا
إِيَّاكُمْ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ إِنَّهُمْ
قَدْ مَلَكُوا ثُمَّ مَا ضَرُّوا وَمَا نَفَعُوا^(١)

سيطول الأمر بنا لو أردنا أن نورد كل الأشعار التي قيلت في تلك المناسبة. وفي العموم، كان الشعراء يبحثون عن أعذار للعباسيين بالتذكير بماضي الأمويين وبطشهم وقساوتهم ضد الرعية. لكن هذه العينة التي استشهدنا بها تعطينا صورة عن تلك المشكلة التي شددت أنفاس الناس لمدة من الزمن، فقد كانت هي حدث الساعة الذي لا يستطيع شعراء المناسبات أن يتركوه يمر بدون أن يتدخلوا.

(١) ابن الجراح، أبو عبدالله محمد بن داود: الورقة، ٧١-٧٢؛ تحقيق عبدالوهاب عزام وعبدالستار فراج، القاهرة، د.ت - الإصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦هـ/٩٦٧م): كتاب الأغاني، ٤/٣٥١؛ دار الكتب، القاهرة (٢٤ جزءاً)، ووزارة الثقافة الجزائرية، ٢٠٠٧ (١٧ جزءاً).

وفي مقابل ذلك، لم يفقد أتباع بني أمية اليأس في عودتهم إلى الساحة السياسية وإلى السلطة. وسيظل هذا الحلم يراودهم زمناً طويلاً خاصة إذا تذكرنا أن واحداً منهم قد استطاع أن يفلت من المجزرة وأن يؤسس مملكة في الأندلس. وهكذا انتشرت في المشرق، وخاصة في سورية، فكرة السفيناني المنظر (في مقابل المهدي المنتظر)^(١) الذي سيعود يوماً إلى الأرض ليملاًها عدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً. ويظن أن هذه الفكرة كانت موجودة حتى في عهدهم، وأن واحداً منهم على ما يبدو، هو خالد بن يزيد^(٢)، هو صاحبها بعد أن أبعاد عن السلطة. لكن هذه الأسطورة، إذا صح التعبير، ستأخذ أبعاداً أخرى في العصر العباسي وستبلغ أوجها في عام ١٩٥هـ/٨١٠م عندما يظهر السفيناني الذي طال انتظاره. إنه علي ابن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية^(٣)، وكان أيضاً ينتسب إلى علي بن أبي طالب من جهة أمه، لذا كان كثيراً ما يردد أنه ينحدر من الشيخين أي علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. وقد نصب نفسه خليفة^(٤). ثم تلا ذلك ثورة أبي حرب المبرقع^(٥) سنة ٢٢٧هـ/٨٤٢م. وقد أرجعت المصادر القديمة سبب تلك الثورة المباشر إلى سوء معاملة الجند لأسرته، غير أن العدد الكبير من المزارعين

- (١) حسن الزيات: التشيع لمعاوية في العصر العباسي، ضمن مجلة «مجلة المشرق»، بيروت، ١٩٢٨؛ بندلي صليبا الجوزي: دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، ٨٠: تحقيق جلال السيد وناجي علوش، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧-انظر كذلك فريد حجاب: المهدي المنتظر بين العقيدة الدينية والمضمون السياسي؛ المؤسسة الوطنية الجزائرية للكتاب، ١٩٨٤.
- (٢) خالد بن يزيد (٨٥هـ/٧٠٤م)؛ قد اهتم بالعلم والكيمياء، وقد ترك الحكم بعد ثلاثة أشهر ليتفرغ للبحث العلمي؛ انظر الزركلي: الأعلام، ٢/٣٤٢-٣٤٣.
- (٣) انظر الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ/٩٢٣م): تاريخ الرسل والملوك (أحداث سنة ١٩٥هـ)؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦-١٩٦٨.
- (٤) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (٦٣٠هـ/٢٣٣م): الكامل في التاريخ، ٦/٢٤٩؛ دار صادر، بيروت، ١٩٦٥؛ ابن العماد: السابق، ١/٣٤٢.
- (٥) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي بن عبدالله (٨١٣-٨٧٤هـ/١٤١٠-١٤٧٠م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٢/٢٤٨؛ دار الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣٠- الزركلي: الأعلام، ٢/١٨٤.

الذين انضموا إليه يجعلنا نستنتج بسهولة الدوافع الحقيقية لها. وقد كان أنصاره يحسبونه السفيناني المنتظر. وقد كان يحمل برقاً يخفي به وجهه فسمي بالمبرقع. وفي سنة ٩٠٨م تقوم في الشام أيضاً ثورة أخرى يدعى فيها زعيمها أنه السفيناني المنتظر^(١).

صحيح أن هذه الانتفاضات لم تعرف النجاح لكنها تركت أثراً على شعر ذلك العصر نستشف من خلاله ندمهم على زمن بني أمية وحنينهم إليه فداء لهم، أو فقط نتيجة يأسهم من جبروت العباسيين. وكان هذا الشعر ينتمي إلى المعارضة التي رأت النور بعد مجيء العباسيين. كان الشاعر أبوحراب العتكي يبكي الأمويين حتى في أوج انتصار الدعوة العباسية وهي في عامها الأول: (من المتقارب)

أَشَابَ الْمَفَارِقَ قَتَلَى كُدَى^(٢)
 وَقَتَلَى بِكُثْوَةٍ^(٣) لَمْ تُرْمَسِ
 وَفِي الزَّابِ قَتَلَى مُلُوكِ تَوْتِ
 وَقَتَلَى بِنَهْرِ أَبِي فُطْرُسِ^(٤)

ولعل أشهر هؤلاء الشعراء المدافعين عن الأمويين هو الصائب بن فروخ الملقب بالمكفوف الذي ظل يبكيهم حتى وافته المنية. ولم يخف حبه لهم حتى وهو في حضرة الخليفة المنصور: (من الكامل)

أَمَتِ نِسَاءُ بَنِي أُمَيَّةٍ مِنْهُمْ
 فَعَلَيْهِمْ حَتَّى الْمَمَاتِ سَلَامٌ

(١) الطبري: السابق، ١٠/١٣٥.

(٢) كُدَى: مكان قريب من مكة، انظر ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله يعقوب بن عبدالرحمن (٦٢٦هـ/١٢٢٩م): معجم البلدان، ٤/٤٤١؛ دار صادر، بيروت، ١٩٩٣

(٣) كثوة أيضاً اسم مكان (ياقوت الحموي: نفسه، ٤/٤٣٨).

(٤) الأزدي: نفسه، ١٤٢-١٤٣؛ أبو فطرس: نهر قريب من الرملة بفلسطين؛ انظر ياقوت الحموي: نفسه، ٤/٢٦٧.

نَامَتْ جُدُودُهُمْ وَأُسْقِطَ نَجْمُهُمْ

وَالنَّجْمُ يَسْقُطُ وَالْجُدُودُ نِيَامٌ^(١)

والغريب أننا نجد شعراء آخرين في هذه المدة قد شاركوا العباسيين فرحتهم وأسهموا في التحريض عليهم بكل شدة مثل أبي العطاء السندي، ولكنهم سرعان ما تفتنوا إلى الخديعة، وأن العباسيين كانوا يطلبون السلطة فقط دون أن يهمهم الناس وما يبتغون، لذلك رجعوا بيبكون الأمويين: (من الوافر)

أَلَيْسَ اللّهُ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي

يُحِبُّ بَنِي أُمَّيَّةَ مَا اسْتَطَاعَا

وَمَا بِي أَنْ يَكُونُوا أَهْلَ عَدْلِ

وَلَكِنِّي رَأَيْتُ الْأَمْرَ ضَاعَا^(٢)

وأيضاً الشاعر مروان بن أبي حفصة الذي يعد المدافع الرئيس بدون منازع عن أحقية العباسيين بالخلافة يتحسر بكل مرارة على العهد الأموي بقوله: (الوافر)

وَمَا فَعَلْتُ بَنُو مَرْوَانَ خَيْرًا

وَلَا فَعَلْتُ بَنُو مَرْوَانَ شَرًّا^(٣)

وقد لا يكون هذا الوفاء ذا طابع سياسي بل ربما يعود لأسباب أخرى كما هو الشأن بالنسبة إلى مروان بن أبي حفصة، لأن الأمويين أعتقوه، فهو إنما يعترف بهذا الجميل: (من الوافر)

بَنُو مَرْوَانَ قَوْمِي أَعْتَقُونِي

وَكُلُّ النَّاسِ بَعْدَ لَهُمْ عَبِيدٌ^(٤)

(١) المسعودي: مروج الذهب، ٤/١٢٩-١٣٠.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ١٧/٣٣٣.

(٣) مروان بن أبي حفصة (١٠٣-١٨٢هـ/٧٢١-٧٩٧م): شعر مروان بن أبي حفصة، ٤٣، تحقيق حسين عطوان،

دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣.

(٤) نفسه، ٣٥.

لكن هذا الوفاء عند بعض الشعراء سرعان ما كان يتغير بسهولة إلى موقف سياسي، كما هو الأمر عند الشعارين المكفوف وأبي عطاء السندي، فعلى الرغم من أنهما لم يكن باستطاعتهما التعبير صراحة عن موقفهما ذلك خوفاً من بطش العباسيين بهما، إلا أنهما كانا يلحان ويلتفان حول الموضوع كما في الأبيات التالية للمكفوف: (الخفيف)

حُطَبَاءٌ عَلَى الْمَنَابِرِ فُرْسًا
نُ عَلِيَّهَا وَقَالَةٌ غَيْرُ حُرْسِ
لَا يُعَابُونَ قَائِلِينَ وَإِنْ قَا
لُوا أَصَابُوا وَلَمْ يَقُولُوا بَلْبَسِ^(١)

تتضمن هذه الأبيات نقداً غير مباشر للعباسيين من طرف هذا الشاعر من أنهم لا يملكون الخصال والصفات التي كانت لبني أمية خاصة منها تلك التي يمجدها العرب كالفصاحة والخطابة والبيان.

أن يكون المرء من أنصار الأمويين في ذلك العهد فهذا يعني أنه يدعو إلى التمرد ضد العباسيين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهذا ما نجده في قول بشار بن برد التالي الذي يحتج فيه على تصرفهم: (البيسط)

بَنِي أُمَيَّةَ هُبُّوا طَالَ نَوْمُكُمْ
إِن الْخَلِيفَةَ يَغْقُوبُ بِنُ دَاوُودِ
ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَا قَوْمُ فَالْتَمِسُوا
خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ الرِّقِّ وَالْعُودِ^(٢)

(١) المسعودي: مروج الذهب، ٢٨٢/٣.

(٢) بشار بن برد (١٦٧هـ/٧٨٣م): الديوان، ٩٤/٣؛ تحقيق محمد الطاهر بن عاشور؛ أبوالفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ٢٤٣/٣؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب، ١٥٩؛ الشريف المرتضى: أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، ١٤١؛ تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٧.

إن هؤلاء الشعراء يقومون بمقارنة بين الخلفاء الأمويين والعباسيين نتیجتها دائماً لصالح الأولین، فهم أتقیاء مثقفون وخطباء، مما یعنی أن الآخرين لم يكونوا كذلك.

ج- الأحقیة بالخلافة بین العباسیین والطالبیین

لقد مرت العلاقة بین الفرعین الهاشمیین بمرحلتین مختلفتین: مرحلة تقارب، ومرحلة تباعد وعداوة. كان العباسیون یعمدون إلى هذه أو تلك حسب الظروف، ولكنهم كانوا یتصرفون فی جمیع الحالات بما یضمن مصالحهم أولاً وقبل كل شیء. قبل صعود العباسیین كان الفرعان یمران بوحدة تكاد تكون كاملة. وقد استطاع الخلیفة العباسی الأول أن یحافظ، ولو ظاهرياً، على تلك الوحدة الهشة بینهما. أما الخلیفة الثانی، المنصور، فقد عرفت تلك العلاقة فی عهده تغيراً شبه كامل. وقد بین بوضوح لأبناء عمه الطالبیین أن الخلافة محصورة فی العباسیین وحدهم. تیقن الطالبیون بعد هذا أنهم لن یتسطیعوا اعتلاء الخلافة إلا بقوة السلاح. من ثم انطلقت عدة ثورات طالبیة خلال كل العصر العباسی. وقد قام بالثورة الأولى «النفس الزکیة»^(١) وأخوه إبراهیم فی الحجاز والبصرة سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م^(٢). تلتها ثورة الحسن بن علی الملقب «صاحب فخ»^(٣) سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م. وسوف نعود فیما بعد إلى هذه الثورات.

وكانت هناك فترات تفاهم قصیرة بینهما، حتی أننا نجد أحد الخلفاء العباسیین، وهو المأمون، یعین أحد الطالبیین ولیاً للعهد له هو الرضا^(٤)، غیر أن هذا الولی سرعان ما یقتل مسموماً، على ما یبدو، فی ظروف غامضة. لقد كان

(١) هو محمد بن عبدالله بن الحسن بن علی بن أبی طالب (٩٣هـ-١٤٥هـ / ٧١٢م-٧٦٢م).

(٢) عبدالمنعم ماجد: العصر العباسی الأول، ٧٨-٧٩، مكتبة الأنجلو المصریة، القاهرة، ١٩٧٠.

(٣) فَخّ: هو اسم المكان الذي قتل فیهِ، وهو نهر قرب مكة (انظر یاقوت الحموی: معجم البلدان، ٢٣٨/٤).

(٤) الرضا بن علی بن موسى الكاظم (١٥٣هـ-٢٠٣هـ/٧٧٠-٨١٨م)، هو ثامن إمام عند الإمامیة، كان أسود لأن أمه كانت حبشیة. وقد زوجه المأمون إحدى بناته. وكان هذا الموقف سبباً فی خلع المأمون من طرف العباسیین فی بغداد وتعیین عمه إبراهیم بن المهدي خلیفة؛ انظر: الزركلی: الأعلام، ١٧٨/٥.

للمأمون، كما هو واضح، ميل للطالبيين، فقد كان باراً بهم، مقرباً لهم، متفهما لقضيتهم دون أن يسمح لهم بالتقليل من نفوذه أو باقتطاع بعض الأقاليم من إمبراطورته وتسييرها بأنفسهم^(١).

وقد كان الشعراء، بطبيعة الحال، يعكسون تلك الأوضاع بالحديث عن هذا التقارب بين الفرعين، فهذا محمد بن يزيد المهلبى، يمدح الخليفة المنتصر الذي كان باراً ببني عمه أيضاً: (من الكامل)

وَلَقَدْ بَرَزْتَ الطَّالِبِيَّةَ بَعْدَمَا
دُمُّوا زَمَاناً بَعْدَهُمْ وَزَمَانَا
وَرَدَدْتَ أَلْفَةَ هَاشِمٍ فَرَأَيْتَهُمْ
بَعْدَ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ إِخْوَانَا
أَنْسَتَ لَيْلَهُمْ وَجُدْتَ عَلَيْهِمْ
حَتَّى نَسُوا الْأَحْقَادَ وَالْأَضْغَانَ
لَوْ يَعْلَمُ الْإِسْلَامُ كَيْفَ بَرَزْتَهُمْ
لَرَأَوْكَ أَثْقَلَ مِنْهُمْ مِيزَانَا^(٢)

تجدد الملاحظة أن فترات التقارب والتوادد هذه لم تكن تدوم طويلاً، وهي في العموم عدوانية. وكان الشعراء يعكسون كل ذلك في شعرهم الذي يمتاز بالتهديد في أغلب الأحيان. وخير ممثل لهم هو عبدالله بن المعتز^(٣) نفسه: (من الطويل)

بَنِي عَمَّنَا عُدُّوا نَعْدَ لِمَوَدَّةِ
فِيْنَا إِلَى الْحُسْنَى سِرَاعِ التَّعَطُّفِ
وَالْأَفَانِي لَا أزالَ عَلَيْكُمْ
مُخَالِفَ أَخْرَانِ كَثِيرِ التَّلَاهِفِ

(١) بتصريف عن فاروق عمر: بحوث في التاريخ العباسي، ١٢٤؛ دار القلم، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٧٧.
(٢) الصفدي، صلاح الدين أبوالصفاء أحمد بن القاسم (٦٦٨هـ/١٢٧٠م): الوافي بالوفيات، ٢/٢٩٠؛ تحقيق س. ديدرينغ (S. Diding)، إسطنبول، ١٩٤٩؛ المسعودي: مروج الذهب، ٥/٥١.
(٣) هو عبدالله بن المعتز، شاعر مشهور وابن خليفة وخليفة ليوم واحد (٢٤٧هـ-٢٩٦هـ/٨٦١م-٩٠٩م).



لَقَدْ بَلَغَ الشَّيْطَانُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

مَبَالِغَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ آلِ يُوسُفَ (١)

إنه يمزج الوعد بالوعيد كما هو بين في هذه الأبيات حتى صار تودده يبدو كأنه مناورة فقط لأنه لا يتورع، عند الضرورة، أن يزج بهم في غياهب السجن أو أن ينكل بهم. ويمكن أن نلاحظ نبرة الوعيد هذه في كل أشعار شعراء البلاط في العصر العباسي، فمثلاً ما قاله الهنازي في حق إدريس بن عبدالله الطالببي: (من الكامل)

أَتَظُنُّ يَا إِدْرِيسُ (٢) أَنْكَ مُفْلِتٌ

كَئِيدَ الْخَلِيفَةِ أَوْ يُفِيدُ فِرَارُ

فَلْيُذِرْكَ نَكَ أَوْ تَحُلْ بِبَلَدَةٍ

لَا يَهْتَدِي فِيهَا إِلَيْكَ نَهَارُ

إِنَّ السُّيُوفَ إِذَا انْتَضَاهَا سَخَطُهُ

طَالَتْ وَقَصَّرَ دُونَهَا الْأَعْمَارُ

مَلِكٌ كَانَ الْمَوْتُ يَتَّبِعُ أَمْرَهُ

حَتَّى يُقَالَ تُطِيعُهُ الْأَقْدَارُ (٣)

١ - الحق الإلهي

لقد كانت الفكرة المحورية في الدعاية العباسية هي إظهار الأمويين في شكل غاصبين للسلطة ابتعدوا عن السنة الشريفة وحولوا الخلافة إلى ملك وراثي. وقد تجند الشعراء للقيام بهذه المهمة الكبيرة وتحضير الأرضية النفسية لذلك. وقد كان برنامجهم التحسيس يركز على عنصرين أساسيين هما أولاً حقهم الإلهي حيث اختارهم الله لهذه المهمة النبيلة. ومن ثم فإن الخليفة هو ممثل السلطة

(١) الصولي: أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، ١١٣.٧

(٢) هو إدريس بن عبدالله، استطاع أن يفر من مقتلة فخ في سنة ٧٨٦م ويكُون إمارة الأدارسة بمراكش.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٩٩/٨.



الربانية في الأرض. كان الخليفة المنصور يردد باستمرار: «أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في الأرض، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً، إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم، وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلي»^(١). وثانياً قرابتهم من الرسول ﷺ، ومن ثم حقهم في وراثة الخلافة.

كل الخلفاء العباسيين ارتكزوا على هذا المبدأ، أي الحق الإلهي. كما هو منتظر، فإن كل الشعراء الموالين لهم يلحون عليه أيضاً؛ فهو بالنسبة إلى واحد منهم ممثل الله وخليفته كما في هذين البيتين الموجهين إلى الخليفة الهادي: (من السريع)

لَمَّا أَتَتْ خَيْرَ بْنَ هَاشِمٍ
خِلَافَةَ اللَّهِ بِجَرْجَانٍ
شَمَّرَ لِخَرْبِ سَرَابِيلِهِ
بِرَأْيٍ لَا غَمْرٍ وَلَا وَاوِي^(٢)

أما بالنسبة إلى مروان بن أبي الجنوب فإن الله قد اختار أيضاً المتوكل الذي ينتمي لسلالة الأنبياء، فالرسول محمد من أسلافه الأخيار؛ ويكاد الشاعر هنا يضعه في مرتبة الأنبياء: (من الكامل)

وَهَبَ الْإِلَهَ لَهُ الْخِلَافَةَ مِثْلَمَا
وَهَبَ النَّبُوءَةَ لِلنَّبِيِّ الْمُرْسَلِ^(٣)

(١) ابن عبدربه أحمد بن محمد، (-٣٢٨هـ/٩٤٠): كتاب العقد الفريد، ٩٩/٤؛ تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٤٨.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ١٨٣/٤.

(٣) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ٣٧٤؛ دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٧٦.

ونجد يزيد بن مَزَيْد^(١) يرى الشيء نفسه في هارون الرشيد عند اعتلائه العرش، ويزيد عليها أنها ستبقى خالدة في ولده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: (من البسيط)

خِلَافَةُ اللَّهِ فِي هَارُونَ تَابِتَةٌ
وَفِي بَنِيهِ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ الصُّورُ^(٢)

والأمر نفسه يؤكد عليه السيد الحميري وهو يوجه شعره إلى السفاح من أن الخلافة ستبقى في العباسيين إلى أن يعود المسيح عيسى يوم القيامة: (من السريع)

فَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا إِلَى
مَهْ بَطِ عَيْسَى مِنْكُمْ آيسَا^(٣)

نلاحظ أن كل الشعراء يكررون الفكرة نفسها أي أن العباسيين سيبقون حكماً إلى نهاية العالم؛ وهي فكرة كان العباسيون أنفسهم يروجون لها بكل الوسائل، فهم «خلفاء الله في الأرض»، وكذلك هم ورثة النبي ﷺ لهذا سيبقون إلى الأبد. ولا ننس أن هذه الدعاية كانت موجهة إلى المسلمين، أي إلى أناس يرون في هذه الصفات بركة كبيرة، وقد جاءت في عصر هيمنت فيه «القدرية»^(٤) التي رسخها الأمويون من قبل ليحكموا بسهولة، والتي استغلها العباسيون كذلك لصالحهم. لكل هذا

(١) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني (١٨٥هـ/٨٠١م): قائد عسكري في عهد هارون الرشيد الذي عينه والياً على أرمينية وأذربيجان. وقد عرف بمحاربه الخوارج بدون هوادة وخاصة قائدهم المشهور الوليد بن طريف الشاري. وهو ابن أخ معمر بن زائدة؛ كان شاعراً. توفي في بردعة بأرمينية؛ انظر: الزركلي: الأعلام، ٢٤٤/٩.

(٢) ابن شهر آشوب، محمد بن علي (٥٥٨هـ/١١٩٢م): مناقب آل أبي طالب، ٢/٢٦٣؛ المطبعة الحيدرية، النجف، د.ت.

(٣) ابن شاعر الكتبي: الوافي بالوفيات، ٢/٢٩٤.

(٤) لهذا المصطلح معنيان متناقضان، الأول يقضي بأن الناس مخيرون في أفعالهم بما فيهم الخليفة؛ والثاني يقضي بأنهم مسيرون لا حول لهم ولا قوة. والمعنى الثاني هو الذي شجعه الأمويون والعباسيون معاً.

ركز الشعراء على اختيار الخلفاء من طرف الله الذي جعلهم فوق كل الناس. ولعل
عبدالله بن المعتز يلخص كل ذلك بقوله خاصة وأنه أمير وابن خليفة، فراح يفتخر
بهذه الصفة وأنه متفرد بالخصال والصفات التي حباه الله بها: (من الطويل)

تَفَرَّدَ لِي الرَّحْمَنُ بِالْعِزِّ وَالتُّقَى
فَأَضْبَحْتُ فَوْقَ الْعَالَمِينَ أَمِيرًا^(١)

ونجد هذه الفكرة نفسها توسع وتعمق عند الصولي الابن وهو يمدح الخليفة
المكتفي^(٢)، ويضفي عليه وعلى كل بني العباس صفات إضافية كالحكمة، ويزيد صفات
أعلى للخلفاء منهم، فالله قد قرر لهم ذلك في محكم سوره: (من مجزوء الخفيف)

حَكَمَ اللَّهُ أَنْكُمْ
حُكَمَاءَ عَلَى هَذَا الْبَشَرِ
وَأَوْلُو الْأَمْرِ مِنْكُمْ
صَفْوَةَ اللَّهِ وَالْخَيْرِ
أَنْزَلَ اللَّهُ ذَاكُمْ
قَبْلُ فِي مُحْكَمِ السُّورِ^(٣)

وأيضاً قول مروان الأصغر للمتوكل حيث يذكر أن الله هو الذي تخيره للعباد،
وأن العباد أيضاً هم الذين اختاروا حكمه عن رضى وطواعية: (من الطويل)

تَخَيَّرَ رَبُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ جَعْفَرًا
وَمَلَّكَهُ أَمْرَ الْعِبَادِ تَخْيِيرًا^(٤)

(١) الصفدي: فوات الوفيات، ٢/٢٩٤.

(٢) المكتفي بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل (٢٦٣هـ-٢٩٥هـ/٨٧٦م-٩٠٨م)؛ اعتلى العرش سنة ٢٨٩هـ؛ اشتهر
بمحاربه القرامطة وبشدته على أعدائه وخصومه؛ انظر: الزركلي: الأعلام، ٥/٥٦.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ/١٥٠٥م)؛ المزهري، ٣٤٩؛ مطبعة محمد علي صبح
وأبنائه، د.ت.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ٨١/١٢.

وبذلك يكون هذا الخليفة هو الحاكم المثالي، فقد اختاره الله من جهة، وقد اختارته الرعية من جهة ثانية. ولم يكن الخلفاء العباسيون يتخرجون من مثل هذه المبالغات، ولا من تلك الصفات والخلال التي كانوا يصفونهم بها، بل كانوا يشجعونها بكل الوسائل والجوائز والصلوات المغرية خاصة لأولئك الذين يتفنون فيها أكثر ويبدعون ويجددون، في حين كنا نرى خلفاء الإسلام الأولين ينزعجون من ذلك التطرف والإسراف في تلك الأوصاف مثل الكناية الجميلة التي ابتدعها أبوتمام لهم في قوله وهو يعني الخلافة التي أفردها الله لهم من دون سائر الأنام، فكانوا بذلك الجوهر وكان غيرهم العرض: (من الخفيف)

صَاغَهُمْ نُو الْجَلَالِ مِنْ جَوْهَرِ

المُجْدِ وَصَاغَ الْأَنَامَ مِنْ عَرَضَةٍ^(١)

كل هذه الدعاية وهذه الحجج كانت تهدف إلى التأثير على الرعية وإقناعها بالصلاحيات المطلقة التي يجب أن يتمتع بها هؤلاء الحكام حتى يتصرفوا كما يشاؤون بلا حساب ولا رقيب. وهذا هو ما يشير إليه علي بن الجهم في قوله: (من الطويل)

كَفَاكُمُ بِأَنَّ اللَّهَ فَوَضَ أَمْرَهُ

إِلَيْكُمْ وَأَوْصَى أَنْ أَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ^(٢)

وتستمر الحملة الإعلامية بدون هوادة في نوع من غسيل للدماغ وتعويد للناس على ذلك الوضع حتى يتقبلوه وكأنه قدر محتوم، فمن ذلك التريديد بدون كلل أنهم حقاً خلفاء الله في الأرض كما في قول حسين بن الضحاك: (من الوافر)

فَأَنْتَ خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ حَقًّا

جَمَعْتَ سَمَاحَةً وَجَمَعْتَ دِينَنَا^(٣)

(١) أبوتمام، أوس بن حبيب (١٩٢-٢٢١هـ/٨٠٧-٨٤٦م): الديوان، ١٦٧؛ تحقيق شاهين عطية، بيروت، ١٩٦٨؛ الصولي: أخبار أبي تمام، ٢٢٣؛ تحقيق محمد شاكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري، بيروت، د.ت.

(٢) الراغب الإصبهاني: ٧/١ محاضرات الأدباء ومحاولات الشعراء البلغاء، ٦

(٣) أبوالفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ١٤٩/٧.

أو أنهم حجة الله الدامغة في هذا الكون كما يشير إليه إبراهيم بن المدبر^(١):
(من مجزوء الكامل)

يَا حُجَّةَ اللَّهِ الَّتِي
ظَهَرَتْ لَهُ بِهُدَىٰ وَنُورٍ^(٢)

أو أنهم الحراس على الدنيا والدين معاً كما يقول البحري: (من الخفيف)
خَلَقَ اللَّهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ الدُّنْ
يَا سَدَادًا وَقَيِّمَ الدِّينِ رُشْدًا^(٣)

أو أن الله قد استأنمهم على أرضه وخليقته، فهم لذلك أمناؤه؛ وهي صفة
نبيلة كان العباسيون يبتغونها ويرددونها حتى سمي أحدهم الأمين والثاني المأمون،
كما نلاحظ في هذا النص المجهول الذي أرسل إلى هارون الرشيد للتعريض
بالبرامكة: (من السريع)

قُلْ لِأَمِينِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ
وَمَنْ إِلَيْهِ الْحَلُّ وَالْعَقْدُ
هَذَا ابْنُ يَحْيَىٰ قَدْ غَدَا مَالِكًا
مِثْلَكَ مَا بَيْنَكُمَْا حَدًّا^(٤)

لم يكن أحد يهتم بالرأي الحقيقي للشاعر فالمهم أن ينقل تلك الأفكار
وينشرها في الناس بواسطة شعره حتى ولو لم يكن مقتنعا بها، فهذا أحد
الأمويين مثلاً يمدح هارون الرشيد ويصفه بأنه «أمين الله»، وهذا يعني أنه كان
ينافقه: (من الرمل)

(١) ابن المدبر (٢٧٩هـ/٨٩٣م)، شاعر وكاتب بغدادي؛ استوزر للمعتمد وتوفي وهو يشرف على «ديوان الضياع»
انظر: الزركلي: الأعلام، ٥٦/١؛

Dominique SOURDEL: Le Vizirat abbaside, 1/316 ; Damas, 1959-1960.

(٢) أبو الفرج الإصفهاني: نفسه، ١٥٨/٢٢.

(٣) البحري، الوليد بن عباد (٢٠٦-٢٨٤هـ/٨٢١-٨٩٧م): الديوان، ٧١٢/٢؛ تحقيق حسن كمال الصيرفي،
دار المعارف، القاهرة، ١٩٣٦.

(٤) عبد الله الفياض: تاريخ البرامكة، ١١٦؛ مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٤٨.

يَا أَمِينَ اللَّهِ إِنِّي قَائِلٌ

قَوْلَ ذِي رَأْيٍ وَدِينٍ وَحَسَبٍ^(١)

ومن تلك الصفات التي أضفاها الشعراء على أولئك الخلفاء صفة «إمام الهدى»، حتى يظهرهم بمظهر الورعين التقاة النافرين من الدنيا ومتعها. وكان التركيز على هذه الجوانب الدينية عند أولي الأمر واضحاً وجلياً عند كل الشعراء لإبراز الجانب الإيماني عندهم في مقابل الكفر والتقاعس عن الواجبات الدينية عند غيرهم، كما نرى ذلك في قول مروان بن أبي حفصة الموجه للمأمون: (من البسيط)

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُنْشَغِلاً

بِالَّذِينَ وَالنَّاسُ بِالدُّنْيَا مَشَاغِيلٌ^(٢)

والصفة نفسها أطلقها منصور النمري من قبل على المنصور عندما شبه الناس بالجسم وشبه «إمام الهدى» بالرأس الذي يقود هذا الجسم وكأنه المحرك الذي يحرك الأمة في جميع مجالات الحياة التي تخصهم: (من السريع)

النَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامُ الْهُدَى

رَأْسٌ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّأْسِ^(٣)

وسواء أكان الخلفاء، ومن خلفهم الشعراء، معتقدين حقاً فكرة اختيار العناية الإلهية لهم أم لا، فإنها كانت منتشرة فعلاً بين مختلف أوساط الناس أثناء العصر العباسي، وقد صدقها كثير من الناس وآمنوا بها. وبالطبع، كان العباسيون يحبذون أن ينعنوا بكونهم «خلفاء الله» في الأرض إن صدقاً وإن كذباً.

والأشعار التي تتناول جوانب الدين والعناية الإلهية لا تعد ولا تحصى في ذلك الزمن بحيث لا نستطيع أن نذكرها جميعاً بل نأتي منها بهذه النتف المنتقاة التي

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ١٨٨.

(٢) مروان بن أبي حفصة: شعر مروان، ١١٧.

(٣) الراغب الإصبهاني: محاضرات الأدباء ومحاولات الشعراء البلغاء، ١٥٩.

تفصل في الصفات الدينية المختلفة التي أصبغت على العباسيين عمومًا، وعلى الخلفاء منهم خصوصًا .

وقد بلغ التفنن ذروته في التنافس بين الشعراء والتسابق بينهم في ابتكار المعاني المتعلقة بهذا الموضوع، فهذا أبو العتاهية يدلي بدلوه في المزايدة على غيره بأن الأرض تأبى إلا أن تكون الخلافة فيهم، وأن الله لا يقبل أعمال الناس ما لم يطيعوا الخليفة في كل ما يدور في خلدكم: (من المتقارب)

لَمْ تَكُ تَضُحْ إِلَّا لَهُ
وَلَمْ يَكُ يَضُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَأَاهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ
لَزُلْزَلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا
وَلَوْ لَمْ تُطِغْهُ بَنَاتُ الْقُلُوبِ
بِ مَا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا^(١)

ليس هناك تبجيل أكبر من هذا يمكن أن نتظره من هؤلاء الشعراء الموالين للعباسيين، فهو نوع من عبادة الشخصية كان غريباً على الفكر الإسلامي، إلا أنه، على الرغم من ذلك، وجد صدى إيجابياً في الخلافة العباسية التي لجأت إلى كل الوسائل لتثبيت ذلك النظام وتمكينه. لقد استغلوا تلك المعتقدات المنتشرة بين الناس آنذاك، ومن ثم، فلا غرابة أن يوصف المأمون من طرف أحد الشعراء، وهو ابن البواب، بأن الله جعله خير العباد كلهم، ولذلك فهو يفرده بهوى ليس له مثل أبداً: (من الطويل)

رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ
عَلَيَّ، وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهِوًى فَزُدِ^(٢)

(١) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (٤٢٩هـ/١٠٣٨م): خاص الخاص، ١١٠: تحقيق ح. الأمين، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦؛ المسعودي: مروج الذهب، ٣/٢١٦.
(٢) أحمد فريد الرفاعي: عصر المأمون، ٣/٢٨٢؛ دار الكتب، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٢٧.

وقد تتجاوز المبالغة كل حد حتى أن الأنبياء جميعاً يشجبون أمام الصفات التي حبا الله بها الخلفاء العباسيين، فهذا واحد منهم، وهو إبراهيم بن شكلة^(١)، يقول في المأمون: (من الكامل)

إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْمَكَارِمَ صَاغَهَا
مِنْ لَذَنِ أَدَمَ لِلْإِمَامِ السَّابِعِ^(٢)

ويجعلها الحسين بن الضحاک شداً لعري الدين الإسلامي عندما يعز الرحمن كل الموحدین المؤمنین ببيعة المنتصر خليفة للمسلمين: (من الطويل)

لَعَمْرِي لَقَدْ شَدَّتْ عُرَى الدِّينِ بَيْعَةً
أَعَزُّ بِهَا الرَّحْمَنُ كُلُّ مُوَحَّدٍ^(٣)

وتستمر الآلة لإعلامية العباسية بدون هوادة في تمجيدهم ورفعهم فوق كل الناس، بل راحت تركز على أن من يعصيههم ليس مسلماً بل هو كافر ومارق من ريقة الإسلام، فهم بمرتبة الأنبياء، ومن لا يؤمن بهم فكأنه لا يؤمن بالأنبياء، وهذا ما أراده البحثري بقوله: (من البسيط)

مَفْرُوضَةٌ فِي رِقَابِ النَّاسِ طَاعَتُهُ
عَاصِيهِ مِنْ رِيقَةِ الْإِسْلَامِ مُنْخَلِجٌ^(٤)

ومن ثم فالنتيجة الحتمية أن حبه من الإيمان وأن بغضهم من الكفر، وأن كل مسلم ملزم بحبه، كما يقول علي بن الجهم وهو يوجه الكلام للمعتز بالله: (من الطويل)

(١) هو إبراهيم بن الخليفة المهدي وأخو هارون الرشيد. بويح خليفة في بغداد سنة ٢٠٢ هـ بعد موت الأمين، وبعد المنفى الطوعي للمأمون في مرو. ثم اختفى إبراهيم بعد رجوع المأمون إلى بغداد مدة ست سنوات وأربعة أشهر. ثم سجن لمدة ستة أشهر. وبعد الصفح عليه من طرف المأمون مدحه بعدة مدائح. وقد كان شاعراً ومغنياً بارعا وموسيقاراً معروفاً. وقد ولي الشام لمدة سنتين في خلافة أخيه هارون الرشيد وأربع سنوات في خلافة ابن أخيه المأمون؛ انظر: أبو الفرج الإصهاني: كتاب الأغاني، ٦٩/١٠، ٩٤/١٠؛ الزركلي: الأعلام، ٥٥/١، ٥٦.

(٢) الأزدي: تاريخ الموصل، ٣٧١.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ١٢/١٠؛ تحقيق أحمد فريد الرفاعي، مطبعة البابي، القاهرة، د.ت.

(٤) الراغب الإصهاني: محاضرات الأدباء ومحاولات الشعراء البلغاء، ٧٦/١.

عَلَوْقاً بِأَسْبَابِ النَّبِيِّ وَإِنَّمَا

يُحِبُّ بَنِي الْعَبَّاسِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا^(١)

والحق أن الشعراء لم يكتفوا بهذه العلاقة بين الإسلام والنبوة من جهة، وحب الخلفاء العباسيين من جهة أخرى، حتى يصموا كل من يخالف ذلك بالكافر الذي يحل دمه، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ودعوا تقريباً إلى عبادة هؤلاء الخلفاء كما نرى ذلك في شعر الحسين بن مطير الموجه للمهدي: (من البسيط)

لَوْ يَعْبُدُ النَّاسُ يَا مَهْدِيَّ أَفْضَلَهُمْ

مَا كَانَ فِي النَّاسِ إِلَّا أَنْتَ مَعْبُودًا^(٢)

ولا غرابة أن يمنح المهدي لهذا الشاعر ألف درهم عن كل بيت، وهو موقف يدل على أن الخلفاء لم يكونوا يتحرجون من أن يوصفوا بصفات تشبه صفات الأنبياء بل تزيد عليهم كثيراً.

٢ - الاستناد إلى القرابة من الرسول ﷺ

كان شعار الثورة العباسية هو «الرضا من آل محمد» دون تحديد للفرع الهاشمي الذي سيحظى بهذا الشرف. وكان الطالبيون يعتقدون اعتقاداً راسخاً وكبيراً أن هذا «الرضا» سيكون منهم حتماً نظراً لكفاحهم الطويل ونضالهم المرير ضد بني أمية طوال حكمهم، فانتفاضاتهم المتكررة والمرتكزة عموماً على حقهم الشرعي في الخلافة معروفة في تلك الحقبة، لكنهم لم يجنوا في كل مرة إلا المرارة والحزن من بطش بني أمية بهم. والملاحظ أن الهاشميين كانوا مُتَّحِدِينَ في ذلك الزمن، وهدفهم كان واحداً، وهو استرجاع السلطة من خصومهم الغاصبين. لكن

(١) علي بن الجهم (١٩٠-٢٤٩هـ/٨٠٦-٨٦٣م): الديوان، ٢١: تحقيق خليل مردم، الطبعة الثانية، دار الآفاق، بيروت، ١٩٨٠.

(٢) أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ٢٣/١٦.

أمراً ما طرأ قبيل الهجوم النهائي على الحلف الذي كان يربط الفروع الهاشمية فيما بينها فتغيرت قيادة الحركة التي انتقلت من الطالبيين إلى العباسيين في ظروف غامضة جداً هي أشبه بالمؤامرة^(١). وقد حاول أبوسلمة الخلال^(٢)، الملقب «آل محمد» والقائد العسكري، تدارك ذلك الأمر فوضع الزعماء العباسيين في إقامة جبرية في الكوفة في انتظار أن يبايع خليفة طالبياً^(٣). لكن تلك المحاولة أجهضت في المهد واستطاع العباسيون أن يستولوا على الحكم بمساعدة أبي مسلم الخراساني، وهو المولى الفارسي، الذي سيتخلصون منه فيما بعد ويقتلونه خشية من قوته ونفوذه المتنامين اللذين أصبحا يمثلان خطراً عظيماً عليهم.

منذ الوهلة الأولى احتدم الصراع بين الفرعين الهاشميين بسبب الخلاف حول ميراث النبي ﷺ والتأويلات المختلفة بينهما. ومنذ تلك اللحظة انطلق جدال مر بين بني العمومة كثيراً ما كان السيف طرفاً فيه. وقد ظهر أدب جم من خلال الرسائل التي تبادلوها بينهم حول هذا الموضوع. وقد كان الخلفاء العباسيون يردون شخصياً في هذه الرسائل مزاعم الطالبيين في نظرهم. وسوف يشارك الشعر أيضاً في تلك المجادلات بين الفرعين اللذين سرعان ما تسوء العلاقة بينهما وتتحول إلى حرب طويلة.

هناك أمر متفق عليه في الفكر الإسلامي هو أن الأنبياء لا يورثون^(٤). والملاحظ هنا كذلك أن كل الديانات متفقة أن هذه الرتبة لا يمكن أن تورث أيضاً لكن يتم تجاوز هذا الأمر أحياناً ويسمح بميراث الأنبياء في الجوانب المادية فقط^(٥).

(١) للمزيد من التفاصيل حول هذا التغير انظر ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ١٠٨/٢ إلى ١١٨/٢؛ وحتى هو نجده يشير إلى عدم التأكد من الأخبار المتعلقة بهذا الموضوع إذ يبدو أن عبدالله بن محمد بن الحنفية، إمام ذلك الزمن، عندما سممه الأمويون وأحس بالموت ذهب إلى الحميمة في الشام حيث كان يقيم بعض العباسيين وعين محمد بن علي العباسي ولياً للإمامة.

(٢) هو أول وزير عباسي.

(٣) ابن قتيبة: المصدر نفسه، ١١٨/٢.

(٤) القرآن: سورة الأحزاب، الآية ٤٠: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا».

(٥) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، ٩١/٤.

إن هذا الجدل المحتدم بين الفرعين الهاشميين ليس إلا غطاء للاستحواذ على السلطة لا أكثر ولا أقل في ذلك العصر، فكل طرف كان يلجأ إلى كل الوسائل الممكنة لإظهار حقه ويزعم أنه الوريث الوحيد للرسول ﷺ.

كما هو معروف، فإن الرسول ﷺ انتقل إلى بارئه دون أن يترك من ورائه وريثاً ذكراً، ولم يكن له من نسل مباشر إلا عن طريق ابنته فاطمة الزهراء، وزوج ابن عمه علي بن أبي طالب. ونلاحظ كذلك أن عمه العباس كان حياً عندما وافته المنية.

إن أهم حجة يرتكز عليها العباسيون في أحقيتهم بالخلافة هي أن جدهم العباس، أي عم الرسول ﷺ، أحق بميراث النبي ﷺ من ابن العم، أي علي بن أبي طالب أو ولديه الحسن والحسين. وسوف يبقى الجدل حول هذا الموضوع مستمراً طوال العصر العباسي.

أول مصدر يرتكز عليه العباسيون في تدعيم حجتهم هو القرآن الكريم، فقد استعملوا آيه ليضفوا على مطلبهم شرعية مقدسة فيقنعوا به خصومهم والرعية على السواء.

وقد راح الشعراء الموالون لهم يختارون الآيات التي تشير إلى هذا الموضوع من قريب أو من بعيد. وسوف نرى فيما يلي بعضاً من تلك النماذج الشعرية.

وقد تخصص بعض الشعراء دون غيرهم في العزف على هذا الوتر، أي على استغلال القرآن لدعم الطرح العباسي أو لدعم الطرح الطالبيني، أمثال منصور النمري، ومروان بن أبي حفصة، وعلي بن الجهم، فهذا الشاعر منصور النمري يقول متهمكاً على الطالبين: (من الوافر)

أَلَا لِبَلِّهِ دُرُّ بَنِي عَلِيٍّ
وَدُرٌّ مِنْ مَقَالَتِهِمْ كَثِيرٌ

يُسْمُونَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَّابِي

مِنَ الْأَخْرَابِ سَطْرٌ بَلِ سَطُورٌ^(١)

إنه يشير إلى الآية الكريمة التي أوردناها في هامش الصفحة السابقة، والتي تفيد بأن الأنبياء لا يورثون؛ لكن نلاحظ أن هذه الآية ليست في صالح العباسيين أيضاً.

وهذا مروان بن أبي حفصة يدعم رأي المهدي بقوله: (من الكامل)

يَا بَنَ الَّذِي وَرِثَ النَّبِيَّ مُحَمَّداً

دُونَ الْأَقْرَابِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ

الْوَحْيِي بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ

قَطَعَ الْخِصَامَ فَالَاتِ خِصَامِ

مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرَّجَالِ فَرِيضَةً

نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ

أَنْى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنِ

لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةَ الْأَعْمَامِ

أَلْغَى سِهَامَهُمُ الْكِتَابَ فَحَاوَلُوا

أَنْ يَشْرَعُوا فِيهَا بِغَيْرِ سِهَامِ^(٢)

ويصر على الاستشهاد بالقرآن مرة أخرى بقوله تماماً كما سيفعل أغلب

الشعراء الذين خاضوا في هذا الموضوع: (من الكامل)

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا

بِأَكْفُكُمْ أَوْ تَسْتُرُونَ هَالَهَا

أَوْ تَجْحَدُونَ مَقَالَهَ عَنْ رَبِّه

جَبْرِيلَ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا

(١) ابن قتيبة: كتاب الشعر والشعراء، ٥٤٦: تحقيق ميخائيل يان دو خويه (Michael Yan de Goeje)، ليدن، ١٩٠٢.

(٢) مروان بن أبي حفصة: شعر مروان، ١٠٤: أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ١٣/١٤٢؛ ابن المعتز: طبقات الشعراء المحدثين، ٥١.

شَهِدَتْ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرُ سُورَةٍ

بِتُّرَاتِهِمْ فَأَزْدْتُمْ إِبْطَالَهَا^(١)

وهو يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

ويستدل علي بن الجهم بالسورة نفسها التي يرى أنها أحسن محام ومدافع عن العباسيين: (من الوافر)

تُجَادِلُ سُورَةَ الْأَنْفَالِ عَنْكُمْ

وَفِيهَا مُقْنَعٌ لِذَوِي الْخِصَامِ^(٣)

ونجد أحد العلويين، وهو محمد بن صالح العلوي^(٤)، يشارك في هذا الجدل، ويستعين هو أيضاً بالكتاب المقدس لتبليغ حجته، ويضيف عليه أن السنة النبوية الشريفة تؤكد ذلك أيضاً ولعله يداري العباسيين بذلك لأنه ثار عليهم فيما بعد: (من الكامل)

نَطَقَ الْكِتَابُ لَكُمْ بِذَلِكَ مُصَدِّقًا

وَمَضَّتْ بِهِ سُنَنُ النَّبِيِّ الطَّاهِرِ^(٥)

ويحسم منصور النمري الأمر بصفة لا تترك مجالاً للشك حين يقول: (من الوافر)

وَمَا لِبَنِي بَنَاتٍ مِنْ تُرَاتٍ

مَعَ الْأَعْمَامِ فِي وَرَقِ الزُّبُورِ^(٦)

(١) مروان بن أبي حفصة: شعر مروان، ٩٩: التنوخي، أبوعلي الحسين بن علي (٢٣٨٤هـ/٩٩٤م): الفرج بعد الشدة ٨٠/١، مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتبة المثى ببغداد، الطبعة الأولى، ١٩٥٥.

(٢) القرآن: سورة الأنفال، آية ٧٦.

(٣) علي بن الجهم: الديوان، ١١-١٢.

(٤) هو محمد بن صالح العلوي، توفي سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م؛ كان والياً على المدينة سنة ٢٢٩ هـ في عهد الواثق لكن المتوكل عزله فثار عليه ثم ألقي عليه القبض وسجن ثلاث سنوات ثم وضع في الإقامة الجبرية في سامراء إلى أن وافته المنية؛ انظر: الزركلي: الأعلام، ٣١/٧-٣٢.

(٥) أبوالفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ٣٧٠/١٦.

(٦) أبوالفرج الإصفهاني: نفسه، ١٤٣/١٣؛ والزبور هو كتاب النبي داوود لكن العرب أطلقوه على القرآن تجاوزاً.

وقد ركز الشعراء كثيراً على هذه الفكرة وهي أن العم يحجب ابن العم في الميراث دون أن يعيروا أدنى اهتمام للمبدأ المتفق عليه من أن الأنبياء لا يورثون أصلاً حتى من أبنائهم الذكور المباشرين.

والعنصر الثاني الذي اعتمد عليه العباسيون في هذا الصراع الجدلي، وتبعهم الشعراء الموالون في ذلك، هو أحكام الميراث في الشريعة الإسلامية التي أخذت كلها من القرآن الكريم^(١). وهذه الأحكام تبطل حجج الطالبين في نظر العباسيين لأنهم يركزون على كونهم أقرب نسباً إلى النبي محمد ﷺ من أبناء العباس، فهم أحفاده من ابنته، وأولاد ابن عمه من زوجها علي بن أبي طالب المعروف بتقاه وورعه وشجاعته وعلمه.

وقد كان الشعر الذي تناول هذا الموضوع غزيراً جداً في هذه الحقبة، وقد ازدهر أكثر في عهد بعض الخلفاء كالمهدي وهارون الرشيد.

ولا بأس أن ندرج في هذا المقام نماذج أخرى من هذا الشعر حتى نبين مدى غزارة ذلك الشعر الملتزم تجاه العباسيين في أهم قضية في الإسلام وهي الخلافة، وفي جانب مهم منها هو أحقية القائم بها.

إن شاعراً مثل ابن هرمة، الذي عاصر الأمويين ومدحهم، يرى أن الخلافة لا يرثها إلا العباسيون وحدهم دون سواهم خاصة بعد مقتل «النفوس الزكية» محمد ابن عبدالله سنة ١٤٥ هـ من قبل المنصور: (من الوافر)

وَمَا النَّاسُ اجْتَبُوكَ بِهَا وَلَكِنْ
حَبَاكَ بِذَلِكَ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ
تُرَاثٌ مُحَمَّدٍ لَكُمْ وَكُنْتُمْ
أُصُولَ الْحَقِّ إِذْ نُفِيَ الْأُصُولُ^(٢)

(١) القرآن: سورة النساء، الآيات من ٨ إلى ١٤.

(٢) ابن هرمة، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (٩٠-١٥٠هـ/٧٠٩-٧٦٧م) شعر إبراهيم بن هرمة، ١٦٣؛ تحقيق محمد راتب النفاخ وحسين عطوان، دمشق، سورية، د.ت.

وقد عَرَّضَ في هذه القصيدة بالثائر العلوي، وأن الشيطان أغواه فخر كل شيء. وهو يشبه كلام بشار بن برد فيما بعد حين قال للمهدي: (من الطويل)

بَنَى لَكَ عَبْدُ اللَّهِ بَيْتَ خِلَافَةٍ
نَزَلَتْ بِهَا بَيْنَ الْفَرَاقِدِ وَالنُّسْرِ
وَعِنْدَكَ عَهْدٌ مِنْ وَصَاةِ مُحَمَّدٍ^(١)
فَرُعْتَ بِهَا الْأَمْلاكَ مِنْ وَلَدِ النَّضْرِ
وَرِنْتَ عَلِيًّا شِيمَةً أَرْجِيئَةً
وَصُنْتَ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَيَّدْتَ بِالشُّكْرِ
وَأَخْرَزْتَ مِيرَاتِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
عَلَى رَغْمِ قَوْمٍ يَنْظُرُونَ عَلَى دَعْرِ^(٢)

ولا شك أن هذا الشعر ليس موجها للطالبيين وحدهم بل لكل فروع قريش، ولكل من تسول له نفسه التفكير في الخلافة أو الحلم بها.

ويتوجه شاعر مجهول إلى أحد الطالبيين بالخطاب مذكراً إياه بأمر بدهي في نظره هو أن العم مثل الوالد تماماً، وأن مكانته تسبق مكانة أبناء البنت: (من الطويل)

جَحَدْتَ بَنِي الْعَبَّاسِ حَقَّ أَبِيهِمْ
فَمَا كُنْتَ فِي الدَّعْوَى كَرِيمَ الْمُنَاسِبِ
مَتَى كَانَ أَوْلَادُ الْبَنَاتِ كَوَارِثِ
يَجُوزُ وَيُدْعَى وَالِدًا فِي الْمُنَاسِبِ^(٣)

وهذا يعني أن النبي ﷺ كان يخاطب عمه العباس بالوالد على عادة العرب، خاصة وأنه كان يتيمًا.

(١) النضر بن كنعان، وهو جد قريش.

(٢) أبو الفرج الإصفيهاني: كتاب الأغاني، ٢٤٣/١٦.

(٣) ابن المعتز: طبقات الشعراء المحدثين، ٥١.

وقد كان بلاط الخليفة «هارون الرشيد» يعج بكبار الشعراء المرموقين الذين كانوا يتقربون إليه بسب الطالبين ومهاجمتهم، وكان هو يشجعهم على ذلك ويفدق عليهم بالعطايا والهبات. وقد كان منصور النمري ومروان بن أبي حفصة من أشهر هؤلاء الشعراء الموالين الذين تفتنوا في الدفاع عن حقوق العباسيين وإيذاء خصومهم بشعر هو أشبه بالدعاية الحربية والنفسية التي تلح وتلح إلى درجة الملل في موضوع أحقية الخلافة حتى تسهم في الغسيل الممنهج لدماغ الأمة كلها وليس الطالبين وحدهم. نجد الأول، منصوراً النمري، يرجع إلى السنوات الأولى للإسلام ليذكر أن الخلافة استحوذ عليها الآخرون، وظلت كذلك إلى أن قويض الله لها بني العباس فاسترجعوها بعدما عاث فيها فساداً كل من أراد: (من البسيط)

يَا بَنَ الْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ وَيَا بُ
 مَنِ الْأَوْصِيَاءِ أَقَرَّ النَّاسُ أَوْ دَفَعُوا
 إِنَّ الْخِلَافَةَ كَانَتْ إِرْثًا وَالِدِكُمْ
 مِنْ دُونِ تَيْمٍ وَعَفُوَ اللَّهُ مُتَسَعِّغٌ
 لَوْلَا عَدِيٌّ وَتَيْمٌ لَمْ تَكُنْ وَصَلْتُ
 إِلَى أُمِّيَّةٍ تَمْرِيهَا وَتَرْتَضِعُ
 وَمَا لِأَلِ عَالِيٍّ فِي إِمَارَتِكُمْ
 وَمَا لَهُمْ أَبَدًا فِي إِزْثِكُمْ طَمَعٌ
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَعْرُزُبْ حُلُومَكُمْ
 وَلَا تُضْفِكُمْ إِلَى أَكْنَافِهَا الْبَدْعُ
 الْعَمُّ أَوْلَى مِنْ ابْنِ الْعَمِّ فَاسْتَمِعُوا
 قَوْلَ النَّصِيحَةِ إِنَّ الْحَقَّ مُتَّبِعٌ^(١)

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ٥٢٦؛ ابن المعتز: طبقات الشعراء المحدثين، ٢٤٤؛ وتيم هم تيم بن مرة بن كعب ابن لؤي، وهو جاهلي من قريش ينتسب إليه الخليفة أبوبكر الصديق؛ وعدي هو عدي بن كعب بن لؤي بن صالح، وهو أيضاً جاهلي من قريش وإليه ينتسب الخليفة عمر بن الخطاب.

إن الخلفاء الراشدين، في نظر هذا الشاعر، هم سبب ضياع الخلافة من الهاشمين ووصولها إلى الأمويين الذين عاثوا فيها فساداً. وفي هذا السياق، فإن العباس عم الرسول ﷺ هو الذي كان من المفروض أن يبايع بالخلافة بعد وفاة النبي ﷺ وليس أبا بكر الصديق؛ وأن علي بن أبي طالب بعدها فقط يمكن أن يطمع فيها.

ويواصل الشاعر أبان بن عبد الحميد اللاهقي طرق الموضوع نفسه ويلخصه فيما يلي: (من الطويل)

نَشَدْتُ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسَلِّمًا
أَعْمُ بِمَا قَدْ قَلْتُهُ الْعُجَمَ وَالْعَرَبَ
أَعْمُ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً
إِلَيْهِ أَمْ ابْنُ الْعَمِّ فِي رُتْبَةِ النَّسَبِ
وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ
وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ التُّرَاثِ بِمَا وَجِبَ
فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ فَتِلْكَمُ
وَكَانَ عَلِيٌّ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى سَبَبٍ^(١)

وفي الختام يلخص مروان بن أبي الجنوب كل ذلك الجدل في الأبيات التالية: (من مجزوء الكامل)

وَلَكُمْ تُرَاثُ مُحَمَّدٍ
وَبِعَدْلِكُمْ تُنْفَى الظُّلَامَةُ
يَرْجُو التُّرَاثَ بَنُو الْبَنَاءِ
تِ وَمَا لَهُمْ فِيهِ قَلَامَةُ

(١) البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٠٣٠-١٠٩٣هـ/١٦٢٠-١٦٨٢م): خزنة الادب ولب لباب لسان العرب ١٧٦/٨؛ تحفيظ عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة، القاهرة، ٢٠٠٠.

وَالصَّهْرُ لَيْسَ بِوَارِثٍ
 وَالْبَيْتُ لَا تَرِثُ الْإِمَامَةَ
 مَا لِلَّذِينَ تَنَحَّلُوا
 مِيرَاثَكُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ
 أَخَذَ الْوَرَاثَةَ أَهْلُهَا
 فَعَلَامَ لَكُمْ عِلْمُهُ؟^(١)

٣ - التنقُّص من قدر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

لا غرابة أبداً، كما هو منتظر في تلك الحرب الضروس التي خاضها العباسيون ضد بني عمهم الطالبيين، أن يهاجموا رمز هذا الاتجاه أصلاً وهو الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، والحق من قيمته، ونعته بأبشع النعوت والصفات. لذلك أوعزوا لشعرائهم ألا يتورعوا في البحث عن كل ما يمكن أن يشوب سيرته وسلوكه وإبرازه للناس حتى ينزعوا عنه تلك القدسية التي ارتبطت به في أذهانهم. من ذلك الإشارة إلى أنه لم يُخترَ من أهل الشورى الأوائل الذين كانوا ذوي فضل وجاه وعلم ومعرفة كما في قول مروان بن أبي حفصة: (من الطويل)

عَلِيٌّ أَبُوكُمْ كَانَ أَفْضَلَ مِنْكُمْ
 أَبَاهُ ذُوو الشُّورَى وَكَانُوا ذَوِي فَضْلِ
 وَسَاءَ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ سَاءَ بِنْتُهُ
 بِخِطْبَتِهِ بِنْتُ اللَّعِينِ أَبِي جَهْلٍ
 فَذَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صِهْرَ أَبِيكُمْ
 عَلَى مَنْبَرٍ بِالْمَنْطِقِ الصَّادِقِ الْفَضْلِ
 وَحَكَّمَ فِيهَا حَاكَمَيْنِ أَبُوكُمْ
 هُمَا خَلَعَاهُ خَلَعَ ذِي النَّعْلِ لِلنَّعْلِ

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢٣١/٩.

وَقَدْ بَاعَهَا مِنْ بَعْدِهِ الْحَسَنُ ابْنُهُ
فَقَدْ أُبْطِلَتْ دَعَاؤُكُمْ رَثَّةُ الْحَبْلِ
وَحَلَّيْتُمُوهَا وَهِيَ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا
وَطَالِبْتُمُوهَا حِينَ صَارَتْ إِلَى الْأَهْلِ^(١)

لخص هذا المقطع أهم المآخذ التي وجهها العباسيون لبني عمهم والتي تمنعهم وتحول بينهم وبين الخلافة؛ أولها موقف أهل الشورى من أبيهم علي بن أبي طالب حين رفضوه ولم يختاروه وفضلوا عليه أبا بكر الصديق؛ وثانيها إغضابه الرسول ﷺ في نظرهم عندما أغضب ابنته فاطمة الزهراء بتزوجه عليها من بنت أبي جهل الذي ذمه الرسول على المنابر ولعنه؛ وثالثها عندما خلعه الحكمان أبو موسى الأشعري^(٢) وعمرو بن العاص^(٣) في حادثة التحكيم الشهيرة^(٤) بين علي ومعاوية^(٥)؛ ثم كان ما كان من أمر الحسن بن علي الذي باعها في نظرهم لمعاوية؛ وأخيراً مزاحمة العباسيين حين تأروا لكل ذلك واسترجعوا الخلافة ومطالبتهم بها وهم أهل، بينما لم يفعلوا ذلك عندما كانت عند الآخرين.

(١) عبدالمحسن طه حميدة: أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، ١٧٤-١٧٥، مطبعة السعادة، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٨.

(٢) أبو موسى الأشعري واسمه عبدالله بن قيس بن سليم الأشعري خرج وخمسين نفرًا من قومه من اليمن؛ أسلم بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة ثم قدم مع أهل السفينتين ورسول الله بخير. وأرسله محمد مع معاذ بن جبل إلى اليمن وقال لهما: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا وتطاوعا ولا تختلفا رقيق القلب والمشاع؛ كما وصفه النبي ووصف قومه بأنهم أهل رقة في القلوب وعذوبة في الصوت حتى أن رسول الإسلام كان يتأثر بقراءته للقرآن ويقول له «لقد أوتيت مزامراً من مزامير آل داود»؛ انظر: الزركلي: الأعلام، ١٧٢/٨-١٧٣.

(٣) عمرو بن العاص السهمي القرشي الكناني (٥٩٢م - ٦٨٢م)، أبو عبدالله، ابن سيد بني سهم من قريش العاص بن وائل السهمي وكان داهية من دهاة العرب، وصاحب رأي وفكر، وفارساً من الفرسان، أرسلته قريش قبل إسلامه إلى الحبشة ليطلب من النجاشي تسليمه المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً من الكفار وإعادتهم إلى مكة لمحاسبتهم وردهم عن دينهم الجديد فلم يستجب له النجاشي. وبعد إسلامه فتح مصر بعد أن قهر الروم وأصبح والياً عليه؛ انظر: الزركلي: نفسه، ٢٤٨/٥-٢٤٩.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٠/٥٧٠-٥٧٥.

(٥) معاوية بن أبي سفيان (٦٠٣م - ٦٨٠م): هو أول خليفة أموي، صحابي وكتاب النبي على الرغم من إسلامه المتأخر؛ ولي الأردن فالشام في عهد عمر بن الخطاب؛ تولى الخلافة سنة ٤١هـ.

والمتمعن في هذا الطرح يجده في الحقيقة في غير صالح العباسيين لأن أهل الشورى لم يختاروا العباس أيضاً بينما كان اسم علي وارداً، ثم إنه صار هو الخليفة الثالث والعباس لم يصر يوماً ما خليفة. وأما أنهم تركوها عندما كانت عند غيرهم فهذا غير صحيح والدليل على ذلك الثورات والانتفاضات التي قاموا بها، والقتل المستمر الذي تعرضوا له من قبل الأمويين أولاً ثم من العباسيين فيما بعد.

وقد كان للشعراء الذين شاركوا في هذه الحملة ضد الطالبيين واحد من دافعين اثنين: الأول وهو الأعم والأغلب كان لسبب مادي حيث كانوا يتلقون مقابل عملهم ذلك مبالغ ضخمة وهدايا سنوية من العباسيين؛ وثانيهما صادق حقاً لأنه جاء من أناس مؤمنين بقضية العباسيين، كعبدالله بن المعتز مثلاً.

٤ - موقف عبدالله بن المعتز^(١)

هو الأمير والخليفة العباسي المشهور. لعله أكثر الناس تشدداً وتطرفاً في معاملة الطالبيين في قضية الخلافة وأحقيتهم بها، وهو أكبر المدافعين عن شرعية العباسيين. وقد كان يتحرش ببني عمه باستمرار ويشتمهم بدون هوادة. إنه، بعبارة مختصرة، حوصلة كل الشعراء المواليين الذين سبقوه في هذا المضمار. لقد أفرد عدة أشعار لمبدأ «الحق الإلهي»، وها هي نماذج من ذلك: (من الطويل)

أَبَى اللّهُ إِلَّا مَا تَرَوْنَ فَمَا لَكُمْ
عِتَابٌ عَلَى الْأَقْدَارِ يَا أَلَّ طَالِبِ
عَطِيَّةٌ مُلْكٍ قَدْ حَبَانَا بِفَضْلِهِ
وَقَدَّرَهُ رَبُّ جَزِيلُ الْمَوَاهِبِ^(٢)

(١) ابن المعتز: هو أبو العباس عبدالله، ولد عام (٢٤٧ هـ، ٨٦١ م)، في بغداد، وكان أديباً وشاعراً ويسمى خليفة يوم وليلة، حيث آلت الخلافة العباسية إليه، ولقب بالمرتضى بالله، ولم يلبث يوماً واحداً حتى هجم عليه غلمان المقتدر وقتلوه في عام (٢٩٦ هـ، ٩٠٩ م)، وأخذ الخلافة من بعده المقتدر بالله. رثاه الكثير من شعراء العرب.
(٢) عبدالله بن المعتز: ديوان عبدالله بن المعتز، ٢٠-٢١، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦١.

وبقدر ما يوجه كلامه لخصومه فهو أيضاً ينصح أهله ويلح عليهم بأن يحافظوا بكل ما أوتوا من قوة على ميراثهم المتمثل في الخلافة التي حباها الله بها: (من الكامل)

شُدُّوا أَكْفُكُمُ عَلَى مِيرَاثِكُمْ
فَالْحَقُّ أَعْطَاكُمْ خِلَافَةَ أَحْمَدِ^(١)

ويغمز في جد الطالبيين ويعرض بهم مذكراً إياهم أن جد العباسيين توفي وهو مسلم بينما توفي جد الطالبيين دون أن يسلم، زيادة على أنهم أبناء البنت، وهم أبناء العم: (من المتقارب)

فَأَنْتُمْ بَنُو بِنْتِهِ دُونَنَا
وَنَحْنُ بَنُو عَمِّهِ الْمُسْلِمِ^(٢)

وهو أيضاً لا يكل من الترداد أن بني العم أولى من بني البنت، فهم وإن كانت لهم صلة، إلا أنهم يأتون في الدرجة الثانية؛ لهذا يطلب منهم ألا يزاحموهم في هذا الإرث الذي يعود إليهم وحدهم دون سواهم: (من المتقارب)

وَنَحْنُ وَرَثْنَا ثِيَابَ النَّبِيِّ
فَلِمَ تَجْذِبُونَ بِأَهْدَابِهَا؟
لَكُمْ رَجْمٌ يَا بَنِي بِنْتِهِ
وَلَكِنْ بَنُو الْعَمِّ أَوْلَىٰ بِهَا^(٣)

ونحن نشعر أن عبدالله بن المعتز كان يتلذذ ويتمتع بهجومه على الطالبيين مستغلاً كل حوادث التاريخ منذ ظهور الرسالة المحمدية إلى أن آلت الخلافة إليهم، ولا يمل من تذكيرهم بجدهم المتقاعس في نظره، وجده هو الذي نصر الرسول: (من الخفيف)

(١) نفسه، ٣٤.

(٢) ابن شاعر الكتبي: فوات الوفيات، ٢/٢٤٤؛ وهذا البيت غير موجود في الديوان.

(٣) عبدالله بن المعتز: نفسه، ٩؛ ابن شاعر الكتبي: نفسه، ٢/٢٤٢.

أَيُّهَا السَّائِلِي عَنِ الْحَسَبِ الْأَطْرَافِ
 يَبِ مَا فَوَّقَهُ لِحَلْقِ مَزِيدٍ
 نَحْنُ أَلِ الرُّسُولِ وَالْعِثْرَةَ الْحَقَّ
 قُ وَأَهْلُ الْقُرْبَى فَمَاذَا تُرِيدُ
 وَمَلَكْنَا رُقَّ الإِمَامَةِ مِيرَا
 ثَا فَمَنْ ذَا عَنَّا بِفَخْرٍ يَحِيدُ
 وَأَبُونَا حَامِي النَّبِيِّ وَقَدْ أَدَّ
 بَرَمَنْ تَعْلَمُونَ وَهُوَ يَدُودٌ^(١)

ودون أن يخشى أن ما يخدش تاريخ الطالبين يمس أيضاً، ولو بطريقة غير مباشرة، بني هاشم لأنهم من أسرة واحدة، إلا أن عبدالله بن المعتز يوغل في إيذائهم بالمقارنة بين جديهم العباس وأبي طالب، ولكن كل مرة بطريقة فنية جديدة، فهو بطبيعة الحال في مركز قوة: (من الخفيف)

أأَبُو طَالِبٍ كَمِثْلِ أَبِي الْقَضَاءِ
 لِي^(٢)؟ أَمَا مِنْكُمْ بِهَذَا عَلِيمٌ؟
 سَائِلًا مَالِكاً وَرِضْوَانَ^(٣) عَنْ ذَا
 أَيْنَ هَذَا وَأَيْنَ هَذَا يُقِيمُ؟
 فَدَعُوا الْمُلْكَ نَحْنُ بِالْمُلْكِ أَوْلَى
 قَدْ أَقْرَبْتُ بِذَلِكَ لَنَا الْخُصُومَ^(٤)

ثم يعود من جديد إلى التاريخ ليذكرهم بأنهم فرطوا في الخلافة التي أخذها منهم عنوة بنو أمية وجعلوها وراثية في نسلهم فلم يستطيعوا استرجاعها بالقوة

(١) عبدالله بن المعتز: نفسه، ٦٥.

(٢) أبو الفضل هم جدهم أبو العباس.

(٣) مالك هو حارس جهنم، ورضوان هو حارس الجنة.

(٤) عبدالله بن المعتز: نفسه، ٢١.

على الرغم من أن الأمويين في نظره كانوا حكاماً غاصبين ظالمين؛ وأنهم كثيراً ما نكلوا بهم وقطعوا رؤوسهم، ولولا غيرة بني العباس على بني عمهم الذين تأثروا لهم لما رجعت الخلافة. ويلومهم أنهم بعدما نصرورهم وتأثروا لهم كان رد الجميل أن أرادوا مزاحمتهم في الخلافة (من الطويل)

تَرَكْنَاكُمْ حِينَئِذٍ فَهَلْ أَخَذْتُمْ
مُتْرَاتِ النَّبِيِّ بِالْقَنَا وَالْقَوَاضِبِ؟
رَمَانَ بَنِي حَرْبٍ وَمَرْوَانَ مُمْسِكُو
أَعِنَّةِ مُلِكِ جَائِرِ الْحُكْمِ غَاصِبِ
فَلَمَّا أَرَأَقُوا بِالسُّيُوفِ دِمَاءَكُمْ
أَبَيْنَا وَلَمْ نَمْلِكِ حَنِينَ الْأَقْرَابِ
فَحِينَ أَخَذْنَا تَأْرَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ
قَعَدْتُمْ لَنَا ثُورُونَ نَارَ الْحَبَابِ^(١)

ويختم عبدالله بن المعتز هذا الهجوم بمجاهرته لعدوانه الصريح لبني عمه الطالبيين، ناصحاً العباسيين بقطع رأس كل من يريد الخلافة منهم بدون شفقة، واستعمال كل الإمكانيات لاغتيالهم جهراً أو غدراً: (من الكامل)

وَمَتَى يَرْمُهَا الرَّائِمُونَ فَبَادِرُوا
هَامَاتِهِمْ حَصْداً بِكُلِّ مُهَنْدٍ
قُودُوا قَوْدَ الْجِيَادِ شَوَازِبِ
لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الطَّرِيقِ الْأَبْعَدِ
طَوْرًا مُجَاهِرَةً وَطَوْرًا غِيْلَةً
كَمْ قَاتِلٍ بِغِرَارِ كَيْدٍ مُغْمِدِ^(٢)

(١) عبدالله بن المعتز: الديوان، ٢١. ونار الحباب مثل يضرب للدلالة على البخل؛ وكان الحباب رجلاً من أحياء العرب، وكان رجلاً بخيلاً، فكان لا يوقد ناره لبليل كراهية أن يراها راء فينتفع بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها، فأوقدها، ثم بصر بمستضيء بها أطفالها، فضربت العرب بناره المثل، وذكروها عند كل نار لا ينتفع بها؛ انظر الجوهرى: معجم الصحاح، ١٠٧/١.

(٢) نفسه، ٦٥.

د - المظاهر الدينية لدى الخلفاء العباسيين ومحتواها السياسي

كان على العباسيين الذين بذلوا جهوداً جبارة لإقناع الرعية بحقهم في حكمهم وبشرعية ميراثهم من النبي ﷺ بصفته قائداً روحياً وزمانياً أن يظهروا بذلك المظهر الذي يتماشى مع هذا الزعم. لذلك راحت دعايتهم التي كان الشعر دعامتها الأساسية يصفهم بالأئمة الأتقياء والمنافحين الأشداء عن الدين الإسلامي الحنيف والحكام العادلين.

وضع العدل عندهم في الدرجة الأولى، فهو بالنسبة إلى الشعراء الموالين شغلهم الشاغل، فهذا ابن هرمة يصف المنصور كالتالي: (من الطويل)

رَأَيْتُكَ لَمْ تَعْدِلْ عَنِ الْحَقِّ مَعْدِلًا

سِوَاهُ وَلَمْ تَشْغَلْ عَنْهُ الشُّوَاعِلُ^(١)

أما إدريس بن سليمان بن أبي حفصة فيرى أن الواثق أحيا سنة الرسول ﷺ الكريم بعدله وسماحته، وأن الدنيا والدين قد اعتدلا به، وأن قبة الإسلام قد اعتدلت به: (البيسيط)

أُخِيئَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ سُنَّتُهُ

فَأَضْبَحَ الْحَقُّ نَهْجًا وَاضِحَ السُّبُلِ

أَصْلَحَتْ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ

فَأَذْرَكُوا بِكَ عَفْوًا أَفْضَلَ الْأَمْلِ

لَوْ لَمْ يُقَمْ قُبَّةَ الْإِسْلَامِ عَدْلُكُمْ

لَأَضْبَحَ الْمَيْلَ مِنْهَا غَيْرَ مُعْتَدِلِ^(٢)

(١) حسين عطوان: الشعراء الصعاليك في العصر العباسي، ١٦٧؛ بيروت، د. ت.

(٢) صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، ٢١٥/٨.

وسواء أكان هذا المدح حقيقة أم نفاقاً فإننا نجد حقاً أن بعض الخلفاء العباسيين قد اشتهروا بعدلهم وحلمهم على الرعية، لذلك راح الشعراء يبرزون هذا الجانب فيهم، فمن هؤلاء مثلاً الخليفة المهدي الذي أراد أن يبدأ عهده بأحسن طريقة فمنح المجذومين والمسجونين معاشات في كل الآفاق^(١). وقد «كان المهدي محبباً للخاص والعام، لأنه افتتح عهده بالنظر في المظالم، والكف عن القتل، وأمن الخائف، وإنصاف المظلوم، وبسط يده في الإعطاء...»^(٢). وكان المهدي سخياً كريماً جواداً بالمال. لا شك، وقد توفرت فيه كل هذه الخصال أن مروان بن أبي حفصة يراه محبباً للحق لا يتوانى في فعل كل ما يضمن العدل للناس حتى وإن كان ذلك مُراً عليه: (من الطويل)

يَرَى أَنْ مُرَّ الْحَقِّ أَخْلَى مَعْبَةً

وَأَنْجَى وَلَوْ كَانَ زُعَافاً مَنَاهِلُهُ^(٣)

ومن تكون هذه صفاته فهو الوالد البار الرؤوف في نظره أيضاً: (من الطويل)

كَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا

لِرَأْفَتِهِ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدٌ^(٤)

وكان المأمون معروفاً بعفوه، فقد «عفا عن إبراهيم بن المهدي، وقد خلعه إبراهيم بعد أن كان عامله على البصرة، ودعا إلى نفسه وتسمى بأمر المؤمنين، وحارب أصحابه، وعفا عن الفضل بن الربيع، وهو الذي كان حمل محمداً على خلعه،... وعفا عن إسماعيل بن جعفر بن سليمان، وقد خلعه وقال فيه أقبح القول. وعفا عن نُعيم بن خازم، وقد أقام يحاربه عدة سنين،... وعفا عن سهل بن سلامة المُطَوَّعي، وكان يلبس الصوف ويعلق المصحف في عنقه، ويأمر الناس بخلع المأمون...»^(٥)

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥٧/٦.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١٦٩/٤.

(٣) مروان بن أبي حفصة: شعر مروان، ٩٤.

(٤) نفسه، ٣٨.

(٥) اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن أبي يعقوب (٢٨٤هـ/٨٩٧م): مشكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، ٢٦؛ تحقيق وليام ج. ميلورد (William G. Milward)، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٢.

وليس غريباً على من هذه خصاله وأفعاله أن يصفه محمد بن عبدالمملك
الفَقَّعْسِي بأنه كثير العفو حتى كأن الناس ليس لديهم ذنوب: (من الوافر)
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَفَوْتُ حَتَّى
كَأَنَّ النَّاسَ لَيْسَ لَهُمْ ذُنُوبٌ^(١)

وبعد العدل والعفو ورفع المظالم، ركز الشعراء على صفات أخرى لا تقل
أهمية في نظر الناس، لأن هؤلاء الخلفاء كانت تتجمع فيهم السلطان السياسية
والدينية. كان عليهم أن يظهروا للناس كأئمة متقشفين زاهدين يعملون كل ما
بوسعهم للحفاظ على الدين خاصة تلك العناية الكبيرة التي كان عليهم أن يولوها
للجهاد في سبيل الله. وقد كان هارون الرشيد أشهرهم في هذا المجال. ولم يغير
دخوله في المخيلة الشعبية عن طريق «ألف ليلة وليلة» شيئاً من ذلك، فقد كان يحج
سنة ويغزو سنة أخرى ضد الكفار، وكانوا في الغالب من البيزنطيين. وهذا الأمر
يخلده الشاعر أشجع السلمي بقوله: (من الخفيف)

مَلِكٌ مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ مُغْضٍ
وَهُوَ مُغْضِيٌّ لَهُ مِنَ الْإِعْظَامِ
أَلْفَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ فَمَا يَنْدُ
فَكَ مِنْ سَفَرَتَيْنِ فِي كُلِّ عَامٍ
طَلَبَ اللَّهَ فَهُوَ يَسْعَى إِلَيْهِ
بِالْعَطَايَا وَالْجِيَادِ السَّوَامِ
فَيَدَاهُ يَدٌ بِمَكَّةَ تَدْعُو
هَ وَأُخْرَى فِي دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ^(٢)

وقد كان هارون الرشيد يكتب على قلنسوته «غَازِ حَاجٌّ»، لذلك قال فيه داود
بن رَزَيْن: (من الطويل)

(١) ابن الجراح: الورقة، ١٣.
(٢) بنيان خليل الحسون: أشجع السلمي، حياته وشعره، ٢٦١؛ دار المسيرة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١.

إِمَامٌ بِذَاتِ الْحَجِّ أَضْبَحَ شُغْلُهُ

وَأَكْثَرَ مَا يُغْنَى بِهِ الْغَزْوُ وَالْحُجُّ^(١)

ويؤكد ابن أبي السُّعْلَى ذلك فيصوره وكأنه لا يهدأ له بال، ولا يجده طالبه إلا في البقاع المقدسة حاجاً أو في ثغور البلاد غازياً: (من الوافر)

فَمَنْ يَطْلُبُ لِقَاءَكَ أَوْ يُرِدُهُ

فَبِالْحَرَمَيْنِ أَوْ بِأَقْصَى الثُّغُورِ^(٢)

ومن الصفات الأخرى التي مُدِح بها الخلفاء العباسيون الشجاعة، إذ كان عليهم أن يظهروا بمظهر الأقوياء الأشداء الذين لا يخافون ولا يهابون المخاطر، ولا يترددون في المشاركة في المعارك التي يواجهون فيها جيوش الأعداء. ويقدمهم الشعر في رونق جميل تملؤهم الشجاعة، ويتمتعون بحسن التدبير الحربي وبجودة الخطط العسكرية ودقتها، فهم باختصار قادة سياسيون وعسكريون أفاض كما يصفهم الحسين بن مُطَيْرٍ: (من الطويل)

إِذَا شَاهَدَ الْقَوَادَّ سَارَ أَمَامَهُمْ

جَرِيءٌ عَلَى مَا يَتَّقُونَ وَثُوبٌ

وَإِنْ غَابَ عَنْهُمْ شَاهَدَتْهُمْ مَهَابَةٌ

بِهَا يَقْفَهُرُ الْأَعْدَاءُ حِينَ يَغِيبُ^(٣)

طبعاً كان الهدف من كل هذه الدعاية الضخمة هو القضاء على كل معارضة لحكمهم في المهدي. وللوصول إلى ذلك كان لا بد من إقناع الناس بعدة أفكار تركز

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ١٧٠/٨؛ ابن الأثير: تاريخ ابن الأثير، ١٦١/١٠.

(٢) ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (٥٥٨هـ/١١٦٣م): الإنباء في تاريخ الخلفاء، ٧٥؛ تحقيق قاسم السامرائي، ليدن، ١٩٧٣؛ الديار بكري، حسين بن محمد (٩٦٦هـ/١٥٥٩م): تاريخ الخميس، ٣٣١/٢؛ المطبعة الوهابية، ١٢٨٣هـ؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٧٠/٨، حيث ينسب هذا الشعر إلى شاعر آخر هو أبوالمعلّى الكلابي.

(٣) أبوالفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ٢٢/١٦.

عموما على الدين كالوراثة الشرعية للخلافة، حتى يبدو وكأنهم اختيروا من قبل قوة غيبية مما يعني أنهم يخرجون عن المألوف وأنهم معصومون، وأنهم فوق العادة، وأنهم غير طبيعيين إلخ. كل هذا الصرح الدعائي يجعلهم هم وحدهم الأئمة المختارون دون سواهم بحيث من واجب الناس طاعتهم والانصياع لهم بطريقة غير مشروطة وعدم الخروج على سلطتهم.

هـ - الكنى العباسية والألقاب الفخرية

كان على العباسيين، لاستكمال برنامجهم الدعائي، أن يوعزوا لشعرائهم بالتركيز على جانب آخر مهم ولكنه مرتبط دوماً بالعقيدة العباسية التي مفادها أنهم المتمكنون من السلطتين الروحية والسياسية لكونهم ممثلي العناية الإلهية فوق الأرض. هذا الجانب يتلخص في الألقاب الخاصة التي استعملها الخلفاء العباسيون إبان حكمهم. كان لكل واحد منهم لقب خاص بالإضافة إلى الألقاب المشتركة بينهم كـ«ال خليفة» و«أمير المؤمنين»، و«الإمام». تجدر الملاحظة هنا أنه كان لتلك الألقاب بعدان: أحدهما ديني، والثاني سياسي. لم يكن البعد الأول موجوداً إلا ظاهرياً بينما كان البعد الثاني مرتباً. ونلاحظ أيضاً أن النبوة الدينية كانت مهيمنة على هذه الألقاب. لكن هذا ليس غريباً إذا علمنا أن البعدين كانا متلازمين في ذلك العصر، وكانا يسييران بطريقة متوازية.

لسنا في حاجة إلى التذكير أنهم استعملوا الدين لتحقيق أغراضهم، وهذا ما أشار إليه واحد منهم وهو عبدالله بن المعتز: (من مجزوء البسيط)

المُلكُ بالدينِ يَبْقَى

وَالدينُ بالملكِ يَفْوَى^(١)

لقد ذكرنا أيضاً أن الخلفاء العباسيين قد استعملوا ألقاباً مشتركة كلقب «أمير المؤمنين» الذي استعمل أول مرة من طرف الخليفة عمر بن الخطاب. لقد حمل

(١) الماوردى: كتاب أدب الدنيا والدين، ١١٦: المطبعة الأميرية، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٢٥.

هذا اللقب كل من كان خليفة إلا خلفاء بني أمية في الأندلس فقد تسموا بـ«الأمراء» فقط حتى اعتلى منهم العرش أميرهم المعروف بـ«محمد المقتول» فأصبح يسمى نفسه «أمير المؤمنين»^(١). وكان هناك أيضاً لقب «الخليفة»، علماً أننا نتحدث هنا عن الألقاب التي استعملوها في الإدارة. وقد ذكر مونتغمري وات أنهم تجنبوا استعمال لقب «خليفة الله» لكنهم لم يكرهوا ولم يتحرجوا من استعمال ألقاب أخرى مثل «ظل الله في الأرض» الذي يعني حقاً أنهم ممثلو الله^(٢).

وقد لاحظ القلقشندي أنه كان من عاداتهم ألا يستعملوا الألقاب التي استعملت من قبل، وأن كل خليفة منهم كان يختار لنفسه لقباً جديداً، ولم يتغير هذا الأمر إلا عندما استقرت الخلافة العباسية في القاهرة بعد فرارها من بغداد، حينها أعيد استعمال بعض الألقاب القديمة^(٣).

أما حسن الباشا فإنه يذكر سبباً آخر لظهور هذه الألقاب يعتمد هو أيضاً على الدين حيث أصبحت بروتوكولاً ضرورياً للخلافة العباسية للتمييز عن الأمويين. ويرى كذلك أن ذلك مرده إلى وصف إبراهيم بن محمد العباسي بالإمام الذي أصبح فيما بعد لقباً لكل الخلفاء مع المعنى الروحي الذي يتسم به^(٤).

إن لقب الخليفة الأول «السفاح» الذي يقال بأنه هو الذي أطلقه على نفسه يعد استثناء في الألقاب العباسية كلها^(٥). يمكن أن يكون خصومه هم الذين أطلقوه عليه لأننا نجد رواية أخرى لدى ابن حزم مفادها أنه تسمى «المهدي» كما هو مَدُونٌ

(١) القلقشندي، علي بن الحسين (٤٣٦هـ/١٠٤٤م): مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ٢٨/١، تحقيق أحمد فراخ، الكويت، ١٩٦٤.

(٢) وات، مونتغمري: (Montgomery Watt): الفكر السياسي الإسلامي، ٥٣؛ تحقيق س. حديدي، دار الحدائق، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨١.

(٣) القلقشندي: نفسه، ٢٣/١.

(٤) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ٦٠.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، ١/١٤؛ عبدالعزيز الدوري: فكرة المهدي، ضمن «دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس»، ١٢٤ وما بعدها؛ الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٧٤.

في مئذنة بأحد جوامع صنعاء باليمن^(١). وإذا كان هذا الأمر صحيحاً فإن الخليفة الأول لم يشذ إذاً عن القاعدة.

وبطبيعة الحال، راح الشعراء يستغلون كل الإمكانيات الدعائية التي تحتويها هذه الألقاب والكنى، وأضافوها إلى عناصر الدعاية العباسية الأخرى التي تحدثنا عنها سالفاً؛ فهذا السيد الحميري يصف المنصور مثلاً بأنه «أمين الله» في قوله: (من مجزوء الرمل)

يَا أَمِينَ اللَّهِ يَا مَنْ

صُورَ يَا خَيْرَ الْوُلَاةِ^(٢)

ثم جاء دور الخليفة العباسي الثالث الذي أطلق على نفسه لقب «المهدي»، هذا اللقب الذي خص به الشيعة إمامهم محمد بن الحنفية^(٣) والذي أخذه من بعده الشيعي عبيد الله بالقيروان، ثم محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، ثم محمد بن إدريس بن علي بن حماد الحسني، حاكم ملقة، وأخيراً عبدالعزيز بن أحمد بن محمد بن الأصيغ في مليلة^(٤).

يجسد هذا اللقب فكرة المهديّة التي انتشرت قبل ذلك بين الفرق الإسلامية وخاصة بين الشيعة والإمامية منهم بالخصوص؛ لهذا أراد المهدي العباسي أن يسد الطريق أمام كل تلك الطموحات فتسمى بذلك اللقب، وبدأ عهده بعدة إصلاحات كما أشرنا سابقاً، خاصة في مجال الضريبة على الخراج التي كانت تثقل كاهل الزراع في ذلك الزمن.

(١) ابن حزم: رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ٤٣ (هامش): تحقيق إحسان عباس، ضمن «رسائل ابن حزم»، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١.

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ٣٤.

(٣) هو محمد بن علي بن أبي طالب ولكن ليس من فاطمة الزهراء وإنما من امرأة من بني حنيفة.

(٤) ابن حزم: السابق، ٤٤-٤٥.

وفي مجال آخر نلاحظ أن الشعراء كثيرا ما كانوا يستعملون أسماء الخلفاء
أو ألقابهم الرسمية مصحوبة بصفات ذات طابع ديني عموماً كما في قول ابن
يامين المصري: (من الخفيف)

حَازَ صَمَّصَامَةَ الرَّبِّيْدِيِّ مِنْ بَيْدِ

مِنْ جَمِيْعِ الْأَنْبَاءِ مُوسَى الْأَمِيْنُ^(١)

وهذا سلم الخاسر أيضاً يستعمل الطريقة نفسها بذكر الاسم متبوعاً بصفة
دينية كما في قوله: (من المنسرح)

يَمَّمْتُ مُوسَى الْإِمَامَ مُرْتَغِباً

أَزْجُو نَدَاهُ وَالْخَيْرُ مَطْلَبُ^(٢)

ويضيف إبراهيم الموصلية^(٣) صفة أخرى هي «أمين الله» عندما يتحدث إلى

هارون الرشيد بقوله: (من الطويل)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ سَقِيْمَةً

فَلَمَّا وَلِيَ هَارُونَ أَشْرَقَ نُورُهَا

بِئْمَنِ أَمِينِ اللَّهِ هَارُونَ ذِي النَّدَى

فَهَارُونَ وَالِيهَا وَيَخِي وَيَزِيْرُهَا^(٤)

ويؤكد عمارة بن عقيل العلاقة بين اسم الخلافة والصفة الدينية المضافة
كغمام الهدى مثلاً عندما يجعل المأمون منشغلاً بالدين بينما الناس منشغلون
بالدنيا، وهذا يلخص فعلاً هذه الفكرة (من البسيط):

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ١٠٩/٦؛ والصمصامة هو سيف عمرو بن معديكرب، شاعر
وفارس جاهلي.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ١٧٣.

(٣) إبراهيم الموصلية (١٢٥هـ-١٨٨هـ/٧٤٣م-٨٠٤م): شاعر وأديب وهو من رجال البلاط العباسي، ويعد من
أكبر الملحنين والمغنين في عصره.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١٩٦/٤.

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُنْشَغِلاً

بِالَّذِينَ وَالنَّاسُ بِالدُّنْيَا مَشَاغِيلٌ^(١)

كما هو واضح، فإن هذه الصفات التي أصبغها الشعراء على الخلفاء ليست صفات رسمية مستعملة في الوثائق الإدارية وإنما هي تزيينات شعرية وتنافس بين الشعراء في إضفاء صفات دينية لا أكثر ولا أقل.

كان هذا إذاً جانباً من الشعر السياسي لذلك العصر، هذا الشعر الذي كثيراً ما كان يكتنفه الغموض.

و- الصراع على السلطة داخل البيت العباسي

يمتد العصر الذهبي للعباسيين خلال القرن الأول من حكمهم الذي يمتد من اعتلاء السفاح العرش سنة ١٢٢هـ إلى الوثائق الذي تنتهي خلافته سنة ٢٣٢هـ. كان للخليفة في هذا العصر سلطة مطلقة وشمولية لا ينازعه فيها أحد ولا يستطيع أحد أن يجهر بذلك. كان مطاعاً بحد السيف، وكانت أوامره تنفذ حرفياً و كلياً على امتداد أقاليم إمبراطوريته. كان ديكتاتوراً يقتل من يشاء ويبقي على حياة من يشاء. وكان مهاب الجانب من قبل خصومه وأصدقائه على السواء. لكنه مع الزمن، وعلى مر السنوات، سيصبح أعبوبة طيعة في أيدي المغامرين والغاصبين الأتراك. وسيقوم هؤلاء الأتراك فيما بعد، في عهد الفوضى العارمة في سُرِّ مَنْ رَأَى (سَامُرَاء) بتعيين الخلفاء وإزاحتهم كما يشاؤون. وستتحول تلك المؤسسة إلى رمز هزيل لسلطة وهمية للخلافة.

منذ البداية، وحتى إبان عصرهم الذهبي، حدث صراع مريع وشرس بين العباسيين على السلطة. كان عددهم كبيراً جداً، فقد بلغوا في ذلك الوقت، حسب

(١) ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (٢٨٠هـ/٨٩٣م): بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، ١٧٢؛ دار المعارف، بيروت، ١٩٦٨.

ابن الأثير، ثلاثة وثلاثين ألفاً في عهد المأمون. من الطبيعي أن يطمع بعضهم في الخلافة، لذلك كانت هذه الحقبة مليئة بالدسائس والمؤامرات، محدثين بذلك فجوة سيصل منها الوهن والضعف إلى مؤسسة الخلافة، والتي ستؤدي فيما بعد إلى القضاء على سلطتهم.

وكان من أكبر نقائص مؤسستهم عدم وجود نظام واضح لولاية العهد وللإستخلاف، فقد كان تعيين ولي العهد متروكاً في أغلب الأحيان للظروف الجيوسياسية الآنية، وكذلك للظروف العائلية المرحلية. وكان أحياناً متروكاً للمصادفة، ولم يكن يخضع لقواعد وقوانين واضحة. وكثيراً ما كان الولي يعين تحت الضغط، وحسب ظروف البلاط العباسي؛ فمثلاً لم يكن الابن الأكبر هو الذي يعين دائماً بل يعين أحياناً الابن الأوسط أو الابن الأصغر. وأحياناً أخرى يعين الأخ أو العم أو ابن الأخ أو ابن العم الخ... وقد كان هذا التعيين أحياناً متعدداً أي كان يتم تعيين عدة ولاة للعهد ولكن بالتسلسل.

ربما كان عذرهم في كل ذلك أنهم لم يكونوا يعرفون ماذا كان يخبئ لهم القدر، فقد يحدث أن يموت الخليفة دون أن يعين ولياً للعهد، وهنا ربما تحدث بعض القلاقل لتعيين خليفة جديد. وقد حدث هذا فعلاً عندما مات الهادي والواثق دون أن يعين ولياً للعهد. إذاً يكمن ضعف هذا النظام في هذه النقطة الأولى، لأن الظروف التي كانت موجودة إبان التعيين المتعدد لولاية العهد قد تتغير فيما بعد ويصبح ذلك وبالأعلى على المؤسسة بحيث لا يحترم ولا ينفذ.

والآن لتعرضنا سريعاً لمشكل الإستخلاف لاستطعنا رؤية خلل هذا النظام. لقد عين الخليفة الأول السفاح أخاه المنصور وابن عمه عيسى بن موسى وسماه «المرتضى» وليين للعهد بالتتالي. لكن المنصور سيخرق هذا الترتيب وسيفعل كل ما في وسعه لجعل ابن عمه يتخلى عن حقه في الخلافة لصالح ابنه المهدي ويزحزحه

هو إلى الدرجة الثانية أي يصير ولياً للعهد بعد المهدي. وقد منحه مبلغ عشرة آلاف درهم لإسكاته.

وبما أن الشعراء كانوا يتحينون الفرص فمن غير المعقول أن يتركوا فرصة كهذه تمر دون أن يقولوا رأيهم فيها، فهذا مثلاً أبونخيلة يدافع عن موقف السفاح ويقول لعيسى بن موسى: (من الرجز)

لَيْسَ وَلِيٌّ عَهْدِنَا بِالْأَسْعَدِ
عَيْسَى فَزَخْلِقَهَا إِلَى مُحَمَّدٍ^(١)

ويسخر شاعر مجهول من ولي العهد سيء الحظ الذي يرى أنه خشي الموت وقبل المال وتخلّى عن العز والرفعة، بقوله: (من الرمل)

كَرِهَ الْمَوْتَ أَبُو مُوسَى وَقَدْ
كَانَ فِي الْمَوْتِ نَجَاءً وَكَرَمٌ
خَلَعَ الْمُلْكَ وَأَضْحَى لِابْسَاءَ
ثَوْبٌ ذُلٌّ لَا تُرَى مِنْهُ الْقَدَمُ^(٢)

وهو هنا يشير إلى الضغوط التي مارسها عليه المهدي، وإلى التهديدات وكذلك الإغراءات لكي يتخلّى عن ولاية العهد. وكان أبو موسى عيسى بن موسى هذا شاعراً كذلك، فإننا نجدّه يتعرض لهذا الموضوع بشيء من الحسرة لأنه يشعر أنه غدر به، وأنه يستحق أكثر من هذا لأنه كان له دور كبير في نجاح الثورة العباسية: (من الطويل)

أَيْنَسَى بَنُو الْعَبَّاسِ دَبِّي عَنْهُمْ
بِسَيْفِي وَنَارِ الْحَرْبِ ذَاكَ سَعِيرُهَا
فَتَحْتُ لَهُمْ شَرْقَ الْبِلَادِ وَعَرَبَهَا
فَذَلُّ مُعَادِيهَا وَعَزُّ نَصِيرُهَا

(١) أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ٤١٧/٢٠.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب، ١٤٦؛ ابن العمري: الإنباء في تاريخ الخلفاء، ٦٤.

تَسَهَّلَتِ الدُّنْيَا لَكُمْ وَتَيَسَّرَتْ
بِسَيْفِ امْرِئٍ لَوْلَاهُ دَامَ عَسِيرُهَا
وَقَدْ سَاوَرْتَكُمْ مِنْ ابْنِ الْعَمِّ عُصْبَةً
كَأَسَدِ الشَّرَى مَا يَسْتَفِيضُ رَيْزُهَا
أُقَاتِلْ عَنْهُمْ عُصْبَةً مَا أُرِيدُهَا
بِسُوءِ كَبِيرٍ فِي الْعُيُونِ صَغِيرُهَا
أَقْطَعْ أَرْحَاماً عَلَيَّ عَزِيْزَةً
وَأَسْبِدِي مَكِيدَاتٍ لَهَا وَأَثِيرُهَا
فَلَمَّا وَضَعْتَ الْأَمْرَ فِي مُسْتَقَرِّهِ
وَلَاخَتِ بِهِ شَمْسٌ تَالِدًا نُورُهَا
دُفِعْتُ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَسْتَجِئُهُ
وَسَارَتْ بِأَوْسَاقٍ مِنَ الْعَدْرِ عَيْرُهَا^(١)

إنه لوم وحسرة من هذا الولي على المعاملة التي عامله بها أهله بعد أن ذب عنهم، وحارب من أجلهم، بل حارب بني عمه الذين يعزهم من أجل رفع راية العباسيين، لكنهم قلبوا له ظهر المجن، وغدروا به، وأبعدوه عن الخلافة نهائياً، ومات مقتولاً^(٢).

وقد بدأت المؤامرات مدة قبل موت المهدي لأنه هو أيضاً أوصى بولاية العهد لولديه الهادي وهارون الرشيد على التوالي. وقد قام تحت ضغط زوجته الخيزران ومحيطه من تنحية ابنه الهادي لكن هذا الأخير رفض أن يرضخ، غير أن موت الأب المفاجئ ترك الأمر على حاله. وحاول الهادي أيضاً إبعاد أخيه هارون الرشيد عن ولاية العهد وتعويضه بابنه لكن موته المفاجئ والغامض لم يترك له الوقت لتنفيذ مآربه، وبذلك حسم الأمر لصالح هارون الرشيد.

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ٩٦-٩٧.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١/٢٤٥.

غير أن هارون الرشيد لم يتعظ مما وقع له شخصياً ووقع في الخطأ نفسه عندما عين أولاده الثلاثة ولاة للعهد بالتتالي، متسبباً بذلك في أعنف حرب أهلية ستعرفها البلاد فيما بعد بسبب ولاية العهد بين الأخوين الأمين والمأمون.

وقد شجع هذا الموقف الغريب بعض الشعراء الذين لم يتفطنوا للخطر المحقق بالدولة وبالأسرة العباسية بسبب هذا التعيين المتعدد لولاية العهد فراحوا يحضون الخلفاء على ذلك، كما فعل إسماعيل بن صالح العباسي^(١) الذي ألح على هارون الرشيد أن يعين ابنه الثالث بعد ما عين اثنين من أولاده: (من الكامل)

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي
لَوْ كَانَ نَجْمًا كَانَ سَعْدًا
أَعْقِدْ لِقَاسِمَ بَيْعَةٍ
وَأَقْدَحْ لَهُ فِي الْمَلِكِ زُنْدًا
اللَّهُ فَزْدُ وَاجِدُ
فَاجْعَلْ وُلاةَ الْعُهُدِ فَزْدًا^(٢)

إن خفة هذه الحجة وتفاهتها تبين مدى عدم الإحساس بالخطورة لدى هذا الشاعر وهو يزرع بذور الفرقة والفتنة من خلال تعدد ولاية العهد، ولكن ذلك لم يكن في الحقيقة سوى غطاء لإخفاء الصراع الخفي والعلني الذي كان يدور بين الأطراف الفاعلة في السلطة في ذلك الوقت، فنحن نعرف أن أم الأمين كانت عربية، وأن أم المأمون كانت فارسية، وكل مجموعة كانت تضغط على الخليفة ليكون لها موقع قدم في السلطة من خلال ولي العهد. ولكن مع ذلك ظل الشعراء

(١) إسماعيل بن صالح: أمير عباسي (توفي سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م)؛ كان خطيباً مفوهاً وقد تولى ولاية مصر لمدة تسعة أشهر في عهد هارون الرشيد سنة ١٨٢هـ.

(٢) الصفدي: فوات الوفيات، ١٢٢/٩؛ ابن شاعر الكتبي: الوافي بالوفيات، ٢/٢٩٩؛ ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء، ٧٩.

يمدحون هذا الموقف الغريب من هارون الرشيد الذي عقد العهد لأولاده الثلاثة، فهذا أبو العتاهية يرى عكس الواقع ويؤكد أن الخليفة قد شد عرى الإسلام بهذه التسمية الثلاثية: (من الطويل)

وَشَدُّ عُرَى الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ بِفِئْتِيَةٍ
ثَلَاثَةِ أَمْلَاكٍ وَوَلَاةٍ عُهُودِ
هُمْ خَيْرُ أَوْلَادٍ لَهُمْ خَيْرُ وَالِدِ
لَهُ خَيْرُ آبَاءٍ مَضَتْ وَجُدُودِ^(١)

وقد كانت العادة أحياناً أن يتم الإعلان عن ولاية العهد في البيت الحرام، كما فعل هارون الرشيد عندما علق كتاب ولاية العهد لأبنائه الثلاثة في الكعبة حتى يراه الناس القادمون من كل فج. وهذا ما يذكره إبراهيم الموصللي ويتفاهل به خيراً: (من مجزوء الكامل)

خَيْرُ الْأُمُورِ مَغْبِئَةٌ
وَأَخْسَرُ أُمُورٍ بِالتَّمَامِ
أَمْرٌ قَضَى إِخْكَامَهُ الْ
رُحْمَانُ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ^(٢)

ومقابل هؤلاء الشعراء الذين شجعوا هذا الخليفة نجد آخرين ينبهونه إلى مغبة هذا الفعل وإلى خطورته؛ هذا شاعر مجهول من تلك الحقبة يبعث إليه بهذه الأبيات: (من الواض)

أَقُولُ لِغَمَّةٍ فِي النَّفْسِ مِنِّي
وَدَمْعُ الْعَيْنِ يَطْرِدُ أَطْرَادَا

(١) ابن العمراني: نفسه، ٧٩.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢٨٦/٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة، ١١٩/٢.

خُذِي لِلْهَوْلِ عُذَّتَهُ بِحَزْمٍ
سَنَلْقَى مَا يَمْنَعُكَ الرُّقَادَا
فَإِنَّكَ إِنْ بَقِيتِ رَأَيْتِ أَمْرًا
يُطِيلُ لَكَ الْكَأَبَةَ وَالسُّهَادَا
رَأَى الْمَلِكُ الْمُهَذَّبُ شَرَّ رَأْيٍ
بِقِسْمَتِهِ الْخِلَافَةَ وَالْعِبَادَا
رَأَى مَا لَوْ تَعَقَّبَهُ بِعِلْمٍ
لَبَيَّضَ مِنْ مَفَارِقِهِ السُّوَادَا
فَقَدْ غَرَسَ الْعَدَاوَةَ غَيْرَ آلٍ
وَأُورَثَ شَمْلَ أَلْفَتِهِمْ بَدَادَا
وَأَلْقَحَ بَيْنَهُمْ حَرْبًا عَوَانًا
وَسَاسَ لِأُمَّةٍ بِهِمُ الْقِيَادَا
فَوَيْلٌ لِلرَّعِيَّةِ عَمَّا قَلِيلٍ
لَقَدْ أَهْدَى لَهَا الْكُرْبَ الشَّدَادَا
وَالْبَسَهَا بِلَاءً غَيْرَ فَانَ
وَأَلْزَمَهَا التَّضَعُّعَ وَالْفَسَادَا
سَتَجْرِي مِنْ دِمَائِهِمْ بُحُورٌ
زَوَاخِرٌ لَا يَرَوْنَ لَهَا نَفَادَا^(١)

وقد كان الشعراء الذين أحسوا بخطورة الوضع الناتج عن التعيين المتعدد لولادة العهد يخشون على أنفسهم لو صرحوا برأيهم ذلك لأنه يتنافى مع إرادة الخليفة القائم الذي أجرى ذلك الترتيب، لذا كانوا يلجؤون إلى ما يشبه «الرسائل المجهولة» التي يرسلونها إلى الخليفة وينشرونها بين الناس حتى ينبهوا إلى مغبة ذلك، فهذا شاعر مجهول آخر من خراسان يقول: (من الوافر)

(١) الطبري: السابق، ٢٧٧/٨.

رَمَى أَهْلَ الْعِرَاقِ وَمَنْ عَلَيَّهَا
إِمَامُ الْعَدْلِ وَالْمَلِكُ الرَّشِيدُ
بِأَخْزَمَ مَنْ نَشَأَ رَأِيًا وَحَزْمًا
وَكَيْدًا نَافِذًا مِمَّا يَكِيدُ^(١)

ويبدو أن هارون الرشيد قد تنبه إلى خطئه بعد فوات الأوان إذ نجده يقول
بشيء من الندم الواضح: (من الطويل)

لَقَدْ بَانَ وَجْهُ الرَّأْيِ لِي غَيْرَ أَنْبِي
غُلِبْتُ عَلَى الرَّأْيِ الَّذِي كَانَ أَخْزَمًا
فَكَيْفَ بَرَدَ الدَّرَّ فِي الضَّرْعِ بَعْدَمَا
تَوَزَّعَ حَتَّى صَارَ نَهَبًا مُقَسَّمًا
أَخَافُ التَّوَاءِ الْأَمْرِ بَعْدَ اسْتِوَائِهِ
وَأَنْ يُنْقَضَ الْحَبْلُ الَّذِي كَانَ أُبْرَمًا^(٢)

وقد كان خطأ هارون الرشيد مزدوجاً فبعد أن وزع ولاية العهد على أبنائه
الثلاثة راح يقسم البلاد أيضاً عليهم مما انجر عنه حرب أهلية ضروس نتائجها
الوخيمة معروفة جداً. وقد حرض هذا الوضع الشعراء للتعبير عن إحساسهم
ومواقفهم من تلك الحرب، خاصة أثناء حصار بغداد من قبل جيش المأمون. لقد
وصفوا قساوتها وبشاعتها، فهي لم تكن بين أخوين فقط وإنما كانت بين مراكز
قوى متناقضة، بين عرب وفرس، وبين شيعة وسنة. لقد كانت حرباً مفروضة على
الرعية التي لم يكن لها فيها لا ناقة ولا جمل، تلك الرعية التي كانت دوماً تطمح
للعيش في سلام وأمان كما يعبر عنه هذا الشاعر المجهول بقوله: (من الوافر)

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٣٥/٦.
(٢) المرزباني: معجم الشعراء، ٤٦٢.

إِذَا مَا الْعَيْشُ سَاعَدَنَا فَلَسْنَا

نُبَالِي بَعْدُ مَنْ كَانَ الْإِمَامَا^(١)

ولعل الشاعر عمرو الوراق والشاعر المكفوف علي بن أبي طالب هما أحسن من وصف ويلات الحرب وبشاعتها فقد أفردا لها عدداً من قصائدهما ذاكرين المعارك التي خاضها المتحاربان وأوضاع الرعية أثناء حصار بغداد .

وقد بقي المأمون في خراسان بعد انتصاره على أخيه مدة طويلة عقاباً لبغداد على موقف سكانها الذين ناصروا الأمين. لكن الصراع على السلطة لم يتوقف عند هذا الحد بين العباسيين بل اتخذ شكل مؤامرة عائلية هذه المرة، خاصة من الفرع الموجود في بغداد، حيث تقرر خلع المأمون واستبداله بعمه إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة، غير أن عودة المأمون إلى بغداد سرعان ما جعلت الأمر يستتب له ويلقي القبض على عمه ويسجنه ثم يعفو عنه. ولم يعجب هذا الموقف جميع الناس حيث راح بعضهم يحرض المأمون وينتقده في الوقت نفسه على هذا التسامح: (من الطويل)

وَلَيْسَ سَوَاءً خَارِجِيٌّ رَمَى بِهِ

إِلَيْكَ سَفَاهُ الرَّأْيِ وَالرَّأْيُ قَدْ يُرْدِي

وَأَخْرُ مِنْ بَيْتِ الْخِلَافَةِ يَلْتَقِي

بِهِ وَبِكَ الْأَجْدَادُ فِي نِزْوَةِ الْمَجْدِ

وَمَوْلَاكَ مَوْلَاهُ وَجُنْدُكَ جُنْدُهُ

وَهَلْ يَجْمَعُ الْقَيْنُ الْحُسَامِينَ فِي الْعُغْدِ^(٢)

(١) مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ١٨٤؛ دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.

(٢) ابن طيفور: بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، ١٠٨.

بعد ذلك بسنوات قليلة نجد أحد أبناء المأمون، وهو العباس، يحاول في عهد المعتصم القيام بانقلاب على عمه، لكنه يخفق ويمسك به ويعدم. وهذا ما يشير إليه حسين بن الضحاك: (من مجزوء الكامل)

خَلَّ الْأَعْيُنَ وَمَا كَسَبَ
لَا زَالَ مُنْقَطِعَ السَّبَبِ
حَسَدَ الْإِمَامِ مَكَانَهُ
جَهْلًا حَذَاكَ عَلَى الْعَطَبِ^(١)

ويذكره مروان الأصغر أيضاً بقوله: (من الوافر)

هَوَى الْعَبَّاسُ حِينَ أَرَادَ غَدْرًا
فَوَافَى إِذْ هَوَى قَعَرَ الْجَحِيمِ^(٢)

ويموت الخليفة الواثق دون أن يعين ولياً للعهد أيضاً، تماماً كما حدث في عهد المهدي. والغريب أن الخليفة المتوكل الذي يعرف المشكلات المترتبة عن تعدد الولاية، يبادر بتعيين أبنائه الثلاثة المنتصر والمعتز والمستعين ولاة للعهد على التوالي دون أن يستفيد من دروس التاريخ القريب من عهده عندما عين هارون الرشيد أبنائه الثلاثة.

والغريب أن الشعراء هنا أيضاً راحوا يثمنون ذلك التعيين ويضفون عليه مسحة قدسية كما نرى ذلك عند ابن البواب: (من المنسرح)

يَا بَيْعَةَ مِثْلَ بَيْعَةِ الشُّجْرَةِ^(٣)
فِيهَا لِكُلِّ الْخَلَائِفِ الْخَيْرُ

(١) أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ١٦٨/١٢.

(٢) نفسه، ٨٤/١٢.

(٣) لقد شبه هذه البيعة ببيعة الشجرة المعروفة ببيعة الرضوان، والتي نزلت فيها الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، (سورة الفتح، آية ١٨).

أَكْدَهَا جَعْفَرٌ وَصَيَّرَهَا

إِلَى بَنِيهِ الثَّلَاثَةِ الْبَرَّةِ^(١)

فقد شبه هذا الأمر ببيعة الرضوان عندما بايع أهل المدينة المنورة الرسول ﷺ تحت الشجرة، وهي المعروفة ببيعة الرضوان، وراح يضي على الحادثة غطاءً قدسياً، وجعل ولاية العهود الثلاثة رجالاً بررة في أسلوب قرآني واضح.

وجعل علي بن الجهم من هذا الحدث أمراً جليلاً به يحفظ الدين الإسلامي

ويصلح: (من الكامل)

مَا أَرَدْتُ صَالِحَ دِينِ مُحَمَّدٍ

وَأَلَيْتَ عَهْدَ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدًا

ثَنَيْتَ بِالْمَعْتَزِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ

وَجَعَلْتَ ثَالِثَهُمْ أَعَزَّ مُؤَيَّدًا^(٢)

ويتردد المشهد نفسه عند مروان بن أبي الجنوب الذي يفصل في الأمر أكثر،

ويصنع على كل واحد من الولاة الثلاثة صفات تؤكد هذا الاختيار لهم: (من الطويل)

ثَلَاثَةٌ أَمْلاكٍ فَأَمَّا مُحَمَّدٌ

فَنُورٌ هُدَى يَهْدِي إِلَهُ بِهِ مَنْ يَهْدِي

وَأَمَّا أَبُو عَبْدِ الْإِلَهِ فَإِنَّهُ

شَبِيهٌكَ فِي التَّقْوَى وَيُجْدِي كَمَا تُجْدِي

وَدُو الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمَ لِلنَّاسِ عِصْمَةً

تَقِيٌّ وَفِي بِالْوَعِيدِ وَبِالْوَعْدِ

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٧/٥.

(٢) المسعودي: السابق، ٧/٥.



فَأَوْلَهُمْ نُورًا وَثَانِيَهُمْ هُدًى

وَتَالِثُهُمْ رُشْدٌ وَكُلُّهُمْ مَهْدِيٌّ^(١)

حيث جعل الأول منهم، وهو محمد، نوراً للهدى يهدي الله به من يشاء من عباده، وجعل الثاني وهو أبو عبد الإله، تقياً كأبيه كريماً يفيد الناس بكرمه كأبيه أيضاً، وجعل الثالث، وهو إبراهيم، درعاً للناس يعصمهم من الخطأ، وهو فوق هذا تقي وفي. لذلك جعلهم على التوالي نوراً وهدى ورشداً، وختم كلامه بأن جعلهم جميعاً مهديين.

كان الخليفة المتوكل أول ضحية لهذا التدبير، فقد قتله ابنه المنتصر وولي عهده تحت ضغط العسكر الأتراك. وقد بكاه الشعراء ورثوه كثيراً، ومنهم البحري بقوله: (من الطويل)

أَكَانَ وَلِيَّ الْعَهْدِ أَضْمَرَ غَدْرَهُ

فَمِنْ عَجَبٍ أَنْوَلِيَّ الْعَهْدَ غَايِرُهُ^(٢)

وهكذا يبدأ عهد جديد بعد اغتيال المتوكل سنة ٢٤٧هـ/٨٧٤م، دون أن يتوقف الصراع من أجل السلطة بين أفراد الأسرة العباسية، غير أنه سيتخذ شكلاً كالذي رأيناه قبل قليل، أي المؤامرات والدسائس المرتبطة بالاستخلاف. وسوف ينصب الخلفاء أو يزاحون حسب إرادة القادة العسكريين وخاصة الأتراك منهم.

ز - العباسيون والفرس

إنه معروف عند الباحثين أن الثورة العباسية لم تتجح إلا بفضل الفرس الأمر الذي سمح بظهور تفسيرات عرقية للأحداث العائدة إلى تلك الحقبة، مما جعل

(١) نفسه، ٢٥/٥.

(٢) البحري: الديوان، ١٠٤/٢.



بعضهم يظهرها وكأنها ثورة الموالي الفرس على الهيمنة العربية^(١). هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهناك من له أيضاً نظرة أحادية وينزع من الفرس كل دور يمكن أن يكونوا قد قاموا به.

والحقيقة أن العرب والفرس تعاونوا معاً حتى نجحت تلك الحركة. لكن لا بد من التوضيح أن لفظة «الخراسانية»^(٢) الواردة مراراً في المصادر القديمة إنما تعني القبائل العربية التي استوطنت تلك المناطق بعد الفتوحات الأولى.

إذاً لم تكن تلك الثورة عرقية بل كانت شعبية لأن العرب والفرس، جنباً إلى جنب، تضافرت جهودهم لإسقاط الأمويين.

لعل هذا اللبس ناتج عن التركيز والمبالغة في الدور الذي قام به أبو مسلم الخراساني، إذ تجدر الملاحظة أنه لم يكن القائد العسكري الوحيد في تلك المعركة بل إننا نجد بعض المؤرخين المبالغين نوعاً ما مثل المسعودي الذي يزعم أن أبا مسلم من أصل عربي^(٣).

بينما تذكر مصادر أخرى بوضوح أن القوة الضاربة في الحركة العباسية كانت تتكون من القبائل العربية في خراسان^(٤).

ويمكن أن نذكر أيضاً أنه كان لهذه الحركة، قبل ظهورها إلى العلن، حركة سرية مهيكلية بطريقة جيدة، حيث نجد لها اثني عشر داعياً لتحسيس الناس

(1) Karl Brockelmann: *Histoire des peuples et des Etats musulmans*, 143 et suite;

(2) انظر: ثريا، حافظ عرفة: الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول، تهامة، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٢؛ صالح العلي: استيطان العرب في خراسان، ضمن «مجلة كلية الآداب»، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٥٩.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٧٨/٤.

(4) فاروق عمر: بحوث في التاريخ العباسي، ١١-٥١؛ حيث يذكر كل المصادر بما فيها المخطوطات، التي تكلمت عن الدور الذي قام به العرب والفرس في تلك الثورة. يمكن أن نذكر على سبيل المثال: الأزدي، وابن خياط، والدينوري، والبلاذري إلخ...

بالقضية وجمع الأموال. كان اثنان من هؤلاء الدعاة من قبيلة خزاعة، وأربعة من تميم، وواحد من طيء، وواحد من شيبان^(١).

كانت الأغلبية منهم من العرب، لكن هذا لا يعني إطلاقاً أن عرب خراسان هم وحدهم الذين شاركوا في تلك المعركة بل هذا يعني أنها لم تكن عربية محض ولا فارسية محض.

وفي جهة مقابلة نجد بعض العرب وبعض الفرس من خراسان كانوا ضد الثورة العباسية وعاونوا الأمويين، فسكان جرجان مثلاً ساعدوا الأمويين ضد جيش خراسان الذي كان يقوده القائد العربي قَحْطَبَة بن شبيب الطائي^(٢) الذي عينه الإمام إبراهيم من قبل قائداً لجيش فارس المتوجه نحو العراق والشام^(٣).

جاء بعد ذلك تصرف العباسيين مع الفرس، مما يعني أنهم لم يكونوا بتلك القوة التي تعزى لهم وإلا كيف نفسر القضاء جسدياً على القادة الفرس مثل أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني والبرامكة فيما بعد؟ ثم كيف نفسر موقف الجنود الفرس عندما قتل الخليفة المنصور أبا مسلم وألقى رأسه أمامهم مع بعض الدراهمات؟ هل سكتوا بسهولة من أجل المال؟ نحن نشك في ذلك.

ويذكر مونتغمري وات من جهته أن العباسيين وعدوا الموالي بالاستجابة لدعاوهم بسبب مجهودهم الكبير في تلك الحرب ضد الأمويين^(٤). فعلاً، ذلك صحيح، لكن العرب أيضاً تلقوا الوعود نفسها من العباسيين.

(١) نفسه، ٤٣.

(٢) قحطبة بن شبيب الطائي (١٣٢هـ/٧٤٩م): رفيق أبي مسلم الخراساني وأحد الدعاة الاثني عشر الذين عينهم الإمام إبراهيم.

(٣) فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ١١؛ مكتبة المثني، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٧٧.

(٤) مونتغمري وات: السابق، ١٠٩.

لقد قتل المنصور أبا مسلم لأنه كان يخشاه، فلم يكن الرجلان على وفاق حتى قبل اعتلاء المنصور سدة الحكم. إننا نجد الخليفة يؤكد ذلك في البيتين التاليين:
(من الوافر)

قَدِ احْتَنَفَتْكَ خِلَاتٌ ثَلَاثٌ
جَلَبْنَ عَلَيْكَ مَخْذُورَ الْحِمَامِ
خِلَافَكَ وَأَمْتِنَانُكَ تَزْتَمِينِي
وَقَوْدُكَ لِجَمَاهِيرِ الْعِظَامِ^(١)

وفيما بعد، كان للفرس دور عظيم في الحرب الأخوية بين الأمين والمأمون حيث ناصروا هذا الأخير وأسهموا في تفوقه إذ كانت تربطهم به علاقة قرابة عن طريق أمه الفارسية.

وقد ألقى الشعراء الضوء على دور الفرس في هذه الحرب، خاصة الشعراء الذين من أصل فارسي مثل الفضل بن سهل^(٢): (من الخفيف)

إِنَّ مَأْمُونَ هَاشِمٍ أَضْلُهُ مَخٌ
كَتَّةٌ مِنْهَا أَبَاؤُهُ وَجُدُودُهُ
غَيْرَ أَنَا نَحْنُ الَّذِينَ غَدُونَا
هُ بِمَاءِ الْعُلَا فَأُورِقَ عُودُهُ
قَدْ نَصَرْنَا الْمَأْمُونَ حَتَّى حَوَى الْمُدَّ
لَكَ فَفِينَا طَرِيفُهُ وَتَلِيدُهُ^(٣)

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ٣/٥٥٥؛ تحقيق فوزي عطوان، دار سعد، بيروت، ١٩٦٨.
(٢) الفضل بن سهل (١٥٤هـ-٢٠٢هـ/٧٧١م-٨١٨م): وزير المأمون، أسلم سنة ١٩٠هـ؛ يسمى «ذا الرياستين» أي رئاسة السيف والقلم؛ انظر: المرزباني: معجم الشعراء، ١٨٣؛
Dominique Sourdel: Le Vizirat abbasside. 1/196-213.

(٣) المرزباني: معجم الشعراء، ١٨٣.

عدة سنوات فيما بعد، يقول شاعر آخر، هو علي بن الجهم كلاماً مشابهاً للوائق: (من الخفيف)

أَنْتُمْ خَيْرُ سَادَةٍ يَا بَنِي الْعَبْدِ
بِاسِ قَابِقُوا وَنَحْنُ خَيْرُ عَبِيدِ
نَحْنُ أَشْيَاءُكُمْ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَا
نِ وَأَوْلُو قُوَّةٍ وَبِأَسِ شَدِيدِ
إِنْ رَضَيْتُمْ أَمْرًا رَضَيْنَا وَإِنْ تَأْ
بَوْا أَبَيْنَا لَكُمْ إِبَاءَ الْأُسُودِ^(١)

باستطاعتنا أن نقارن بين النصين لنرى التغير في النبيرة الذي حدث بين عهد المأمون والآن أي في نهاية العصر العباسي الأول أي في عهد الواثق. لقد قيل الأول في غمرة نصر المأمون بموازرة أخواله الفرس بينما قيل الثاني عندما بدأ نفوذهم يترنح ويتقلص شيئاً فشيئاً ليطرك المجال للأتراك الذين شجعهم المتوكل.

ختاماً، ومهما كانت طبيعة الخلاف بين العباسيين والفرس فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر إسهامهم في بناء صرح الخلافة العباسية. أولاً بآيواء الحركة العباسية في عهدها السري ثم في مرحلة التحضير العسكري والهجوم على الأمويين. وفي الأخير، عند استيلاء العباسيين على السلطة وضعوا تسيير مختلف دواوين الدولة في أيدي الفرس، وهذا يدل أولاً على الثقة التي وضعوها فيهم، وثانياً على اعترافهم بكفاءتهم في مجال التسيير.

ح- العباسيون والأتراك

لم يكن الخليفة المعتصم هو أول من استعمل الأتراك في جنده، بل نجدهم قبل ذلك بكثير حتى في عهد المنصور نفسه غير أن عددهم كان قليلاً. لكن هذا

(١) علي بن الجهم: الديوان، ٣٤-٣٥.

الخليفة الذي كان ذا تكوين عسكري، وفوق هذا، كانت أمه تركية، كان يعرف جيداً قيمتهم ومدى شجاعتهم وتحملهم وصبرهم في الحروب. من ثمَّ راح يشتريهم بأعداد غفيرة ليجعل منهم حرسه الخاص، ثمَّ كَوَّنَ منهم جيشاً كبيراً.

كانت معسكراتهم في البداية في بغداد، لكن هؤلاء العسكر المحترفين بدأوا يتصرفون بطريقة غير لائقة مع سكان العاصمة الذين اشتكواهم للخليفة، فبنى لهم معسكرات جديدة في الشمال وبالضبط في سامراء. لم يوافق الفرس على سياسة الخليفة الجديدة التي أزاحتهم وجعلتهم في المرتبة الثانية. ويظن بعض الباحثين أن الانتفاضات التي قام بها كل من بابك الخُرَّمِي ومازيار والأفشين، لم تكن سوى ردة فعل على تلك السياسة^(١). ولم يرض العرب أيضاً عن هذه السياسة، ويظن أن الثورة التي قام بها المبرقع في فلسطين جاءت نتيجة لذلك أيضاً^(٢).

لا بد من الملاحظة هنا أن لفظة «ترك» الواردة في المصادر العربية القديمة تشمل كل الأتراك مهما كان نمط حياتهم، وهي أيضاً ليست متفقة حول بلدهم الأصلي^(٣).

ما فتئت قوة هذا الحرس الملكي تتعاظم يوماً بعد يوم ويزداد تدخلها في شؤون الدولة باطراد حتى صارت وبالاً عليها. ويبدأ أوج هذا التدخل انطلاقاً من مقتل المتوكل نفسه، هذا المقتل الذي رأى الشعراء والناس فيه نهاية هيمنة مؤسسة الخلافة وبداية تمزق الدولة الإسلامية.

يتصدى علي بن الجهم شعراً لهذا الموضوع بالمقارنة بين الدور الإيجابي الذي قام به الفرس في تدعيم الدولة وبين الدور الهدام الذي يقوم به الأتراك في تحطيمها، وهذا طبيعي لأنه هو نفسه فارسي: (من الطويل)

(١) فاروق عمر: الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية، ٣٧.

(٢) نفسه، ٣٩.

(٣) نفسه، ٥٢.

وَلَوْ حَضَرَتْهُ عُصْبَةٌ طَاهِرِيَّةٌ
 مَكْرَمَةٌ أَبَاؤُهَا وَجُدُودُهَا
 يَعِزُّ عَلَى أَيْدِي الْمُنُونِ اخْتِرَامَهُ
 وَإِنْ كَانَ مَحْتُومًا عَلَيْهِ وَرُودُهَا
 أَوْلِيكَ أَرْكَانَ الْخِلَافَةِ إِنَّمَا
 بِهِمْ ثَبَّتَتْ أَطْنَابُهَا وَعَمُودُهَا
 مَوَاهِبُهَا لِذَاتِهَا وَسَيُوفُهَا
 مَعَاقِلُهَا وَالْمُسْلِمُونَ شُهُودُهَا
 فَيَا لِحَنُودِ ضِيَعَتِهَا مُلُوكُهَا
 وَيَا لِمُلُوكِ أَسْلَمَتِهَا جُنُودُهَا
 فَلَا طَالِبٍ لِلثَّارِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ
 وَلَا دَافِعٍ عَنِ نَفْسِهِ مَنْ يُرِيدُهَا
 بَنِي هَاشِمٍ صَبْرًا فَكُلُّ مُصِيبَةٍ
 سَيَبْلَى عَلَى طُولِ الزَّمَانِ جَدِيدُهَا
 عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَى سَرَوَاتِكُمْ
 تُفَرِّى بِأَيْدِي النَّكَاثِينَ جُلُودُهَا
 وَلَكِنْ بِأَيْدِيكُمْ تَرَاقُ دِمَاؤُكُمْ
 وَيَحْكُمُ فِي أَرْحَامِكُمْ مَنْ يَكِيدُهَا
 عَبِيدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَتَلْنَاهُ
 وَأَعْظَمُ أَفَاتِ الْمُلُوكِ عَبِيدُهَا^(١)

(١) علي بن الجهم: الديوان، ٦١-٦٢.

شتان في نظره بين من هم أركان الدولة كالتاهريين، أي الفرس، الذين ثبتوا الحكم العباسي بأرواحهم وسيوفهم، والمسلمون يشهدون لهم بذلك، فقد كانوا جنوداً يحمون ملوكهم وبين غيرهم، يعني الأتراك، الذين ضيعوا ملوكهم وقتلوهم ونكلوا بهم. ويختم بأن يعاتبهم أنهم هم الذين تسببوا في ذلك فقتلوا أنفسهم بأيديهم.

ونجد نبرة الندم نفسها عند الخليفة المنتصر الذي شارك في قتل أبيه المتوكل معترفاً بأنه ليس له من الأمر شيء في الحكم فهو ظاهرياً خليفة ولكنه في الحقيقة حاكم صوري: (من السريع)

لَوْ يَغْلَمُ النَّاسُ الَّذِي نَالَنِي
فَلَيْسَ لِي عِنْدَهُمْ عُنْدُ
كَانَ إِلَيَّ الْأَمْرُ فِي ظَاهِرٍ
وَلَيْسَ لِي فِي بَاطِنٍ أَمْرٌ^(١)

لقد مرت الدولة العباسية في عصرها الثاني، أي منذ استيلاء الأتراك على السلطة، بأربع مراحل:

- مرحلة الفوضى السياسية بسامراء وتمتد من سنة ٢٤٧هـ/ ٨٧٠م إلى سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٩م.
- مرحلة التصحيح المؤقت وتمتد من سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م إلى سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م.
- مرحلة الرجوع إلى الضعف وتمتد من سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م إلى سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م.
- مرحلة إمرة الأمراء وتمتد من سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م إلى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م.

(١) المسعودي: مروج الذهب، حوادث سنتي ٢٤٧هـ و٢٤٨هـ.

تتميز المرحلة الأولى بمقتل الخليفة المتوكل من قبل القادة العسكريين الثلاثة بُعَا الأكبر، وبُعَا الأصغر، وأطامش، والوزير المدني أحمد بن الخصيب^(١) الذي كان له دور كبير في أحداث تلك الحقبة.

وقام الخليفة الجديد بخلع أخويه من ولاية العهد تحت ضغط العسكر كما يذكر الطبري^(٢)، علماً أن الخلاف كان موجوداً داخل الطغمة العسكرية حتى قبل ذلك، حيث سيتصارع أعضاؤها فيما بينهم بشراسة ودون هوادة عما قليل. وكانوا من جهة ثانية يخشون انتقام العباسيين منهم. وهكذا قتل المنتصر بدوره بعد ستة أشهر من اعتلائه العرش. خلفه المستعين الذي عين أحد القادة العسكريين وزيراً هو أطامش فاستولى العسكر بهذه المناسبة على مؤسسة الوزارة أيضاً، وهي بمثابة رئاسة الحكومة اليوم، والتي كانت من قبل تسلم دائماً للمدنيين. لكن أطامش هذا سرعان ما يقتل ويخلفه ضابط آخر هو باغر الذي سيقتل بدوره أيضاً. في أثناء ذلك يثور أهل بغداد ويطالبون بعودة الخليفة إلى العاصمة التي فقدت رونقها ومكانتها، ويساعدون المستعين على الهرب من سامراء مع أنصاره من الأتراك يقودهم القائد بُعَا. وعندما رفض أن يعود إلى سامراء قامت الأجنحة المتبقية هناك بخلعه وتصيب ابن عمه المعتز خليفة. وتبع ذلك حرب أهلية حاول كل طرف فيها محاصرة الطرف الآخر. وفي الختام، تنحى المستعين عن الخلافة بعدما التحق عبدالله بن طاهر، حاكم بغداد، بالتمرديين في سامراء سنة ٢٥٦هـ/٨٦٦م، وفر إلى مدينة واسط حيث سيقتل من طرف الأتراك بمساعدة أحمد بن طولون^(٣) الذي وعد بإعطائه ولاية تلك المقاطعة^(٤).

(١) أحمد بن الخصيب: وزير المنتصر؛ انظر: Dominique Sourdel: Le Vizirat abbasside. 1/287.
(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، أحداث سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦-١٩٦٨.
(٣) أحمد بن طولون (٢٢٠هـ-٢٧٠هـ/٨٣٥م)؛ عين والياً على مصر سنة ٢٥٤هـ فكون بها الدولة الطولونية.
(٤) فاروق عمر: الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية، ٧١.

كان لمثل هذه الأحداث انعكاس كبير على الشعر في تلك الحقبة، خاصة حادثة تنحي المستعين وقتله. وهذا أمر منتظر وطبيعي لأن الشعراء، ربما أكثر من بقية الناس، كانوا يهتمون بما يجري في بلدهم، وكانت تلك القلاقل تؤرقهم، فلا غرو أن يسهموا في مناقشتها وإبداء رأيهم فيها، لكنهم عموماً مشتمزون من تلك الأوضاع التي تسودها الفوضى. وهذا شاعر مجهول يصف لنا حال الخليفة المستعين وهو العوبة بين أيدي القائدين العسكريين وصيف وبغا بقوله: (من مجزء الرجز)

خَايِفَةٌ فِي قَفْصِ
بَيْنَ وَصِيفٍ وَبُغَا
يَقُولُ مَا قَالَاهُ
كَمَا تَقُولُ الْبَبُغَا^(١)

ولم يكن الخليفة وحده هو ضحية تلك الأحداث بل كانت الرعية كذلك ضحيتها، فتلك الفوضى جعلت الاضطراب يعم، والخوف يسود، مما جعل الشاعر المجهول يقول غاضباً بعد أن طالبت المشكلة دون أن يعود الأمن ويستتب السلم: (من الطويل)

أَطَافَتْ بِنَا الْأَثْرَاكَ حَوْلًا مُجْرَمًا
وَمَا بَرِحَتْ مِنْ جُخْرِهَا أُمَّ عَامِرٍ
أَقَامَتْ عَلَى نُلٍّ بِهَا وَمَهَابَةٍ
فَلَمَّا بَدَتْ أَبَدَتْ لَنَا لَوْمَ غَادِرٍ
وَلَمْ تَزَعْ حَقَّ الْمُسْلِمِينَ فَاصْبَحَتْ
تُعِينُ عَلَيْهِ خَادِثَاتِ الْمَقَادِرِ
لَقَدْ جَمَعَتْ لَوْمًا وَجُبْنًا وَذَلَّةً
وَأَبَقَتْ لَهَا عَارًا عَلَى آلِ طَاهِرٍ^(٢)

(١) هلال الصابي بن عبدالمحسن بن إبراهيم (١٠٥٦هـ/١٠٥٦م): كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ٢١٩؛ القاهرة، ١٩٥٨. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٩٥/٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٧٣/١٠.
(٢) المسعودي: السابق، ٧٦-٧٥/٥.

ويحزن الكاتب المعروف بالحاسة للوضع الذي آلت إليه الأمور بسبب سوء تصرف العباسيين، فهم الذين أوصلوا أنفسهم إلى هذه الحال المزرية حيث أصبحت عبيدهم تخلعهم وتقتلهم: (من الكامل)

خُلِعَ الْخَلِيفَةُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ
وَسَيُقْتَلُ التَّالِي لَهٗ أَوْ يُخْلَعُ
إِيهَا بَنِي الْعَبَّاسِ إِنْ سَبِيلَكُمْ
فِي قَتْلِ أَعْبُدِكُمْ سَبِيلٌ مَهْيَعُ
رَقَعْتُمْ دُنْيَاكُمْ فَتَمَزَّقَتْ
بِكُمْ الْحَيَاةُ تَمَزَّقًا لَا يُرْقَعُ^(١)
إنه يحملهم المسؤولية كاملة لأنهم هم السبب فعلاً فيما هم فيه.

ونجد من يتعاطف طبعاً مع هؤلاء الخلفاء وبيكهم صادقاً لأنه كان يرى فيهم خلاص الخلافة العربية أو الحكم العربي، فمنهم الكناني الذي يصف تلك الحادثة وبيكي الخليفة المخلوع، ويشبهه أيامه بالربيع الزاهي لكنه مات منفياً في واسط:
(من الكامل)

إِنِّي أَرَى بَيْنَ الْعِرَاقِ جَرُوعًا
أَمْسَى الْإِمَامُ مُسَيَّرًا مَخْلُوعًا
كَانَتْ بِهِ الْأَيَّامُ تَضْحَكُ زَهْرَةً
وَهُوَ الرَّبِيعُ لِمَنْ أَرَادَ رَبِيعًا
فَأَزَالَهُ الْمَقْدُورُ عَنِ رُتَبِ الْعُلَا
فَتَوَى بِوَاسِطٍ لَا يَحْسُ رُجُوعًا^(٢)
ولعل من أصدق الشعراء الذين بكوه البحثري بقوله: (من الكامل)

(١) الطبري: السابق، ٣٥٠/٩؛ ابن العماد: السابق، ١٢٥/٢؛ ابن الأثير: السابق، ١٦٨/٧.
(٢) المسعودي: السابق، ٧٩/٧.

قَتَلُوا الْخَلِيفَةَ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ

وَكَسَوْا جَمِيعَ النَّاسِ ثَوْبَ الْخَيْفِ^(١)

وظهر قائد عسكري قوي آخر في عهد المعتز هو بَيْكَبَاكُ^(٢) الذي كان يعتمد كثيراً على تجربة حسن بن مخلد بن الجراح^(٣) حينما كان الخليفة يحاول التخلص من بقية القادة العسكريين والتقليل من هيمنتهم بتقويته الفصائل المغربية والفرغانية في الجيش العباسي.

لقد استطاع أن يتخلص من بُعَا لكن الجيش لم يترك له الوقت الكافي ليحقق كل أهدافه حيث ظل الجنود يطالبون بأعطياتهم. لقد كانت خزائنه فارغة ورفضت أمه مساعدته على الرغم من ثروتها الطائلة. لقد عذبه وجروه من أرجله ثم سجن فمات في السجن. وبالمناسبة نفسها تخلص الترك من قائدي الفصائل المغربي والفرغاني محمد بن راشد ونصر بن سعيد.

في هذا الوقت، راح الشعراء الموالون للخلفاء الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن فعل أي شيء، ولم يكن لهم سوى الشعر وسيلة لتحريض الناس على الثورة ضد الغاصبين من أجل شرف الخلافة والدولة الإسلامية. وكان من بينهم الأمير والشاعر عبدالله بن المعتز، وهو ابن الخليفة المخلوع والمقتول، الذي تأثر كثيراً لذلك فراح يبكيه لمدة طويلة: (من الخفيف)

عَيْنٌ لَا تَبْخَلِي بِسَفْحِ الدُّمُوعِ

وَأَنْدُبِي خَيْرَ فَاجِعٍ مَفْجُوعِ

(١) المسعودي: نفسه، ٨١/٥.

(٢) بَيْكَبَاكُ التركي: كان حاكم مصر وكان لديه قائد حرس اسمه أحمد بن طولون ثم آلت بعده إلى الوالي التركي برفوق الذي كان أباً زوجة ابن طولون، وأتاب كل منهما ابن طولون للقيام بالولاية فاستفرد بها وأسس دولة الطولونيين.

(٣) كان مشرفاً على ديوان الضياع بعض الوقت في عهد المعتز، وصار وزيراً ثم سجن سنة ٢٥٥هـ من طرف صالح بن وصيف؛ انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي،

Dominique Sourdel: Le Vizirat abbasside. 1/ 298 ; 616/2 .

بَكَرَ التُّرُكُ نَاقِمِينَ عَلَيْهِ
 خَالِعِيهِ أَفْدِيهِ مِنْ مَخْلُوعِ
 قَتَلُوهُ ظُلْمًا وَجَوْرًا فَالْفَوْ
 هُ كَرِيمِ الْأَخْلَاقِ غَيْرَ جَزُوعِ
 أَضْبَحَ التُّرُكُ مَالِكِي الْأَمْرِ وَالْعَا
 لِمَ مَا بَيْنَ سَامِعٍ وَمُطِيعِ
 وَتَرَى اللَّهَ فِيهِمْ مَالِكَ الْأَمْرِ
 رِ سَيَجْزِيهِمْ بِقَتْلِ ذَرِيْعِ^(١)

وفي قصيدة مجهولة نجد صاحبها، ولعله عبدالله بن المعتز نفسه، يتوعد
 الترك بعقاب شديد وحتمي لا يمكن أن ينفذوا منه: (من الخفيف)

أَيُّهَا التُّرُكُ سَوْفَ تَلْقَوْنَ لِيَدَّهُ
 رِ سِيُوفًا لَا تَسْتَبِيلُ الْجَرِيْحَا
 فَاسْتَعِدُّوا لِلسَّيْفِ عَاقِبَةَ الْأَمْرِ
 رِ فَقَدْ جِئْتُمْ فَعَالًا قَبِيْحَا^(٢)

ثم جاء الخليفة المهدي الذيرفض أن يعتلي العرش ما لم يعلن المعتز اعتزاله
 أمام الناس. وكان يعلم أن تحرر الخلافة لا يمكن أن يحدث إلا بتفرقة الترك
 وتشثيتهم، لكنهم تفتنوا لما كان يدبر لهم فتعاضدوا ورسوا صفوفهم ضده. ومع
 ذلك استطاع أن يحايد بيكباك، وجعل يقترب أكثر من رجال الدين حتى يجلب
 الرعية التي تبجلهم في صالحه. وقد أبدى شجاعة كبيرة في مواجهة تمرد ثورات
 الأتراك المتكررة التي كان يجابها بكل جدية. وقد أعلن النفي العام وحجز وصادر
 أملاك المتمردين. لكن خوف الناس من جهة، وعصيان الفصائل العسكرية التي

(١) المسعودي: السابق، ٨٩/٥؛ عبدالكريم غرايبة: العرب والأتراك، ٢٦؛ مطبوعات جامعة دمشق، ١٩٦١.
 (٢) المسعودي: نفسه، ٨٩/٧-٩٠.

كانت موالية في البداية من جهة ثانية سارعت في إسقاطه . وفي سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م أطاحوا به واستبدلوه بأحمد بن المتوكل^(١).

تبدأ المرحلة الثانية إذاً باعتلاء أحمد بن المتوكل العرش، وسوف يتلقب بلقب «المعتمد»، وقد تميزت خلافته بظهور عنصر جديد هو «الوصاية»، فالموفق^(٢) الذي لم يكن إلا في المرتبة الثانية لولاية العهد استطاع أن يستولي على كل مقاليد الدولة. والحقيقة أن القلاقل التي مرت بها الدولة العباسية آنذاك هي التي تسببت في مثل هذا الأمر، إذ كان لا بد من ظهور رجل قوي يضع حداً لتلك الفوضى. ولم يكن التصدي لثورة الزنج التي كانت تهدد النظام العباسي كله غريباً أيضاً عن ذلك، لأن هذا الخطر وحد الجيش لبعض الوقت تحت قيادة الموفق.

هذا في الوقت الذي كان تهديد الخوارج للدولة مستمراً، وكان الصفاريون في سجستان وخراسان وكرمان، والإسماعيليون والطولونيون في مصر وسورية^(٣). لم يكن للخليفة أي سلطة أمام الموفق، وكان يكتفي باللعب واللهو^(٤). ويحكى أنه كان يستمع مرة إلى إحدى المغنيات فأعجبهته فأراد أن يكافئها فلم يجد شيئاً من المال ليفعل ذلك فقال متحسراً: (من الوافر)

أَلَيْسَ مِنَ الْعَجِيبِ بَأَنَّ مِثْلِي
يُرَى مَا قَلَّ مُمْتَنِعاً عَلَيهِ
وَتَوْخَذُ بِاسْمِهِ الدُّنْيَا جَمِيعاً
وَمَا مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ فِي يَدَيْهِ

(١) فاروق عمر: الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية، ٧٢-٧٥.
(٢) هو أخو المعتمد وولي عهده، لكنه كان الحاكم الحقيقي في تلك الحقبة فقد كان يشرف على الجيش وعلى الحكومة معاً؛ وقد اشتهر بحروبه خاصة تلك التي خاضها ضد الزنج؛ انظر: فاروق عمر: نفسه، Dominique Sourdel: Idem: 77-86, 1 / 305.

(٣) فاروق عمر: السابق، ٨٠.

(٤) اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم، ٦٤، الصفدي: الوافي بالوفيات، ٢/٢٩٥؛ ابن شاعر الكتيبي: الوافي بالوفيات، ١/٦٦.

إِلَيْهِ تَحْمَلُ الْأُمُورَ طُرّاً

وَيُؤْنَعُ بَعْضَ مَا يُجْبَى إِلَيْهِ^(١)

وبعد موت الموفق يخلفه ابنه أبو العباس الذي يتولى أيضاً جميع الشؤون التي كان يشرف عليها أبوه، ثم يعين ولياً للعهد بعد ابن الخليفة لكن سرعان ما يفرض نفسه ولياً للعهد وحده ويتلقب بلقب «المعتضد» في سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م. وبعد ستة أشهر يصبح هو الخليفة. وكان عليه أن يواجه عدة مشكلات كتحركات البدو من قبيلة شيبان العربية، والخوارج في الشمال، والقرامطة في جنوب العراق الذين ردهم على أعقابهم كما تصدى للصفاريين. وكانت له علاقات طيبة مع الطولونيين في مصر. واستطاع أن يعيد «إقليم الجبال» إلى حاضرة الدولة العباسية بعدما اقتطعت منها أسرة أبي دلف إمارة لنفسها.

لقد كان شجاعاً مغوراً جواداً حاسماً في الآن نفسه^(٢). لقد كان مهاباً من الجميع فلا غرابة أن لقب بلقب «السفاح الثاني»، فهذا الشاعر ابن الرومي يبرز فيه هذه الخصال، ويشير إلى أن الملك العباسي بدأ بأبي العباس السفاح ويسترجع أيضاً بأبي العباس المعتضد: (من الطويل)

هَنِيئاً بَنِي الْعَبَّاسِ إِنْ إِمَامَكُمُ

إِمَامُ الْهُدَى وَالْبَّاسِ وَالْجُودِ أَحْمَدُ

كَمَا بِأَبِي الْعَبَّاسِ أَنْشِئْ مُلْكُكُمْ

كَذَا بِأَبِي الْعَبَّاسِ أَيْضاً يُجَدُّ^(٣)

(١) ابن دحية، عمر بن علي (٦٢٣هـ/١٢٣٥م): كتاب النبراس في تاريخ بني العباس، ٨٩: تحقيق ع. العزاوي، دار المعارف، بغداد، ١٩٤٦.

(٢) اليعقوبي: نفسه، ٦٤.

(٣) التتوخي: نشوار المحاضرة، ٦٦/٨: تحقيق الشلجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧١: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٤٩/٥: حيدر آباد، ١٩٢٩.

ويرى عبدالله بن المعتز في هذا الخليفة أنه أعاد ملك بني العباس عزته، وأنه المثال لكل من يرغب في الملك بحيث يستحقه فعلاً ويكون في مستوى مسؤوليته: (من السريع)

أَلَا تَرَى مُلْكَ بَنِي هَاشِمٍ
عَادَ عَزِيْزاً بَعْدَهُ ذَلَالاً
يَا طَالِباً لِمُلْكِ كُنْ مِثْلَهُ
تَسْتَوْجِبُ الْمُلْكَ وَإِلَّا فَلَا^(١)

لقد عرف الاقتصاد في خلافة المعتضدان تعاشاً كبيراً ونموً واضحاً خاصة في مجال الزراعة حيث اهتمت الدولة بالري والسقي، وقدمت للمزارعين قروضاً في شكل بذور وأنعام. كما تم تأخير موعد استخراج الخراج إلى يوم ١١ جوان أو ٢١ جوان من كل سنة حتى يسمح للفلاحين من جني غلالهم وبيعها مع إعطاء الأوامر لعمال الخراج بعدم سوء معاملة أهل الخراج^(٢).

لقد تحدثت المصادر العربية القديمة كثيراً عن هذا الحدث الاقتصادي والضريبي الذي وقع في سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م، والذي تم بمقتضاها تأخير استخراج الخراج لمدة شهرين. قد استعير هذا النظام الجديد من الفرس القدامى ومن ثم جاءت تسميته بـ «النوروز»^(٣) الذي يعني عيد الربيع. وكان سبب هذا الإصلاح الضريبي أن الضرائب كانت تؤخذ قبل جني المحصول وقبل جمع الغلال والاستفادة منها، وكان في ذلك مشقة كبيرة للناس، لكن الخليفة أراد مساعدتهم^(٤).

(١) الصولي، أبوبكر محمد بن يحيى (٢٣٥هـ/٩٤٦م): الأوراق، ١٣٠-١٣٤ (لم أجدهما في ديوانه)؛ مطبعة الصاوي، بغداد، ١٩٣٥.

(٢) انظر الطبري: السابق، ٣٩/١٠؛ ابن الأثير: السابق، ٤٦٩/٧؛ المسعودي: السابق، ١٧٢-١٧٣.

(٣) المصادر العربية كتبه أحياناً «النيروز» وأحياناً أخرى «النوروز».

(٤) مجهول (ق١٥هـ/ق١١م): العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج ٥ ق ٧٩/١؛ تحقيق دو خويه ودو يونغ (De Goeje et P. De Yong)، المجلد الثالث، بريل ١٨٦٩ والمجلد الرابع تحقيق عمر السعدي، دمشق، ١٩٧٢. والمصادر القديمة كلها متفقة على تاريخ ١١ جوان ما عدا صاحب العيون والحدائق الذي يذكر تاريخ ٢١ جوان.

لا يمكن أن يمر قرار مهم كهذا دون أن يتدخل الشعراء ويبيّنوا جانب الحكمة فيه، لأنه فعلاً كان قراراً إيجابياً. هذا الشاعر الكبير البحتري يقول فيه: (من الخفيف)

إِنَّ يَوْمَ النَّيْرُوزِ عَادَ إِلَى الْعَهْ
سِدِ الَّذِي كَانَ سَنَّهُ أَرْدَشِيرُ
وَأَفْتَتَحْتَ الْخَرَاجَ فِيهِ فَلِلْأَمِّ
مَمَّةٌ فِي ذَاكَ مُرْفَقٌ مَذْكُورُ
مِنْهُمْ الْحَمْدُ وَالْتِنَاءُ وَمِنْكَ الـ
عَدْلُ فِيهِمْ وَالنَّائِلُ الْمَشْكُورُ^(١)

نستنتج من هذه الأبيات أن ملك الفرس أردشير كان قد سن من قبل العمل بهذا التاريخ لكن خلفاءه تخلوا عنه على ما يبدو حتى جاء المعتضد فأعاد له مكانته، وقدم بالمناسبة نفسها خدمة جليلة للزراع الذين كانوا يدفعون ضريبة سنة إضافية كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية بينما العود إلى استعمال التاريخ الشمسي جعل الأوضاع تستقر.

ونجد شاعراً آخر هو يحيى بن علي المنجم^(٢) يذكر «النوروز المعتضدي»، وهي الصفة التي كانت تطلق على هذا الإجراء: (من مجزوء الكامل)

يَا مُخَيِّي الشَّرْفِ اللَّبَابِ
وَمُجَدِّدِ الْمُلْكِ الْخَرَابِ
وَمُعِيدِ رُكْنِ الدِّينِ فِيهِ
بِنَا تَابِتاً بَعْدَ اضْطِرَابِ
اسْعُدْ بِنَيْرُوزِ جَمَعْتَ الـ
شُّكْرَ فِيهِ إِلَى التَّنْوَابِ^(٣)

(١) البحتري: الديوان، ٢/٩٠٢-٩٠٣.

(٢) يحيى بن علي المنجم (٢٤١هـ-٣٠٠هـ/١٨٥٥م-٩١٢م): شاعر بلاط وكاتب معتزلي، ألف عدة كتب.

(٣) المسعودي: السابق، ١٧٢/٥.

ما كان لهذه الإصلاحات أن تتم لولا الاستقرار النسبي الذي عرفته الخلافة العباسية في عهد المعتضد. لقد استطاع بحنكته وذكائه أن يقلل من أثر الفوارق والخلافات التي كانت موجودة بين مختلف فصائل الجيش دون أن ننسى أن بعض المصادر تذكر أن غلامه بدرًا كان له شأن كبير في تسيير شؤون الدولة^(١).

بعد وفاة المعتضد خلفه ابنه المكتفي الذي لم يعين ولياً للعهد مرتكباً بذلك الخطأ الذي ارتكبه الواثق قبله فحدث ما حدث في الدولة العباسية بسبب ذلك. وكان العباس ابن حسن^(٢) وزيراً آنذاك فاختار أولاً عبدالله بن المعتز خليفة ثم تخلى عنه بسرعة وعين مكانه المقتدر^(٣) الذي لم يتجاوز عمره آنذاك ثلاثة عشر عاماً، الأمر الذي سهل على الوزير تحقيق طموحه^(٤). أذكت هذه الوضعية من جديد شهية القادة العسكريين التي كانت في خمود، لكن من الآن سيسهم المدنيون أيضاً في المؤامرات بطريقة أساسية.

وهكذا تبدأ المرحلة الثالثة من هذا العهد، التي ستستمر اثنتين وثلاثين سنة، وسيتعاقب فيها على السلطة ثلاثة خلفاء هم المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ)، والقاهر (٣٢٠-٣٢٢هـ)، والراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ). وتعود الفوضى في هذه المرحلة بسبب صغر سن الخليفة وتدخل العسكر في شؤون الدولة.

وسيظهر أيضاً فيها عنصر آخر جديد هو تدخل النساء في الشؤون العامة^(٥)، مع الملاحظة أن هذا الأمر لم يكن جديداً، ولكنه لم يأخذ أبداً هذا البعد الذي

(١) نفسه، ٣٢٢/٤.

(٢) العباس بن الحسن: استوزر للمكتفي وللمقتدر من ٢٩١هـ حتى ٢٩٦هـ / ٩٠٤م-٩٠٨م؛ انظر:

D. Sourdel: Le vizirat abbasside. 1/359-370

(٣) المقتدر هو الخليفة الثامن عشر؛ دامت خلافته من سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٨م إلى ٣٢٠هـ / ٩٣٢م؛ أطيح به مرتين في سنة ٩٠٨م وفي سنة ٩٢٩م لكنه استرجع سلطته في المرتين.

(٤) فاروق عمر: السابق، ٨٥.

(٥) صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلفاء في العصر العباسي، ٧-١٨؛ دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٤؛ فاروق عمر: السابق، ٨٩.

بلغه حينذاك. ستظهر عدة شخصيات في الساحة السياسية في تلك الحقبة أمثال الوزيرين ابن الفرات^(١) وعلي بن عيسى^(٢) والضابطين التركيين مؤنس^(٣) ونازوك^(٤).

وقد حاول هذا القائد الأخير الإطاحة بالخليفة المقتدر سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م دون جدوى لأنه قتل قبل تحقيق مأربه. وفي هذه اللحظة يظهر رجل قوي آخر هو الحسين بن القاسم^(٥) الذي بدأ فور تعيينه وزيراً من تقليص نفوذ مؤنس القائد التركي الذي كان مستحوذاً على كل شيء.

وراح بعد ذلك يذكي نار الخلاف بين الفصائل العسكرية المختلفة ويغذيها فاستطاع أن يبعد القائد يَلْبِقَ بينما غادر مؤنس بغداد واستقر في الموصل حيث بدأ من هناك حصار العاصمة التي كانت في الوقت نفسه محاصرة من الجنوب من قبل القرامطة^(٦). ونتيجة لهذا الحصار المزدوج قتل المقتدر، واعتلى القاهر عرش الخلافة للمرة الثانية بمؤازرة مؤنس للحد من تدخل الحرير وخاصة أم الخليفة المقتول^(٧).

كانت السلطة في عهد الخليفة القاهر في أيدي ثلاثة أشخاص هم القائد مؤنس، والوزير ابن مقله، وقائد الشرطة محمد بن ياقوت. وكان القاهر حذراً لا يفارقه رمحه أبداً. وقد استطاع أن يتخلص من مؤنس ويُلْبِقَ بقتلهما بينما يضر ابن مقله وهذا بمؤازرة طريف السبكري قائد الجنود الساجيين الذين جعل الخليفة حرسه الخاص منهم لكن حراسه هؤلاء هم الذين أطاحوا به وفتقوا عينيه. وقد

(١) انظر: D. Sourdel: Idem, 2/387 et suite

(٢) وزير للمقتدر أول مرة من ٣٠١هـ - ٣٠٤هـ/٩١٣م - ٩١٧م ثم في ٣١٥هـ - ٣١٦هـ/٩٢٧م - ٩٢٨م مرة ثانية:

انظر في هذا: ٢/٥١٩-٥٥٢: ٢/٤٤٧-٤٤١: ٢/٣٩٩-٤٠٥: D.Sourdel: Idem.

(٣) فاروق عمر: السابق، ٩١-٩٢.

(٤) نفسه، ٩١.

(٥) الحسين بن القاسم وزير للمقتدر في ٣١٩هـ - ٣٢٠هـ/٩٣١م - ٩٣٢م: انظر: ٢/٤٦٣: D.Sourdel: Idem.

(٦) ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (٤٢١هـ/١٠٣٠م): تجارب الأمم، ١/٢٣٤-٢٣٥: القاهرة، ١٩١٥.

(٧) فاروق عمر: السابق، ٩٣.

شوهه بعد ذلك وهو في حالة مزرية يستجدي الناس أمام مسجد المنصور ببغداد،
ثم سجن حتى مات في السجن سنة ٣٣٩هـ^(١).

ثم أخرج الرازي من سجنه وأخذ إلى مقر الخلافة فكان أول ما خاطبهم
به قوله: «والله لقد جاءني هذا الأمر وما شرعت فيه، ولا أحببته، ولا علم الله
ذاك مني في سر ولا علانية، لا جهلاً مني ما فيه من الشرف والجلالة لكني
لتغيير الأحوال وقلة الأموال، وكلب الجند، وخبب الدنيا، وإنه يستصحبني من الغم
والأسف والغيظ والاهتمام أكثر مما يؤمل من السرور واللذة»^(٢).

وقد تميز عهده بعدة انتفاضات عسكرية ضده وضد قادة الجيش، كما ظهرت
جماعات ضغط جديدة مثل المغاربة، وكان الحمدانيون في أوجههم في الجزيرة،
واستقل البويهيون بفارس، والبريديون بخوزستان، وابن رائق^(٣) بجنوب العراق. ولم
يسعف الخليفة تغييره المستمر للوزراء في شيء فترك كل الأمور في الأخير في
أيدي ابن رائق، فصار أشبه بوزير أعظم فتلقب بلقب «أمير الأمراء»^(٤). وقد كان
يشرف على كل دواوين الدولة (الوزارات) بما في ذلك تعيين الوزراء أنفسهم.

وهكذا تكون مرحلة جديدة قد بدأت هي مرحلة «إمرة الأمراء»، وكان القائم
بهذه المهمة يهتم بكل قضايا الضرائب (الخراج خاصة)، وكل الدواوين، وكل إدارات
الأقاليم والولايات إلخ^(٥).

وسوف يتعاقب على الخلافة في هذه المرحلة أيضاً ثلاثة خلفاء هم الرازي،
والمتقي ابن المقتدر (٣٢٩-٣٣٣هـ)، والمستكفي ابن المكتفي (٣٣٣-٣٣٤هـ). وسوف

(١) فاروق عمر: السابق، ٩٤.

(٢) الصولي: أخبار الرازي والمتقي ١٦؛ تحقيق جون هيورث ديون، مطبعة الصاوي، بغداد، ١٩٣٥.

(٣) ابن رائق (٣٣٠هـ/٩٤٢م): قائد الشرطة في بغداد سنة ٣١٧هـ ثم والي واسط والبصرة: انظر: الزركلي:
الأعلام، ٦/٣٥٨.

(٤) ابن مسكويه: نفسه، ٥/٣٥١.

(٥) نفسه، ٥/٣٥١.

تنتهي هذه المرحلة عندما يدخل البويهيون بغداد على رأس جيش من الديلم سنة ٣٣٢هـ/٩٤٦م.

يلاحظ هنا أن موقف الخلفاء من الأتراك، ومن خلفهم الشعراء المواليون أو شعراء البلاط، مر بمرحلتين. انتهت المرحلة الأولى بانتهاء خلافة الواثق حيث كان الترك يطيعون أوامر الخلفاء طاعة كاملة ويدافعون عنهم بإخلاص. وفي هذه المرحلة نجد شعراً كالعينة التالية التي نذكرها لعلي بن الجهم حيث راح الشعراء يمجدونهم ويعظمون أمرهم ويفتخرون بهم ويقوتهم: (من الوافر)

إِمَامٌ مَن لَّهُ سَبْعُونَ أَلْفًا

مِنَ الْأَتْرَاكِ مُشْرَعَةً السَّهَامِ^(١)

ولم يكن ذلك من الشعراء موقفاً سياسياً بل هو رأي منهم عبروا به عن شجاعة أولئك الأتراك.

وكما لاحظنا من قبل فإن الجيش قد تخلى عن مهمته الأصلية وراح يهتم بالسياسة من خلال ممارسات قادته الذين صاروا يتدخلون في شؤون الدولة المختلفة، ويتآمرون باستمرار ضد الخلفاء باستعمال كل الوسائل بما فيها الاغتيالات التي أصبحت معهودة للتخلص من كل الخصوم.

وقد تحول ذلك الاحترام الذي كان يكنه الشعراء للجند، وللأتراك خاصة، إلى تقزز واشمئزاز كبيرين، فهذا عبدالله بن المعتز يتأفف وهو يتحدث عنهم: (من الرجز)

كَذَاكَ حَتَّى أَفْقَرُوا الْخِلَافَةَ

وَعَوْدُوهَا الرُّغْبَ وَالْمَخَافَةَ^(٢)

(١) ابن حنبل، محمد بن علي (٤٥٠هـ/١٠٥٨م): كتاب تفضيل الأتراك على سائر الجند، ٢: تحقيق عباس العزاوي، مطبعة المعارف، إسطنبول، ١٩٤٠.
(٢) ابن المعتز: الديوان، ٤٨٢.

يكاد هذا البيت من الشعر يلخص كل تاريخ الأتراك مع الخلافة العباسية فجهل هؤلاء العسكر، وطموحهم، ومؤامراتهم دفعت كلها بمؤسسة الخلافة إلى هذه النهاية التعيسة. وفي هذا يقول خليفة آخر هو المتوكل الذي جلب الأتراك بكثرة وقواهم على سائر الجند: (من الطويل)

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا أَرَى مِنْ زَمَانِنَا
وَكَثْرَةَ مَا فِيهِ مِنَ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ
وَأَنَّ الْمَوَالِي قَدْ عَلَاهُمْ عَبِيدُهُمْ
كَمَا قَدْ تَعَالَى الْجَهْلُ فِيهِمْ عَلَى الْعِلْمِ^(١)

هناك أشعار أخرى كثيرة تتناول هذا الموضوع لكن لا داعي لذكرها جميعاً، فهي كثيرة جداً، ولذا نكتفي بهذه العينة التي ذكرنا لأنها تعطينا حقاً صورة واضحة عن موقف الشعراء من الأتراك في الحالتين.

وفي ختام هذا الجزء من البحث لا بد من الإشارة إلى أن خلفاء القرن الثاني من الحكم العباسي حاولوا باستمرار أن يسترجعوا مهابة الخلافة وسيادتها وسطوتها، وواجهوا بكل شجاعة نهم الأتراك وجشعهم وحبهم للسلطة علماً أن تلك الظروف فرضت عليهم نتيجة أخطاء أسلافهم. ويمكن أن نتبين تلك المقاومة منهم في أن أحداً منهم لم يترك منصبه طواعية فهم جميعاً إما قتلوا أو خلعوا بالقوة.

ط - الجيش العباسي

بقي أن نقول كلمة في الجيش العباسي الذي يعد أول جيش منظم في تاريخ الدولة الإسلامية^(٢). وكان أهم فيلق في هذا الجيش في العصر الأول هو فيلق

(١) الصولي: أشعار أولاد الخلفاء واخبارهم، ١٠٥.

(٢) فاروق عمر: السابق، ١٧٣.

«الخراسانية» الذي كان يتكون من جنود عرب وفرس كما أشرنا سابقاً. كما نجد فيالق أخرى مؤسّسة على أساس قبلي كالربعية (من قبيلة ربيعة)، أو اليمينية (من قبائل اليمن)، أو على أساس إقليمي كالمغاربية، لكن المعتصم تسبب في اختلال هذا النظام عندما أدخل في نهاية العصر العباسي الأول الأتراك بأعداد غفيرة.

وكان التجنيد يعتمد على الاختيار الحر للمجندين الذين يرغبون في الانتماء إلى الجيش زيادة على المتطوعين في مختلف المناسبات، وإرسالات حكام الأقاليم والحلفاء، لكن هؤلاء الأخيرين لم يكن لهم قيمة تذكر^(١).

وفي الأخير، بإمكاننا أن نستخلص صورة الخلفاء العباسيين في نظر الشعر في ذلك العهد، هذه الصورة التي لم تكن دائماً تلقائية كما يراها الشاعر على حقيقتها، لأنها كثيراً ما كانت موعزة من الخلفاء أنفسهم الذين يرغبون في انتشار صورة معينة عنهم. وكان الشعراء، ربما على عكس ما كانوا يحسون به، لا يتناولون القضايا السياسية مباشرة، بل ينتقدون بعض الشيء، ونجد هذا خاصة عند شعراء المعارضة. لكن صفة المبالغة التي يمتاز بها الشعر في تلك الحقبة لا تسمح لهؤلاء الشعراء، في غالبية الأحيان، من أن يعطونا صورة حقيقية وصادقة.

(١) لمزيد من المعلومات حول كيفية تنظيم الجيش العباسي وكيفية التجنيد، ينظر: نعمان ثابت: الجندية في الدولة العباسية، بغداد، ١٩٥٦؛ انظر كذلك: خالد الجنابي: تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، ماجستير مكتوب بالآلة الرقائنة، جامعة بغداد، ١٩٧١.

الفصل الثاني: الشعر ورجال الدولة

هذا الفصل مخصص لرجال الدولة في العصر العباسي لأنه كان لهم دور كبير فيه، فقد شاركوا في جميع الأحداث التي عرفها بطريقة أو بأخرى. لقد وجهوا مجرى التاريخ العباسي بأفعالهم أو بأقوالهم وأفكارهم. وكما كان معهوداً في ذلك الزمن، فقد كان لأولئك الرجال وسيلتهم الإعلامية وهي الشعر. كان شعراؤهم، هذا إن لم يكونوا هم أصلاً شعراء، ينافحون عن آرائهم ووجهات نظرهم خاصة إذا أدركنا أن بعضاً منهم كانوا يمثلون أحزاباً سياسية أو اتجاهات دينية، أو اتجاهات وحركات متناقضة فيما بينها أحياناً بل عدائية. وكان لهم، بطبيعة الحال، خصوم وأعداء يستعملون الوسيلة نفسها لإلحاق الضرر بهم، أي الشعر.

سنتحدث عن موقف الشعراء من رجال الدولة عموماً كالوزراء، والضباط الساميين، والقضاة، والكتاب الرسميين إلخ...

إن هذا التنوع في الرجال، أي هذا التنوع في الأفكار بالتبعية، سيترتب عنه مختلف الصراعات، خاصة أن هؤلاء الرجال جاؤوا من أصول متنوعة عربية وفارسية وتركية وقبطية وإفريقية إلخ. سنتناول هذا الصراع عندما نتحدث عن العروبية والشعوبية بعد أن نعطي لمحة عن كل فئة من هؤلاء الرجال.

أ - الشعر والوزراء

لكي نعرف مدى تأثير الوزير في المرحلة المدروسة، لا بد من إعطاء فكرة عن مؤسسة الوزراء في الدولة الإسلامية^(١). لقد كانت هذه المؤسسة غير موجودة قبل

(١) فيما يخص الوزارة من حيث أصلها ونشأتها وتاريخها وكل التفاصيل المتعلقة بها وخاصة في العهد العباسي، ينظر في الدراسة القيمة للدكتور دومينيك سورديل بالفرنسية:

Dominique Sourdel: Le Vizirat abbasside. Damas. ١٩٥٩-١٩٦.

مجيء العباسيين، أو لنقل لم يكن لها قانون رسمي كما سيحدث فيما بعد. لقد استعمل الخلفاء الأمويون بعض الأشخاص وكلفوهم بمهام معينة دون أن يسموهم وزراء الذين لم يكونوا معروفين عندهم بصفاتهم ولكن بوظائفهم^(١). ويبدو أنهم تعمدوا عدم إطلاق لقب «وزير» على معاونيهم لأنه مشتق من المؤازرة، والخليفة أكبر من ذلك، وليس في حاجة إلى من يؤازره أو يساعده^(٢). ونلاحظ أن لقب «الوزير» لم يكن مجهولاً في تلك الحقبة، فهو مذكور مرتين في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي﴾^(٣)؛ وقال كذلك: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾^(٤). ويبدو أن التأثير الفارسي كان واضحاً في ظهور مؤسسة الوزارة التي مرت بعدة مراحل قبل أن تتخذ الشكل المعروف في النهاية^(٥).

إن لفظة «وزير» في اللغة العربية، مشتقة إما من «الْوَزْر» حيث يتحمل الوزير كل عبء الدولة وثقلها في مكان الخليفة، وإما من «المؤازرة» فكأنما يؤازره ويساعده على تحمل الأعباء السياسية^(٦)، أو هي مشتقة من «الأزر» أي الظهر لأن الخليفة يتقوى باستناده عليه^(٧)؛ أو من «الْوَزْر» أي الملجأ الذي يجد الخليفة ملجأ في رأيه ومساعدته ولأن كل السياسية تركز عليه^(٨).

هناك نوعان من الوزارة إحداهما مطلقة والأخرى مقيدة أي خاصة وعامة، كالوكالة تماماً، «المطلقة تسمى وزارة التفويض، وهي أكمل الولايات وأتمها،

(١) يوسف العث: تاريخ عصر الخلافة العباسية، ٤٤؛ دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٢.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف، ٢٩٤؛ تحقيق عيسى الصاوي، بغداد، ١٩٢٨.

(٣) سورة طه، آية ٢٩.

(٤) سورة الفرقان، آية ٣٥.

(٥) حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٢/٢٢٣؛ مكتبة نهضة مصر، الطبعة الرابعة، القاهرة، د.ت.

(٦) الثعالبي: تحفة الوزراء، ١٤؛ تحقيق رجينا هاينكيه (Régina Heinecké)، دار القلم، بيروت، ١٩٧٥.

(٧) الماوردي: قوانين الوزارة، ١٢٧؛ تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٩.

(٨) نفسه، ١٣٧-١٣٨.

لاشتمالها على النظر في أمور المملكة.... والأظهر أنها إنما تعقد باللفظ بقول الخليفة الإمام أو الملك لمن يندبه لذلك: قلدتك وزارتي والنيابة عني في جميع ما إلي من ولاية الرعية، فيقول: قبلت وتقلدت»^(١). وكان هذا التنصيب يتم في حفل عام إذ كان الخلفاء إذا عزموا على تقليد أحد الوزراء أو الإمارة» أحضروا الأعيان والقضاة وأركان الدولة^(٢). أما النوع الثاني من الوزارة فهو ما يسمى وزارة التقييد أو التكليف. والفرق بينهما أن الأولى عامة والثانية خاصة، وأن الأولى تحتاج إلى عقد ولاية والثانية لا تحتاج إليه^(٣).

وكان الخلفاء يختصون أحياناً بعض الوزراء بألقاب فخرية تكريمية خاصة منذ بداية العصر العباسي، فقد كان أبوسلمة الخلال يلقب «وزير آل محمد»، ويعقوب بن داود «الأخ في الله»^(٤). لقد كان من عادة العباسيين ألا يعينوا إلا شخصاً واحداً في منصب الوزير، فهو بمثابة رئيس الحكومة اليوم، ولم يشذوا عن تلك القاعدة إلا مرة واحدة في عهد المقتدر الذي تخلى عن خدمات علي ابن عيسى^(٥) على الرغم من كفاءته المشهود له بها، واستقامته، وعدله، وحسمه، واستبدله بحامد بن العباس^(٦) المعروف بعدم كفاءته وعدم قدرته. ولكن عندما تبين له عجز الثاني ندم واستدعى الأول من جديد فاشتركا في مهمة الوزارة.

لم يفوت الشعراء هذه الحادثة فتحدثوا عنها كثيراً باستغراب واستهجان، وخاصة من قبل شاعر اشتهر بهجاء كل من له علاقة بالسلطان هو علي بن بسام حين يقول: (من المتقارب)

(١) الثعالبي: نفسه، ٥٣.

(٢) نفسه، وليرجع إلى هذا الكتاب للمزيد من معرفة الفوارق بين نوعي هاتين الوزارتين.

(٣) نفسه، ٦٠ وما بعدها.

(٤) هو وزير المهدي الذي سجنه ١٥ سنة ولم يطلق سراحه إلا في عهد هارون الرشيد.

(٥) علي بن عيسى: وزر للمقتدر مرتين في سنة ٣٠١هـ و٣١٥هـ؛ انظر: ٣٤١-٣٩٩/٢، D. Sourdel: Op. cit.

(٦) حامد بن العباس: وزر للمقتدر من ٣٠١هـ إلى ٣١١هـ؛ انظر: ٤٢٤-٤١٤/٢، D. Sourdel: Idem.

فَقَدْتُكُمْ يَا بَنِي الْجَائِدَةِ
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَكُمْ أَبَدَةٌ
مَتَى سَمِعَ النَّاسُ فِيمَا مَضَى
وَزَيْرَيْنِ فِي دَوْلَةٍ وَاجِدَةٍ^(١)

ويتهكم شاعر مجهول من تلك الوضعية الغريبة حيث يحمل أحد الرجلين لقب الوزير ولكن لا يقوم بمهامه، ويقوم الثاني بمهام الوزير دون أن يحمل اللقب: (مخلع البسيط)

أَعَجَبُ مِنْ كُلِّ مَا تَرَاهُ
كَوْنُ وَزَيْرَيْنِ فِي بِلَادٍ
هَذَا سَوَادٌ بِلَا وَزِيرٍ
وَذَا وَزِيرٌ بِلَا سَوَادٍ^(٢)

وكما هو منتظر فإن انتقاء هؤلاء الوزراء كان يقتضي توفّر صفات معينة فيهم، وكانت مقاييس اختيارهم شديدة للغاية وليست سهلة هذا على المستوى النظري بطبيعة الحال. لكن الواقع أمر آخر. كان للوزراء الأوائل أدوار متواضعة بسبب قوة شخصيات الخلفاء آنذاك. وعلى العموم فإن المقاييس العامة تتمثل في الكفاءة والعدالة والوفاء والنزاهة والشجاعة^(٣). وهذا ما يشير إليه الشاعر المجهول بقوله: (من الوافر)

وَبَدِيهِتُهُ وَفَكْرَتُهُ سَوَاءٌ
إِذَا اشْتَبَهَتْ عَلَى النَّاسِ الْأُمُورُ

(١) ابن بسام، علي بن محمد بن نصر بن بسام المعروف أيضًا بالبسامي (٢٣٠-٣٠٢هـ): الديوان، ٢٦؛ تحقيق مزهر السوداني، الطبعة الأولى، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٩.
(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ٥/٥٩؛ الثعالبي: تحفة الوزراء، ٣٠.
(٣) الماوردي: قوانين الوزارة، ١٥٩-١٦٧.



أَخْرَجَ مَا يَكُونُ الدَّهْرُ يَوْمًا إِذَا أَعْيَا الْمَشَاوِرُ وَالْمَشِيرُ^(١)

إن مؤسسة الوزارة تمثل ما يعرف اليوم بالحكومة، والوزير هو بمثابة رئيس الحكومة أحياناً والوزير الأول أحياناً أخرى حسب كونه وزيراً مطلقاً أو وزيراً مقيداً .

لعلنا أعطينا صورة واضحة عن مؤسسة الوزارة وعن الوزراء مما يسمح لنا الآن لننتقل إلى الحديث عن موقف الشعراء من هؤلاء الوزراء وانعكاس الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الشعر الذي له علاقة بهم.

نجد في هذا الشعر موقفين متكاملين الأول يتوجه للوزراء بصفة عامة دون تحديد وزير بعينه، سواء أكان ذلك الموقف إيجابياً أم سلبياً، والثاني، عكس ذلك، يختص بوزير بعينه .

يركز الشعراء في الموقف الأول كثيراً على ضرورة وجود الوزير لتسيير شؤون الدولة، وهنا يلحون على إبراز الجوانب السلبية عنده. ومن البدهي أن الشاعر، وبغض النظر عن الجانب الذاتي الذي قد يجعله يكره وينتقد هذا الوزير أو ذاك، إنما يعبر عن موقف عمومي حول المحاسن والمساوئ التي يرغب فيه أو يكرهها عند الوزراء، فهذا بدوي مجهول يقول عن أحد الوزراء: (من الطويل)

وَمُظْهَرٌ نُسِكٍ مَا عَلَيْهِ ضَمِيرُهُ
يُحِبُّ الْهَدَايَا بِالرَّجَالِ مَكُورٌ
أَخَالَ بِهِ جُبْنًا وَبُخْلًا وَشِيمَةً
تُخَبِّرُ عَنْهُ أَنَّهُ لَوْزِيرٌ^(٢)

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ٢١ .

(٢) ابن طيفور: بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، ٨٧ .



إن هذا الوزير^(١) يتظاهر بالنسك بينما هو في نظر الشاعر جبان وبخيل، وكأن هذه الصفات هي التي مكنته من أن يصبح وزيراً في الوقت الذي كان يفترض أن تكون له صفات أخرى مخالفة تماماً لهذه، فالشاعر يسخر إذاً من هذا الوزير.

ونجد الشاعر المجهول يقول في الوزراء عمومًا: (من مجزوء الرمل)

لَا كَمَالٌ لَّا جَمَالٌ
لَّا بَيَانٌ لَّا عِبَارَةٌ
هَكَذَا الرَّسْمُ لَدَيْكُمْ
أَيُّنَ أَيَّاتِ الْوِزَارَةِ

نستنتج مما سبق عمومًا أن الوزير المثالي في نظرهم هو أن يكون كامل الأوصاف، فصيحًا بليغًا خبيرًا بأمور الدولة والرعية.

هناك ظاهرة جليلة مرتبطة بالوزارة في العصر العباسي وكان لها انعكاس كبير على الشعر هي النكبة التي لم يكد يسلم منها وزير بالعزل أو بالمصادرة أو بالسجن أو بالقتل إلخ... وكثيرًا ما كان كل هذا مصحوبًا بالتعذيب. وكان للشعراء موقفان عندما ينكب الوزير فإما التأسى والندم والبكاء عليه عندما يكون عادلاً وطيباً، وإما التشفي والانتقام والهجاء عندما يكون سيئاً أو استبدادياً.

نجد من الزمرة الثانية الشاعر علي بن بسام الذي لا يخفي حقه وعداوته

لكل الوزراء: (من الوافر)

سَنَضِيرُ إِذْ وَلَيْتَ فَكَمْ صَبِرْنَا
مِثْلِكَ مِنْ أَمِيرٍ أَوْ وَزِيرٍ
وَمَا لَمْ نَنْلِ مِنْهُمْ سُرُورًا
رَأَيْنَا عَزَلَهُمْ كُلَّ السُّرُورِ^(٢)

(١) لعله يقصد الفضل بن سهل الذي قتله المأمون سنة ٢٠٢هـ.

(٢) ابن بسام: الديوان، ٤٠.

إنه يعبر بهذا الشعر عن رأيه ورأي أمثاله في رجال الدولة هؤلاء من أمراء ووزراء، الذين لم تفرح الرعية في ولايتهم إلا بعزلهم، هذه الرعية التي لم يكن لها من حل سوى الصبر حتى يأذن الله برحيل أولئك المسؤولين. وضروري أن نكرر هنا أن الشاعر علي بن بسام قد تخصص في هجاء كل من كانت له علاقة بالسلطة من بعيد أو من قريب، فهذا هو يقول في شخص آخر: (من مجزوء الكامل)

خَلَعُوا عَلَيْهِ وَزَيَّنُو
هُ وَمَرَّرَ فِي عِزِّ وَرَفَعَهُ
فَكَذَاكَ يُفَعِّلُ بِالْجِمَا
لِ لِنَحْرِهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ^(١)

وهو بهذا يشير إلى ظاهرة النكبة التي ذكرناها أعلاه، خاصة في هذا العصر الذي ندرسه والذي تميز باستيلاء العسكر على السلطة مما صعب أكثر وضعية الوزراء، بحيث أصبحوا هم أيضاً كالخلفاء ألعوبة في أيديهم يعينونهم ويخلعونهم متى يشاؤون، وهذا ما أشار إليه ابن بسام أيضاً: (من الوافر)

وَزَيْرٌ مَا يُفِيقُ مِنَ الرَّقَاعَةِ
يُؤَلَّى ثُمَّ يُعَزَّلُ بَعْدَ سَاعَةٍ^(٢)

إننا نجد كثيراً من الأشعار التي تتحدث عن الوزراء في هذا العصر، وتصف حالهم المزرية، والرعب الذي كانوا يعيشون فيه خاصة في القرن الهجري الثالث، أي في العصر العباسي الثاني^(٣). وكان الضباط السامون في هذا العصر يخشون أيضاً هؤلاء الوزراء، ومن هنا تأمرهم الدائم ضدّهم.

قليلون هم الوزراء الذين لم يُنكَبُوا. تسبب في ذلك أمران متناقضان: فمن جهة، عندما يكونون أقوياء، يمثلون خطراً على الخلفاء والعسكر معاً، فيبطشون

(١) ابن بسام: نفسه، ٤٩.

(٢) نفسه، ٤٩.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١١٠/٤.

بهم، وعندما يكونون ضعفاء لا يستطيعون حل مشكلات الدولة يدفعون الثمن كذلك. في الحالتين هم الضحية.

وزيادة على كراهية الناس لهم فإن بعضهم عرف بشرهه وحبه للمال والاعتناء السريع بجميع الطرق والوسائل مطبقين بذلك نظرية الخليفة المهدي التي مفادها أنك ستبقى قوياً ما دام بيت مالك عامراً^(١).

إن مصادرة الموظفين الساميين ظاهرة قديمة، فقد عرفت منذ صدر الإسلام حين كان الخليفة عمر بن الخطاب يحاسب عماله المعزولين على كل فائض في الأملاك عندهم، وكان ذلك بهدف تطبيق العدالة على الناس جميعاً بطريقة متساوية.

غير أنه في العصر العباسي أصبحت هذه الظاهرة عادة مستشرية بعدما قتل الخليفة الأول أول وزير للدولة العباسية. وقد أصبح مقتل هذا الوزير الذي كان لأسباب سياسية رمزاً ومثالاً مشهوراً يستشهد به للتعبير عن الجحود والخديعة من جهة، وعن العزل من جهة ثانية، بل أصبح دعاء يطلق على كل عدو يراد له الشر: (من الكامل)

إِنَّ الْوَزِيرَ وَزِيرَ آلِ مُحَمَّدٍ

أُودَى فَمَنْ يَشْنَأَكَ كَانَ وَزِيرًا^(٢)

كذلك فعل المنصور الشيء نفسه مع وزيره أبي يعقوب المورياني بعد مصادرة جميع أملاكه وإلقائه في السجن^(٣)؛ وتقريباً كل وزراء بني العباس تعرضوا لذلك.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة، ٢٤/٢.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٣/٢٧١؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ٢٩٣؛ الذهبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد (-٧٤٨/٥١٣٤٨م): تاريخ الإسلام، ٥/٢٣٨؛ مطبعة القدسي، دت: الصابي: رسوم دار الخلافة، ١٢٩؛ تحقيق محمد عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة، ٢٤/٢.

والآن نستعرض بعض النماذج من الشعر المتعلق بالوزراء كعينة على المآخذ التي كان الشعراء يؤاخذونهم عليها، والأخطاء التي يرون أنهم ارتكبوها أو النقائص التي هم مسؤولون عليها.

أول أمر يجلب الانتباه هو ظلم هؤلاء الوزراء وجبروتهم، فكثير منهم استعملوا كل الوسائل للحفاظ على امتيازاتهم، ولم يترددوا، في هذه الحال، عن تعذيب خصومهم. يمكن أن نذكر هنا الفضل بن مروان^(١) الذي اشتهر بعنفه مع الناس مما حدا بالشاعر الهيثم بن فارس إلى أن يقول فيه: (من الطويل)

تَفَرَّعْتِ يَا فَضْلُ بِنَ مَرْوَانَ فَاعْتَبِرْ
فَقَبْلَكَ كَانَ الْفَضْلُ وَالْفَضْلُ وَالْفَضْلُ^(٢)
ثَلَاثَةٌ أَفْلَاكٍ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ
أَبَادَهُمُ الْمَوْتُ الْمُشْتَتُّ وَالْقَتْلُ
فَإِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ فِي النَّاسِ ظَالِمًا
سَنُودِي كَمَا أَوْدَى الثَّلَاثَةَ مِنْ قَبْلُ^(٣)

واضح إذاً أنه يطلب منه أن يتعظ من الفضول الثلاثة الذين كانوا قبله والذين قتلوا جميعاً لجبروتهم وظلمهم الناس.

وكان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ممن اشتهروا أيضاً بتعذيب المصادرين بطرق بشعة، ولعله أكثرهم تشدداً، وقد جاء دوره ليعاقبه الخليفة، فاستغل الشعراء ذلك فهجوه أشد الهجاء بعدما تيقنوا بأنه لن يطالهم، ومنهم محمد بن علي المعروف بدنن، الذي قال فيه مستشفياً: (من الطويل)

(١) الفضل بن مروان: وزير للمعتصم من سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م إلى سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م.
(٢) الفضول الثلاثة هم: الفضل بن يحيى البرمكي، والفضل بن الربيع، والفضل بن سهل.
(٣) ياقوت: معجم الأدباء، ٨٨/٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٤/٤٥.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَيَّدَ بِيْنَهُ

وَأَوْقَعَ بِالزِّيَّاتِ لَمَّا تَجَبَّرَا^(١)

وكان علي بن الجهم أيضاً من الذين خرجوا عن صمتهم وتشفوا في ابن الزيات عندما نكب، وراح يعدد مساوئته وعيوبه، ويذكره بأصله المتواضع، ويشكو للخليفة ضعف هذا الوزير وعدم كفاءته: (من الرجز)

لَعَائِنُ اللَّهِ مُتَابِعَاتِ

مُصَابِحَاتِ وَمُهَجَّزَاتِ

عَلَى ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ

عَرَّضَ شَمْلَ الْمُلْكِ لِلشَّتَاتِ

وَأَنْفَذَ الْأَحْكَامَ جَائِرَاتِ

عَلَى كِتَابِ اللَّهِ جَارِيَاتِ

بَعْدَ رُكُوبِ الطَّوْفِ فِي الْفُرَاتِ

وَبَعْدَ بَيْعِ الزَّيْتِ بِالْحَبَّاتِ

صَزَّتْ وَزِيْرًا شَامِخَ الثُّبَاتِ

هَارُونَ يَا بَنَ سَيِّدِ السَّادَاتِ

أَمَا تَرَى الْأُمُورَ مُهْمَلَاتِ

تَشْكُو إِلَيْكَ عَدَمَ الْكُفَاةِ؟^(٢)

وقد اشتهر وزير آخر بالبطش والجبروت والتعنت في عهدي المعتضد والمكتفي هو القاسم بن عبيد الله، وكان غير مسلم على ما يبدو، وقد تصدى له الشاعر علي ابن بسام المعروف بعداؤه لكل من له علاقة بالسلطة بقوله: (من المتقارب)

عَدَزْنَاكَ فِي قَتْلِكَ الْمُسْلِمِينَ

وَقُلْنَا عداوة أهل الملل

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ٣٩٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٠٨/٤.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١٧٧/٥.



فَهَذَا الْمَنَارِيُّ مَا ذُنْبُهُ

وَدَيْنُكُمْمَا وَاجِدُ لَمْ يَزَلُ^(١)

لسنا في حاجة إلى التأكيد أن الشعراء، استنتاجاً مما ذكرنا أنفا لم يكونوا يحبون هؤلاء الوزراء إطلاقاً، وخاصة القاسم هذا الذي عرف بقساوته وعنجهيته مما جعل الناس يحتفلون بموته كما قال الشاعر عبدالله بن حسين بن سعد: (من المتقارب)

شَرِبْنَا عَشِيَّةَ مَاتَ الْوَزِيرُ

وَنَشْرَبُ يَا قَوْمُ فِي ثَالِثِهِ

فَلَا قَدَسَ اللَّهُ تِلْكَ الْعِظَامَ

وَلَا بَارَكَ اللَّهُ فِي وَارِثِهِ^(٢)

وقد ذكر أبو بكر الصولي هذا الوزير أيضاً في عبارات مشابهة^(٣).

أما الوزير جعفر بن محمد الإسكافي، فقد قال فيه الشاعر المجهول في ذلك

الوقت ما يلي: (من الكامل)

لَسْنَا نُؤْمَلُ جَعْفَرًا لِسَادِ

بَلْ جَعْفَرُ أَصْلُ لِكُلِّ فَسَادِ

مُتَرْفَضُ بِالنَّقْصِ لَا بِبَصِيرَةٍ

لَا يَهْتَدِي جَهْلًا لِأَمْرِ رِشَادِ

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ

كُنْ مِنْ خِيَانَتِهِ عَلَى إِزْصَادِ

لَا تَرْكُنَنَّ إِلَى لَعِينٍ مُبْغِضِ

يَخْتَصُّ غَيْرَكُمْ بِصَفْوِ وَدَادِ

(١) ابن بسام: نفسه، ٥٥.

(٢) المسعودي: السابق، ١٨٢/٥.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٩٧/٥-٩٨.



وَتَوَقَّ أَرَاءَ لَهُ مَعْكُوسَةً

تَمْضِي بِأَخْبَثِ نِيَّةٍ وَعِنَادٍ^(١)

إن هذا الشاعر المجهول ينتقد هذا الوزير بأنه رافضي وجاهل وهو أصل كل فساد، وأن على الخليفة أن يأخذ حذره منه لأنه يميل إلى غيره ويتآمر ضده ويخونه.

أما الوزير العباس بن الحسن فهو بالنسبة إلى الشاعر علي بن بسام أصل كل مشكلات البرية بأسرها لأنه يظلم الناس جهرة: (من الطويل)

تَحَمَّلَ أَوْزَارَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا

وَزَيْرٌ بِظُلْمِ الْعَالَمِينَ يُجَاهِرُ^(٢)

إن الشعر الذي يتناول الوزراء غزير جداً في الحالتين سواء عندما يمدحون أو عندما يذمون، ففي الحالة الأولى يدفع الشعراء دوماً طمع في جوائز أولئك الوزراء، وفي الحالة الثانية نجده يأتي نتيجة عدة أسباب منها أن كثيراً من الشعراء كانوا إنما يمثلون المعارضة لأولئك الوزراء الذين كانوا في نظرهم «طغاة غير عادلين». إنها في الحقيقة معارضة للنظام العباسي لأن هؤلاء الوزراء هم السبب في نظرهم في انحطاط الدولة العباسية، وهذا الأمر فيه كثير من الصحة.

لم تكن مواجهة هؤلاء الوزراء دوماً سهلة، سواء أكانت علنية أم كانت سرية، غير أن كثيراً من الشعراء خاطروا بأرواحهم وجاهرُوا بآرائهم فيهم دون خوف من تبعات ذلك الموقف. لكن لا بد من الملاحظة أن هذه المواجهة لم تكن شخصية موجّهة ضد هذا الوزير بعينه أو ذاك بل كانت موجّهة ضد مؤسسة الوزارة عموماً أي ضد النظام نفسه.

(١) الصفدي الوافي بالوفيات، ١٥٢/١٠.

(٢) ابن بسام: نفسه، ٢٧.

وكان عنصر آخر سبباً في هذا الصراع هو أن أغلب هؤلاء الوزراء لم يكونوا من أصل عربي، وهم، بصفة أو أخرى، كانوا يمثلون اتجاهات أو حركات أو أحزاب في المجتمع العباسي المتنوع عرقياً وثقافياً.

وكانت هناك نقطة أساسية أخرى ركز عليها الشعراء هي جهل هؤلاء الوزراء وعدم كفاءتهم في حل المشكلات السياسية والاقتصادية. لكن علينا أن نلاحظ أولاً أن هؤلاء الوزراء لم يكونوا دائماً مطلقي الأيدي كما يُظن، ومع ذلك، نجد عدة أحداث مرتبطة بهم من جهة ثانية. وفي كثير من الأحيان يكونون هم السبب المباشر لتلك الأحداث إن بِنِيَّةٍ حسنة أو بِنِيَّةٍ سيئة.

يمكن أن نُذَكِّرَ بهذا الخصوص بأشعار الشاعر المكفوف علي بن أبي طالب التي تناول فيها أحداث الحرب الأخوية بين الأمين والمأمون، فبالنسبة إليه يعود سبب نشوب تلك الحرب إلى وزير الأمين الذي يقول فيه: (من المتقارب)

أَضَاعَ الْخِلَافَةَ غِشُّ الْوَزِيرِ
وَفُسِّقُ الْإِمَامِ وَرَأْيُ الْمُشِيرِ
فِعَالُ الْخَلِيفَةِ أَعْجُوبَةٌ
وَأَعْجَبُ مِنْهَا فِعَالُ الْوَزِيرِ^(١)

من المفروض أن يكون الوزير عين الخليفة وفكره معاً، وباختصار هو مستشاره الوفي والصادق، ومن ثم، نستطيع أن نقول إن كل خليفة يقيم حسب وزيره. والأهم في كل هذا هو العلاقة بين هذا الوزير الذي يجسد السلطة وبين الرعية أو المجتمع الذي هو مَنشَأُ هذه السلطة. إن عدم الثقة في هؤلاء الوزراء من قبل الشعراء، أي من قبل الرعية، يبين مدى التوازن الهش في العلاقة بين الرعية والسلطة.

هناك حادثة وقعت في عهد الوزير أحمد بن الخصب تبين ذلك، فقد خرج هذا الوزير ذات يوم على فرسه ليتفقد أحوال الناس، وفي طريقه اعترضه

(١) المسعودي: السابق، ٦/٢٧١.

شخص وقدم له عريضة، لكن الوزير انزعج على ما يبدو من جرأة هذا الشخص فأخرج رجله من الركاب وركله بها على صدره، فمات ذلك الرجل بسبب تلك الضربة، فاستغل الشاعر المجهول هذه الحادثة وتقدم بسرعة إلى الخليفة قائلاً:

(من الكامل)

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ
أَشْكِلُ وَزِيرَكَ إِنَّهُ رَكَّالُ
أَشْكِلُهُ عَنِ رَكْلِ الرَّجَالِ فَإِنْ تُرِدْ
مَا أَفْعُنْدُ وَزِيرَكَ الْأُمُورِ^(١)

بالنسبة إلى الناس، هناك شيء مهم يفتقده هذا الوزير هو الحلم والطيبة تجاههم، ولذلك فإبعاده يعد عندهم عيداً كبيراً لأن ذلك يحررهم من عبء يمثل الخوف واللاأمن. انطلاقاً من هذا نستطيع أن نفهم ما يقصد إليه الشاعر محمد بن غياث وهو يتحدث عن الوزير جعفر بن محمد الإسكافي عندما عزل: (من السريع)

فِي غَيْرِ حِفْظِ اللَّهِ يَا جَعْفَرُ
زَلْتِ فَزَالَ الْخَوْفُ وَالْمُنْكَرُ
بَلَّغْتَ أَمْرًا لَسْتَ أَهْلًا لَهُ
بَاعُكَ عَمَّا دُونَهُ يَقْضُرُ
كُنْتَ كَثُوبٍ زَانَهُ طِيَّهُ
جِينًا فَأَبْدَى عَيْبَهُ الْمُنْشَرُ^(٢)

ولذلك كذلك لا يكل علي بن بسام من وصف المناخ السياسي الذي عرفه عصره. إنه يعطينا صورة قاتمة حيث قامت مجموعة من ضباط الجيش بالاستحواذ على السلطة واغتصابها، وهذا الكلام يوجهه للموقف حينما كان وصياً على العرش: (من المتقارب)

(١) المسعودي: نفسه، ٤٨/٥.

(٢) الصفدي: فوات الوفيات، ٧٨/٤.

أَيَرْجُو الْمَوْفِقُ نَضْرَ الْإِلَهِ
 وَأَمْرُ الْعِبَادِ إِلَي دَانِيهِ؟
 وَظَلَّ ابْنُ بُلْبُلٍ^(١) يُدْعَى الْوَزِيرَ
 وَلَمْ يَكُ فِي الْأَعْصِرِ الْخَالِيَهُ
 وَحَامِدٌ^(٢) يَا قَوْمُ لَوْ أَمَرَهُ
 إِلَيِّ لِأَلْرَمْتُهُ الرَّاوِيَهُ
 نَعَمْ وَلَأَرْجَعْتُهُ صَاغِرًا
 إِلَي بَيْعِ رُمَّانِ حُسْرَاوِيَهُ
 وَإِسْحَاقِ عَمْرَانَ^(٣) يُدْعَى الْأَمِيرَ
 لَدَاهِيَهُ أَيَّمَا دَاهِيَهُ
 فَهَذَا الْخِلَافَةُ قَدْ وَدَّعَتْ
 وَظَلَّتْ عَلَى عَرْشِهَا خَاوِيَهُ^(٤)

هناك جانب آخر يمثله هذا الشاعر وله انعكاس سياسي واجتماعي وثقافي
 وديني أحياناً، وهو أنه ينتمي إلى تيار العروبية في ذلك العصر في مواجهة الشعبية
 التي استفحل أمرها، والتي سنعود إليها فيما يأتي. كان هذا الوضع مؤلماً بالنسبة
 إلى هذا التيار لأنهم رأوا دولتهم التي كانت عربية خالصة يقودها أناس غير عرب؛
 وصاروا يرون ذلك بمثابة غزو من الداخل وليس عن طريق الحروب أو الاحتلال،
 ولذا نجده يقول انطلاقاً من هذا المنظور وهو يتحدث عن وصول بني الفرات إلى
 الوزارة: (من الوافر)

(١) كان وزيراً من سنة ٢٦٥هـ إلى ٢٧٨هـ؛ انظر: D. Sourdel: Le Vizirat abbasside. ١/٢١٥-٢٢٦.
 (٢) هو حامد بن العباس، وزير المقتدر من سنة ٣٠٦هـ إلى ٣١١هـ؛ ٢/ D. Sourdel: Le Vizirat abbasside. ٤٢٣-٤١٤.
 (٣) هو والي ولاية الكوفة.
 (٤) ابن بسام: نفسه، ٦٤.

إِذْ حَكَمَ النَّصَارَى فِي الْفُرُوجِ
وَتَاهُوا بِالْبِغَالِ وَبِالسُّرُوجِ
فَقُلْ لِالْأَعْوَرِ الدَّجَالِ هَذَا
أَوَأَنَّكَ إِنْ عَزَمْتَ عَلَى الْخُرُوجِ^(١)

هذا أمر لا يطاق في نظر هذا الشاعر بل هو واحدة من علامات نهاية العالم حيث سيظهر الأعور الدجال كما كان سائداً في المعتقدات القديمة.

صحيح أن بني الفرات كان لهم دور كبير في الوزارة العباسية في القرن الثاني من حكمهم، فقد كان أولهم، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات، وزيراً ثلاث مرات في خلافة المقتدر، وكان الثاني، وهو الفضل بن جعفر بن الفرات، وزيراً للخليفين المقتدر والراضي. وفي الأول يقول القاضي أحمد بن إسحاق بن بهلول^(٢):
(من الخفيف)

قُلْ لِهَذَا الْوَزِيرِ قَوْلٌ مُحِقٌّ بِنْتُهُ
النُّصْحَ أَيَّمَا إِبْنَاتِ
تَقَلَّدَتْهَا مِرَاراً ثَلَاثاً
وَطَلَّقَ الْبَنَاتِ عِنْدَ الثَّلَاثِ

وبالفعل، وكما تنبأ هذا الشاعر، فقد قتل ذلك الوزير في عهده الثالثة.

وقد كان الشعراء عندما يصمون هؤلاء الوزراء بالجهل وعدم الكفاءة إنما كانوا يقصدون الخلفاء أنفسهم الذين اختاروهم وقلدوهم تلك المناصب، فهذا ما نلاحظه في قول الشاعر محمد بن مكرم وهو يتحدث عن الوزير أحمد بن إسرائيل^(٣): (من السريع)

(١) ابن بسام: الديوان، ٣١.
(٢) هو القاضي التنوخي (٢٣١هـ-٣١٨هـ/٨٤٥م-٩٣٠م)؛ كان قاضياً في بغداد لمدة عشرين عاماً من سنة ٢٩٦هـ إلى ٣١٦هـ؛ انظر البغدادي: تاريخ بغداد، ٣٠/٤.
(٣) هو وزير المعتز.

قُلْ لِإِبْنِ إِسْرَائِيلَ يَا أَحْمَدُ
 عُمُرُكَ فِي الْعَالَمِ مَا يَنْقُدُ
 إِنَّ زَمَانًا أَنْتَ مُسْتَوُورُ
 فِيهِ زَمَانٌ أَعْسَرَ أَنْكَدُ
 يَذُمُّكَ النَّاسُ جَمِيعًا فَمَا
 يَلْقَاكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ يَحْمَدُ
 طَرَفَ الَّذِي اسْتَكْفَاكَ أَمْرَ الْوَرَى
 بَعْدَ اخْتِبَارِ عَائِدٍ أَرْمَدُ^(١)

إنه يلوم الخليفة ويحمله سوء اختياره لهذا الوزير. وفي السياق نفسه يتحدث

علي بن بسام عن الوزير العباس بن الحسين^(٢): (من مجزوء الرمل)

لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي قَلَّدَ عَبَّاسَ الْوِزَارَةَ
 وَالَّذِي وَلَّى ابْنَ عَمْرَوَيْهِ بِبَغْدَادِ الْإِمَارَةَ
 فَوَزِيرٌ شَنِجٌ الْوَجْهَ بَطِينٌ كَالْغَرَارَةَ
 وَقَفَا فِيهِ سَنَامَانِ وَرَأْسٌ كَالْخِيَارَةَ
 وَأَمِيرٌ أَعْجَمِيٌّ كَحِمَارِ ابْنِ حِمَارَةَ
 رَحَلَ الْإِسْلَامَ عَنَّا بِتَوَلِّيهِ الْوِزَارَةَ^(٣)

لا بد من الإشارة بكل موضوعية إلى أن هؤلاء الوزراء لم يكونوا جميعاً سيئين بل كان فيهم الكفاة الجيدون، وتبعاً لذلك فإن الشعر المتعلق بهم لم يكن كله هجاء كما يظن نتيجة للعينه التي ذكرناها بل فيه من مدحهم من الشعراء لقدرتهم ولكثير من الخصال الحميدة، وكان ذلك لأسباب كثيرة منها التوافق بين آراء هؤلاء

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ٣٩٧؛ الصفيدي: السابق، ٥٤/٥.

(٢) وزير المقتدر والمكتفي من سنة ٢٩١هـ/٩٠٤م إلى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م؛ انظر: D. Sourdel: Le Vizirat .abbaside. ١/٣٥٩-٣٧٠.

(٣) ابن بسام: نفسه، ٤٦.

الشعراء وهؤلاء الوزراء في أمور الدولة والسياسة والاجتماع؛ ومنها الجانب المادي لأن الشعراء كانوا في أغلب الأحيان يتلقون منهم جوائز وأعطيات وصلات وهدايا ومبالغ ضخمة من المال.

وكان أمرًا شائعًا أن كل من يتولى وظيفة في ذلك الزمن يتعرض للهجاء أو يكون محل مدح أو هما معًا في الوقت نفسه بحسب موقف الشعراء منه. والحقيقة، وبكل موضوعية، إن بعض الوزراء كانوا فعلاً أكفاءً وأذكياء، وأصحاب تدبير جيد، وساسة محنكين.

لقد ركز الشعر في مدائحهم على بعض الصفات كالولاء والوفاء للخليفة وللنظام، فمثلاً يصف الشاعر أبوكامل تميم بن المُرْخ الطائي خصال الوزير علي ابن عبدالله الجَوْنِيّ بالعبارات التالية: (من الخفيف)

كَانَ لِيْهِ فِي الْبَرِيَّةِ لَطْفٌ
يَوْمَ أَفْضَى إِلَيْهِ أَمْرُ الْوَزَارَةِ
إِنَّ فِيهِ لِكُلِّ وَهْيٍ سَدَاداً
وَلَدَيْهِ لِكُلِّ وَهْنٍ جُبَارَةٌ^(١)

وكما كان معهودًا في ذلك الزمن ففيهم من بالغ وأصبغ على الوزراء أمورًا لم تكن فيهم. لقد رأينا مثلاً كيف عامل الشعراء ابن الفرات بينما يتحدث عنه ابن طاهر بعبارات فضفاضة: (من الخفيف)

أَنْتِ قَطْبُ الدُّنْيَا تَدُورُ عَلَيْهِ
مَا أُدِيرْتُ وَحَافِظُ الْإِسْلَامِ
أَنْتِ عَنَوَانُ كُلِّ مَجْدٍ وَتَارِيحِ
سُخِّ الْمَعَالِي وَسَيِّدُ الْأَقْوَامِ

(١) الصفدي: السابق، ٤١٨/١٠.

حارسُ الإرثِ والخِلافةِ والسُّننِ

طانٍ والدهرِ كلِّهِ والأَنامِ^(١)

هذه المبالغات كانت دائماً دارجة وشائعة في المدح عبر تاريخ الأدب العربي، وخاصة عندما يتعلق الأمر بذيي السلطان من خلفاء ووزراء، فالصفات الحميدة توزع عليهم بكرم كبير بغض النظر عن تطابقها مع الواقع أم لا. ومن مثل هذه المبالغات الجميلة فنياً قول أبي نواس في آل الربيع^(٢): (من مجزوء الكامل)

قَوْمٌ كَفُّوا أَيَّامَ مَكَّةَ
نَازِلَ الخَطْبِ الكَبِيرِ
لَوْلَا مَقَامُهُمْ بِهَا
هَوَتِ الرِّوَايَةُ عَن تَبِيرِ^(٣)

هل كانوا يستحقون كل هذا الإطراء؟ ربما كانوا كذلك.

المهم أننا نستخلص شيئاً مهماً من الأشعار التي أوردناها سابقاً، ألا وهو أن الشعراء كانوا دوماً يقولون كلمتهم في الأحداث السياسية وغير السياسية التي تمر بها الدولة العباسية وخاصة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فهم عندما يتصدون لهؤلاء الموظفين الساميين والكبار إنما يعبرون عن طموح الرعية التي ينتمون إليها. إن الأخطاء والنقائص التي يؤاخذون بها هؤلاء الوزراء تعطينا فكرة عن الصفات التي ترغب الرعية أن تراها فيمن يحكمها.

١ - نكبة البرامكة

لقد ذكرنا آنفاً أن معظم الوزراء العباسيين كانوا ضحية غضب الخلفاء عليهم فعرفوا التفاضي والازدراء وفقدان الحظوة والنكبة والتعذيب والمصادرة وأخيراً

(١) الصفدي: السابق، ١٠/١٩١.

(٢) للمزيد من التفاصيل حول هذه الأسرة، انظر: ١٩٤-١٨٣/١، D. Sourdel: Le Vizirat abbasside.

وخاصة الفضل بن الربيع الذي استوزر للرشيد من سنة ١٧٨هـ/٨٠٢م إلى سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م.

(٣) أبونواس: الديوان، ٨٤.

الموت. إن أشهر حالة في كل ذلك هي النكبة التي حلت بالبرامكة^(١). من حقنا أن نتساءل ما هي الأسباب والملابسات التي وقعت فيها تلك المأساة؟ ما هو دور الشعر في ذلك وما هي مشاركته؟

حدثت تلك النكبة سنة ١٨٧هـ. لقد ذكرها معظم المؤرخين كالطبري وابن الأثير وابن الجوزي وغيرهم.

لقد اختلف المؤرخون حول الأسباب الحقيقية لتلك النكبة، فقد ذكروا عدة آراء تكون قد دفعت الخليفة هارون الرشيد للتصرف بذلك الشكل بعد الثقة الكبرى التي كان يضعها فيهم، وبعد أن أعطاهم كامل الصلاحيات لتسيير شؤون الدولة، والقيام بكل الأعباء بدلاً عنه.

يذكر الأتليدي أن واحداً من هذه الأسباب عاطفي، فقد كان من عادة هارون الرشيد، على ما يبدو، أن يقيم سهرات في مجلسه الخاص، وكان يرغب في أن تحضر أخته ميمونة عند بعضهم، أو العباسة عند آخرين، تلك السهرات، وكان في الوقت نفسه يرغب في أن يحضر جعفر البرمكي أيضاً تلك السهرات. ولكي يزيل عنه وعنهم كل حرج أو التباس عقد لجعفر البرمكي على أخته بشرط ألا يتصرفا كزوج وزوجة، لكن تلك المرأة تعلقت بجعفر، وفي إحدى الليالي، وهو ثمل، تنكرت له في زي جارية ودخلت عليه، فعلم الخليفة بذلك في الأخير وانتقم من جميع البرامكة^(٢).

وهناك سبب آخر يذكرونه أيضاً له علاقة باستحواذ السلطة من خلال تعيين رجالهم وأتباعهم في مختلف وظائف الدولة دون أن يعودوا في ذلك إلى الخليفة.

(١) لمعرفة أصل البرامكة وحكمهم وسقوطهم، انظر: D.Sourdel: Le Vizariat abbasside. ١/١٢٧-١٨٢.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٣١١؛ ابن قتيبة: تحفة الوزراء، ١٧٢؛ محمد دياب الأتليدي، دياب: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، ١٨٧؛ مطبعة الشيخ شرف موسى، د.ت؛ يلاحظ هنا أن بعض المؤرخين المحدثين ينفون كل هذه الحادثة مثل عمر فروخ: تجديد التاريخ في تعليقه وتدوينه، ١٥٢؛ دار الباحث، بيروت، ١٩٨٠.

لقد صارت هذه الوضعية بسرعة موضوع حديث الخاصة والعامّة، فتجراً شاعر مجهول وأرسل للخليفة رقعة فيها هذه الأبيات التي يذكر له فيها ما يشاع بين الناس: (من السريع)

قُلْ لَأَمِينِ اللّهِ فِي أَرْضِهِ
وَمَنْ إِلَيْهِ الْحَلُّ وَالْعَقْدُ
هَذَا ابْنُ يَحْيَى قَدْ غَدَا مَالِكاً
مِثْلَكَ مَا بَيْنَكُمْ أَحَدُ
أَمْرِكَ مَزْدُودٌ إِلَيَّ أَمْرِهِ
وَأَمْرُهُ لَيْسَ لَهُ رُدُّ^(١)

ويبدو أن ذلك الوضع لم يعد الخليفة يطيقه فقرر الفتك بالبرامكة، فقد عظم أمرهم وصار لهم شأن كبير. إن في الحديث التالي الذي دار بين إسماعيل بن يحيى الهاشمي ابن عم الخليفة وجعفر بن يحيى البرمكي سبباً كبيراً للإيقاع بهم بعدما ساءت العلاقة بين الخليفة وبين البرامكة، حينما نصح إسماعيل يحيى أن يتنازل عن بعض أملاكه لأبناء الخليفة، فكان رد يحيى عليه بغضب: «والله يا إسماعيل، ما أكل الخبرَ ابنُ عمك إلا بفضلي، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا، أما كفى أني تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته، وقد ملأت بيوت أمواله أموالاً، ولا زلت للأموال الجليلة أدبرها، حتى يمد عينيه إلى ما ادخرته واخترته لولدي وعقبني من بعدي، وداخله حسد بني هاشم وبغيهم، ودب فيه الطمع، والله لئن سألني شيئاً من ذلك ليكونن وبالأعلى عليه سريعاً..»^(٢) وكان الخليفة كلم ابن عمه هذا عن المآخذ التي يؤاخذ بها البرامكة وعن تصرفاتهم وسلوكهم، وامتلاكهم الضياع والأراضي، وصرفهم الأموال بدون حساب، دون نسيان قصورهم

(١) ابن العماد: السابق، ٢١٢/١.

(٢) الأتليدي: السابق، ٨٩.

وحب الأبهة التي ظهرت عليهم^(١). وكان لهم نفوذ حقيقي حتى جعلهم الشعراء هم
 الأسياد الحقيقيون^(٢). وكان هذا الموقف منهم يتمثل عادة في الإلحاح على الخليفة
 بالسماح للطالبيين بزيارة مكة والمدينة؛ ثم جاء موقفهم أيضاً من الطالبي السجين
 يحيى بن عبدالله^(٣) الذي ثار من قبل على الخليفة بعد أن نجا من مذبحه فخ.
 كلف الفضل بن يحيى بهذه القضية فتتقل للدليم لإيجاد حل لها فاستطاع أن يقنع
 العلوي بتوقيع عهد معه بعد أن أعطاه الأمان وكل الضمانات المتمثلة في أيمن
 الخليفة هارون الرشيد القاطعة، وكان ذلك سنة ١٧٦هـ. واستطاع الخليفة أن يلقي
 القبض على طالبي آخر هو موسى الكاظم الذي كان يحضر للثورة عليه وسلمه
 للبرامكة فأكرموا مما زاد من شكوك الخليفة فيهم. ويشير الشاعر مروان بن أبي
 حفصة في إحدى مدائحه إلى ذلك بقوله: (من الطويل)

ظَفِرَتْ فَلَا شَلَّتْ يَدُ بَرْمَكِيَّةٍ
 رَتَقَتْ بِهَا الْفَنُقَ الَّذِي بَيْنَ هَاشِمِ
 عَلَى حِينِ أَعْيَا الرَّاثِقِينَ التَّنَائِمُ
 فَكْفُوا وَقَالُوا لَيْسَ بِالمُتَلَائِمِ
 فَأَصْبَحْتَ قَدْ فَازْتَ يَدَاكَ بِخِطَّةِ
 مِنْ المَّجْدِ بَاقٍ ذِكْرُهَا فِي المَوَاسِمِ^(٤)

ويذكر المؤرخون سبباً آخر هو سياسة البرامكة في مجال خطر هو العصبية
 العربية والتوازن الهش الموجود في شكل توافقات مختلفة، غير أنهم لم يستطيعوا
 أبداً إخماد الثورات الناتجة عن النعرات القبلية خاصة مع وجود تلك الفجوة التي

(١) نفسه.

(٢) مروان بن أبي حفصة: الديوان، ٥١؛ الحصري القيرواني: نفسه، ٨٢/٢.

(٣) الإصفهاني، علي بن الحسين: مقاتل الطالبيين، ٣٠٨ وما بعدها؛ تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة البابي،
 القاهرة، د.ت.

(٤) مروان بن أبي حفصة: شعر مروان، ١٠٣.

تفصل بين المضرية واليمنية. وهنا أيضاً نجد مروان بن أبي حفصة يشير إلى حنكة جعفر البرمكي في الوساطة بين تلك القبائل المتناحرة منذ زمن بعيد: (من الطويل)

لَهُ عَادَةٌ أَنْ يَبْسُطَ الْعَدْلَ وَالنُّدَى

لَمَنْ سَاسَ مِنْ قَحْطَانَ أَوْ مِنْ نِزَارٍ^(١)

وقد اتهم البرامكة في هذا المجال بالشعوبية^(٢) أيضاً، فقد كانوا يشجعونها في السر وفي العلن لأنهم، وجهوا الحياة العامة وفق ما يريدون، وذلك بتشجيعهم لعدد كبير من الكتاب والقصاص والعلماء والمترجمين والشعراء وغيرهم. من أشهر هؤلاء أبو عبيدة وعلان الشعبي في التاريخ وانتحال القصص، وحماد الراوية وخلف الأحمر في رواية الشعر وانتحاله، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي والفضل بن سهل في الترجمة من الفارسية، بينما نجد سهل بن هارون وسعيد بن نجتكان من أشد المتحاملين على العرب والمؤلفين للكتب ضدهم^(٣). نلاحظ كذلك أن البرامكة أحياناً كانوا يتهمون بأنهم من أتباع مزدك كما يشير الأصمعي^(٤) في قوله: (من المتقارب)

إِذَا نَكِرَ الشَّرْكَ فِي مَجْلِسِ

أَصَاءَتْ وَجُوهَ بَنِي بَزْمَكِ

وَإِنْ تَلَيْتَ عِنْدَهُمْ آيَةً

أَتَوْا بِالْأَحَادِيثِ عَنْ مَزْدَكِ^(٥)

بينما يفتخر شاعر آخر هو يحيى بن سعيد الأنباري بأصلهم الفارسي

وانتمائهم إلى المرازية والأكاسرة: (من الكامل)

(١) نفسه، ٤٥.

(٢) انظر أسفله عند الحديث عن دور الشعر في العروبية وفي الشعوبية.

(٣) محمد بديع شريف: الصراع بين الموالي والعرب، ٤١؛ دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت.

(٤) الأصمعي، عبد الملك بن قُرَيْب (توفي سنة ٢١٦هـ/٨٣١م)؛ انظر بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي،

١٤٧/٢-١٤٨؛ ترجمه عن الألمانية عبد الحليم النجار، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.

(٥) ابن قتيبة: المعارف، ٣٨٢؛ تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠؛ الجهشياري: الوزراء

والكتاب، ٢٠٦؛ عبدالله الفياض: تاريخ البرامكة، ١٥٠؛ انظر كذلك: ١٧٦-١٧٥/١، D.Sourdel: Idem.

حيث يدحض هذا القول.

يَا بَنَ الْبِرَامِكَةِ الْمَبْرَزِ سَبِّقْهُمْ
عِنْدَ الطَّعَانِ وَعِنْدَ حُرِّ الْمَصْدَقِ
وَابْنَ الْمَرَازِبِ وَالْأَكَّاسِرَةَ الْأَلَى
فَأَقُوا بِفَضْلِ سَمَاحَةٍ وَتَخَلُّقِ
كَرَمًا وَعِزًّا غَالِبًا وَمَهَابَةً
الْفَارِجِينَ لِكُلِّ هَمٍّ مُقْلِبِ
وَالْمُغْلِقِينَ لِمَا أَرَادُوا سِنْرَهُ
وَالْفَاتِحِينَ لِكُلِّ سَدٍّ مُغْلِقِ^(١)

وكان هناك سبب آخر، مهم هو كذلك، وهو سياسة البرامكة المالية، إذ يذكر المؤرخون مرونتهم في هذا المجال، غير أنهم مبدرون على ما يبدو، فهم يصرفون الأموال بالسرعة نفسها التي يحصلون بها عليها. وقد أصبحوا، من جهة أخرى، أغنى من الخليفة نفسه، بل الأدهى من ذلك كله أنهم كانوا ينفقون أموال الدولة وكأنها أموالهم الخاصة، فقد كانوا يملكون ضياعاً لم يكن مثلها عند الخليفة وأسرته، فمثلاً يحكى أن هارون الرشيد كان يسير ذات يوم مع ابن عمه إسماعيل ابن يحيى الهاشمي فرأى موكباً ضخماً من بعيد فلما سأل عنه قيل له إنه موكب جعفر بن يحيى البرمكي فنظر إلى موكبه هو فوجده متواضعاً مقارنة بالموكب الآخر. ثم رأى في طريقه ضيعة عامرة فيها مواش كثيرة وعمارة حسنة، والطريق يدور عليها وفيها الغلال ويسار أهلها واضح للعيان، فلما سأل عن مالها قيل له إنها أيضاً لجعفر البرمكي. ثم واصل سيره فكان يمر بكل ضيعة أعمر من سابقتها فكلما سأل عن صاحبها قيل له إنها لجعفر^(٢). ولما رأى كل ذلك قال لابن عمه إسماعيل: «انظر إلى البرامكة أغنيانهم وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم. فقلت في

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ٤٩٠.

(٢) الأتليدي: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، ٢٤٥ (بشيء من التصرف)

نفسى: بلية والله، ثم قلت: لماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: نظرت لهؤلاء وغفلت عن هؤلاء لأنى لا أعرف لأحد من أولادي ضيعة من ضياع البرامكة على طريق واحد، على قرب هذه المدينة، فكيف بما هو لهم غير ذلك على غير هذا الطريق في سائر البلدان... ثم قال: ما عدّ البرامكة بني هاشم إلا عبيدهم، وأنهم هم الدولة وأنّ لا نعمة لبني العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها»^(١). ويبدو كذلك أن البرامكة بالغوا في بناء الدور الفخمة والقصور المنيفة، فمثلاً خالد البرمكي كان يسكن في مكان اسمه «الشمسية» في شارع يعرف باسمه أي «سويقة خالد»، ويحيى بن خالد بنى قصرًا عرف بـ«قصر الطين»، في حين بنى كل من الفضل بن يحيى البرمكي وأخيه يحيى بن يحيى البرمكي قصرين حملتا اسميهما^(٢).

كان البرامكة مقصدًا للشعراء من كل حذب وصوب، وأصبحوا مثلاً للكرم والوجود وكل الخصال الحميدة، كما يؤكد الشاعر أشجع السلمي: (من المنسرح)

أَحْيَا ابْنُ يَحْيَى النُّوَالَ مُغْتَرِبًا
فَكُلُّ مَجْدٍ إِلَيْهِ مَجْلُوبٌ
وَكُلُّ بَذَلٍ زَكَّثَ مَنَاسِبُ
هُ فَهُوَ إِلَى الْبِرْمَكِيِّ مَنَسُوبٌ^(٣)

وهنا لا بد من الملاحظة أن ثروة البرامكة حديثة العهد، أي أن مظاهر الغنى ظهرت عليهم بعد اعتلائهم مناصب الدولة^(٤).

وكانت المحاباة والمحسوبية أيضًا من المآخذ التي تضاف إلى بقية المساوئ والعيوب التي ألصقت بهم إن حقًا وإن باطلاً «فقد أحاطوا أنفسهم بالفرس»^(٥).

(١) الأتليدي: نفسه، ٢٤٦.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ١٨٩.

(٣) الجهشياري: نفسه، ١٨٩.

(٤) يوسف العشى: السابق، ٦٧.

(٥) نفسه: لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع وحول ملابسات نكبة البرامكة، انظر: D. Sourdel: Le Vizirat abbaside. ١٥٦-١٨١.

على الرغم من كل ما ذكرناه آنفاً من أسباب، وهي ذات طابع عام، إلا أنه لا بد أن يكون هناك مبرر مباشر هو بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس، وجعلت هارون الرشيد ينتقم منهم كل هذا الانتقام، وينكل بهم وبأولادهم بعد الحظوة الكبيرة التي نالوها عنده. هناك تناقضات كبيرة لدى المؤرخين بخصوص هذه الأسباب كما لاحظنا ذلك. إن فرضية الزواج الأبيض وعدم احترامه، وما نتج عنه من ميلاد طفل أو أطفال بدون علم الخليفة يبدو متأثراً بألف ليلة وليلة. أما تسامح البرامكة مع العلويين فيبدو غير مقنع من جهة أن الخليفة انتظر عدة سنوات ليعاقبهم بسبب ذلك. قد يكون حز في نفسه ما قاموا به من معاملة حسنة ليحيى بن عبدالله العلوي ولكن لماذا ينتظر كل تلك المدة؟ وأما استحوادهم على السلطة فلم يتم بين عشية وضحاها بل استغرق وقتاً طويلاً من الزمن، وكان بعلمه، بل بإيعاز منه لكونه كلفهم بأمور الدولة، وإن كان في هذا خطأ فهو خطأه هو لأنه أعطاهم كل الصلاحيات لتسيير أمور العباد والبلاد، وهو الذي قال ليحيى بن خالد حين ولاه الوزارة: «قد فوضت إليك أمر الرعية، وخلعت ذلك من عنقي، وجعلته في عنقك، فول من رأيت، واعزل من رأيت»^(١)، وفوق هذا «..فوض هارون الرشيد أمور الخلافة كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك»^(٢).

والحقيقة أن هذا المبرر بقي مجهولاً حتى الآن، ولم يبيح به هارون الرشيد حتى لولي العهد ابنه الأمين والمأمون، فقد ذكر ابن الجوزي^(٣) «أن هارون الرشيد سئل عن السبب الذي من أجله أهلك البرامكة، فقال: لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته»^(٤).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٥٦٢/١٣، تج. الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ١٩٩٨.

(٢) نفسه، ٥٩٢/١٣.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، ١٣٢/٩.

(٤) ابن كثير: نفسه، ٦٤٠/١٣ (طبعة هجر).

أما يوسف العش فيرى أن لتلك الحادثة علاقة بتعيين الأمين والمأمون وليي عهد، وفيمن يكون ولي العهد الأول. لقد علق بيان ولاية العهد في مكة. والذي حدث بعد ذلك من حروب معروف لدى العام والخاص. وقد أرسل هارون الرشيد كتبه للأقاليم بذلك دون أن يعلم جعفر البرمكي كما كان يفعل من قبل. وأتت نكبة البرامكة بعد أسبوع من ذلك. هذه إذاً فرضية أخرى لا نستبعد أي فرضية الصراع على السلطة بين العنصر العربي الذي يمثله الأمين، والعنصر الفارسي الذي يمثله المأمون. وتجدر الملاحظة هنا أن العنصر الفارسي كان يميل للطالبيين، ولعل اختيار المأمون بعد ذلك لأحد العلويين كولي للعهد كان بتأثير منهم^(١). لكن هذا لا يكفي في نظرنا لأن هارون الرشيد كان على علم منذ زمن بعيد بالميل الشيعية للبرامكة. وإذا كانت هذه الميل موجودة أصلاً فإنه قد تنبه للضغوط التي مارسوها لاختيار المأمون. وهو كان فعلاً يفضل المأمون ويراه أصلح وأنسب لولاية العهد من أخيه الأمين.

والمهم أن قصة البرامكة لا تهمنا إلا من ناحية أنها تلقي الضوء على الشعر السياسي لتلك الحقبة التي ندرسها، لأن مصير هؤلاء الشعراء عموماً، ومصير البرامكة قد جلب انتباه الشعراء من حيث أنه حدث ينطوي حتماً على جوانب سياسية حتى ولو أن الشعراء لم يكونوا يعرفون الأسباب الحقيقية. ما كان عليهم إلا أن يرثوهم كما مدحوهم من قبل، فهذه الحادثة صدمتهم وأثرت في الناس جميعاً، وفيها من العبر والمواعظ ما فيها، فهذا الشاعر علي بن معاذ بن أبي معاذ يقول: (من السريع)

وَأَضْبَحَ الْفَضْلُ بِنُ يَخْيَى وَقَدْ
أَجِيْطُ بِالشَّيْخِ وَمَا يَدْرِي
وَجِيءَ بِالشَّيْخِ وَأَوْلَادِهِ
يَخْيَى مَعَا فِي الْغَلِّ وَالْأَسْرِ

(١) يوسف العش: نفسه، ٧١-١٩٨٢.

وَالْبَرْمَكِيِّينَ وَأَثْبَاعِهِمْ
مَنْ كَانَ فِي الْأَفَاقِ وَالْمِضَرِ
كَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مَوْعِدٍ
كَمَوْعِدِ النَّاسِ إِلَى الْحَشْرِ
فَأَصْبَحُوا لِلنَّاسِ أُخْدُوتَةً
سُبْحَانَ ذِي السُّلْطَانِ وَالْأَمْرِ^(١)

يصورهم هذا الشاعر وقد نزلت عليهم هذه المصيبة كالصاعقة التي لا تذر شيئاً فقد قتل منهم من قتل، وسجن من سجن، وصار ذلك المنظر وكأنه يوم الحشر حيث سيقوا جميعاً.

لقد كانوا يملؤون الدنيا بجاههم وأموالهم وسلطتهم، وكانت الدنيا بهم عروساً، ففقدتهم فأصبحت تكلى كما يقول صالح بن طريف: (من الرمل)

كَانَتْ الدُّنْيَا عَرُوساً بِكُمْ
وَهِيَ الْيَوْمَ تُكُولُ أَرْمَلَهُ^(٢)

وقد كانت الصدمة كبيرة إلى درجة جعلت الشعراء يكثرون من المراثي في البرامكة، فمن ذلك قول الرقاشي: (من الطويل)

الآن اسْتَرْحْنَا وَاسْتَرْاحَتْ رَكَائِبُنَا
وَأَمْسَكَ مَنْ يُجْدِي وَمَنْ كَانَ يَجْتَدِي
فَقُلْ لِلْمَطَايَا قَدْ أَمِنْتَ مِنَ السُّرَى
وَوَطِيَّ الْفَيَافِي فَذَفْدَأْ بَعْدَ فَذَفْدِ
وَقُلْ لِلْمَنَايَا قَدْ ظَلَفِرْتَ بِجَعْفَرِ
وَلَنْ تَظْفُرِي مِنْ بَعْدِهِ بِمُسَوْدِ

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢٥٣/٤.

(٢) المسعودي: السابق، ٢٥٥/٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٤٠/٢؛ الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ١٦٠؛ مطبعة الظاهر، القاهرة، ١٩٥٠.

وَقُلْ لِلْمَنَآيَا بَعْدَ فَضْلِ تَعَطُّلِي
 وَقُلْ لِلرِّزَايَا كُلَّ يَوْمٍ تَجَدِّدِي
 وَدُونِكَ سَيْفًا بَرَزَمَكِيًّا مُهَنْدًا
 أُصِيبَ بِسَيْفِ هَاشِمِيٍّ مُهَنْدٍ^(١)

يرى أن الجود تعطل بموت البرامكة، وعلى المجدين والمجتدين أن يستريحوا معاً، وعلى المطايا أن تتنفس لأنها لن تسافر، ولن تشد بها الرحال بعد الآن. وكل المصائب تهون بعد هذه المصيبة التي لا مصيبة بعدها في الفداحة والحجم. إن البيت الأخير يعبر عن هذه الدهشة وعدم وجود تفسير لما حدث لدى هؤلاء الشعراء. لقد حاول كثير من الناس التوسط لدى الخليفة حتى يشفع للبرامكة أو يسامحهم ولكن رفضه كان جازماً وقاطعاً. حتى أم جعفر لم يستجب لطلبها عندما توسطت على الرغم من أنه وعدها من قبل أنه لن يرفض لها طلباً لأنها أرضعته مع ولدها^(٢). وقد أرسل جعفر البرمكي عدة أشعار من سجنه يستعطف بها الخليفة لكنها ذهبت سدى، منها: (من مجزوء الكامل)

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ ذِي الصَّنَا
 ئِعِ وَالْعَطَايَا الْفَاشِيَةَ
 وَابْنِ الْخَلَائِفِ مِنْ قُرَيْبِ
 شِ وَالْمَأْوَى الْهَادِيَةَ
 إِنَّ الْبَرَامِكَةَ الَّذِي
 مِنْ رُؤُوسِ لَدَيْكَ بِدَاهِيَةَ
 عَمَّ تَهُمْ لَكَ سَخَطَةٌ
 لَمْ تُبْقِ مِنْهُمْ بَاقِيَةَ

(١) ابن الساعي: مختصر تاريخ الخلفاء، ٣٢؛ ابن كثير: السابق، ٦٤٤/١٣ (طبعة هجر).
 (٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ١٦٩/٢-١٧٠.

بَعْدَ الْإِمَارَةِ وَالْوِزَارِ

رَةِ وَالْأُمُورِ الْعَالِيَةِ^(١)

ورد الخليفة على هذا الالتماس بالرفض قائلاً: (من مجزوء الكامل)

أَبْنِي الْبِرَامِكِ إِنَّمَا

كُنْتُ مُمْسِكًا عَاتِيَهُ

فَطَغَيْتُمْ وَكَفَرْتُمْ

وَجَحَدْتُمْ نِعْمَائِيَهُ

هَذَا جَزَاءُ مَنْ عَصَى

مَغْبُودَهُ وَعَصَانِيَهُ^(٢)

لكنه يبدو في هذا الرد مشوشًا قلقًا^(٣). إنه يتهمهم تهمة عامة غير محددة. ثم ندم بعد ذلك على ما يبدو، وتمنى لو أنه لم يفعل فعلته تلك، فقد قال: «لعن الله من أغراني بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رخاء، ووددت، والله، أني شوطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على أمرهم»^(٤). وقد حزن لذلك أيضًا^(٥). إنه يعترف هنا أن أحدًا ما أو جهة ما قد حرضته على الإطاحة بهم والتكيل بهم.

لقد شجع هذا التصرف من الخليفة كثيرًا من الشعراء على رثاء البرامكة بقصائد كثيرة لا تعد ولا تحصى، وكان بعضها مؤثرًا وصادقًا كهذا المثال الذي نجده عند الشاعر سيف بن إبراهيم (من الطويل)

هَوْتُ أَنْجُمَ الْجَدْوَى وَشَلَّتْ يَدُ النَّدَى

وَعَاصَتْ بُحُورَ الْجُودِ بَعْدَ الْبِرَامِكِ

(١) ابن العمراني: السابق، ٨٤-٨٥؛

(٢) نفسه.

(٣) ابن قتيبة: السابق، ١٦٨/٢.

(٤) ابن كثير: السابق، ٦٤٦/١٣-٦٤٧.

(٥) ابن قتيبة: نفسه.

هَوْتُ أَنْجُمٌ كَانَتْ لِأَبْنَاءِ بَزْمَكِ

بِهَا يَعْرِفُ الْحَادِي طَرِيقَ الْمَسَالِكِ^(١)

وعندما رأى الخليفة ذلك، منع الشعراء من التعرض للبرامكة لا بالخير ولا بالشر لأنه لم يتحمل ذلك، ولعله كان يذكره بفعلته تلك، فنهى عن الحديث عنهم في الشعر. وهذا الشاعر الفضل الرقاشي الذي لا يستطيع أن يخالف أوامر الخليفة يقول: (من الوافر)

أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا قَوْلُ وَاشٍ
وَعَيْنٌ لِلْخَلِيفَةِ لَا تَنَامُ
لَطَفْنَا حَوْلَ جِذَعِكَ وَاسْتَلَمْنَا
كَمَا لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ اسْتِلامُ
فَمَا أَبْصَرْتُ قَبْلَكَ يَا بَنَ يَحْيَى
حُسَاماً قَدَّةَ السَّيْفِ الْحُسَامُ
عَلَى اللَّذَاتِ وَالذُّنْيَا جَمِيعاً
وَدَوْلَةَ آلِ بَزْمَكِ السَّلَامُ^(٢)

ولا يساوي هذه المراثي الرائعة إلا تلك المدائح الجميلة التي كان الشعراء يشنفون بها أسماعهم في حياتهم وفي أيام عزهم، إذ كانوا يذكرون كرمهم وشجاعتهم وخصالهم المتعددة كتسييرهم الحسن لأمر الدولة أي كفاءتهم وسلوكهم المثالي وما إلى ذلك. مثلاً يرى أشجع السلمي أن الخصال الحميدة هي التي رفعت الفضل بن يحيى إلى المكانة التي وصل إليها وليس العكس أي ليست المكانة هي التي جلبت له المجد: (من الطويل)

وَمَا قَدَّمَ الْفُضْلَ بَنَ يَحْيَى مَكَانَهُ
عَلَى غَيْرِهِ بَلْ قَدَّمْتَهُ الْمَكَارِمُ^(٣)

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣٠١/٨.

(٢) الطبري: نفسه، ٣٠١/٨.

(٣) أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ٢١٩/٨.

كما يتحدث شاعر آخر، هو مروان بن أبي حفصة، عن شجاعتهم وكفاءتهم
 في ميدان الحرب وتجييش الجيوش: (من البسيط)
 مَا الْفَضْلُ إِلَّا شَهَابٌ لَا أَقُولُ لَهُ
 عِنْدَ الْحُرُوبِ عِنْدَمَا تَأْفُلُ الشُّهُبُ
 حَامِي عَلَى مُلْكِ قَوْمٍ عَزَّ سَهْمُهُمْ
 مِنَ الْوَرَاثَةِ فِي أَيْدِيهِمْ سَبَبُ
 أَمَسْتُ يَدَ لِبْنِي سَاقِي الْحَجِيجِ بِهَا
 كَتَائِبُ مَا لَهَا فِي غَيْرِهِمْ أَرْبُ
 كَتَائِبُ لِبْنِي الْعَبَّاسِ قَدْ عَرَفْتُ
 مَا أَلَفَ الْفَضْلُ مِنْهَا الْعُجْمَ وَالْعَرَبُ
 يُقَارِعُونَ عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ
 أَوْلَى بِأَحْمَدَ فِي الْفُرْقَانِ إِنْ نُسِبُوا^(١)

وعلى عكس التهم التي وجهت لهم بالزندقة والكفر، فإننا نجد بعض الشعراء
 يركزون على الجانب الديني المتوفر عندهم كورعهم وزهدهم والحج إلى بيت الله
 والجهاد في سبيله، وهذا ما نلاحظه في قول ابن منذر: (من الطويل)
 أَتَانَا بَنُو الْأَمْلَاكِ مِنْ آلِ بَزْمَكِ
 فَيَا طَيْبَ أَحْبَابٍ وَيَا حُسْنَ مَنَظَرِ
 لَهُمْ رِحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى الْعِدَى
 وَأُخْرَى إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمُطَهَّرِ
 إِذَا نَزَلُوا بَطْحَاءَ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ
 بِيَخْيَى وَبِالْفَضْلِ بْنِ يَخْيَى وَجَعَفَرِ

(١) مروان بن أبي حفصة: شعر مروان، ١٨.

فَمَا خُلِقْتُ إِلَّا لِحُودٍ أَكْفُهُمْ

وَأَقْدَامِهِمْ إِلَّا لِأَغْوَادٍ مِّنْبِرٍ^(١)

ونختم كلامنا عن البرامكة بالقول إن بعض الشعراء مدحوهم لكرمهم، والبعض الآخر ذمهم وهجوهم لبلخهم، وهذا يعني أنه لم يكن للشعراء موقف واحد منهم. ونذكر هنا مثلاً لتلك الأهاجي ما قاله الشاعر أبو الينبيغي: (من المتقارب)

صَحِبْتُ الْبِرَامِكَ عَشْرًا وَلَا

وَبَيْتِي كِرَاءً وَخُبْزِي شِرَاءً^(٢)

صحابهم هذا الشاعر عشر سنوات متتالية ولم يستفد منهم شيئاً، إذ ما زال يوجر بيتاً، وما زال يشتري ما يأكل، أي أن صحبته لهم لم تفده في شراء مسكن يأويه ويتزوج فيه.

لقد كان للبرامكة ولكل الوزراء في العصر العباسي تأثير كبير وانعكاس واضح على الشعر السياسي، لأنهم المتسببون والفاعلون في الأحداث التي عرفها عصرهم أو المشاركون فيها على الأقل بطريقة أو بأخرى.

ب- الشعر والعسكر

نحن نعرف أن الجيش العباسي كان متكوناً من فيالق أو فرق حسب الأقاليم أو حسب القبائل، فقد كانت هناك فرق «الخراسانية» و«المغاربية» و«المضرية» وغيرهم. كل الشعوب المنضوية تحت الخلافة العباسية كانت ممثلة في ذلك الجيش.

كما هو الشأن دائماً في الأنظمة الشمولية، قام الجيش العباسي بأدوار مهمة، أولاً في وجود الدولة العباسية نفسها ونشأتها، ثم في بقائها عبر القرون ثانياً. ونظراً للحاجة الماسة للجيش للحفاظ على بقاء الدولة في مثل هذه الأنظمة،

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء المحدثين، ١٢٥؛

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ٢٠١.

فقد وجد الجيش العباسي، من خلال قاداته، نفسه منجراً للاهتمام بالسياسة وممارستها، وهي الفرصة التي لم يفوتها العسكر. وشيئاً فشيئاً ضعف الخلفاء العباسيون، وقوي القادة العسكريون حتى وصلوا في النهاية إلى الوضعية التي وجدناها في العصر العباسي الثاني.

ونستطيع أن نقول، من البداية، إن العرب لم ينظروا في يوم من الأيام إلى الجيش بعين الرضى لأنهم متعودون على العيش بحرية في صحرائهم الشاسعة، ولأن كل فرد من أفراد القبيلة يتحول إلى جندي حتماً عندما تتعرض قبيلته للخطر أو عندما تقوم قبيلته بالغزو. الجيش بالنسبة إليهم يعني الجبروت، والنهب، والقتل، والسبي، والرق إلخ... لم يكن ذلك موقفاً ضد العسكرية في حد ذاتها وإنما جاء نتيجة المعاشة لواقع أليم، لأنهم عرفوا بتجربتهم، أن المتضرر الأول في كل حرب هم الرعية التي تدفع الثمن وتصيبها المحن والمآسي مهما كان الفريق الفائز في المعارك العسكرية. لكل ذلك يقول الشاعر عبدالمك الموراق : (من السريع)

إِنْ صَارَ ذَا الْأَمْرِ إِلَى وَاحِدٍ
صَارَ إِلَى الْقَتْلِ عَلَى كُلِّ حَالٍ
مَا بَالُنَا نُقْتَلُ مِنْ أَجْلِهِمْ
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ يَا ذَا الْجَلَالِ^(١)

إنه يتحدث هنا عن الحرب بين الأمين والمأمون، ويرى أنه مهما كان الفائز فالرعية هي الضحية من خلال الخوف والقتل وما يترتب عن الحروب عادة.

جاء القادة العسكريون في ذلك العصر من أصول مختلفة عربية وفارسية وتركية وأفغانية ومغربية وغيرها. وكان كل واحد منهم يشغل الساحة السياسية حسب المراحل التي مرت بها الدولة العباسية. ونظراً لكون تلك المرحلة عرفت

(١) الطبري: نفسه، ٤٦٠/٨.

قلائل كثيرة فإن عدة أسماء للقادة العسكريين برزت للوجود أمثال أبي مسلم، وأبي دلف^(١)، وظاهر بن الحسين وأبي سعيد الثغري^(٢)، ومعن بن زائدة^(٣)، وحميد الطوسي^(٤)، وعبدالله بن طاهر، وخزيمة بن خازم^(٥)، ويزيد المهلبى، وأطامش، وبغا إلخ... قام الجيش بدور في كل الأحداث السياسية لتلك الحقبة سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، وخاصة في العصر الثاني من الحكم العباسي. لكن هذا لا يعني أن الجيش كان كله مجتمعاً على كلمة واحدة، أو كان له موقف واحد. كل قائد عسكري كان ينتمي إلى اتجاه ما، أو حزب ما، أو حركة ما في تلك الحقبة. طاهر بن الحسين عرف مثلاً بتعاطفه الشعبي مع تظاهره بحماية الأدب العربي وذلك لكونه موظفًا في الدولة العباسية الأمر الذي لم يسمح له بالإعلان جهراً عن انتمائه الأيديولوجي. وقبله كان للبرامكة ميول شيعية، وكان لغيرهم ميول عربية وهكذا دواليك. من هنا يأتي التناقض الذي نجده في الشعر السياسي لذلك العهد المتعلق بهم، لأنهم كانوا محل مدح عند بعض الشعراء، ومحل هجاء عند بعضهم الآخر. إن الصفات التي تدور في هذا الشعر سواء أكان مدحاً أم هجاء أو رثاء تتعلق بالشجاعة، والكفاءة العسكرية والاستراتيجية، والنبيل، والكرم إلخ.

(١) القاسم بن عيسى (توفي سنة ٢٢٦هـ/٨٤٠م)؛ من قبيلة بني عجل؛ ولي مقاطعة الجبل في عهد هارون الرشيد هارون الرشيد، وكان قائداً عسكرياً في جيش المأمون؛ وكان أيضاً شاعراً؛ انظر: أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ٢٤٨/٨.

(٢) أبوسعيد الثغري: اشتهر بمعاركه ضد بيزنطة.

(٣) معن بن زائدة: (توفي سنة ١٥١هـ/٧٦٨م)؛ كان والياً على اليمن في عهد المنصور ثم على سجستان؛ وقد مدحه الشعراء كثيراً؛ انظر: الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣هـ/١٠٧١م): تاريخ بغداد، ٢٥٢/١٣؛ مكتبة الخانجي (القاهرة) والمطبعة العربية (بغداد) ومطبعة السعادة.

(٤) حميد الطوسي: (توفي سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م) هو أحد القادة العسكريين الكبار في جيش المأمون، وهو معروف بالشجاعة والقوة؛ انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، ١٩٠/٢.

(٥) خزيمة بن خازم: (توفي سنة ٢٠٢هـ/٨٢٥م)، والي البصرة في عهد هارون الرشيد ووالي الجزيرة في عهد الأمين.

وكان كثير من هؤلاء القادة شعراء كذلك، لذا نجدهم يدافعون عن مبادئهم، فهذا أبو مسلم مثلاً يفتخر بالدور الذي أداه في القضاء على بني أمية واستئصالهم بقوله: (من البسيط)

مَا زِلْتُ أَسْعَى بِجَهْدِي فِي دَمَارِهِمْ
وَالْقَوْمُ فِي غَفْلَةٍ بِالشَّامِ قَدْ رَقَدُوا
حَتَّى ضَرَبْتُهُمْ بِالسَّيْفِ فَأَنْتَبَهُوا
مِنْ نَوْمَةٍ لَمْ يَنْمَهَا بَعْدَهُمْ أَحَدٌ
وَمَنْ رَعَى غَنَمًا فِي أَرْضِ مَأْسَدَةٍ
وَنَامَ عَنْهَا تَوَلَّى رَعِيهَا الْأَسَدُ^(١)

نلاحظ في هذه الأبيات، إذا كانت فعلاً من إنتاجه، أنه يحاول أن يقلل من دور العباسيين والعرب عموماً في الثورة على الأمويين. وهذا الاستنتاج صالح في حالة ما إذا كانت مشاركة الموالي تهدف فقط إلى الانتقام من الأمويين والعرب. هذه النبذة تتردد كثيراً لدى القادة العسكريين غير العرب، لأنهم، حسب الشعراء الموالين لهم، هم وحدهم حماة الخلافة، فهم أسسوها، وقووها، كما يقول الشاعر محمد بن علي الصيني لطاهر بن الحسين: (من المتقارب)

وَقُوفُكَ تَحْتَ ظِلِّ السُّيُوفِ
أَقْرُّ الْخِلَافَةِ فِي دَارِهَا^(٢)

وهذا طاهر بن الحسين نفسه يفتخر بقوته وجبروته، وبكونه كان له الفضل في عودة الخلافة إلى مرو، أي إلى المأمون بدل الأمين، ولذا فالخلافة مدينة له بهذا الفضل، وبالنسبة نفسها يتوعد الأمويين ومن معهم في الشام: (من الوافر)

مَلَكْتَ النَّاسَ قَسْرًا وَأَقْتَدَارًا
وَقَتَلْتَ الْجَبَابِرَ وَالْجَبَارَا

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١٥٢/٣؛ ابن العمري: السابق، ٦٧.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٢٠/٤.

وَوَجَّهْتَ الْخِلَافَةَ نَحْوَ مَرُوءٍ
إِلَى الْمَأْمُونِ تَبْتَدِرُ ابْتِدَارًا
وَسَوْفَ أَدِينُ قَيْسَ الشَّامِ ضَرْبًا
يُطَيِّرُ مِنْ رُؤُوسِهِمُ الشَّرَارَا^(١)

ولعله يشير في البيت الأخير إلى ذلك الصراع الخفي أحياناً، والعلني أحياناً
أخرى، بين العرب والفرس.

عمد الشعراء كذلك إلى المبالغة في الحديث عن كرم هؤلاء القادة غير العرب
ليواجهوا القادة العرب الكرماء بطبعهم كما يعتقد، وهي طريقة لمحاربة الخصوم
بسلحهم نفسه. لكن لا بد من الملاحظة أن بعض القادة من الطرفين عرفوا
فعلًا بكرمهم وجودهم، فالشاعر البطين الحمصي يتكلم عن عبدالله بن طاهر بن
الحسين بعبارات فضفاضة بقوله: (من الخفيف)

مَرْحَبًا مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا
بِابْنِ ذِي الْجُودِ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ
مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِمَنْ كَفَّهُ الْبُخْدَ
رُ إِذَا فَاضَ مَرْبِدُ الرَّجْوَيْنِ^(٢)

وفي المقابل راح الشعراء الموالون للقادة العرب يتحدثون عن مكانتهم والمجد
الذي جلبوه للعنصر العربي كما نجده في قول علي بن جبلة العكوك للقائد حميد
الطوسي: (من مجزوء الكامل)

يَا وَاجِدَ الْعُزْبِ الَّذِي
عَزَّتْ بِعِزَّتِهِ الْعَرَبُ^(٣)

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ٣٥٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١/٣٥٤.

(٢) ابن طيفور: نفسه، ٨٧.

(٣) أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ٢٠/٢٣؛ ابن طيفور: نفسه، ١٢٣.

وكان القائد العربي أبودلف العجلي من بين القادة العرب الذين تغنى بهم الشعراء كثيراً، فهذا الشاعر ظريف النهري يقول فيه: (من مجزوء الكامل)

أَبُو دُلْفٍ فَتَى الْعَرَبِ
وَفَارِسُهَا لَدَى الْكُرْبِ^(١)

وأجمل ما قيل فيه قول علي بن جبلة العكوك: (من المديد)

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ
بَيْنَ بَآدِيهِ وَمُخْتَضِرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ
وَلَّتِ الدُّنْيَا عَالَى أَثْرِهِ^(٢)

إنه رجل فوق العادة بالنسبة إلى هذا الشاعر. وكانت هذه المدائح بقدر ما تجلب العز والفخر بقدر ما تجلب الحسد والغيرة من الخلفاء ومن بقية القواد الآخرين. لذلك كان بعض الشعراء يتبهون لهذا ويمارسون نوعاً من الدبلوماسية، كما فعل مروان بن أبي حفصة وهو يمدح يزيد بن مزيّد الشيباني: (من البسيط)

يَا أَكْرَمِ النَّاسِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
بَعْدَ الْخَلِيفَةِ يَا ضِرْغَامَةَ الْعَرَبِ^(٣)

قد استثنى الخليفة من هذا الإطراء حيث جعله فوق هذا القائد حتى لا يسبب له حرجاً معه، لأن ذلك كان فيه مجلبة للعواقب الوخيمة أحياناً.

من جهة أخرى، يجب التنبيه إلى أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا بالضرورة من هذا الاتجاه أو ذلك، لأننا نجد شعراء من أصل فارسي يدافعون ويمدحون قادة عربياً، كما نجد شعراء من أصل عربي يمدحون قادة فرساً. وعندما لا يكون الدافع

(١) ابن الجراح: الورقة، ١٥٥؛ أبوالفرج الأصفهاني: السابق، ٢٠/٢٠؛ ابن المعتز: طبقات الشعراء، ١٧١.

(٢) ابن تغري بردي: نفسه، ١٨٣/٢.

(٣) مروان: شعر مروان بن أبي حفصة، ٢٢.

هو القناعة الأيديولوجية فإن الدافع هو إما المصلحة أو الخوف أو الرجاء. وعليه، فمن الطبيعي أن نجد مدحاً في حق كل هؤلاء القادة أو نجد هجاء ضدّهم مهما كان أصلهم. مثال ذلك هذا الهجاء من شاعر مجهول في حق طاهر بن الحسين الذي كان أعور وكان يلقب ذا اليمينين: (من الرجز)

يَا ذَا الِيمِينَيْنِ وَعَيْنٍ وَاجِدَهُ
نُقْصَانُ عَيْنٍ وَيَمِينُ زَائِدَةٌ^(١)

أو هذا الهجاء الذي قاله ربيعة الرقي في حق معن بن زائدة: (من الخفيف)

مَعْنُ يَا مَعْنُ يَا بَنُ زَائِدَةَ الْكُ
عِبِ الَّتِي فِي الذَّرَاعِ لِأَفِي الْبَنَانِ
قِيلَ مَعْنُ لَنَا فَلَمَّا اخْتَبَرْنَا
كَانَ مَزْعَى وَلَيْسَ كَالسَّغْدَانِ^(٢)

ج- الشعر والقضاة

العدالة ضرورة لكل مجتمع متحضر حتى يتسنى للناس التقاضي فيما بينهم وحل الخلافات بالتي هي أحسن وبالطرق الودية حيناً والردعية حيناً آخر. لكن مؤسسة كهذه تتطلب نظاماً صارماً ومتدرجاً بحيث يكون واضحاً بدقة في كل شيء كالمنهج والوسائل المعتمدة. وكل هذا يتطلب كذلك وجود أشخاص كفاة ونزهاء ليقوموا بهذه المهمة النبيلة، والذين لا يخشون لومة لائم في تطبيق العدالة. وإذا كان لدولة ما رجال من هذا الصنف فإن المواطنين سيشعرون بالأمان والطمأنينة لأنهم متأكدون أن حقوقهم ستحترم ويحافظ عليها. إن العدالة تعني عمومًا التوفيق بين الناس فيما يعترضهم من منازعات للحد من كل الخلافات التي قد تفضي إلى ما لا تحمد عقباه^(٣).

(١) نفسه.

(٢) ربيعة الرقي: شعر ربيعة الرقي، ٦٦-٦٧؛ تحقيق زكي ذاکر العاني، دمشق، ١٩٨٠.

(٣) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ٥٥؛ دار الفكر، ١٩٧٣.

أول شيء نلاحظه في دراستنا لهذا الجانب في العصر العباسي هو توسيع صلاحيات القضاة. جاء بعد ذلك ظهور المذاهب المختلفة والفرق الإسلامية، وعدد من الكتب الفقهية، وتنوع تقنيات التحري والبحث، زيادة على استحداث منصب «قاضي القضاة». كل هذا شكل مؤسسة القضاء بطريقة جديدة تماماً^(١)، بينما كان دور القاضي من قبل محصوراً في الفصل في المنازعات، والعقود، والموارث، وتعيين الوصاة^(٢). نتيجة لكل ما سبق، أصبح للقاضي نفوذ كبير في المجتمع العباسي. ومن ثم التشدد في المقاييس التي يتم بموجبها اختيار القاضي. من تلك المقاييس أن يكون حراً وليس عبداً، أن يكون عاقلاً، وراجح العقل، وراشداً وعادلاً، وليس فيه عاهة، وأن يكون دائماً رجلاً^(٣)، وما إلى ذلك. أما المواطنون غير المسلمين فمن حقهم أن يكون لهم قضاة من ديانتهم، كما يحق لهم اللجوء إلى القضاء الإسلامي إذا شأؤوا.

كان القاضي عادة يعقد جلساته في المدن الكبرى ولكنه أحياناً يعقد مجالسه في الأسواق، أو قد يطوف الأرياف والبادي. وكان بإمكانه أن يوظف عدة أشخاص لمساعدته في أداء مهمته كالحاجب، والكتاب، والمحضر القضائي، والشرطي، والعسس، وأحياناً بعض المترجمين والمستشارين القضائيين إلخ.

كان القضاة في البداية يعينون مباشرة من طرف الخليفة، وربما كان ذلك لكي يضمن لهم نوعاً من الحرية إزاء حكام الأقاليم والولاة، وحتى الوزراء^(٤)، لكن فيما بعد، أصبح الوزراء هم الذين يعينونهم.

أما «ديوان المظالم» فهو أشبه بمحكمة نقض وطعن، وهو بكل بساطة كالمجلس الأعلى للقضاء في وقتنا^(٥).

(١) نفسه، ١٦٢.

(٢) حسن إبراهيم حسن: نفسه، ٢٩٢/٢.

(٣) أنور الرفاعي: السابق، ١٦٧-١٦٨.

(٤) نفسه، ١٦٥-١٦٦.

(٥) أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسي، ٣٤٠؛ مطبوعات جامعة دمشق، ١٩٨٠-١٩٨١.

أول شخص عين في منصب قاضي القضاة هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، صاحب «كتاب الخراج» الشهير. وكان هذا القاضي فوق العادة يعين ممثلين له في كل أقاليم الدولة العباسية بينما كان مقره الرئيس في بغداد^(١).

لقد اشتهر بعض القضاة بنزاهتهم كقاضي المدينة المنورة محمد بن عمران الطلحي الذي حكم في إحدى المنازعات ضد الخليفة المنصور نفسه^(٢). وكان المهدي عندما يجلس للمظالم يدعو بإدخال القضاة أولاً حتى يصدر الأحكام العادلة احتراماً لهم.

ومن ذلك ما يحكى عن القاضي سَوَّار بن عبدالله الذي كتب إليه الخليفة المنصور قائلاً: «انظر الأرض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر فادفعها إلى القائد؛ فكتب إليه سَوَّار: إن البيعة قد قامت عندي أنها للتاجر، فليست أخرجها من يده إلا ببيعة؛ فكتب المنصور: والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد؛ فكتب إليه سَوَّار: والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجتها من يد التاجر إلا بحق؛ فلما جاءه الكتاب قال: ملأتها والله عدلاً، وصار قضاتي تردني إلى الحق»^(٣). وهكذا أعجب الخليفة بهذا الموقف وهذه النزاهة والشجاعة من قاضيه.

لكن هذا لا يعني أن كل القضاة كانوا على هذه الشاكلة وأن كل الخلفاء كانوا يتعاملون كالمنصور، بل بالعكس من ذلك نجد قضاة مرتشين، الأمر الذي يُفْتَحُ بسببه شرخٌ في المنظومة القضائية، وإذا حدث خلل في القضاء فإنها بداية السقوط والانحيار. وهكذا «كان أول ما انحل من نظام سياسة الملك، فيما شاهدناه من أيام بني العباس القضاء، فإن ابن الفرات، وضع منه، وأدخل فيه قوماً بالذمامات، لا علم لهم، ولا أبوة فيهم، فما مضت إلا سنوات، حتى ابتدأت الوزارة تتضع، ويتقلدها

(١) أنور الرفاعي: نفسه، ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ/١٥٠٥م): تاريخ الخلفاء، ٢٤٨: دار الفكر، دمشق، ١٩٧٤.

(٣) نفسه، ٢٨٧.

كل من ليس لها بأهل...»^(١). ونجد فوق هذا أن بعض الخلفاء قد مارسوا ضغوطاً على القضاة ليَجبروهم على إصدار الأحكام وفق رغباتهم وأهوائهم حتى يرضوا على أعمالهم وعلى ما يقومون به نوعاً من الشرعية^(٢). لذلك رفض بعض رجال الفقه والعلم أن يتقلدوا منصب القاضي حتى لا يصدرُوا أحكاماً تخالف ضمائرهم وتخالف الشريعة الإسلامية.

يمكن أن نسوق مثلاً على تدخل الخلفاء في عمل القضاة إبطال عقد الأمان الذي أعطاه الخليفة هارون الرشيد للعلوي يحيى بن عبدالله. للقيام بذلك، استدعى الخليفة الفقيه محمد بن الحسن، صاحب أبي يوسف الشهير، والقاضي أبا البَحْتَرِي، أظهر لهما العقد فأقره الأول، وأبطله الثاني، وعندها عينه الخليفة فوراً «قاضي القضاة» مكافأة على فعلته^(٣). ومثال الشاعر الفكاهي أبي دلامة مع أحد القضاة مشهور أيضاً^(٤).

كانت نقطة الضعف الكبرى في النظام القضائي هي الرشوة التي بلغت حدّاً أصبحت معه نفوس القضاة مرشّية هي نفسها. مثلاً قاضي مصر، عبدالرحمن بن عبدالله العمري^(٥)، الذي يقال إنه قبض مئة ألف دينار من الرشوة^(٦). وقد اتهم القاضي شريك بن عبدالله النَّخَعِي^(٧) بالرشوة كذلك، وقبل منصب قاضي البصرة بينما رفضه سفيان الثوري^(٨). وقد استغل الشاعر المجهول هذه الحادثة فقال: (من الطويل)

(١) التوحي، أبو علي المحسن بن علي: نشوار المحاضرة، ٢٣١/١.

(٢) حسن إبراهيم حسن: نفسه، ٢٩١/٢.

(٣) أحمد فريد الرفاعي: عصر المأمون، ١٢٤/١.

(٤) الياضي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ٢٤٢/١؛ حيدر آباد، ١٣٣٧هـ.

(٥) عبدالرحمن بن عبدالله العمري (توفي بعد سنة ١٩٤هـ/٨١٠م)؛ بقي تسع سنوات قاضياً لمصر؛ انظر

الزركلي: الأعلام، ٨٥/٤.

(٦) حسن إبراهيم حسن: نفسه، ٢٩٥/٢.

(٧) شريك بن عبدالله النخعي (٩٥هـ-١٧٧هـ/٧١٣م-٧٩٤م)؛ كان قاضياً على الكوفة.

(٨) سفيان الثوري (٩٧هـ-١٦١هـ/٧١٦م-٧٧٨م)؛ انظر الزركلي: نفسه، ١٥٨/٣.

تَحَرَّرَ سُفْيَانٌ وَقَرَّ بِدِينِهِ

وَأَصْبَحَ شَرِيكَ مَرْصَدًا لِلدَّرَاهِمِ^(١)

إن الرشوة محرمة في الإسلام، فالحديث المشهور بخصوصها يؤكد ذلك^(٢).

لقد كان الشعر أيضاً موجوداً في هذا الميدان، فالشعراء، تماماً كما فعلوا في الميادين السابقة، تصدوا للنقائص والاختلالات الموجودة في نظام القضاء. وكان الهجاء أحسن وسيلة في هذا المجال. بطبيعة الحال تصدوا بالدرجة الأولى للرشوة، فهذا الشاعر ابن طباطبا يحذر أحد أصدقائه من أحد القضاة المرتشين بقوله: (من الرمل)

يَا خَلِيلِي يَا أَبَا الْغَيْثِ دَرَكُ

نَصَبِ الْقَاضِي لَكَ الْيَوْمَ شَرَكُ

طَلَبَ الْبِرْطِيلَ فَا بُذِلَ لَهُ

يَسْكُتِ الْقَاضِي وَإِلَّا ذَكَرَكَ

لَا يَهْوَلَنَّكَ دِينِيَّتُهُ

أَعْطَاهُ مِنْ رَشْوَةٍ مَا حَضَرَكَ^(٣)

إن هذا القاضي مُرتشٍ إلى درجة أنه يقبل كل شيء مهما كان، حتى ولو كان بسيطاً وتافهاً. ونجد الشاعر نفسه يتحدث عن قاض آخر اسمه أحمد بن عثمان البري بقوله: (من الوافر)

وَفِينَا عَامِلًا جَوْرٍ وَعَدْلٍ

هُمَا جِلْفًا انْبِسَاطٌ وَأَنْقَبَاضٌ

(١) الياضي: السابق، ٣٤٧/١؛ ابن العماد: السابق، ٢٥٠/١.

(٢) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن موسى بن الضحاك (٢٠٩-٢٧٩هـ/٨٢٤-٨٩٢م): الجامع الصحيح أ سنن الترمذي، الحديث رقم ١٣٣٧؛ تحقيق محمود محمد محمود حسن نصار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

(٣) الراغب الإصفهاني: السابق، ٩٧/١.

فَوَالِي حَرْبِنَا فِي وَصْفِ قَاضٍ

وَقَاضِينَا عُقَابُ ذُو انْقِضَاضٍ^(١)

ويشارك علي بن بسام أيضاً في وصف القضاة المرتشين، هو الذي اشتهر أصلاً بهجاء كل من له علاقة بالسلطة حتى ولو كان نزيهاً، فها هو يصور أحد القضاة على الشكل التالي: (من الوافر)

إِذَا أَهْلُ الرَّشَى صَارُوا إِلَيْهِ

فَأَخْطَى الْقَوْمِ أَوْفَرُهُمْ بِضَاعَهُ

فَلَا رَجِمُ يُقَرَّبُهُمْ إِلَيْهِ

سِوَى الْوَرِقِ الصَّحَاحِ وَلَا شَفَاعَهُ

وَلَيْسَ بِمُنْكَرٍ هَذَا لَدَيْهِ

لِأَنَّ الشَّيْخَ أَفَلَّتْ مِنْ مَجَاعَتِهِ^(٢)

علينا أن نذكر هنا أن القضاة كانوا يتقاضون راتباً يجعلهم في مأمن من الحاجة ومن العوز، فقد بلغ في عهد المنصور ثلاثين ديناراً، وفي عهد المأمون ثمانية وستين ومئة دينار أو أكثر^(٣).

لقد نبه الشعراء، زيادة على هذا الجانب، على العوامل المتناقضة لدى القضاة. وكان على القاضي أن يحترم أخلاق مهنة القاضي بأن يبتعد عن كل ما يمكن أن يشوب سمعته. وكان إلحاح الشعراء على محاربة كل النواقض ذا طابع تربوي حتى ينتبه كل قاض إلى ذلك، ويقوم بمهمته النبيلة على أحسن وجه، وفق ضميره حتى لا يكون مثلاً للرشوة أو غير ذلك. يجب ألا يمس بمؤسسة القضاء، وعليه أن يحترم العدالة. لعل الشاعر أبا تمام يلخص هذا الجانب التربوي للشعر بقوله: (من الطويل)

(١) الراغب الإصبهاني: السابق (لا توجد هذه الأبيات في ديوان ابن بسام).

(٢) نفسه.

(٣) أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسي، ٣٤٢.

وَلَوْلَا خِلَالَ سِنَّهَا الشُّعْرُ مَا دَرَى

بُعَاةُ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى الْمَكَارِمُ^(١)

ونجد أيضاً أموراً أخرى عابها الشعراء واستكروها على القضاة مثل الزنا واللواط. ويبدو أن القاضي يحيى بن أكتثم^(٢) كان متهماً بذلك، فاشتهر بهذه العيوب من خلال أشعار أحمد بن أبي نعيم الذي يقول فيه: (من المنسرح)

أَنْطَقَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِخْرَاسِ
لِنَائِبَاتِ أَطْلُنَ وَسَوَاسِي
يَا بُؤْسَ لِدَّهْرٍ لَا يَزَالُ كَمَا
يَرْفَعُ نَاسًا يَحُطُّ مِنْ نَاسٍ
لَا أَفْلَحَتْ أُمَّةٌ وَحُقُّ لَهَا
بِطُولِ نَخْسٍ وَطُولِ إِثْعَاسِ
تَرْضَى بِيخِي يَكُونُ سَائِسَهَا
وَلَيْسَ يَخِي لَهَا بِسَوَاسِي
قَاضٍ يَرَى الْحَدَّ فِي الزُّنَاءِ وَلَا
يَرَى عَلَى مَنْ يَلُوطُ مِنْ بَاسٍ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَيْفَ ذَهَبَ الْ
عَدْلُ وَقَلَّ الْوَفَاءُ فِي النَّاسِ
أَمِيرُنَا يَزْتَشِي وَحَاكِمُنَا
يَلُوطُ وَالرَّأْسُ شَرُّ مَا رَاسِ
لَا أَحْسَبُ الْجَوْرَ يَنْقِضِي وَعَلَى
الْأُمَّةِ وَالِ مِنْ آلِ عَبَّاسِ^(٣)

(١) ابن خلكان: السابق، ٨٦/١.

(٢) يحيى بن أكتثم (١٥٩هـ-٢٤٢هـ/٧٧٥م-٨٥٧م)؛ كان قاضياً على البصرة سنة ٢٠٢هـ ثم قاضياً على بغداد في عهد المأمون.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢١٨/٤؛ ابن خلكان: السابق، ١٥٣/٦؛ الراغب الإصبهاني: السابق، ٩٧/١.

إنها صرخة يائس من هذا الشاعر بسبب الظلم الذي عرفه ذلك العصر
نتيجة لسياسة العباسيين في جميع المجالات. ويحكى أن المأمون نفى هذا الشاعر
بسبب هذه الأبيات إلى بلاد السند .

وكان الشاعر أبو محمد اليزيدي^(١)، وربما الشاعر أبو حكيمة^(٢)، يتهم هذا
القاضي بالواط في قوله: (من الطويل)

وَكُنَّا نُرْجِي أَنْ نَرَى الْعَدْلَ ظَاهِرًا
فَأَعْقَبْنَا بَعْدَ الرَّجَاءِ قُنُوطَ
مَتَى تَصْلُحُ الدُّنْيَا وَيَصْلُحُ أَهْلُهَا
وَقَاضِي قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ يَلُوطُ^(٣)

إن إلحاح الشعراء في مهاجمة هذا القاضي والتشهير به قد جعل المأمون
يراقبه، ثم يعزله ويطلب منه أن يتقي الله^(٤).

إن معاقرة القضاة الخمر كانت ربما من أكبر الذنوب التي لا تغتفر لأن الخمر
محرم في الإسلام على كل المسلمين؛ وهكذا نجد الشاعر يحيى الخولاني يصب جام
غضبه على القاضي العُمري الذي يبدو أنه كان يتناول الخمر: (من مجزوء الرمل)

إِنَّهُ كَانَ يَقْضِي بِالْهَوَى
وَيَبِيعُ الْحُكْمَ جَوْرًا وَيَهْبُ
وَإِذَا يَخْلُو حَسَاهَا مُرَّةً
مِثْلَ عَيْنِ الدَّيْكِ مِنْ مَاءِ الْعِنَبِ^(٥)

(١) أبو محمد اليزيدي، يحيى بن المبارك (١٢٨هـ/٢٠٢هـ/٧٥٥م-٨١٨م)؛ كان أبا لعدة شعراء؛ انظر: اليافعي:
مرآة الجنان، ٣/٢.

(٢) أبو حكيمة، راشد بن إسحاق؛ انظر: أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ٢٠/٢٥٥.

(٣) شهاب الدين الدلجي، أحمد بن علي بن عبدالله (٨٤٥هـ/١٤٤١م): الفلاحة والمفلوكون، ٧٤؛ مطبعة الشعب،
القاهرة، د.ت: المسعودي: السابق، ٣١٩/٤؛

(٤) أبو الفرج الإصفهاني: السابق، ٢٠/٢٥٦.

(٥) الكندي، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (١٨٥هـ-٢٥٦هـ/٨٠٥م-٨٧٢م): كتاب الولاة وكتاب القضاة، ٤١٥؛
تحقيق، ر. غست (R. Guest)، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨.

من البديهي أن أول شيء يسيء للقاضي هو ألا يكون عادلاً، إذ ماذا يبقى له إذا انتفت عنه هذه الصفة التي يفترض وجودها أصلاً في كل قاضٍ؟ وظل الشاعر نفسه يهاجم هذا القاضي ويتهمه هذه المرة بالظلم، كما في قوله: (من المتقارب)

مَلَأَ الْأَرْضَ جَوْرًا بِأَحْكَامِهِ

وَأَظْهَرَ فِيهَا جَمِيعَ الرَّيْبِ^(١)

إن هذه الشكوى تشبه دعوة أبي العطاء السندي قبله عندما اعتقد أول الأمر أن العباسيين سيملاؤن الأرض عدلاً بعدما ملأها الأمويون ظلماً، لكن حلمه سرعان ما اصطدم بالواقع، لذلك أطلق هذه الصرخة: (من البسيط)

فَلَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ دَامَ لَنَا

وَلَيْتَ عَدْلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ^(٢)

لقد عاب الشعراء كذلك على القضاة خيانتهم للأمانات، وعدم احترامهم للمواثيق والعهود، وعدم احترام الأعمال التي قاموا بها، فخيانة القاضي عندهم تمثل خلافاً جسيماً في المنظومة القضائية. يمكن أن نرى ذلك في الأبيات التالية للشاعر المجهول الذي يعيب قتل المسمى بدرًا، غلام المعتضد، بعد أن أعطي الأمان والمواثيق والعهود: (من الخفيف)

قُلْ لِقَاضِي مَدِينَةِ الْمَنْصُورِ

بِمَ أَحْلَلْتَ أَخْذَ رَأْسِ الْأَمِيرِ؟

بَعْدَ إِعْطَائِهِ الْمُوَثِيقَ وَالْعَهْدَ

سَدَّ وَعَقْدَ الْأَمَانِ فِي مَنْشُورِ

أَيُّنَ أَيَّمَانُكَ الَّتِي يَشْهَدُ اللَّ

هُ عَلَى أَنَّهَا يَمِينٌ فُجُورِ؟

(١) الكندي: السابق، ٤٠٣.

(٢) أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ٢٣٣/١٨.

يَا قَلِيلَ الْحَيَاءِ يَا أَكْذَبَ الْأُمَّةِ
مِمَّةٍ يَا شَاهِدًا شَهَادَةَ زُورٍ
لَيْسَ هَذَا فِعْلَ الْقَضَاةِ وَلَا يُخَذُ
سِوَنُ أَمْثَالِهِ وُلَاةُ الْجُسُورِ^(١)

إنها خدعة كثيراً ما كان يلجأ إليها الخلفاء لاستجلاب خصومهم وأعدائهم بإعطائهم الأمان ثم نكته بسهولة بقتلهم. وهذا ما فعله مثلاً الخليفة السفاح مع ابن هبيرة، والمنصور مع أبي مسلم، وهارون الرشيد مع الطالبين إلخ. وقد كان بعض القضاة يستحوذون على أموال اليتامى التي كلفوا بحراستها. إن الإسلام يعاقب بشدة الاستعمال غير الشرعي والقانوني لأموال اليتامى.

يزعم الشاعر يحيى الخولاني أن القاضي عبدالرحمن بن عبدالله العمري كان يقسم أموال اليتامى مع أصحابه: (من الطويل)
تَصَيَّرَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى جَوَائِزًا
لِأَصْحَابِهِ حَتَّى اسْتَقْلُوا وَأَنْزَبُوا^(٢)

لا يمكن للقاضي أن يكون كذاباً لأن الكذب لا يتماشى مع نبل مهمته، لذلك تحدث الشعراء كثيراً عن هذا الجانب؛ فمن ذلك ما قاله المعافى التيمي في القاضي أبي البختري: (من السريع)

وَيْلٌ وَعَوْلٌ لِأَبِي الْبَخْتَرِيِّ
إِذَا تَوَافَى النَّاسُ فِي الْمَحْشَرِ
يَزْعُمُ أَنْ الْمُصْطَفَى أَحْمَدًا
أَتَاهُ جَبْرِيلُ التَّقِيُّ السَّرِيِّ

(١) مجهول: كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، المجلد ٤، الجزء الأول، ١٠٧.
(٢) الكندي: السابق، ٣٩٦.

عَلَيْهِ خُفٌّ وَقَبْأٌ أَسْوَدٌ

مُخْتَجِرًا فِي الْحُقُوبِ بِالْخَنْجَرِ^(١)

لكن هذا لا يسمح لنا بالتعميم فقد كان هناك قضاة نزهاء وكفاة، بل اشتهر بعض منهم بعلمهم وعدلهم ورجاحة عقولهم وزهدهم. مثال ذلك ما قاله إسحاق

بن معاذ في قاضي مصر المفضل بن فضالة^(٢): (من الطويل)

لَفَضْلِكَ أَضْحَى يَا مُفَضَّلَ ظَاهِرًا

بِمَنْ كَانَ يُعْنَى بِالْأُمُورِ وَيَعْقِلُ

لَقَدْ سُسِّتَ فَضْلَ الْحُكْمِ فِي الدَّهْرِ حِقْبَةً

فَلَا أَنْتَ ذُو خَرْقٍ وَلَا أَنْتَ تَجْهَلُ

لَفَضْلِكَ أَضْحَى يَا مُفَضَّلَ ظَاهِرًا

بِمَنْ كَانَ يُعْنَى بِالْأُمُورِ وَيَعْقِلُ

لَقَدْ سُسِّتَ فَضْلَ الْحُكْمِ فِي الدَّهْرِ حِقْبَةً

فَلَا أَنْتَ ذُو خَرْقٍ وَلَا أَنْتَ تَجْهَلُ

وَلَا أَنْتَ مِمَّنْ يَطْبِئِهِ مَطَامِعُ

وَتُعْرِضُ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ وَتَعْدِلُ

فَإِنْ قِيلَ أَيُّ النَّاسِ أَهْجَرُ لِلْهَوَى

أَقْضَى بِفَصْلِ الْحُكْمِ قَيْلَ الْمُفْضَلِ

فَأَنْتَى نَخَافُ الْجَوْرَ مِنْكَ وَإِنَّمَا

دَلِيلُكَ فِي الْحُكْمِ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ^(٣)

والحقيقة أن هذا ما كان يتمناه الناس جميعاً، وعلى رأسهم الشعراء: أن يكون القضاة عادلين في أحكامهم، عارفين لمهنتهم، بعيدين عن كل ما من شأنه المساس بسمعتهم ومكانتهم، وأن يكون القانون ديدنهم لا غير.

(١) وكيع، محمد بن خلف (٣٠٦هـ/٩١٨م): أخبار القضاة، ٢٨٤/١؛ عالم الكتب، بيروت، د.ت.

(٢) المفضل بن فضالة (١٠٧هـ-١٨١هـ/٧٢٥م-٧٩٧م): قاضي مصر مرتين؛ انظر: الزركلي: الأعلام، ٢٠٤/٨.

(٣) الكندي: نفسه، ٢٨٠.

لقد قام العباسيون باستحداث «العدول» لتقوية المنظومة القضائية. ويبدو أنه كان لهؤلاء العدول عملاقان، الأول هو توثيق المواثيق المبرمة بين الناس، والثاني التأكد من صدق الشهود الماثلين أمام القضاء^(١).

يقال إن أول قاض استعمل العدول في مجلسه هو أبو عبد الرحمن محمد بن ساروق، الذي عينه هارون الرشيد على قضاء مصر سنة ١٧٧هـ، وأن أول من رسم مهنتهم بتسجيل أسمائهم هو القاضي أبو نعيم إسحاق بن الفرات، وكان ذلك في مصر أيضاً. غير أن سمعة هؤلاء العدول كانت سيئة على ما يبدو، الأمر الذي جعل عدة شعراء يهجونهم ويهجون من وظفهم، فمن ذلك قول إسحاق بن معاذ في واحد منهم: (من المتقارب)

سَادَعُو إِلَهِي حَتَّى الصَّبَاحِ
لَكَيْمًا يُعِيدُكَ كَلْبًا هَزِيلاً
سَنَنْتَ لَنَا الْجَوْرَ فِي حُكْمِنَا
وَصَيَّرْتَ قَوْمًا لُصُوصاً عُذُولاً
وَلَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ فِيمَا مَضَى
بِأَنَّ الْعُدُولَ عَدِيدٌ قَلِيلاً^(٢)

كما هو واضح، فإن الأشعار التي تتحدث سلباً أو إيجاباً عن القضاة لم تذهب سدى، فزيادة على الجانب التوجيهي التربوي فيها، فإننا نجد لها بعداً سياسياً لا يستهان به، لأن العدالة كانت دائماً مرآة للسياسة المتبعة من هذا النظام أو ذاك. إن الهجوم على النظام القضائي لدولة ما إنما هو هجوم على نظامها السياسي. لم يكن الشعراء في حاجة إلى الصراخ بذلك فقد كان يكفيهم أن يضعوا الإصبع على الاختلالات والنقائص الموجودة في المنظومة القضائية ليبينوا مدى هشاشة هذا النظام من جهة، والظلم المترتب عن ذلك من جهة ثانية.

(١) ابن عرنوس، محمد بن محمد: تاريخ القضاء في الإسلام، ١٣٢؛ المطبعة المصرية الأهلية، القاهرة، د.ت.
(٢) الكندي: السابق، ٣٧٦.

د - الشعور والكتاب وباقي الموظفين

كانت الدولة الإسلامية بسيطة في بدايتها، لذا كانت إدارتها شبه بدائية. لكن، مع الزمن، ومع توسع أقاليمها، أصبحت الحاجة ماسة إلى إيجاد إدارة منظمة. إن المهام المتعددة وتضارب المصالح دفعت بكبار مسؤولي الدولة للبحث عن حلول لذلك.

لذا أنشئت الدواوين في البداية، وهي دواوين إدارية تتطلب وجود موظفين مؤهلين للقيام بتلك المهام على أحسن وجه. وقد كانت الشعوب التي دخلت في الإسلام متنوعة ومتعددة، لذا كان لا بد من اتخاذ مستشارين لهم دراية بتلك الشعوب وعاداتها وخصوصياتها. وبطبيعة الحال، تزداد الأمور تعقيداً في العصر العباسي. وعلى هذا الأساس وجدت مؤسسة الوزارة التي تدل على هذا التعقيد، لأنها في الحقيقة تمثل الهيئة التي تتسق أعمال المجموعات المختلفة في شكل دواوين يتكفل كل واحد منها بقطاع معين.

لذلك فالوزارة تشبه رئاسة الحكومة في عصرنا أو الوزارة الأولى في الحقيقة. ونجد ابن خلدون يفصل ذلك بقوله: «.. فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت، وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد، تعينت مرتبته في الدولة، وعنت لها الوجوه، وخضعت لها الرقاب، وجعل لها النظر في ديوان الحسابان لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه و تفريقه، وأضيف إليه النظر فيه، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذیاع والشیاع. ودفعت إليه فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معالي الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام هارون الرشيد،

إشارة إلى عموم نظره و قيامه»^(١). كان الوزير يعين أيضاً ممثليه في الأقاليم أمثال الموظفين المكلفين باستخراج الخراج، وقادة الشرطة، والمشرفين على البريد إلخ.

وقد كان هؤلاء الموظفون على احتكاك مباشر مع الرعية التي كانت تحكم على سياسة الدولة من خلال تصرفهم وسلوكهم. لذا وجب علينا أن نأخذ ذلك بالحسبان لنفهم الشعور الذي له علاقة بهؤلاء الموظفين ولنصل إلى محتواه السياسي.

كانت مختلف دواوين الدولة في حاجة إلى كتاب ليدونوا كل النشاط الخاص في سجلات تعرض على المسؤولين. وكان أشهر كتاب تلك الفترة هم كتاب البريد والخراج والجيش والشرطة والقضاة إلخ.^(٢)

إننا نجد عدة انتفاضات في العصر العباسي كان مردها إلى هؤلاء الموظفين عموماً الذين كان بعضهم قاسياً في معاملاته مع الرعية. لقد تنبه الخليفة المأمون إلى أنه كلما حدث شرح ما في العلاقة بينه وبين الرعية اكتشف أن سببها هو قمع موظفيه للناس.^(٣)

يجب القول إن الخلفاء كانوا يراقبون هؤلاء العمال، وكثيراً ما يعزلون الذين ليسوا كفاة لتحمل المسؤولية، ويصادرون أموالهم، ويضعونهم في السجن.

إننا نجد عدة تصريحات وإشارات وتلميحات إلى هذه الظاهرة، ظاهرة عزل العمال، في الشعر العباسي كما في قول عبدالله بن المعتز وهو يتحدث بصفة عامة عن هذا النوع من الموظفين: (من مجزوء الكامل)

كَمْ تَأْتِيهِ بِوَلَايَةٍ
وَبِعَزْلِهِ يَغْدُو الْبَرِيدُ

(١) ابن خلدون: المقدمة، ٧٧٦/٢-٧٧٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: نفسه، ٢٢٩/٢.

(٣) السيوطي: السابق، ٣٠٣.

سُخِرَ الْوَلَايَةَ طَيِّبٌ

وَحُمَارُهَا صَغْبٌ شَدِيدٌ^(١)

نلاحظ كذلك أن هؤلاء الموظفين كانوا يعاقبون أحياناً بغير حق من قبل موظفين أعلى منهم رتبة، كما نرى ذلك في قول الشاعر المجهول الذي أراد أن يخفف عليهم: (من الكامل)

لَا تَجْرَعَنَّ فَكُلُّ وَالٍ يُعْزَلُ

وَكَمَا عُزِلَتْ فَعَنْ قَرِيبٍ يُعْزَلُ

وَكَذَا الرِّمَانُ كَمَا يَسُرُّكَ تَارَةً

فَبِمَا يَسُوؤُكَ تَارَةً يَتَنَقَّلُ^(٢)

يقال إن أول من وضع الدواوين في الدولة الإسلامية هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عملاً بنصيحة خالد بن الوليد الذي أخبره بأنه رأى ملوك سورية يدونون^(٣). هكذا نشأ «ديوان الجيش» أو الجند لعددهم ومعرفة الميزانية التي تحتاج إليها الجيوش. وظهر أيضاً «ديوان الخراج» الذي أخذه العرب من البيزنطيين في سورية ومن الفرس في العراق. ثم عرّبت الدواوين فيما بعد من قبل الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان. ونجد كذلك «ديوان الرسائل» و«ديوان الكتاب» الذي يكتسي أهمية كبرى على عكس ما يظن ابن خلدون حيث كانت تحفظ وثائق الدولة فيه وترتب. ويمكن أن نعتمد على المؤلف الذي خصصه عبدالحميد الكاتب^(٤) للكتاب ولمعرفة الصفات والشروط التي يجب أن تتوفر في كل من يرغب في تعاطي الكتابة^(٥).

(١) الصولي: أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، ١٣٤؛ البيهقي، إبراهيم بن محمد (٣٢٠هـ/٩٣٢م): كتاب المحاسن والمساوي، ١٦٩، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠، نفسه، ١٦٩.

(٢) البيهقي: السابق، ١٦٩.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ٧٨٤/٢.

(٤) عبدالحميد الكاتب (١٣٢هـ/٧٥٠م)، كاتب مشهور.

(٥) ابن خلدون: نفسه، ٧٩٠/٢.

واستُحدثَ ديوانٌ آخر في عهد العباسيين هو «ديوان الشرطة» لتنفيذ أحكام القضاء والسهر على أمن العباد والبلاد. وقد كان تعيين رؤساء الدواوين يتم إما من قبل الخليفة نفسه أو من قبل الوزراء وكبار الموظفين أحياناً.

أما الولاة فلم يكونوا جميعاً يتشابهون فمنهم الجيد الطيب، ومنهم المتعسف الظالم. إننا واجدون في كتب التاريخ والسير عدة أخبار تتعلق بالسمعة السيئة لهؤلاء الولاة. مثلاً يتحدثون عن علي بن عيسى^(١) الذي كان والياً على خراسان، وكان معروفاً بجبروته وطغيانه إذ قتل من أعيان تلك المنطقة وقادتها خلفاً كثيراً، وجمع أموالاً جمّة جلب منها إلى هارون الرشيد ألف صرة من الحرير في كل واحدة عشرة آلاف درهم^(٢).

يمكن أن نذكر عدة أشعار حول هذا الموضوع، فهذا مثلاً ابن مسعود الذي هجا إسحاق بن سعد القطرُبليّ، والي أصبهان، بسبب سلوكه السيء تجاه الرعية: (من الكامل)

أَيْنَ الَّذِينَ تَقُولُوا أَلَّا يَرَوْا
ضِدِّيْنَ مُخْتَلِفِينَ فِي ذَا الْعَالَمِ
هَذَا ابْنُ سَعْدٍ قَدْ أزالَ قِيَاسَكُمْ
وَأَبَادَ حُجَّتَكُمْ بِغَيْرِ تَخَاصُمِ
أَبْدَى لَنَا مُتَحَرِّكاً فِي سَاكِنِ
مِنْهُ وَأَظْهَرَ قَائِماً فِي نَائِمِ^(٣)

وهذا شاعر آخر من مصر هذه المرة، هو يحيى بن الفضل الذي يهاجم عنبسة بن إسحاق الضبي^(٤)، الذي كان، على ما يبدو، معروفاً بنزعتة الخارجية: (الخفيف)

(١) قائد عسكري في عهدي هارون الرشيد والأمين.

(٢) الجهشباري: الوزراء والكتاب، ٢٢٨.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ١٩/٢.

(٤) عنبسة الضبي (٢٤٦هـ/٨٦٠م): والي الرقة في عهد المأمون ثم حاكم مصر من ٢٣٨هـ إلى ٢٤٢هـ: كان مشهوراً بعدالته وإنصافه؛ انظر: الزركلي: الإعلام، ٢٦٨/٥.

مَنْ فَتَى يُبْلِغُ الْإِمَامَ كِتَابًا
عَرَبِيًّا وَيَقْتَضِيهِ الْجَوَابَا
بِئْسَ وَاللَّهِ مَا صَنَعْتَ إِلَيْنَا
حِينَ وَلَّيْتَنَا أَمِيرًا مُصَابَا
خَارِجِيًّا يَدِينُ بِالسَّيْفِ فِينَا
وَيَرَى قَتْلَنَا جَمِيعاً صَوَابَا^(١)

ومن ضمن هذه الفئة من الموظفين الذين كانوا على احتكاك مستمر بالرعية نجد عمال الخراج الذين كانت لهم في الغالب الأعم سمعة سيئة إلى درجة وجد الخليفة المهدي نفسه معها مضطراً لاتخاذ إجراءات صارمة حتى يفرض عليهم المعاملة الحسنة وهم يؤدون عملهم، وطلب منهم أن يمتنعوا عن استعمال التعذيب وهم يقومون بأداء مهمتهم^(٢).

نظراً لأهمية الخراج، كلف الخليفة هارون الرشيد قاضي القضاة أبا يوسف بتأليف مؤلف فيه، فكان «كتاب الخراج». هذا الكتاب هو خير شاهد على الوسائل والطرق العنيفة التي كان يستعملها عمال الخراج لاستخراج الأموال من المواطنين المطالبين بدفع الضرائب حيث يقول صاحبه: «...إنه بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويطلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام»^(٣). وقد وجدنا أمثلة أخرى على التشدد في استخراج الخراج، والزيادة التعسفية والدائمة في قيمة الضرائب، فقد ذكر الكندي أن موسى بن مصعب^(٤) كان متشدداً في أخذ الضرائب،

(١) الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة، ٢٠١.

(٢) الجهشياري: السابق، ١٤٢-١٤٣.

(٣) أبو يوسف: كتاب الخراج، ١١٦.

(٤) موسى بن مصعب (١٦٨هـ/٧٨٥م)، أمير وقائد عسكري، كان والياً على مصر سنة ١٦٨هـ في خلافة المهدي؛ كان مشهوراً بقسوته وتشدده في استخراج الخراج، وقد قتل من قبل مزارعي مصر؛ انظر: الزركلي: السابق، ٢٨٢/٨.

وكان قد فرض على كل فدان ضعف ما كان متفقاً عليه، وكان كذلك يشجع الرشوة، ويفرض ضريبة على الأسواق والحيوانات^(١).

وقد فعل والي الموصل، يحيى بن سعيد، الشيء نفسه بالطغيان والتشدد مع مواطنيه، وبالقساوة في استخراج الخراج لعدة سنوات خلت مما دفع عدداً من المزارعين إلى الفرار من أراضيهم^(٢).

وقد اشتهر مسؤولو الشرطة أيضاً بسلوكهم السيء مع المواطنين من خلال الطرق والوسائل المستعملة ضدهم. وكانوا فوق هذا يمثلون رمز الظلم والطغيان والقمع. ولعل أشعار أشجع السلمي التالية المهداة إلى رئيس شرطة هارون الرشيد، القائد إبراهيم بن عثمان، المعروف بصلابته وحنقه، تعطينا صورة عن ذلك: (من الكامل)

فِي سَيْفِ إِبْرَاهِيمَ خَوْفٌ وَقِعٌ
بِذَوِي النَّفَاقِ وَفِيهِ أَمْنٌ الْمُسْلِمِ
وَيَبِيْتُ يَكْأَلُ وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ
مَالِ الْمُضِيعِ وَمُهْجَةُ الْمُسْتَسْلِمِ
جَعَلَ الْخِطَامَ بِأَنْفِ كُلِّ مُخَالِفِ
حَتَّى اسْتَقَامَ لَهُ الَّذِي لَمْ يُخْطَمِ
لَا يُضِلُّحُ السُّلْطَانَ إِلَّا شِدَّةُ
تَغْشَى الْبَرِيءَ بِفَضْلِ ذَنْبِ الْمَجْرِمِ
وَمِنَ الْوَلَاةِ مُقَحَّمٌ لَا يَتَّقِي
وَالسَّيْفُ تَقَطَّرُ شَفْتَاهُ مِنَ الدَّمِ
مَنْعَتْ مَهَابَتِكَ النَّفْسَ حَدِيثَهَا
بِالْأَمْرِ تَكْرَهُهُ وَإِنْ لَمْ تَعْلَمِ

(١) الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة، ١٢٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٥٣/٦.

وَنَهَجْتُ فِي السِّيَاسَةِ مَسْلَكاً

فَفَهَّمْتُ مَذْهَبَهَا الَّذِي لَمْ يُفْهَمْ^(١)

كما هو واضح فإن رئيس الشرطة هذا المدعو إبراهيم فيه كل الصفات المطلوبة في مثل هذه الوظيفة. غير أن هؤلاء الموظفين سيشاركون في العصر العباسي الثاني في المؤامرات المختلفة ضد الخلفاء مساندين بذلك المسؤولين العسكريين وباقي كبار موظفي الدولة^(٢).

كل هذه الوظائف كانت في حاجة إلى كتيبة كما أشرنا سابقاً، وهذا ما يفسر العدد الهائل من الأشعار المتعلقة بهؤلاء الكتاب. كانوا على اطلاع كامل بكل ما يجري في الدولة بحكم مهنتهم لأنهم كانوا مكلفين بتسجيل كل شيء، ولعل هذا ما يفسر مختلف الضغوط التي كانوا يتعرضون لها باستمرار. وكثيراً ما كانوا يدفعون أرواحهم ثمناً بسبب هذه الوضعية خاصة أنهم كانوا في أغلب الأحيان يحسبون على هذا الطرف أو ذاك. ولنتذكر ما فعل المتوكل بهؤلاء الكتاب من مصادرة لأموالهم، وسجنهم، وتعذيبهم إلخ^(٣).

كثير من الأشعار التي تعرضت للكتاب ركزت على مظهرهم الخارجي وعلى جهلهم. هذا ما نلاحظه في قول الشاعر المجهول وهو يصف كاتباً ما بقوله: (من المتقارب)

يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَاتِبٌ

سَوَادٌ بِأَظْفَارِهِ رَاتِبٌ

فَإِنْ كَانَ هَذَا دَلِيلًا لَهُ

فَأِسْكَافُنَا كَاتِبٌ حَاسِبٌ^(٤)

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ٥٦٤؛ أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ٢٢٧/١٨.

(٢) ابن الأثير: السابق، ١٧/٨.

(٣) ابن الأثير: نفسه، ١٠/٧.

(٤) البيهقي: المحاسن والمساوي، ١٦٤.

وها هو دعبيل الخزاعي يتحدث عن مظهر أبي عباد ثابت بن يحيى كاتب
المأمون بقوله: (من الكامل)

أَوْلَى الْأُمُورِ بِضَيْعَةٍ وَفَسَادِ
أَمْرٍ يَدْبَرُهُ أَبُو عَبَّادِ
خَرِقٌ عَلَى جُلَسَائِهِ بِدَوَاتِهِ
فَمُزْمَلٌ وَمُخَضَّبٌ بِمِدَادِ^(١)

أما علي بن بسام فلا يخالف عادته، ويتهجم هذه المرة على الكاتب أسد بن
جهور قائلاً: (من الكامل)

تَعِيسَ الزَّمَانِ لَقَدْ أَتَى بِعُجَابِ
وَمَحَا رُسُومَ الظَّرْفِ وَالْأَدَابِ
وَأَتَى بِكُتَّابٍ لَوْ انْبَسَطَتْ يَدِي
فِيهِمْ رَدَدْتُهُمْ إِلَى الْكُتَّابِ
أَوْ مَا تَرَى أَسَدَ بْنَ جَهُورٍ قَدْ عَدَا
مُتَشَبِّهًا بِأَجَلَّةِ الْكُتَّابِ^(٢)

دون أن نتغاضى عن الجانب الذاتي الموجود في هذا الشعر المتعلق بالكتاب،
فإنه يمثل نوعاً من معارضة النظام القائم في العصر العباسي لأن الهجوم على
أعوان الدولة بمختلف أصنافهم لكونهم يمثلون رمزاً من رموزها إنما هو هجوم
على النظام نفسه. وإذا أخذنا هذا الشعر في سياقه التاريخي لوجدناه يحمل بعداً
سياسياً واضحاً. وطبعاً، نحن نعرف أن هناك استثناء دائماً في أغلب الظواهر
فالشعراء يعرفون بطبيعة الحال أن هؤلاء الكتاب لا يتشابهون جميعاً بل فيهم
الجيد وفيهم السيء.

(١) دعبيل بن علي الخزاعي (١٤٨-٥٢٤٨/٧٦٥-٨٦٣م): شعر دعبيل بن علي الخزاعي، ١٢٤-١٢٥: صنعة
الدكتور عبدالكريم الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية، دمشق، ١٩٨٣.
(٢) ابن بسام: نفسه، ٢٧.

هـ - الشعور ونزعتا الشعوبية والعروبية

لمصطلح «الشعوبية»^(١) عدة معان. أولاً فكرة أن الفرس بعد أن أدركوا بدء انحصار الحضارة الفارسية، واستمرار توسع الحضارة الإسلامية وسيطرتها بدون انقطاع، قرروا محاربة ذلك الوضع بكل الوسائل لاسترجاع سلطتهم وبث الروح فيها من جديد. لكن لا بد من الملاحظة أن هذه النزعة الشعوبية كانت موجودة حتى قبل اعتلاء العباسيين السلطة. بدأ كل شيء في عهد الأمويين. ولدت فكرة الشعوبية في أيدي الفرس كرد فعل حاقق ضد إشعاع الأمة العربية واندثار الأمة الفارسية^(٢). كانت هذه الحركة تهدف إلى التقليل من دور العرب في كل الميادين، وزعزعة سلطتهم لتعويضها بالسلطة الفارسية^(٣). قد كان هجوم هذه الحركة منصّباً ومركزاً على عناصر معينة بإمكانها تخريب العوامل المشكلة للشخصية العربية مثل الدين الإسلامي، واللغة العربية، والأخلاق العربية، والدولة العربية إلخ^(٤).

ومن جهة أخرى، كان للشعوبية بعد قومي^(٥)، فقد كانت تطمح في إعادة إحياء الأمة الفارسية من جديد^(٦) التي بدأت تذوب في الحضارة العربية الإسلامية. ولعل هذا ما يفسر مشاركة هذه الحركة في إسقاط الأمويين^(٧). هناك احتمال في أن مشاركة الفرس في تلك الحروب التي قضت على الدولة الأموية العربية كانت بسبب ذلك الشعور ولكن هذا ليس بالضرورة صحيحاً كما أشرنا سابقاً.

نلاحظ كذلك أن الشعوبية كانت مرتبطة أحياناً بالضدية للعروبة كما لو أنها مرادف لتطرف الأجنبي ضد العرب^(٨). وقد كان ظهورها مرتبطاً أيضاً بعد ظهور

(١) انظر: عبدالله السامرائي: الشعوبية، أطروحة ماجستير مرقونة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٦٥.

(٢) إسماعيل العرفي: في الشعوبية، ٢٢ (بتصرف)؛ دمشق، ١٩٧٩.

(٣) أحمد أبوحاقة: الالتزام في الشعر العربي، ٨١ (في الهامش)، دار العلم للملايين، ١٩٧٩.

(٤) إسماعيل العرفي: نفسه، ٢٢. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٥٨/٢؛ دار الكتاب العربي، د.ت.

(٥) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٥٨/٢.

(٦) مونتغمري وات: الفكر السياسي الإسلامي، ١١٤.

(٧) طيب تيزيني: السابق، ١٨٠؛ دار دمشق، دمشق، ١٩٧١.

(٨) الجاحظ: البيان والتبيين، ٣٩٨/٣.

الإسلام عندما دعت في العهد الأموي إلى التساوي بين العرب وبقية الشعوب المنضوية تحت الدولة الإسلامية في الإدارة، لكن أهدافها الحقيقية برزت للوجود في العصر العباسي^(١). وقد اتخذت هذه الحركة أحيانا اسم «التسوية» كما يؤكد الجاحظ ذلك^(٢). لقد كان هذا الحزب الذي يحمل اسم «الشعوبية» المشتق من «الشعوب» يريد أن يظهر بمظهر المدافع عن التساوي بين الشعوب الإسلامية أو التساوي بين العرب والشعوب الإسلامية الأخرى^(٣). لقد كانت الشعوبية في البداية مطلباً تقدمياً لأنها كانت في ملامحها الأولى استمراراً للحركات التقدمية التي كانت تتادي بالمساواة بين الشعوب الإسلامية^(٤). وكان اعتماد أنصار هذا الحزب على مبادئ الإسلام ومفاهيمه التي لا تميز ولا تفرق بين الناس إلا بالتقوى، لذلك ظلوا يرددون بدون كلل بأنهم إنما ذهبوا إلى العدل والمساواة، وأن الناس جميعاً من طينة واحدة، وأنهم كلهم من نسل رجل واحد^(٥).

إن الظروف السياسية التي عرفها العصر الأموي واللامساواة في الإدارة التي كانت، على ما يبدو، تفضل العرب على حساب الآخرين، قد لعبت دوراً كبيراً في إذكاء نار الأفكار الشعوبية.

لقد بدأت هذه الأفكار كمطالب شرعية تطالب بتطبيق المبادئ الإسلامية في جميع المجالات، دون أن ننسى الجانب الذاتي المتمثل في أن كل شعب مغلوب، مهما كان الغالب، لا يقبل بأي حال من الأحوال الأمر الواقع. لذلك يقول أبوحيان التوحيدي: «إن الفارسي ليس في فطرته ولا عاداته ولا منشئته أن يعترف بفضل

(١) عبدالعزيز الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية، ٩؛ دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٠.

(٢) الجاحظ: نفسه، ٩/٣.

(٣) فازيليف، ألكسندر ألكسندروفيتش: العرب والروم، ١٠؛ ترجمة محمد عبدالحميد شعيرة، دار الفكر العربي، ١٩٣٨.

(٤) إيميل توما: الحركات الاجتماعية في الإسلام، ١٢٥.

(٥) الألوسي، محمد شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ١/١٦٧؛ مطبعة دار السلام، بغداد، ١٩٥٩.

العربي، ولا في جيلة العربي وديدنه أن يقر فضل الفارسي. وكذلك الهندي والرومي والتركي والديلمي»^(١).

يلخص الشاعر نهار بن توسعة^(٢) هذه الفكرة في قوله التالي: (من الوافر)

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ
إِذَا هَتَفُوا بِبَكْرٍ أَوْ تَمِيمٍ
وَمَا كَرَمٌ وَلَوْ شَرَفَتْ جُدُودُ
وَلَكُنُّ التَّقِيَّ هُوَ الْكَرِيمُ^(٣)

إنه في الحقيقة ترجمة شعرية للآية الكريمة: (... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ)^(٤). وفي جميع الأحوال، فقد تم القيام بمحاربة السلطة العربية من قبل الحركة الشعبية بطريقة ذكية، بالاعتماد والارتكاز على العقيدة والفكر، فقد كانوا يواجهون هذه السلطة بأدواتها نفسها أي أنهم كانوا يستعملون الآيات القرآنية التي تتحدث عن مساواة البشر والشعوب أمام الله، وعن العدالة والأخوة.

لا بد من ذكر العلاقة التي وجدت بعض الوقت بين الشعبية وحركة «الزندقة»^(٥)، خاصة في العصر العباسي الأول. ويمكن القول بأن الزندقة كانت هي الوجه الثاني للشعبوية، أو هي شقها الخفي لأنها كانت تنزع إلى الإلحاد أكثر من أي شيء آخر^(٦). وقد كان أنصار الزندقة أيضاً ينادون بمحاربة العرب وسلطتهم. وقد كان زنادقة العصر العباسي، على ما يبدو، من أتباع ماني الذي كان ينادي

(١) أبوحيان التوحيدي: كتاب الإمتاع والمؤانسة، ٧٣/١.

(٢) نهار بن توسعة (٨٣٢هـ/٧٠٢م): شاعر أموي من قبيلة بكر في خراسان؛ كتب عدة أهاج في والي خراسان قتيبة بن مسلم؛ انظر: الزركلي: نفسه، ٢٤/٩.

(٣) إحسان النص: العصبية القبلية أثرها في الشعر الأموي، ٣٧٥؛ دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق، ١٩٧٣.

(٤) سورة الحجرات، من الآية ١٣.

(٥) أحمد أمين: السابق، ٥٩/١.

(٦) يوسف العشي: السابق، ٥٢.

بعبادة إلهين: إله النور وإله الظلام، بإقامة طقوس خاصة بتلك الطائفة. وقد بلغت هذه الحركة ذروتها بثورة المقتنع في مقاطعة مرو. وقد كانت هذه المانوية تتمثل في التهكم على الدين الإسلامي واحتقار العنصر العربي. وقد انضم عدد من شعراء ذلك العصر إلى تلك الحركة مثل بشار بن برد وأبي نواس. وقد كان هذا الأخير، أي أبونواس، كثيراً ما يردد هذا القول: (من السريع)

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ
لا قدرُ صحَّ ولا جبرُ
ما صحَّ عندي من جميع الذي
يُذكَرُ إلا الموتُ والقبرُ
فاشربْ على الدهرِ وأيامه
فإنَّما يُهلِكنا الدهرُ^(١)

وكان عمرو الحرّكي مثل أبي نواس لا يؤمن بالبعث، فقد قال: (من السريع)

إن كُنْتُ أَرْجُوكَ إِلَى سَلْوَةٍ
قَدْ طَالَ فِي حَبْسِ الضَّنَى لَبْثِي
وَعِشْتُ كَالْمَغْرُورِ فِي دِينِهِ
يُوقِنُ بَعْدَ الْمَوْتِ بِالْبَعْثِ^(٢)

وقد استغلت الشعوبية كذلك التذمر الشيعي باستعمال المشاعر الشيعية بذكاء، والتي كانت منتشرة بكثرة بين أوساط الرعية في ذلك العصر^(٣).

كما هو واضح، فإن الفرس قد قاموا بدور كبير في تنشيط هذه الحركة لأنهم هم الذين قادوها. يظن بعض الباحثين أن انتصار الثورة العباسية مرده

(١) مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، ١٧٣: دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٥.

(٢) ابن الجراح: الورقة، ٥٩.

(٣) أحمد أمين، السابق، ٦٢/١.

إلى العنصر الفارسي، وبتحصيل حاصل، فقد كانت تلك الثورة انتصاراً للشعبوية نفسها، وتجديداً لذلك الاتجاه الذي انتقل إلى مرحلة أكثر حيوية بعد أن كان حركة سلمية تدعو للمساواة والعدل. وبذلك، يكون أنصار هذا الاتجاه قد انتقلوا إلى الهجوم المباشر على العرب بكتابة مؤلفات ضدهم للحط من كل ما له علاقة بهم في جميع المجالات. هذا يعني عند هؤلاء الباحثين أن الفوز العباسي لم يكن إلا فوزاً للموالي ضد العرب^(١).

تجدر الملاحظة هنا أن الشعبوية لم تكن حركة فارسية محض بل بالعكس، نجد فيها عناصر أخرى ومجموعات أخرى قد شاركت في الصراع مثل الأرمن والنبط والأقباط وغيرهم^(٢). وبعد، فلم تكن هذه الحركة محصورة في فئة اجتماعية معينة بل شملت كل الفئات بحيث نجد فيها أناساً بسيطين، وتجاراً، وكتاباً، ووزراء، وأمراء، وأميين ومتعلمين إلخ^(٣).

إن كتاب ابن غارسية هو الدليل القاطع على تعدد الشعوب والجماعات التي انضوت تحت هذه الحركة. لكن، وهذا أمر طبيعي، هناك مع ذلك فوارق بين مطالب هذه الشعوب التي كانت تتخذ أشكالاً مختلفة كالمناوية والإلحاد مثلاً، فالمعارضة النبطية أخذت شكل تعصب مرتبط بالأرض وفلحها، بتفضيل حياة الريف على حياة البدو والصحراء؛ وأما الأقباط فقد ثاروا عدة مرات على العرب وحاولوا طردهم من أراضيهم^(٤). وأما في الأندلس فقد قاد الموالي (أعني المواليين من الزواج المختلط بين العرب والإسبان وغيرهم) هذه الحركة، ولكنهم، عكس المشاركة، قد عرفوا برغبتهم في التجانس مع العقيدة الإسلامية^(٥).

(١) محمد بديع شريف: الصراع بين الموالي والعرب، ٣٨.

(٢) أحمد أمين: نفسه، ٥٩/١؛ عبدالعزيز الدوري: السابق، ١٢؛ عز الدين إسماعيل: في الشعر العباسي، الرؤيا والفن، ١١٤-١١٥؛ دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.

(٣) أحمد أمين: نفسه، ٦٢/١؛ عبدالعزيز الدوري: نفسه، ١٠.

(٤) أحمد أمين: السابق، ٥٩/١.

(5) Goldziher: Préface de Risalat Ibn Garcia fil-su'ubyya, In «Nawadir al-Mahtutat», éd. Abd al-Salam Harun, p : 241-242.

والآن ننتقل إلى ذكر الوسائل التي استعملت من طرف الحركة الشعبية في صراعهم ضد العرب.

كما ذكرنا أعلاه، فإن استراتيجيتهم تتلخص في التقليل من كل ما هو عربي، والازدراء والتهكم على كل ما يفتخر به العرب مثل حياة الصحراء، والخطابة، والكرم، والشعر إلخ. بعد ذلك انتقلوا إلى مستوى آخر يتمثل في ذم كل العرب بدءاً ببني هاشم أهل النبي. لم يتورع الشعوبيون في صراعهم ذاك لا عن الكذب، ولا عن التمويه، ولا عن السرقة الأدبية.

أما أبوالفرج الإصبهاني فيتحدث عن باب الذم في هذا الصراع الشعبي، فحسب قوله كان زياد بن أبيه هو أول من بدأ يزدرى العرب بعد أن تبناه أبوسفیان خشية ألا يتقبل العرب نسبته الجديدة، ولذلك بدأ بتحقيروهم. جاء بعده الهيثم ابن عدي الذي تم تبنيه هو أيضاً فقلده في شتم الأسر النبيلة انتقاماً منهم. وفعل الشيء نفسه أبوعممر بن المثني الذي كان أبوه يهودياً فأسلم على يد بعض ولد أبي بكرالصديق. جاء بعد ذلك غيلان الشعوبي الذي كان مانوياً بدون شك. لم يعرف أمر عقيدته في حياته إلا قليلاً، وكان يريد أن يختبئ بالإسلام ويتظاهر بالتعصب له. ولم ينكشف أمره إلا بعد موته لتأليفه كتاباً لطاهر بن الحسين منافياً لما كان يظهر، فقد بدأه بالمساس بالهاشميين بذكر زيجاتهم، وأمهاتهم، ورجالهم، مبتدئاً بالنبي محمد ﷺ نازعاً عنه كل مكرمة أو خصلة. ثم ذكر أفراد أسرته، ثم كل فروع قريش بالتسلسل، ثم كل العرب، ملصقاً بهم كل الترهات والأكاذيب الممكنة، وكل الأخبار والحكايات المصطنعة والمفتعلة. ويقال إن طاهر بن الحسين كافأه على إنجاز هذا الكتاب بألفي درهم^(١). ويمكن أن نستدل بما ورد في كتاب البيان والتبيين في عدة مواقع لنبين ما كان يدور بين الاتجاهين المتصارعين في مجال العروبية والشعوبية.

(١) أبوالفرج الإصبهاني: كتاب الأغاني، ٧٧/٢٠.

أما في الشعر فإننا يمكن أن نميز عدة محاور صوبت الشعوبية سهامها نحوها .
 أولاً الافتخار الذي استمدته أنصار هذا الاتجاه من أصلهم الفارسي بالتركيز على
 الكفاءة والمجد والشرف التي تتميز بها هذه الأمة، وماضيها الحضاري، فهذا بشار
 ابن برد يقول: (من مجزوء الرجز)

هَلْ مِنْ رَسُولٍ مُخْبِرٍ
 عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ
 مَنْ كَانَ حَيًّا مِنْهُمْ
 وَمَنْ نَوَى فِي التُّرْبِ
 بِأَنْبِي دُو نَسَبِ
 عَالٍ عَلَى نِي نَسَبِ
 جَدِّي الَّذِي أَسْمُو بِهِ
 كَسْرَى وَسَاسَانُ أَبِي
 وَقَيْصَرُ خَالِي إِذَا
 عَدَدْتُ يَوْمًا نَسَبِي
 كَمْ لِي وَكَمْ لِي مِنْ أَبِ
 بِتَاجِهِ الْمُعَصَّبِ^(١)

وفي السياق نفسه، نجد إبراهيم بن داوود يرد مفتخرًا بأصله الفارسي على
 امرأة عربية وهمية افتخرت عليه بأصلها العربي: (من الكامل)

إِنَّ اللَّتِي فَخَرْتُ عَشِيَّةَ رُزْتَهَا
 بِكَلَامِهَا الْفَتَّانِ وَالْأَعْرَاضِ
 فَخَرْتُ عَلَيْكَ بِأَنَّهَا عَرَبِيَّةٌ
 فَتَعَرَّضْتُ لِمُقَاخِرِ نَقَاضِ

(١) بشار بن برد: الديوان، ١/٣٨٩.



فَأَجَبْتُهَا أَنِي ابْنُ كِسْرَى وَابْنُ مَنْ

دَانَ الْمُلُوكُ لَهُ بِغَيْرِ تَرَاضٍ^(١)

هذا النقد للعرب من جهة، والافتخار بالفرس من جهة ثانية، موجه إلى كل العرب الفخوريين بأنسابهم وبيبانهم وبلاغتهم.

وعلى غرار المثالين السابقين، نجد ديك الجن الحمصي المعروف هو الآخر بتعصبه ضد العرب، يستعمل الطريقة نفسها قائلاً: (من البسيط)

إِنِّي امْرُؤٌ بَازِلٌ فِي دَرَوْتِي شَرَفٍ

لِقَيْصِرٍ وَلِكِسْرَى مَخْتَدِي وَأَبِي^(٢)

والغريب أن الأعداء المتخاصمين يصبحون أنصاراً في هذا الصراع ضد العرب، فنحن نعرف العداوة التاريخية بين فارس وبيزنطة، مع ذلك يوحد الشعراء بسهولة بين هاتين الأمتين بانتسابهم عموماً إلى ملوك كلتا الدولتين العدوتين.

(١) الزبير بن بكار (٢٥٦هـ/٨٧٠م): الأخبار الموفقيات، ٣٧٨؛ تحقيق سامي مكّي العاني، بغداد، ١٩٧٢. وهذا ما يذكرنا بقصيدة مهيار الديلمي التي قالها في القرن الرابع الهجري: (من الرمل)

أعجبتُ بي بين نادي قومها	أُم سَعْدٍ فَمَضَتْ تَسْأَلُ بِي
سرها ما علمتُ من خلقي	فَأَرَادَتْ عِلْمَهَا مَا حَسْبِي
لا تخالي نسباً يخفضني	أنا من يرضيكِ عند النسبِ
قومي استولوا على الدهرِ فتى	ومشوا فوق رؤوسِ الحقبِ
عمموا بالشمسِ هاماتهمُ	وبنوا أبياتهمُ بالشهبِ
و أبي كسرى على إيوانه	أين في الناسِ أبٌ مثلُ أبي
سورةُ الملكِ القدامى وعلى	شرفِ الإسلامِ لي والأدبِ
قد قبستُ المجدَ من خيرِ أبٍ	و قبستُ الدينَ من خيرِ نبي
و ضممتُ الفخرَ من أطرافه	سوددَ الفرسِ ودينَ العربِ

(٢) ديك الجن الحمصي، عبدالسلام بن رغبان (١٦١-٢٣٥هـ/٧٧٧-٨٥٠م): الديوان، ٢٥؛ تحقيق عبدالمعين ملوحي ومحيي الدين درويش، حمص، د.ت.



وفي مستوى آخر، نجد شعراء آخرين تجاوزوا هذه المعارضة والافتخار
المحتشمين نوعاً ما إلى الدعوة صراحة لاسترجاع الدولة الفارسية بكل وضوح،
مثل الشاعر إبراهيم بن ممشاذ حين يقول: (من المتقارب)

أَنَا ابْنُ الْأَكَارِمِ مِنْ نَسْلِ جَمِ
وَحَائِزُ إِرْثِ مُلُوكِ الْعَجَمِ
وَمُخَيِّي الَّذِي بَادَ مِنْ عَزِّهِمْ
وَعَفَى عَلَيْهِ طِوَالَ الْقِدَمِ
وَطَالِبُ أَوْتَارِهِمْ جَهْرَةً
فَمَنْ نَامَ عَنْ حَقِّهِمْ لَمْ أَنْمِ
يَهُمُّ الْأَنْبَاءُ بِلَذَاتِهِمْ
وَنَفْسِي تَهُمُّ بِسَوْقِ الْهِمَمِ
وَأِنِّي لِأَمْلُ مِنْ ذِي الْعُلَى
بُلُوعِ مُرَادِي بِخَيْرِ النَّسَمِ
فَقُلْ لِبَنِي هَاشِمٍ أَجْمَعِينَ
هَلُمُّوا إِلَى الْخَلْعِ قَبْلَ النَّدَمِ^(١)

أما أبونواس فإنه، من جهته، يعتمد إلى طريقة مختلفة بهجومه على العادات
العربية، وعلى شعرهم، وعلى طريقة عيشهم. ها هو يتهمك، في الأبيات التالية، من
القبائل العربية بصفة عامة: (من المنسرح)

إِنَّ قُرَيْشاً إِذَا هِيَ انْتَسَبَتْ
كَانَ لَهَا الشُّطْرُ مِنْ مَنَاسِبِهَا
وَأَهْجُ نِزَاراً وَأَفْرِجَ لَدَّتْهَا
وَهَتَّكَ السَّنْرَ عَنْ مَثَالِبِهَا

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ١٨/٢؛ الراغب الإصفهاني: نفسه، ١٦٩/١.

أَمَا تَمِيمٌ فَغَيْرُ دَاخِضَةٍ

مَا شَلَّشَلَّ الْعَبْدُ فِي شَوَارِبِهَا^(١)

وقد كان أبونواس معروفاً بشاعريته الرفيعة التي استخدمها في هذا المجال، مرتكزا على تاريخ القبائل العربية ومبرزا كل ما يشينهم ويسيء إليهم، فهو لم يخف أبداً كرهه للعرب، فكثيراً ما كان يصرح بذلك، كما في قوله هذا: (من الطويل)

وَلَا شَرَّفْتُنِي كُنْيَةَ عَرَبِيَّةٍ

وَلَا أَكْسَبْتُنِي لَا ثَنَاءً وَلَا فَخْرًا^(٢)

لنا أن نتصور بسهولة تلك الحملة الشعواء التي قادتها الشعوبية على العرب في جميع ما يتعلق بهم، فبعضهم راح ينقب في التاريخ الغابر لهم عن كل ما يسيء لهم من بعيد أو من قريب؛ وبعضهم الآخر راح يحطم كل شيء يفتخرون به كالشجاعة ونجدة المستغيث والكرم والضيافة إلخ. وكانت حياة البدو في نظرهم مدعاة للسخرية والتهكم بالإضافة إلى الغزو الذي عرف بين القبائل العربية، وأكلهم لحيوانات الصحراء. وكانت آدابهم وأشعارهم مثاراً للتهكم كذلك^(٣). باختصار، أصبح العربي في هذا الشعر الشعبي مصدر تنكيت. وكان زعيم الشعراء في هذا المجال هو أبونواس بتقننه في ذلك: (من الطويل)

إِذَا مَا تَمِيمِي أَتَاكَ مُفَاخِرًا

فَقُلْ: عَدَّ عَنْ ذَا، كَيْفَ أَكَلْتَ لِلضَّبِّ

تُفَاخِرُ أَوْلَادَ الْمُلُوكِ سَفَاهَةً

وَبَوْلِكَ يَجْرِي فَوْقَ سَاقِكَ وَالْكَعْبِ^(٤)

(١) أبونواس، الحسن بن هانئ: الديوان، ١٥٧؛ إعداد محمود أفندي واصف، الطبعة الأولى، المطبعة العمومية، القاهرة، ١٨٩٨.

(٢) أبونواس: الديوان، ٢٧٣.

(٣) الجاحظ: السابق، ٢٩٨/٣.

(٤) أبونواس: الديوان، ١٥٩؛ ابن المعتز: طبقات الشعراء، ٢٠٠.

العرب بالنسبة إليه بدو أعراب لا يفقهون شيئاً في السلوك الحضاري ولا يحق لهم أن يقارنوا أنفسهم بالفرس المتحضرين. هذه الفكرة يحاول بشار بن برد تعميقها أكثر في قوله: (من الوافر)

سَأخْبِرُ فَأَخِرَ الْأَعْرَابِ عَنِّي
وَعَنْهُ حِينَ تَأْذُنُ بِالْفَخَارِ
تُفَاخِرُ يَا بَنَ رَاعٍ وَرَاعِيَّةٍ
بَنِي الْأَخْرَارِ حَسْبُكَ مِنْ خَسَارِ
وَكُنْتُ إِذَا ظَمِئْتُ إِلَى قَرَاكِ
شَرِكْتُ الْكَلْبَ فِي وَلَغِ الْإِطَارِ
تُرِيغُ بِخُطْبَةٍ كَسَرَ الْمَوَانِي
وَيُنْسِيكَ الْمَكَارِمَ صَيْدُ فَارِ
وَتَغْدُو لِقْنَا فِذِ تَدْرِيهَا
وَلَمْ تَعْقِلْ بِدَرَجِ الدِّيَارِ
مُقَامُكَ بَيْنَنَا دِنْسٌ عَلَيْنَا
فَلَيْتَكَ غَائِبٌ فِي حَرِّ نَارِ
وَفَخْرُكَ بَيْنَ خُنْزِيرٍ وَكَلْبِ
عَلَى مِثْلِي مِنَ الْحَدَثِ الْكُبَارِ^(١)

ولإكمال هذه الصورة، راح الشعراء الشعبيون يسخرون أيضاً من غير العرب الذين التحقوا بالعرب بطريقة أو بأخرى. هناك أمثلة كثيرة في هذا المجال مثل شعر مَخْلَدِ بْنِ بَكَّارٍ، ضد أبي تمام، وشعر علي بن الخليل ضد صديقه الدهقان، وأشعار أبي العتاهية ضد وَالْبَةِ بْنِ الْحَبَابِ.

(١) بشار بن برد: الديوان، ٢٢/٣-٢٣؛ أبو الفرج الإصهاني: كتاب الأغاني، ١٦٧-١٦٦/٣.

يقول مغلد في أبي تمام : (مجزوء الرمل)

أَنْتَ عِنْدِي عَرَبِيٌّ أَلْـ
أَصْلٌ مَّا فِيكَ كَلَامٌ
شَعْرٌ فَخُذِيكَ وَسَاقِيـ
كَ خُزَامِي وَنَعَامٌ
لَوْ تَحَرُّمْتُ كَذَا لَأَنْـ
جَفَلْتُ مِنْكَ نَعَامٌ
وَوَطْبَاءٌ مُخَضَّبَاتٌ
وَيَرَابِيعٌ عِظَامٌ
أَنَا مَا نَنْبِي إِنْ حَا
لَفَنِي فِيكَ الْأَنْبَامُ
وَأَتَيْتُ مِنْكَ سَجَايَا
نَبَطِيَّاتٌ لِنَّامُ
وَقَفَاً يَخْلِفُ أَنْ قَدْ
عَرِقْتُ فِيكَ الْكِرَامُ
ثُمَّ قَالُوا: جَاسِمِي
مِنْ بَنِي الْأَنْبَاطِ خَامُ
كَذَبُوا مَا أَنْتَ إِلَّا
عَرَبِيٌّ مَا تُخَامُ
وَلَهُ مِنْ إِثِّ أَبَا
عِ قِيسِي وَسِي هَامُ
وَنَخِيلٌ بِاسِقَاتٍ
قَدْ دَنَا مِنْهَا صِرَامُ

أَنْتَ عِنْدِي عَرَبِيٌّ

عَرَبِيٌّ وَالسُّلَامُ^(١)

إن نبرة السخرية واضحة في هذا الشعر، فأبوتمام قد ورط نفسه مع هذا الشاعر عندما ادعى أنه عربي بينما هو أرمني. ونجد السخرية نفسها عند أبي العتاهية ضد والبة بن الحباب الذي كان يطمع في أن يصبح عربياً بينما سيماه تكذبه لأنه كان أشقر وله عينان زرقاوان: (من مجزوء الوافر)

أَ وَالْبِ أَنْتُ فِي الْعَرَبِ

كَمِثْلِ الشَّيْصِ فِي الرُّطْبِ

هَلُمَّ إِلَى الْمَوَالِي الصَّيِّ

دِ فِي سَعَةٍ وَفِي رَحَبِ

فَأَنْتَ بِنَا لَعَمْرُ الْ

هَ أَشَبَّهُ بِالْعَرَبِ

غَضِبْتُ عَلَيْكَ ثُمَّ رَأَيْتُ

تُ وَجْهَكَ فَأَنْجَلَى غَضْبِي

لَمَّا ذَكَّرْتَنِي مِنْ لَوْ

نِ أَجْدَادِي وَلَوْ نِ أَبِي

فَقَلَّ مَا شِئْتُ أَقْبَلُهُ

وَإِنْ أَطْنَبْتُ فِي الْكَذِبِ

أَ وَالْبِ مَا دَهَكَ وَأَنْتَ

تَ فِي الْأَعْرَابِ نُو نَسَبِ

أَرَاكَ وَوَلِدْتُ فِي الْمَرِي

خِ يَا بِنَ سَبَائِكَ الدُّهَبِ

(١) الصولي: أخبار أبي تمام، ٢٣٥.

فَجِئْتُ أَقْيَسِرَ الْخَدْيِ
—
مِنَ أَرْزَقِ عَارِمِ الذَّنْبِ
لَقَدْ أَخْطَأْتُ فِي شَتْمِي
فَخَبَّرَنِي: أَلَمْ أُصِيبْ؟^(١)

أما علي بن الخليل فيقول لصاحبه الدهقان : (من السريع)
يَا أَيُّهَا الرَّأِغِبُ عَنْ أَضْلِيهِ
مَا كُنْتُ فِي مَوْضِعِ تَهْجِينِ
مَتَى تَعَرَّبْتُ وَكُنْتُ امْرَأً
مِنَ الْمَوَالِي صَالِحِ الدِّينِ
لَوْ كُنْتُ إِذْ صِرْتُ إِلَى دَعْوَةِ
فُزْتُ مِنَ الْقَوْمِ بِتَمَكِينِ
لَكَفَّ مِنْ وَجْدِي وَلَكِنِّي
أَرَاكَ بَيْنَ الضُّبِّ وَالنُّونِ^(٢)

كانت الشعوبية حركة سياسية اجتماعية واجهت الهيمنة العربية ابتداء من العصر الأموي، لكنها وجدت نفساً جديداً لها في العصر العباسي بسبب مشاركة بعض القادة الفرس في الثورة العباسية، وكذلك بمشاركة بعض الموالى في السلطة عندما اعتلوا مناصب كالوزارة مثلاً. وكانت تلك فرصة أراد أنصار الشعوبية اغتياها، لكنهم تسرعوا بعض الشيء لأن الخلفاء في ذلك العصر كانوا جميعاً عربياً من بني هاشم، بينما كان الوزراء من قوميات أخرى، وعموماً كانوا من الفرس. غير أن ضعف الخلافة أحياناً كان يعطيهم نفساً جديداً.

(١) أبوالفرج الإصفهاني: السابق، ١٠٢/١٨-١٠٣.

(٢) أبوالفرج الإصفهاني: السابق، ١٨٤/١٤.

ونتيجة لذلك ظهر للوجود تيار مناقض للشعبوية يمكن أن نسميه تيار العروبية^(١) في مقابل التيار الآخر. وكان هذا التيار، تماماً كالشعبوية، رد فعل، لأنه مهما كان عدد العرب في ذلك العصر فإنهم يعدون أقلية أمام الشعوب الأخرى التي دخلت الإسلام. وكان النفوذ الذي تميزوا به في العقود الأولى للإسلام وبعيد الفتوحات بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً ليختفي تماماً في النهاية.

بدأ هذا الشعور يتنامى مع وصول الكتائب العباسية القادمة من فارس. وتمثل أوج هذا التذمر في ثورة نصير بن شيبث^(٢) سنة ١٩٩ للهجرة. وقد التحق عدد كبير من العرب بهذه الثورة وبعض الطالبيين. زيادة على ذلك، ها هو يوضح أسباب ثورته بقوله: «حاربتهم محاماة على العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم»^(٣)، لكن يجب الملاحظة أن هذا الافتخار العربي تمتد جذوره قبل مجيء الإسلام أي إلى العصر الجاهلي، غير أنه كان ينطلق من مركز ضعف في تلك الفترة نظراً للظروف التي كانت تمر بها الأمة العربية. ونحن واجدون في بداية الحركة العروبية المطالب نفسها ذات الطابع العدلي والمساواتي والأخوي التي نادى بها الشعبويون. ولنستمع إلى ما يقوله الشاعر العروبي طارق بن دثار الطائي في هذا السياق: (من البسيط)

مَا إِنْ يَزَالَ بِبَعْدَادٍ يُرَاجِمُنَا
عَلَى الْبَرَادِينِ أَشْبَاهُ الْبَرَادِينِ
مَا شِئْتِ مِنْ بَعْلَةٍ سَفَوَاءٍ نَاجِيَةٍ
وَمِنْ أَثَاثٍ وَقَوْلٍ غَيْرِ مَوْزُونِ
أَعْطَاهُمُ اللَّهُ أَمْوَالًا وَمَنْزِلَةً
مِنْ الْمُلُوكِ بِلَا عَقْلِ وَلَا دِينِ^(٤)

(١) محمود الريدائي: التيارات والمذاهب الفنية في الأدب العباسي، ٧٣-٧٨، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٨١-١٩٨٢.

(٢) نصر بن شيبث (٢١٠هـ/٨٢٥م): من نسل الأمويين؛ رفض مبايعة المأمون وثار ضده في ضواحي قيسوم، واضطر للاستسلام بعد عدة سنوات من الكفاح؛ انظر الزركلي: الأعلام، ٣٤٢/٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٠٨/٦.

(٤) ابن عبد البر القرطبي، يوسف بن عبدالله (٤٦٣هـ/١٠٧١م): بهجة المجالس، ٥٤٧/١؛ تحقيق محمد مرسي الخولي، القاهرة، د.ت.

إنه يعني بطبيعة الحال بعض الفرس الذين استطاعوا أن يتسلقوا في المناصب العليا المختلفة كالوزراء وقادة الجيش.

ويجب أن نذكر أن هذا التيار العروبي لم يكن قضية تخص العرب وحدهم بل أسهم فيه شعراء وكتاب من غير العرب كابن قتيبة، والجاحظ، والصاحب بن عباد إلخ.

حدث صراع مثير بين التيارين لا هوادة فيه سرعان ما انعكس على الشعراء بالدرجة الأولى، وعلى الكتاب في مرحلة ثانية. راح الطرف الأول يفتخر بماضيه المجيد وبسلطته التي بدأت الأحداث تتجاوزها شيئاً فشيئاً، بينما راح الطرف الثاني يفتخر بماضيه الذي كان مجيداً هو الآخر، وبالسلطة المسترجعة. وكان ثمار هذا الصراع عدداً كبيراً من النقائض مثل نقائض الشعراء الأمويين الثلاثة المشهورين جرير والفرزدق والأخطل. غير أن النقائض هنا اتخذت صبغة قومية وليس قبلية كما كانت في العصر الأموي، فمثلاً عندما يفتخر بشار بن برد بأصوله الفارسية، يرد عليه صفوان الأنصاري؛ وعندما يفتخر ابن ميادة يرد عليه الحَكَم الحَضْرِي. ويمكن أن نعد النقائض المشهورة بين عبدالله بن طاهر بن الحسين ومحمد بن يزيد المصري، وعلان الشعبي، خير دليل على هذا الأدب المتميز بتعميم الكراهية والحقْد^(١). أما في القرن الرابع الهجري الذي لا يهمننا منه في بحثنا إلا ثلثه الأول فإن هذا الصراع سيفضل النثر على الشعر؛ وسيقوم الكتاب بحمل المشعل من الشعراء لما في النثر من حرية أكثر، الأمر الذي سيسمح بظهور عدة مؤلفات في هذا الشأن.

أما الأغراض التي نجدها في الشعر العروبي فهي ذات طابع سياسي كحب الحرية عند العرب الذين لم يستعمروا أبداً من قبل، وعاشوا أحراراً في الجزيرة

(١) محمود الريدواوي: السابق، ٨٥-٨٦.

العربية؛ أو هي ذات طابع اجتماعي كالحديث عن الصفات التقليدية المعروفة لديهم كالكرم، والشجاعة، ونجدة المستغيث، والأمانة إلخ، أو هي ذات طابع ديني من خلال الحديث عن ظهور النبي في هذه الأمة أو هي ختاماً ذات طابع أدبي وفني وجمالي كالحديث عن البلاغة والخطابة والشعر إلخ.

وقد ركز أنصار العروبية على فكرة تتمثل في أن خصومهم من الشعوبيين قد اعترفوا ضمناً بتفوق العنصر العربي عليهم باستعمالهم اللغة العربية وآدابها نفسها لمحاربتهم. يمكن أن نرى ذلك في جواب الشاعر العروبي محمد بن ثُمَامَةَ العبدي على شاعر شعوبي: (من مجزوء الرجز)

هَاتِ لِسَانًا فَاهْجُنَا

غَيْرَ لِسَانِ الْعَرَبِ

فَاخِرَ فَإِنَّ الْفَخْرَ لَا

يَصْلُحُ إِلَّا لِي وَبِي

كَأَنْتُمْ مَا فَاخَرَنِي

بِمِثْلِ جَدِّي وَأَبِي^(١)

من جهة ثانية، كان على الشعراء العروبيين أن يواجهوا أيضاً مختلف الأطراف الأخرى غير الفرس التي تُكَوَّنُ تلك الحركة الشعبوية، فزيادة على العراق والمشرق عموماً، كان عليهم أن يواجهوا أقباط مصر الذين ثاروا عدة مرات ضد السلطة العربية. ويبدو، حسب ما يقول شعراء العروبية، إن أولئك الأقباط أرادوا في البداية أن يتعربوا حتى يحصلوا على الامتيازات التي يحصل عليها العرب لكن هذا لم يقبل منهم. وقد كان أحد القضاة، ويسمى رجياً، هو السبب في رفض هذا الطلب مما جعل الشاعر العروبي طاهر القيسي يمدحه بعدة قصائد لهذا السبب، ولنذكر بعض أبيات له فيه: (من الكامل)

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ٣٩٤.

وَلَقَدْ قَمِغْتَ بَنِي الْخَبَائِثِ عِنْدَمَا
رَأَمُوا الْعُلَا وَتَحَوَّتْ كُوا وَتَعَرَّبُوا
فَرَدَدْتَهُمْ قَبْطًا إِلَى آبَائِهِمْ
وَنَسِيبِ أَضْلِهِمُ الَّذِي قَدْ خَيَّبُوا^(١)

وفي السياق نفسه، قام شاعر آخر هو معلّى الطائي، بحملة ضد الأقباط في مصر، وهذا بعض ما قال: (من الرمل)

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَكُمْ
مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ طُرًّا لَفَعَلْ
لَكِنَّ الرَّحْمَنُ قَدْ صَيَّرَكُمْ
قَبْطَ مِصْرٍ وَمِنْ الْقَبْطِ سَفَلٌ^(٢)

أخيراً، إن هاتين الحركتين المتناقضتين لم تكونا إلا ثمرة الوضع السياسي الاجتماعي للعصر العباسي المدروس. كانت آثارهما على الشعر والأدب واضحة جداً. والمحتوى السياسي لشعرهما يكمن في أن كل واحدة منهما كانت تسعى لفرض سلطتها على الأخرى. ليس مستبعداً أن أطرافاً خفية كانت تحركهما دون علم منهما، وخاصة الحركات ذات الطابع السياسي وحتى الديني التي كانت مضطرة للتخفي واستعمال كل الوسائل المتاحة، وخاصة الشعر، نظراً لتأثيره الكبير في نفوس الناس وعقولهم.

(١) الكندي: نفسه، ٤١٥.

(٢) نفسه، ٤١٤.

الفصل الثالث: الشعور والعلاقات الخارجية

هناك نوعان من العلاقات الخارجية، في العصر المدروس، بين الدولة العباسية وعاصمتها بغداد، ثم سامراء لمدة قصيرة، وبين الدول الأخرى. من جهة، نجد الدول الإسلامية التي انفصلت عن الإمبراطورية العباسية بعد تجزئتها في الشرق وفي الغرب⁽¹⁾. ومن جهة ثانية، نجد الدول غير الإسلامية مثل بيزنطة، وبلاد الغال، وبلغاريا إلخ. وقد كان للدولة العباسية موقفان من الدول غير الإسلامية حسب المسافة بينهما، فإن كانت مجاورة أو قريبة فالعلاقة عدائية، وإن كانت بعيدة فالعلاقة عمومًا جيدة.

لقد ظهرت الدويلات الإسلامية المستقلة في العصر الأول من الحكم العباسي. وقد كان لذلك التفكك في الدولة الأم أسباب عديدة نحاول هنا ذكر أهمها.

لقد ورث العباسيون إمبراطورية واسعة تمتد آلاف الكيلومترات، غير أن وسائل الاتصال في ذلك الوقت، على الرغم من تطورها النسبي، لم تكن تكفي لتغطية تلك المساحات الشاسعة والتحكم فيها ومراقبتها كلياً. من هنا بدأ الخلل الأول بالنسبة إلى دولة تكاد تكون مركزية كلياً. كان الخليفة في العصر العباسي الأول هو الشخص الوحيد المخول له اتخاذ القرارات السياسية. وجاء الخلل الثاني من عدم الاستقرار الذي عرفته السلطة العباسية. إذا نظرنا من الخارج يبدو لنا الأمر وكأن هناك استقراراً في العصر العباسي الأول لكنه في الحقيقة ليس إلا هدوءاً ظاهرياً يخفي وراءه حراكاً مستمراً لا يتوقف. لم تكن هذه المرحلة في يوم

(1) Cf: Brockelmann: Histoire des peuples et des Etats islamiques , pp: 118-142.

من الأيام مستقرة على الرغم من القمع والوحشية التي واجه بها النظام العباسي كل شغب تتسبب فيه الحركات والاتجاهات الانفصالية أو الثورات التي حدثت هنا وهناك في تلك الإمبراطورية الشاسعة.

من الحركات التي كان لها دور كبير وفعال في تقويض الدولة العباسية والإسراع في تخلي أنصارها عنها نجد حركتي الشيعة والخوارج اللتين لم تتوقفاً أبداً عن محاربة العباسيين في كل الأوقات كما سنرى فيما بعد.

وكانت سياسة العباسيين الاقتصادية في الأقاليم التي ستفصل عن الدولة المركزية واحداً من العناصر الأساسية في التفكك، لأن تلك السياسة كانت ارتكزت بالدرجة الأولى على جمع الأموال والثروات بكل الوسائل بدون التفكير في توزيعها بطريقة عادلة على المواطنين. ولم تفرغ إصلاحات الخليفين المهدي والمعتضد الضريبية في شيء على الرغم من إيجابيتها، ولم تغير شيئاً في ظروف الريف والزراعة. لقد ظل الفلاحون يزرعون تحت كاهل الضرائب المستحدثة باستمرار من قبل الإدارة المركزية وإدارات الأقاليم. وقد أسهمت طريقة حكم هذه الأقاليم، بعيدة كانت أم قريبة، أيضاً في تنامي التذمر العام لدى المواطنين. ولم يكن الولاة المعينون في تلك الأقاليم يباشرون الحكم بأنفسهم مباشرة ودائماً بل كانوا يرسلون أحياناً ممثلين عنهم حتى يظلوا هم في العاصمة للإسهام في المؤامرات ضد الخليفة أو لصالحه، خاصة في المرحلة الثانية من حكم العباسيين. زادت هذه الوضعية من ثقل الحمل بالنسبة إلى مواطني الأقاليم لأن أولئك الممثلين كانوا دوماً يحاولون جمع الأموال لأنفسهم أولاً حتى يصبحوا أغنياء، قبل أن يرسلوا الفائض منها إلى الحكام أو إلى الخليفة في بغداد. وهذا ما يفسر جزئياً الزيادة المستمرة في الضرائب.

لا نبالغ إذا قلنا إن كل الانتفاضات التي حدثت في المرحلة المدروسة، كان مردها إلى المشكلات الاقتصادية، حتى تلك التي تبدو لنا في شكل ديني، لأن حتى

هذه الأخيرة، وإن كانت دينية، إلا أنها ركزت على الوضعية الاقتصادية السيئة لجلب مزيد من الأنصار لها. وفي الأخير كان ضعف الخلفاء في المرحلة الثانية سبباً في إذكاء الرغبة في الاستقلال في تلك الأقاليم التي سترى ميلاد عدة دويلات.

إذا عرفنا هذه الأسباب كلها فليس غريباً أن نجد ستة عشر دويلة قد رأت النور في الأقاليم المنفصلة عن الدولة المركزية خلال المرحلة المدروسة^(١).

ليس سهلاً أن نحصر ظهور هذا العدد من الدول في الأسباب التي ذكرناها آنفاً فقط، بل هناك أسباب أخرى بطبيعة الحال. في بعض الأقاليم انضاف الشعور القومي والوطني لتلك الأسباب لإحياء شخصياتهم المنحلة في المجتمع العباسي. وفي مناطق أخرى ينمو الشعور الديني ليؤثر أكثر كما في مراكش واليمن وطبرستان. بينما كان ظهور بعض الدويلات الأخرى نتيجة للطموح الفردي لبعض المغامرين الذين تشجعوا بسبب ضعف مؤسسة الخلافة. وتجدر الملاحظة كذلك إلى أن بعض هذه الدول ظلت تدين بالولاء للعباسيين بصفة رسمية ورمزية أحياناً بينما انفصلت دول أخرى تماماً كما فعل الأمويون في الأندلس، والرستميون في المغرب الأوسط عندما أوجدوا مؤسسة للخلافة كذلك.

نتحدث الآن عن العلاقة بين الدولة العباسية والدول الإسلامية في المنطقة الغربية لأنها الأقدم في الوجود. كان الأمويون أول من كوّنوا مملكة في الأندلس بعدما طردوا من المشرق ستستمر من سنة ١٢٨هـ-٧٥٦م إلى ٤٤٢هـ-١٠٣١م. كان عبدالرحمن بن معاوية^(٢) من القلائل الذين أفلتوا من المذبحة الكبرى التي تعرض

(١) انظر: عبدالفتاح السرنجاوي: النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٤٥؛ فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ٢١١ وما بعدها.

(٢) هو عبدالرحمن الداخل (١١٣هـ-١٧٢هـ/٧٣١م-٧٨٨م): هو مؤسس الدولة الأموية بالأندلس. ولد في دمشق، وتربى يتيماً في قصر الخليفة؛ وكانت أمه من أصل بربري الأمر الذي ساعده على قضاء بعض الوقت بين قبائل مكناس ونفزاوة البربرية لتحضير مسيرته إلى الأندلس التي ستدوم طويلاً حيث كون بعد بعض الوقت دولة ستدوم كثيراً. وقد سماه الخليفة العباسي المنصور «صقر قريش»؛ انظر الزركلي: الأعلام، ١١٣/٤-١١٤.

لها الأمويون من قبل العباسيين بعد انتصار ثورتهم. وكان الأمويون، بداية أمرهم في الأندلس، يتلقبون بلقب «أمير المؤمنين» معترفين بذلك ضمناً بالسلطة العباسية. وظل الأمر كذلك إلى غاية سنة ٢١٦هـ عندما قرروا إطلاق لقب «ال خليفة» على أنفسهم لما رأوه من ضعف مؤسسة الخلافة العباسية.

كانت العلاقة بين هاتين الدولتين^(١)، كما هو منتظر، تتسم بالعداوة المتبادلة فزيادة على الخلاف الوراثي بين فرعي قريش هذين، كل أسرة كانت ترى نفسها أحق بتمثيل المسلمين وترى نفسها زعيمة للمؤمنين. لكن الغريب أن الأشعار التي كان منتظراً أن تواكب ذلك لا توجد في المصادر العربية المعروفة إطلاقاً، لكن هذا لا يعني أبداً أن الشعراء العرب والمسلمين لم يهتموا بهذه القضية. نحن نظن أن هذا السكوت مرده لعاملين اثنين أولهما أن كل طرف منع تداول تلك الأشعار غير أننا لا نجد نصاً يؤكد هذا الزعم؛ وثانيهما هو بعد المسافة بين الدولتين الأمر الذي منع حركة الشعر الحرة بين الإقليمين، وهذا أيضاً ليس مبرراً كافياً. لكن يبقى هذا الأمر محيراً إذ لا يعقل أن يغيب الشعر عن حدث كهذا أي إنشاء دولة جديدة وكبيرة في الأندلس تدوم بضعة قرون ولا يتحدث الشعر عن علاقتها، مهما كانت، مع الدولة العباسية.

وكانت الدولة الثانية التي انفصلت عن الخلافة العباسية هي الدولة الرستمية^(٢) التي أسسها عبدالرحمن بن رستم^(٣). والرستميون من الإباضية، وهم فرع من الخوارج أو الشراة. لقد بدأوا بنشر أفكارهم بين القبائل البربرية في المغرب في نهاية القرن الهجري الأول. سرعان ما وجدت أفكارهم استجابة

(١) انظر عبدالعزيز سالم: سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس، ضمن مجلة «المؤرخ العربي»، عدد ٢، بغداد، ١٩٧٥.

(٢) انظر بخصوص الدولة الرستمية: ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٥.

(٣) عبدالرحمن بن رستم: (١٧١هـ/٨٠٦م) اسمه عبدالرحمن بن رستم بن بهرام بن سام بن كسرى، من الفرس؛ وهو أحد تلامذة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وإليه تنسب الدولة الرستمية.

من سكان تلك المنطقة؛ وتوجت حملتهم الدعائية بالهجومات المتكررة على ممثلي العباسيين في طرابلس الغرب والقيروان. واستطاعوا في النهاية تأسيس دولة لهم اتخذت من تاهرت أو تيهرت^(١) عاصمة لها سنة ١٦٠هـ/٧٩٥م.

نلاحظ هنا أن مؤرخي المشرق القدامى والمحدثين قد تجاهلوا تقريباً بصفة كاملة وجود هذه الدولة^(٢) بينما كانت هي أول دولة بمعنى الكلمة تتفصل عن الخلافة العباسية، لأن نظامها كان يختلف تماماً عن الدول المرتبطة نوعاً بالنظام العباسي كالأغالبة مثلاً.

كانت العلاقات بين الدولتين العباسية والرسومية تتسم بالعداء كما هو منتظر، لأن العباسيين كانوا في القرن الأول من حكمهم يواجهون كل محاولة انفصالية بقوة وعنق وقمع. وبعد أخذ ورد بينهما رجعت الغلبة في النهاية للرسوميين الذين أسسوا دولتهم تلك^(٣).

إن ظهور هذه الدويلات المتعددة في الجهة الغربية للإمبراطورية العباسية مثل الأمويين والرسوميين والأغالبة، والتي تعتنق مذاهب مختلفة كالسنة والشيعية والخوارج، إنما يدل على استعداد شعوب هذه المناطق لاعتناق تلك الأفكار الواردة من المشرق عموماً بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تمر بها، وأيضاً لكونها بعيدة عن مركز الخلافة، ولأن العباسيين اهتموا أكثر بالأقاليم الشرقية على حساب المناطق الغربية^(٤).

أما النصوص الشعرية المتعلقة بهذا الموضوع فلم تعد موجودة بسبب موقف المؤرخين الذي أشرنا إليه سابقاً والتميز بالتجاهل المقصود للرسوميين، بل نجدهم

(١) تيهرت أو تاهرت: كانت توجد قرب تيارت الحالية التي تبعد حوالي ٢٥٠ كلم غرب الجزائر العاصمة.
(٢) انظر: جودت عبدالكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرسومية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص: ٧ إلى ٢٢.

(٣) انظر عبدالمنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ١٣٤-١٣٥.

(٤) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ١٧٨؛ الطبعة الأولى، الكويت، د.ت.

لم يلمحوا إليهم إطلاقاً^(١). لا يمكن أن نفسر هذا الموقف من المؤرخين إلا نتيجة للتطرف الديني والتعصب الجهوي للمشرق^(٢).

حدث الشيء نفسه مع دولتي الأغالبة والأدارسة في كل من تونس ومراكش إذ تعرضتا للتجاهل للأسباب نفسها. لذلك لا نجد نصوفاً تتحدث عن العلاقات السياسية بين هاتين الدولتين والدولة العباسية.

أما في المنطقة الشرقية من الإمبراطورية العباسية فقد ظهرت للوجود سبع دول في قرن من الزمن، مما يبين عدم الاستقرار الذي عرفته المنطقة. تجدر الملاحظة إلى أن هذه الدول كانت تلغي بعضها البعض الواحدة تلو الأخرى باستمرار بعد حروب لا تنتهي.

أول أسرة استطاعت أن تؤسس دولة في المشرق في العصر العباسي والتي اهتم بها العباسيون من كتب هم الطاهريون^(٣) الذين يستمدون اسمهم من طاهر بن الحسين، قائد المأمون الشهير في حربه ضد أخيه الأمين. عين أول الأمر قائداً لشرطة العاصمة بغداد، ثم حاكماً لخراسان والمشرق سنة ٢٠٥هـ. يقوم فيما بعد بحجب اسم الخليفة من الخطب اليومية في المساجد. ومع ذلك ظلت هذه الدولة الصغيرة مرتبطة بالعباسيين بدفع الخراج سنوياً، ومحاربة أعداء الخلافة باستمرار، أي الخوارج والشيعة. لقد تنبه العباسيون للخطورة التي تمثلها هذه الدولة مما يفسر المؤامرات المستمرة ضدها دون أن يعلنوا الحرب ضدها بصراحة بسبب الموائيق والعهود التي تربطهما.

(١) انظر فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ٢٢٤، حين يتحدث عن الدول التي ظهرت في ذلك الوقت، لا يتحدث عن الرستميين.

(٢) انظر أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسي، ٢٧٧؛ ويوسف العشي: السابق، ١٢١، حيث لا يذكران الدولة الرستمية وهما يتحدثان عن الدول التي كانت في ذلك الوقت.

(٣) انظر حول الطاهريين ودولتهم: قحطان الحديثي: الدولة الطاهرية، أطروحة ماجستير مرقونة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٦٦.

النصوص ذات الطابع السياسي التي تتحدث عن الطاهريين كخدام للعباسيين لا تشير إلى العلاقات بين الدولتين لأن الصراع بينهما كان قبل كل شيء داخلياً، ثم سرّياً نوعاً ما. وقد جعلوا من نيسابور عاصمة لهم.

وكانت الدولة الثانية التي ظهرت للوجود هي دولة العلويين في طبرستان. لقد مثلت تتويجاً للمطالب الشيعية في أحقيتها بالإمامة مع الأخذ بالحسبان تطلعات الجماهير في التغيير في ظروف المعيشة. كان زعيم هذه الدولة هو الحسن بن زيد^(١) الذي نادى به الجماهير وبايعته سلطاناً سنة ٢٥٠ للهجرة بعد قلاقل حدثت في تلك المنطقة. لقد استطاع أن ييسط نفوذه على طبرستان، وجرجان، وأمّد (ديار بكر)، والري. غير أن أبناءه لم يستطيعوا الحفاظ على هذه الأراضي أمام التطلعات السامانية ثم اختفت هذه الدولة الزيدية نهائياً سنة ٢٧٨ للهجرة.

وسوف ينتفض الزيديون مرة أخرى سنة ٣٠١ للهجرة بقيادة الحسن بن علي الأطروش^(٢) الذي تلقب بلقب «ناصر الله». سوف تستمر هذه الدولة الزيدية الثانية إلى غاية ٣١٤ للهجرة^(٣).

ابتداء من سنة ٢٥٢هـ أحس العباسيون بالاضطرابات التي تسبب فيها الصفاريون. قد كان يعقوب بن الليث الصفار^(٤) وأخوه يعمران في النحاس من قبل في سجستان، وكانا يتسمان بالتقشف والزهد^(٥). ثم أصبحا من بعد من

(١) الحسن بن زيد (٢٧٠هـ/٨٨٤م): هو مؤسس الدولة العلوية في طبرستان؛ كان يسكن الري عندما ثار أهالي طبرستان ضد والي خراسان، وبايعوه سلطاناً عليهم. دام حكمه عشرين عاماً كلها حروب وقلاقل؛ انظر: الزركلي: الأعلام، ٢٠٦/٢.

(٢) الأطروش (٢٢٥هـ - ٣٠٤هـ/٨٤٠م-٩١٧م): هو الثالث في الأسرة العلوية في طبرستان؛ سمي الأطروش بسبب ضربة سيف على أذنه؛ انظر: الزركلي: نفسه، ٢١٦/٢.

(٣) انظر: السرنجاي وفاروق عمر في الفصول المخصصة لهذه الدولة.

(٤) يعقوب بن الليث الصفار (٢٦٥هـ/٨٧٩م): عمل في شبابه في النحاس؛ وفي سنة ٢٤٧هـ استولى على هرات وسجستان؛ ثم كرمان وشيراز وفارس ونيسابور سنة ٢٥٩هـ؛ وألقى القبض على آخر الطاهريين محمد بن طاهر؛ انظر: الزركلي: السابق، ٢٦٥/٩-٢٦٦.

(٥) ابن الأثير: السابق، ١٨٤/٧.

أتباع شخص اسمه درهمكان يقود حرباً ضد الخوارج، وكان هذا الرجل قد خلف شخصاً آخر اسمه صالح المطوعي في تلك الدعوة. وبعد مدة من الزمن يسجن درهم من قبل القوات الحكومية فيخلفه يعقوب بن الليث الصفار على رأس تلك الحركة. ويواصل هو كذلك محاربة الخوارج وتدمير قراهم. وقد تظاهر بالرضوخ لرغبة الخليفة ومراسلته، وأنه لا يتحرك إلا بأوامره؛ وكان يزعم أن الخليفة هو الذي كلفه بمحاربة الخوارج^(١). وقد أمّن الطرق، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر. وسرعان ما كثر أتباعه وأنصاره فبدأ بمناوشة قوات حاكم خراسان الذي عينه الخليفة. وحينها بدأ زحفه على هرات، فبُزَجَ، فكرمان، ففارس سنة ٢٢٥هـ وأخيراً شيراز^(٢). وبعد كل تلك الانتصارات، بدأ الخليفة يشعر بالقلق من هذا المغامر الشاب، وأصدر مرسوماً يقضي بكون يعقوب بن الليث الصفار قد استحوذ على ملك الطاهريين غير أنه لم يأبه لذلك^(٣).

ارتكزت سياسة الصفاريين بالدرجة الأولى على تقوية الجيش ثم عولت على تحسين ظروف معيشة الشعب، وعلى الإصلاح الاقتصادي^(٤). وكانت هذه الدولة هي أول من هدد الدولة العباسية في بغداد بجذ، فقد استطاع الطاهريون طرد والي خراسان المعين من قبل العباسيين، كما أسروا الطاهري محمد بن طاهر.

وقد سمع يعقوب بن الليث الصفار مرة أن بعض نبلاء خراسان وعلمائها تساءلوا عن شرعيته، فجمعهم وطلب من حاجبه أن يبين لهم الدليل الذي يعطيه الحق في الحكم، فأخرج سيفه ووجهه لوجوههم، لكن يعقوب طمأنهم وقال لهم بما معناه: «أليس السيف هو الذي ساعد أمير المؤمنين على الجلوس على عرش

(١) نفسه، ١٨٤/٧.

(٢) نفسه، ١٨٤-١٩٤.

(٣) يوسف العش: السابق، ١٤٣.

(٤) نفسه، ١٤٣.

الخلافة في بغداد. هذا السيف نفسه هو الذي منحني حق حكم خراسان، فأنا والخليفة متساويان في الحجة»^(١).

ثم جاء دور السامانيين في سنة ٢٦١هـ. وكان الخليفة المأمون عينهم أول الأمر حكماً للأقاليم الواقعة ما وراء النهر، أي سمرقند، وفرغانة والشاش على أن يظلوا تابعين للطاهريين^(٢). لقد كانوا من نبلأ بَلَّخْ لأن «سامان» لقب ديني، وكان جدهم من رجال الدين في العقيدة «السامانية»^(٣).

كانت العلاقة بين العباسيين والسامانيين تتسم بالمصلحة المتبادلة، فقد قام الأوائل بمنحهم عهداً ومواثيق تجعل سلطتهم شرعية، بينما قام الآخرون بحماية الحدود ومحاربة الأعداء.

والشيء نفسه بالنسبة إلى الزياريين، والإلخانيين، والبويهيين. كل دولة قامت على أنقاض الأخرى بدون برنامج سياسي اقتصادي واضح. كان مزجاً غريباً بين المغامرة والمطامح والمطالب والتطلعات في الإصلاحات الاقتصادية والسياسية. لكن كل هذه الدويلات المتعاقبة أو المتزامنة قد أسهمت بطريقة أو بأخرى في إحياء الشعور القومي عند مختلف الشعوب الإسلامية، وبالخصوص عند الفرس. كل دولة أضافت عنصراً جديداً في صرح هذه القومية. مثلاً، سمح في البداية للشعراء باستعمال اللغة الفارسية خاصة عند الصفاريين الذين لم يكن لهم باع تذكر في البناء السياسي بينما بقيت بصماتهم واضحة في المجالين الثقافي والأدبي. ويمكن هنا أن نستدل على ذلك بكتاب «تاريخ سيستان» الذي يتحدث عن ثلاثة شعراء ألفوا الشعر بالفارسية^(٤)، خلافاً للطاهريين الذين لم يستطيعوا فعل

(١) فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ٢٢٢.

(٢) يوسف العشي: السابق، ١٤٣.

(٣) نفسه.

(٤) مزيد من المعلومات حول الشعور القومي الفارسي انظر فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ٢٢٢-٢٢٦، حيث يذكر المؤلفين العرب والمستشرقين الذي اهتموا بهذا الموضوع مثل أرمغاني، وبارتولد، وصدّيق، ولان-بول، وبراون وغيرهم.

شيء في هذا الميدان نظرا للظروف السياسية التي كانوا يمرون بها، والتي دفعتهم للتعلق بالخلافة العباسية وبالثقافة العربية.

فيما بعد، سمح للمسلمين الفرس بأداء صلواتهم باللغة الفارسية.

أما في إقليم مصر فالمشهد يكاد يكون هو نفسه. كَوَّنَ الطولونيون أولا دولة شملت مصر والشام قبل أن يخلفهم الإخشيديون الذين سيتركون المكان في النهاية للفاطميين القادمين من المغرب العربي.

أما في إقليم الجزيرة، فإن الحمدانيين كونوا تقريبا الدولة العربية الوحيدة، بعد صعوبات جمة، ثم وسعوا نفوذهم الذي بدأ سنة ٣١٧هـ بالموصل إلى حلب.

لم تتوقف الحرب أبداً بين هذه الدول الصغيرة. كل واحدة كانت تتآمر ضد الأخريات. وكان هذا العدد الهائل من الحكام يمثل أوج الفوضى التي عرفت في ذلك العصر بينما بقي الخليفة عاجزاً في بغداد عن عمل ما يمكن أن يلم ذلك الشتات. كانت الطريق مفتوحة أمام كل مغامر، وكان الخليفة يبارك كل من يستولي على السلطة بالقوة هنا أو هناك. وهكذا صار ذلك العصر الذهبي الذي كان الخليفة فيه هو الحاكم المطلق مجرد ذكرى باهتة.

من الطبيعي أن تكون أيضاً للدولة العباسية علاقات مع الدول غير المسلمة. لعل أشهرها تلك التي كانت بين هارون الرشيد وشارلمان. غير أن تلك العلاقات قد أحيطت بسحابة مظلمة، وأحياناً أسطورية. يعتقد بعض الباحثين أن الطرفين قد عقدا اتفاقاً سياسياً وعسكرياً لمحاربة الأمويين في الأندلس وكذلك البيزنطيين^(١). والمهم في كل هذا أن تلك العلاقات كانت أخوية حيث تبادل العاهلان الهدايا والرسائل^(٢).

(١) انظر ماجد خدوري: الصلات الدبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان، بغداد، ١٩٣٩.

(٢) أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسي، ٢١٧ وما بعدها؛ مطبوعات جامعة دمشق، ١٩٨٠-١٩٨١.

أما علاقات الدولة العباسية مع الروس فقد كانت من نوع آخر لأن الروس هاجموا الحدود العباسية عدة مرات، خاصة في أذربيجان التي احتلوا عاصمتها بَرَدَعَة، وقتلوا الآلاف من الناس غير أن حاكم الإقليم العباسي استطاع أن يصدّهم^(١).

وقد كانت لهم أيضاً علاقات اقتصادية مع البلغار الذين أرسلوا في سنة ٣٠٩هـ وقد طلب مهندسين لبناء مواقع محصنة، وأيضاً طلبوا إيفاد من يوضح لهم تعاليم الإسلام^(٢). وكانت العلاقات مع الصين والهند تتميز عموماً بالطابع التجاري^(٣).

للأسف الشديد لا تتحدث المصادر العربية عن وجود نصوص شعرية تتعلق بالعلاقات الخارجية للدولة العباسية وتتسم بالطابع السياسي. لكن نظل نعتقد أن مثل هذه النصوص تكون قد وجدت حتماً على الرغم من الصمت المقصود أو العفوي.

وبالعكس من ذلك فإن أكبر كم من الشعر في مجال العلاقات الخارجية هو ذلك المتعلق بالصراع العربي البيزنطي^(٤). وقد مرت هذه العلاقات بمرحلتين، تمتد الأولى من بدايات الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأموي حيث كانت المبادرة بيد العرب الذين احتلوا بعض أراضي بيزنطة أو فرضوا ضريبة ما كتعبير على خضوع الطرف البيزنطي للسلطة العربية الإسلامية؛ وفي المرحلة الثانية التي تبدأ مع اعتلاء العباسيين سدة الحكم، بدأ البيزنطيون يسترجعون زمام المبادرة شيئاً فشيئاً.

(١) انظر ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، تحقيق الدهان، دمشق، ١٩٧٨ (هي عبارة عن رحلة في بلغاريا).

(٢) فاروق عمر: نفسه، ٢٤١.

(٣) نصرت عبدالرحمن: شعر الصراع مع الروم، ١٢.

(٤) انظر فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٦.

منذ البداية شعر العباسيون بالخطر الذي يمثله البيزنطيون فبدأوا ببناء خط دفاعي أول يسمى «الثغور» ليكون حاجزاً أمام كل الهجمات البيزنطية المحتملة. وكان هذا الخط يحتوي على بعض المدن المأهولة، وبعض القلاع المجهزة بالعدة والعدد^(١). وكان هذا الخط مقسماً ثلاثة أقسام:

١ - خط الشام: الذي يبدأ من نهر اللّيمس في سهل سلوقية مروراً بطرطوس، وأضنة، ونهر سيجان، والمصيصة على نهر جيحان، وعينزربة^(٢)، وقد كانت مواجهة للحدود الشامية ولذا استمدت اسمها من ذلك فسميت «الشامية»^(٣).

٢ - خط الجزيرة: وكان يمر على مرعش، والحدث، وزبطرة، وسميساط، وملاطية إلخ.

٣ - خط بكر: الذي يبدأ من منابع الفرات في أرمينية مع حصنها القوي الشهير قلقلية^(٤).

وكان يوجد خط دفاعي ثان خلف هذا الخط الأول يمثل خط أنطاكية التي كانت عاصمة هذا الخط الشامي، ومنيج التي كانت عاصمة خط الجزيرة^(٥).

كان بين الدولتين حرب ضروس لا تنتهي، وكان العرب هم الذين يبدأون أحياناً بالهجوم فيتوغلون في عمق الأراضي البيزنطية، فيقتلون، وينهبون، ويأسرون ما استطاعوا. وكان البيزنطيون مرة أخرى هم الذين يهاجمون العرب بالطريقة نفسها ويفعلون الشيء نفسه معهم.

(١) نصرت عبدالرحمن: السابق، ١٢.

(٢) كل هذه الأماكن توجد في مقاطعة الإسكندرون غرب تركيا الآن، ومقابل الشمال الغربي لسوريا.

(٣) انظر عبدالهادي شعيرة: المرابطون في الثغور العربية الرومية، ضمن «الذكرى الفضية لطف حسين»، القاهرة، ١٩٦٣.

(٤) نصرت عبدالرحمن: نفسه، ١٣.

(٥) نفسه.

وكان العرب يهاجمون عموماً مرتين في السنة، في الصيف، وفي الشتاء. وكانت تلك الغزوات تسمى «الشواتي» و«الصوائف». وكانت غزوات الصيف تدوم تقريباً ثلاثة أشهر، وهذا ما يشير إليه البحري بقوله: (من الطويل)

وَبَرْدٍ خَرِيفٍ قَدْ لَبِسْنَا جَدِيدَهُ
فَلَمْ يَنْصَرِفْ حَتَّى نَزَعْنَاهُ مُخْلِقًا
وَبَدْرَيْنِ أَنْضَيْنَاهُمَا بَعْدَ ثَالِثِ
أَكْلِنَاهُ بِالْإِيْجَافِ حَتَّى تَمَحَّقَا^(١)

وكانت كل حملة تهدف إلى تحقيق هدف معين يحضر له مسبقاً حتى لا تكون تلك العمليات وتلك الهجومات فوضوية بدون فائدة. ولكن تلك العمليات كانت عموماً ردوداً على عمليات قام بها العدو، فهي عادة مساوية لها في العنف والشدة إن لم تكن أكثر لإفهام الخصوم أنهم قادرون على الدفاع والصد والإيذاء أكثر. إنها نوع من الردع غريب لم ينتج عنه إلا الحروب والمآسي في الطرفين. وها هو أبوتام يتحدث عن إحدى تلك الخطط بقوله: (من الكامل)

فَالْحَمَّةُ الْبَيْضَاءُ مِيعَادٌ لَهُمْ
وَالْقَفْلُ حَنْثٌ وَالْخَلِيْجُ شِعَارٌ^(٢)

لقد كان لهذه الحملات انعكاس وتأثير كبيران على الشعر في تلك الحقبة. لكن لا بد من الإشارة مسبقاً إلى أن العباسيين لم يفكروا جدياً في احتلال بيزنطة دون أن يتجاهلوا الخطر الذي يكونه هذا البلد على دولتهم، خاصة عندما كانت الدولة العباسية تعاني من اختلالات داخلية وانتفاضات دائمة لا تتوقف. إذن لم يفعل العباسيون سوى أن يجعلوا بيزنطة تبقى بعيدة بتلك الحملات وبتلك الحرب الاستنزافية التي أوهنت فعلاً تلك الدولة الكبيرة. لذلك «ظلت غزواتهم

(١) البحري: الديوان، ٣/١٥٠٤.

(٢) أبوتام: الديوان، ١٠، ١١٩/٢٠٣.

على اقتصارها على الأقاليم القريبة من الحدود تثقل كاهل الدولة (البيزنطية) وتسيء إلى رخاء أقاليمها وتقلل من قوتها المالية وتتنقص من تعداد سكانها»^(١).

وبقي أن نشير كذلك إلى أن هناك أمراً آخر في الصراع العربي البيزنطي هو الجانب الديني، لأن بيزنطة كانت تحمي الديانة المسيحية ضد هجومات الإسلام، بينما كان العرب من جهتهم مدفوعين بعقيدة الجهاد لنشر دين الله ومحاربة الكفار. وهذه الفكرة بالذات تتكرر بكثرة في الشعر حيث تظهر الحرب مع بيزنطة على أنها جهاد في سبيل الله مع قرنهما بالحج. ولعل هارون الرشيد هو أكثر الخلفاء شهرة في هذا المجال إذ كان يزواج بين الجهاد والحج، فهو يحج سنة، ويفزو أخرى حتى عندما كان ولياً للعهد. وقد تحدث الشعراء كثيراً عن هذه المواقف التي تميز بها هارون الرشيد^(٢). إن نظرة سريعة للمصادر العربية تبين أن هذه الغزوات الموسمية لم تتوقف أبداً إلا عندما كانت تمر الدولة العباسية بقلقل داخلية خطيرة. ولنأخذ مثلاً تاريخ ابن الخياط الذي عاصر جزءاً من تلك الحقبة. إنه يذكر أن الملك البيزنطي قسطنطين بن إليون الذي يصفه بالطاغية، هاجم الأراضي الإسلامية سنة ١٢٣هـ/٧٥٢م، وحاصر مَلاطِيَّة، وأجبر سكانها على طلب الأمان بعد مقاومة عنيفة من قبلهم. ثم حطم المدينة وجامعها ودار الولاية فيها. وكان رد المسلمين سريعاً فهاجموا مدينة الطُّوانة في الأراضي البيزنطية بقيادة القائد العربي محمد ابن النذير^(٣). وهاجم العباسيون بعد سنة من ذلك أرمينية بدون نتيجة^(٤). ثم تتالت الحملات سنوات ١٣٩هـ، و١٤٠هـ، و١٤٤هـ، و١٤٥هـ، و١٥٢هـ، و١٥٨هـ، و١٦٠هـ، و١٦٣هـ، و١٦٤هـ، و١٦٥هـ، و١٧٢هـ، و١٧٥هـ، و١٧٧هـ، و١٧٨هـ، إلخ^(٥). وكانت هذه

(١) فازيليف: العرب والروم، ٩

(٢) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣٢١/٨.

(٣) ابن الخياط، خليفة (٢٤٠هـ/٨٥٤م): تاريخ ابن الخياط، ٦٢٦/٢؛ تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٦٨.

(٤) نفسه، ٦٨٥/٢.

(٥) ابن الخياط: السابق، ٦٤٠/٢؛ ٦٤١؛ ٦٤٧؛ ٦٤٩؛ ٦٦٠؛ ٦٦٣؛ ٦٦٨.

الحملاّت تقاد أحياناً من قبل جيوش جرارة بكل العدة والعدد اللازمين لحرب كبيرة للقيام بتلك العمليات الانتقامية.

أما في العصر العباسي الثاني فإن وتيرة هذه الحملاّت ستتباطأ شيئاً فشيئاً إلى أن تتوقف نهائياً. ويمكن هنا أن نستعين بالطبري الذي يذكر أن المتوكل جهز حملة صيفية يقودها بغا سنة ٢٤٤هـ انطلاقاً من دمشق لتصل إلى سَمَلَة^(١). وسوف تتلوها عدة حملاّت كما في سنوات ٢٩٤هـ، و٢٩٧هـ، و٢٩٨هـ، و٣٠١هـ إلخ^(٢).

أما البيزنطيون فهم أيضاً لم يبقوا مكتوفي الأيدي من جهتهم أمام هذه الحملاّت. بعد تدمير ملاطية، رجع إليون مرة أخرى سنة ١٢٨هـ على رأس جيش من مئة ألف جندي^(٣). وفي سنة ١٦١هـ هاجم البطريرك ميكايل عن طريق الحَدَث فاحتل عدة حصون مثل حَرَطْنَة مع الإمعان في القتل والنهب وإحراق بعض القرى^(٤). وفي السنة التي تلتها هاجم البيزنطيون عن الطريق نفسه لكن رد العرب كان أقوى وأعنف^(٥).

أما في العصر العباسي الثاني فسوف تزداد هجمات الروم أكثر فأكثر. مثلاً في سنة ٢٢٢هـ هاجم تيوفيل زِبَطْرَة فدمر المدينة كلها وأخذ سكانها كرهائن حرب. ثم هاجم ملاطية فأسر أكثر من ألف امرأة مسلمة؛ وكان يفتق عيون الناس، ويقطع آذانهم، ويجدع أنوفهم^(٦). وسيكون الرد العربي أقوى وأشد بمعركة عمورية المشهورة والتي سنعود إليها فيما بعد. وفي سنة ٢٢٨هـ هاجم الروم مدينة دمياط

(١) الطبري: السابق، ٢١٠/٩.

(٢) نفسه، ١٠/١٣٤؛ ١٤٣؛ ١٤٤؛ ١٤٧.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١/١٩٠.

(٤) الطبري: السابق، ٢٠٦/١٠-٢٠٧.

(٥) ابن الخياط: نفسه، ٢/٦٨٥.

(٦) الطبري: نفسه، ٩/٥٥؛ ابن العبري، ٢٤٢.

بمصر بنفس القوة التدميرية. يمكن هنا أن نذكر شعر الشاعر المصري يحيى بن
 الفضل مستجدا بالخليفة بعد هذه الهجمة: (من الطويل)
 أَتَرْضَى بِأَنْ تُوْطَا حَرِيمُكَ عَنُوءً
 وَأَنْ يُسْتَبَاحَ الْمُسْلِمُونَ وَيُخْرَبُوا
 فَلَا تَنْسَنَا أَنَا بِدَارِ مَضِيعَةٍ
 بِمِصْرَ وَأَنَّ الدِّينَ قَدْ كَادَ يذْهَبُ^(١)

وحسب الطبري فإن ثلاث مئة سفينة تحمل خمسة آلاف جندي شاركت في
 الهجوم على دمياط، فقد ملأوا تلك السفن بما أخذوه من غنائم ومن فضة ومن
 نساء؛ وقد أحرقوا ورشة الميناء البحري، وجامع دمياط، وبعض الكنائس^(٢). وفي
 سنة ٢٤٢هـ/٨٥٧م حاصروا سمساط، ثم سمساط في سنة ٢٤٥هـ/٨٦٠م^(٣). وفي
 سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م هاجم أندرينيكوس قلعة مرعش^(٤). وفي السنة الموالية جاء دور
 قورس التي كانت فيها مراتب قبيلة تميم فقتلوا شيوخها وأحرقوا جامعها وأسروا
 بعض أفرادها^(٥).

والآن سنتحدث قليلاً عن المعارك الكبرى التي كان لها صدى كبير في الشعر
 العربي في تلك الحقبة. أولاً المعارك التي وقعت في عهد هارون الرشيد الذي
 كان مشهوراً بغزواته. لعل أشهرها هي غزوة البوسفور. كانت محضرة بشكل جيد
 ودقيق، وجند لها جيش كبير مدرب وفي أتم الاستعداد. وكان نتيجتها عقد صلح
 بين العباسيين والروم لكن نقفور ملك الروم سرعان ما نقضه^(٦). تناول الشعراء

(١) الكندي: نفسه، ٢٠١.

(٢) الطبري: السابق، ١٩٣/٩-١٩٤.

(٣) نفسه، ٢٠٧/٩.

(٤) نفسه، ١١٨/١٠.

(٥) نفسه، ١٢٩/١٠.

(٦) أبو الفرج الإصهاني: كتاب الأغاني، ٢٣٩/١٨-٢٤٦.

كثيراً هذا العهد ونقضه من قبل الروم. وقد تحدثوا كذلك عن عهد ثان وقع بين هارون الرشيد ونقفور نتيجة هجوم تأديبي من العرب على هرقله. وكان الملك نقفور قد خلف الملكة التي أبرمت ذلك العقد مع الخليفة العباسي. وقد وجد العاهل البيزنطي في ذلك العقد إهانة لبيزنطة فرفض دفع الجزية المتفق عليها، وأرسل إلى هارون الرشيد الكتاب التالي: «من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي، فأردد ما حصل قبلك من أموالها، واقتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك»^(١).

كان جواب هارون الرشيد مقتضباً وعنيفاً، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه؛ والسلام»^(٢). وفعلاً أتبع هارون الرشيد القول بالفعل فأرسل جيشاً عرمرماً بلغ القسطنطينية وفرض على نقفور أن يدفع من جديد المبالغ التي كانت تدفع من قبل. وفي هذا يقول أبو العتاهية: (من الوافر)

أَلَا نَادَتْ هِرْقَلَةَ بِالْخِرَابِ
 مَنِ الْمَلِكِ الْمُؤَفَّقِ بِالصُّوَابِ
 غَدَا هَارُونَ يُرْعِدُ بِالْمَنَايَا
 وَيُبْرِقُ بِالْمَذَكَّرَةِ الثَّقَابِ
 وَرَايَاتٍ يَجِلُّ النَّصْرُ فِيهَا
 تَمُرُّ كَأَنَّهَا قِطْعُ السَّحَابِ

(١) نفسه، Variorum Re- ١٨/٣٥: Marius Canard: Byzance et les Musulmans d'Orient. ١٨/٢٢٩
 prints. London. ١٩٧٣.

(٢) أبو الفرج الإصهاني: نفسه، ١٨/٢٢٩ + ١٨/٣٥٠: Marius Canard: Idem.



أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَفِرْتَ فَاسْلَمَ

وَأَبْشِرْ بِالْغَنِيمَةِ وَالْإِيَابِ^(١)

ويقول أيضاً في خضوع نقفور لإرادة هارون الرشيد (من الطويل)

تَجَلَّلْتَ الدُّنْيَا لِهَارُونَ ذِي الرِّضَا

وَأَضْبَحَ نَقْفُورٌ لِهَارُونَ ذَمِّيَا^(٢)

يبدو أن نقفور قد نقض العهد الأول عندما عاد هارون الرشيد إلى الرقة بينما كان الثلج يفصل بين الطرفين. ولم يتجرأ أحد على إعلام هارون الرشيد بذلك النقض، لذلك تم التفكير في الشعر ليتم من خلاله إيصال تلك المعلومة إلى الخليفة. ويحكى أن البرامكة دفعوا المال لبعض الشعراء للقيام بذلك إلا أنهم كانوا جميعاً يخشون ردة فعله إلا واحداً منهم هو عبدالله بن محمد المكي^(٣) الذي قال له: (من الكامل)

نَقَضَ الَّذِي أَعْطَاكَه نَقْفُورٌ

فَعَلَيْهِ دَائِرَةُ الْبَوَارِ تَدُورُ

أَبْشِرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ

فَتُحَّجُّ أَتَاكَ بِهِ الْإِلَهُ كَبِيرُ

فَلَقَدْ تَبَاشَّرْتَ الرَّعِيَّةُ أَنْ أَتَى

بِالنَّقْضِ عَنْهُ وَافِدٌ وَبَشِيرُ

دَرَجَتْ يَمِينُكَ أَنْ تُعَجَّلَ غَرْوَةٌ

تَشْفِي النُّفُوسَ نِكَالَهَا مَشْهُورُ^(٤)

(١) الطبري: السابق، ٣١٠/٨.

(٢) أبوالفرج الإصفهاني: السابق، ٢٤٠/١٨.

(٣) لا تتفق المصادر العربية حول هوية الشاعر الذي بلغ هارون الرشيد بنقض نقفور للعهد لأن هذه الأبيات المنسوبة إلى المكي تتسبب أحيانا إلى الحجاج بن يوسف التيمي.

(٤) أبوالفرج الإصفهاني: نفسه، ٢٤١/١٨؛ الطبري: نفسه، ٣٠٤/٨؛ ابن الأثير: نفسه، ١٨٦/٦؛ الجهشيارى: نفسه، ٢٠٧.



يبدو أن هارون الرشيد قد غضب غضباً شديداً عندما علم بنقض الروم للعهد، وقرر معاقبة ملكهم نقفور، فأعد جيشاً لم ير من قبل، وتوغل عميقاً في الأراضي البيزنطية حتى بلغ مدينة هرقله التي أحرقها بعد حصار محكم، الأمر الذي دفع نقفور إلى الخضوع للأمر الواقع ودفع الجزية كما كان يفعل من قبل.

إذا كانت هذه القصة حقيقية فإن الشعر قد قام بدور كبير، أولاً بإعلام الخليفة وتحريضه، وثانياً بتخليد انتصاراته. نجد مثلاً أشجع السلمي يخلد حصار تلك المدينة بقوله: (من البسيط)

وَلِيَهْنِكَ الْفَتْحُ وَالْأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ
إِلَيْكَ بِالنُّصْرِ مَغْفُودٌ نَوَاصِيهَا
مَا رُوِيَ الدُّيْنُ وَالدُّنْيَا عَلَى قَدَمٍ
بِمِثْلِ هَارُونَ رَاعِيهِ وَرَاعِيهَا^(١)

وقد استعمل العرب في الهجوم على هرقله المنجنيق للتغلب على أسوارها العالية وأبوابها المحصنة، تماماً كما كان يفعل في الحروب القديمة، وهذا ما يشير إليه الشاعر المكي في قوله: (من البسيط)

هَوَتْ هِرْقَلَةٌ لَمَّا أَنْ رَأَتْ عَجْباً
حَوَائِمًا تَرْتَمِي بِالنُّفْطِ وَالنَّارِ^(٢)

وقعت معركة هرقله سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م^(٣). قد كان هارون الرشيد بالنسبة إلى بيزنطة أخطر خليفة على الإطلاق. لقد شارك شخصياً في عدد كبير من الغزوات والحملات العسكرية في الشواتي والصوائف الأمر الذي دفعه دوماً للاستعداد الجدي والمحكم للقيام بتلك المعارك لأنه كان يضع مصداقيته وسمعته الشخصيتين

(١) أبوالفرج الإصفهاني: السابق، ٢٤٥/١٨؛ خليل بنيان الحسون: أشجع السلمي، ٢٦٩.

(٢) أبوالفرج الإصفهاني: نفسه، ٢٤٥/١٨.

(٣) ابن الأثير: السابق، ٦٦/٦.

في الميزان. وفعل ذلك حتى عندما كان ولياً للعهد. شارك في خلافة أبيه في حملة سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١م التي وصلت إلى خليج البوسفور، ويعتقد أن القسطنطينية نفسها تم الوصول إليها. وهذا ما يخلده مروان بن أبي حفصة بقوله: (من الطويل)

أَطَفَتْ بِقُسْطَنْطِينَةِ الرُّومِ مُسْنِدًا
إِلَيْهَا الْقَنَا حَتَّى اكْتَسَى الذُّلَّ سُورَهَا
وَمَا رُمْتَهَا حَتَّى أَتَتْكَ مُلُوكُهَا
بِحَزْبِئِهَا وَالْحَرْبُ تَغْلِي قُدُورَهَا^(١)

وكان هارون الرشيد في هذه المعركة على رأس ٩٠٩٣٣ جندياً^(٢).

وعندما أصبح هارون الرشيد خليفة ترأس حملة أخرى سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م وصلت إلى الصفصاف. قال مروان بن أبي حفصة في ذلك: (من الرجز)

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصْطَفَى
قَدْ تَرَكَ الصَّفْصَافَ قَاعًا صَفْصَفًا^(٣)

أما في خلافة ابنه المأمون فقد حاول الروم استغلال فرصة الحرب الأخوية بين الأمين والمأمون، وكذلك ظهور بابك الخرمي، للقيام بعدة هجومات توغلوا من خلالها في الأراضي العربية. وردَّ المأمون بشدة على ذلك، فقد أشرف هو شخصياً على ثلاث غزوات. كانت الأولى سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م، وكان فيها مرفقاً من قبل ابنه العباس، ومن قائدي الجيش أشناس وجعفر الخياط، واللاجئ البيزنطي مانويل. ويحكى أن هذا اللاجئ الذي كان يقود جزءاً من الجيش العباسي سرعان ما خدعهم وطردهم من الحصون بعد استيلائه على السلاح^(٤). لم يستطع المأمون

(١) ابو زكريا الأزدي: تاريخ الموصل، ٢٤٦؛ مروان بن أبي حفصة: شعر مروان، ٦٠.

(٢) ابن الأثير: السابق، ٦٦/٦.

(٣) ابن الوردي، أبو الفرج محمد بن إسحق (٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م): تاريخ ابن الوردي، ١/ ٢٨٠؛ دون مكان ودت؛

الطبري: نفسه، ٢٦٨/٨؛ الأزدي: نفسه، ٢٩٠؛ أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ٣٩٠.

(٤) ابن طيفور: نفسه، ٢٠٨؛ فازيليف: نفسه، ٣٦.

مواصلة الحملة وعاد مسرعاً إلى بغداد بسبب تفاقم خطر بابك الخرمي الذي أصبح يورق النظام. استغل الملك تيوفيل ذلك الوضع واجتاز فجأة جبال طوروس وهاجم طرسوس والمصيصة. وفي السنة الموالية قاد المأمون حملة عسكرية باتجاه هرقل، فحرر عدة قلاع كانت محتلة وأسر خلقاً كثيراً من الروم البيزنطيين. وفي سنة ٢١٧هـ/٨٢٢م قرر الاستيلاء على لؤلؤة^(١).

لعل المأمون هو الخليفة العباسي الوحيد الذي فكر فعلاً في احتلال بيزنطة كلها لكن الأجل لم يمهله لتحقيق ذلك. كان قد رفض كل عروض العفو، وكل عروض الهدنة التي تقدم بها الطرف الثاني. ونجده يتحالف حتى مع بعض المعارضين البيزنطيين مثل توماس^(٢) ويعقد اتفاقاً يقوم المأمون بموجبه بتزويده بجيش قوي بينما يقوم هو بمهاجمة القسطنطينية في الوقت نفسه، على أن تهاجم قوات أخرى الحدود البيزنطية الشرقية وضفاف آسيا الصغرى. أصبح هذا العقد شرعياً عندما قام بطريك أنطاكية بتتويج توماس كإمبراطور^(٣).

شغلت الحرب مع بابك خليفة المأمون أخاه المعتصم بالإضافة إلى المشكلات الداخلية التي عرفتها الدولة العباسية، فحدث نوع من الهدنة غير المعلنة بين الطرفين على الحدود بينهما دون وجود اتفاق رسمي. لكن سرعان ما استؤنفت الأعمال العدوانية بين الفريقين لأن بابكاً الخرمي، على ما يبدو، أقنع بيزنطة بمهاجمة العباسيين وأوهمهم أن كل جيوشهم تطارده الأمر الذي يترك الحدود الغربية بدون دفاع^(٤). وهكذا قاد تيوفيل بن ميخائيل جيشاً من مئة ألف جندي

(١) ابن الأثير: نفسه، ٤١٧/٦.

(٢) فازيليف: السابق، ٣٦ وما بعده.

(٣) فازيليف: السابق، ٣٦ وما بعدها.

(4) Cf. M. Rekaya: *Mise au point sur Théophobe et l'alliance avec Babek*, In, «Byzantion», tome 44, Bruxelles, 1974

وسحق المسلمين^(١)، «وأوقع...بأهل زبطرة، فأسرهم وخرب بلدهم، ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصون من حصون المسلمين؛ إلى غير ذلك؛ وسبا من المسلمات، فيما قيل، أكثر من ألف امرأة، ومثل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل أعينهم، وقطع آذانهم وآنافهم»^(٢).

ولم يستطع المعتصم أن يبقى دون حراك أمام ذلك التتكيل الذي قام به الملك البيزنطي ضد الرعايا المسلمين، فأعد العدة وانتقم لهم بمهاجمة عمورية التي كانت محصنة بقوة، وكانت ذات دلالة رمزية لهم لكونها مسقط رأس عائلة الإمبراطور. حضر حملة كبيرة حتى قيل إنه «تجهز جهازاً لم يتجهز مثله قبله خليفة قط، من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط»^(٣). وقرر أن يهاجم المدينة من جميع الجهات حيث تفد الكتائب العباسية في وقت واحد. لعلها آخر أكبر المعارك التي قادها العباسيون ضد الروم^(٤).

كانت معركة ضخمة تحدث عنها الشعراء كثيراً بل اعتبروها فريدة من نوعها. هذا محمد بن عبد الملك الزيات يرى فيها انتصاراً كبيراً للإسلام على المسيحية: (من المتقارب)

أَقَامَ الْإِمَامُ مَنَارَ الْهُدَى
وَأَخْرَسَ نَاقُوسَ عَمُورِيَّةَ
وَقَدَّ أَصْبَحَ الدِّينُ مُتَوَسِّقاً
وَأَضْحَتْ زِنَادُ الْهُدَى مُورِيَّةً^(٥)

(١) ابن تغري بردي: السابق، ٢٣٨/٢.

(٢) الطبري: السابق، ٥٥/٩.

(٣) نفسه، ٥٥/٩.

(٤) نفسه.

(٥) الأزدي: السابق، ٤٢٧.

أما علي بن الجهم فقد ركز على الجانب الانتقامي للحملة العسكرية بقوله:
(من الوافر)

وَعَمُورِيَّةُ ابْتَدَرَتْ إِلَيْهَا
بِوَادِرٍ مِنْ عَزِيْزِ ذِي انْتِقَامٍ
فَقَعَقَعَتِ السَّرَايَا جَانِبَيْهَا
وَأُلْحِفَتِ الْفَوَارِسُ بِالسَّهَامِ
رَأَتْ عِلْمَ الْخَلِيفَةِ فِي ذُرَاهَا
فَخَرَّتْ بَيْنَ أَصْدَاءٍ وَهَامٍ^(١)

وهذا الحسين بن الضحاك يحدث عن تحطيم تلك المدينة بقوله: (من السريع)

لَمْ تَبْقِ مِنْ أَنْقَرَةٍ نَقْرَةٌ
وَأَجْتَحَتِ عَمُورِيَّةُ الْكُبْرَى
أَزْهَقَتْ تَالَهُ لَهَا أَنْفُسًا
دِمَاؤُهَا كَالْمَنْ وَالسَّلْوَى
يَا رَبُّ قَدْ أَمَكَنْتَ مِنْ بَابِكَ
فَأَجْعَلْ لِتُوفِيْلِهِمُ الْعُقْبَى^(٢)

هذا يؤكد التفاهم بين بابك الخرمي وتيوفيل لوضع العباسيين بين نارين.

أما أبوتمام فقد أبرز الجانب الديني في قصيدته الشهيرة «فتح الفتوح»
المخلدة لمعركة عمورية: (من البسيط)

فَتَحُ الْفَتْوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ
نَظْمٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الْكُتُبِ
فَتَحُ تَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَهُ
وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَنْوَابِهَا الْقُشْبِ^(٣)

(١) علي بن الجهم: الديوان، ١٠.

(٢) الأزدي: السابق، ٤٢٨.

(٣) أبوتمام: الديوان، ١٤.

وبعد هذه المعركة التي وقعت سنة ٢٢٣هـ/٨٢٨م انخفضت وتيرة الحرب بين الفريقين بسرعة نتيجة للمشكلات الداخلية التي عاشتها كل دولة منهما.

وأما في العصر العباسي الثاني فقد تقلصت المبادرات العربية بشكل خطير، ولم تعد الحملات العباسية سوى ردات فعل للهجومات البيزنطية. وقد كانت الوضعية السيئة التي كانت تمر بها مؤسسة الخلافة مصدر ذلك. وتسببت الفوضى العسكرية الناتجة عن تدخل القادة العسكريين الأتراك في شؤون الدولة بافكار خزينة الدولة مما صار يمثل حاجزاً أمام كل حملة عسكرية التي كانت تحتاج إلى الأموال. لقد شحت الأموال في تلك الحقبة. أثناء خلافة المنتصر، قاد القائد العسكري وصيف التركي حملة ضد بيزنطة على رأس عشرة آلاف جندي، لكنه سرعان ما عاد أدراجه ورجع إلى سامراء ليسهم في المؤامرات، خاصة أنه أبعد من قبل الوزير أحمد بن الخصب^(١). وفي خلافة المستعين، قاد جعفر بن دينار حملة أخرى صحبه فيها أمير ملاطية عمر بن عبدالله الأقطع فأحرزا بعض الانتصارات لكن الرد البيزنطي كان حاسماً^(٢).

وبعد تأسيس الدولة الطولونية، كلف الخليفة المعتمد ابن طولون بمراقبة الحدود مع بيزنطة، ويبدو أن هؤلاء الأخيرين كانوا يخشون هذا الرجل الذي فرض عليهم أن يوقعوا معه اتفاق سلام^(٣). فيما بعد، اضطر المعتمد للاعتراف بدولة أرمينية الجديدة سنة ٢٧٢هـ/٨٩٥م لتكون مانعاً بينه وبين بيزنطة التي اعترفت بها أيضاً.

وفي سنة ٢٩٢هـ/٩٠٣م استطاع العرب أن يستولوا على أنطاكية، وأن يحطموا كونية^(٤). وفي سنة ٣٠٥هـ/٩١٥م نجد البيزنطيين يهاجمون هذه المرة بينما يكلف

(١) أحمد بن الخصب: كان وزير للمنتصر في سنتي ٢٤٧هـ-٢٤٨هـ/٨٦١م-٨٦٢م؛ انظر الطبري: السابق، ٧٥-٧٤/١١.

(٢) الطبري: السابق، ٨٣/١١.

(٣) الطبري: نفسه، ٢٥٣/١١.

(٤) ابن الأثير: السابق، ١٩٠/٧ وما بعدها.

المعتمد قائده العسكري مؤنس بالرد عليهم، والذي سيمنح لقب «المظفر» عرفاناً بالانتصارات التي أحرزها^(١). ومن وقتها لم نعد نسمع بالحملات العباسية لأن الحمدانيين سيأخذون المشعل منهم في مواجهة بيزنطة.

لا بد من الملاحظة أن أسطولي الدولتين البحريين قد شاركا في تلك الحروب بينهما. لكن أحداً لم يستطع السيطرة المطلقة على البحار غير أن بيزنطة كانت أقوى عموماً في هذا الجانب.

لقد وجدنا عدة إشارات في شعر تلك الحقبة إلى دور الأسطول البحري في الحرب. كان أمير البحر أحمد بن دينار محل عدة مدائح من قبل الشعراء، ومنهم البحري الذي يقول فيه: (من الرجز)

قُلْ لِابْنِ دِينَارٍ رَسِيلِ الْقَطْرِ
إِذَا اسْتَهَلَ بِالنُّوَالِ الْغَمْرِ
يَكْذِبُ ظَنِّي أَوْ يَخِيبُ شِعْرِي
وَأَنْتَ بَخْرٌ وَأَمِيرُ الْبَحْرِ^(٢)

وكما يحدث في كل الحروب فإن الطرفين المتنازعين كان يعقدان هدنة من حين لآخر. ولكن، في هذه المدد القصيرة من السلم، يقومان بتبادل الأسرى والسفراء. وقع أول تبادل للأسرى بين العباسيين والبيزنطيين سنة ١٦٧هـ/٧٨٣م بإشراف عبدالحميد الضحاك^(٣)، لكن ابن الأثير يروي من جهته أن أول تبادل وقع بعد ذلك بقليل في سنة ١٨١هـ/٧٩٧م بإشراف القاسم بن هارون الرشيد ونقفور من جهة الروم، وأن عدد المسلمين المحررين بلغ أكثر من ٣٧٠٠ مسلماً^(٤). ووقع

(١) نفسه، ٢٧/٨.

(٢) البحري: الديوان، ٤٠٦/٢.

(٣) ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ٦٩١/٢.

(٤) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (٦٣٠هـ/١٢٣٣م): السابق، ١٥٩/٦؛ دار صادر، بيروت، د.: نلاحظ أن ابن خياط أقرب.

تبادل سنة ١٨٩هـ/٨٠٥م. ثم يتم تبادل آخر بعد ذلك لم يبق بعده ولا أسير مسلم عند الروم. وفي هذا يقول الشاعر مروان بن أبي حفصة: (من الطويل)

وَفَكَّتْ بِكَ الْأَسْرَى النَّيَّ شَيْدَتْ لَهَا
مَحَابِسُ مَا فِيهَا حَمِيمٌ يَزُورُهَا
عَلَى حِينِ أَعْيَا الْمُسْلِمِينَ فَكَأَكْهَا
وَقَالُوا سُجُونُ الْمُسْلِمِينَ قُبُورُهَا^(١)

نلاحظ مع ذلك أن تبادل الأسرى لم يتوقف أبداً في تلك الحقبة وكان يتم من حين لآخر^(٢). كان ذلك يحدث بعد بعض المناوشات. تبدأ المفاوضات الأولية ثم تبادل السفراء والوفود، ويقع تبادل الأسرى نتيجة لذلك. وكان استقبال الوفود والسفراء يتم وفق مراسيم معينة يهدف كل طرف في أن يؤثر في الطرف الثاني من خلال ذلك، فيتم تنظيف العاصمة وشوارعها، وتصنيف الجنود في الطريق التي تمر منها الوفود إلخ^(٣).

وبما أن وضع الحرب كان مستمراً فإن مرابطة الجيوش في الثغور وفي المدن والقلاع الحدودية أمر مهم ودائم. لذلك نجد شعراً ارتبط بهذا الوضع يسمى «شعر الثغور»، وهو في الحقيقة انعكاس للصراع العربي البيزنطي عبر القرون. هذا بشار بن برد مثلاً يمدح الخليفة المهدي بهذا الخصوص: (من البسيط)

وَلَمْ يَدْعُ أَحَدًا مِمَّنْ طَعَى وَبَغَى
إِلَّا تَنَاوَلَهُمْ بِالْكَفِّ فَاحْتَصَدُوا
سَدَّ الثُّغُورَ بِحَيْلِ اللَّهِ مُلْجَمَةً
وَفِي الْخَيُْولِ وَفِي فُرْسَانِهَا سُدُدٌ^(٤)

(١) الطبري: السابق، ٢١٨/٨؛ ابن العماد: السابق، ٢٢١/١.

(٢) الطبري: نفسه، ٤٦/١٠؛ ابن الأثير: نفسه،

(٣) الطبري: نفسه، ١٢٠/١٠؛ سعيد الديوه جي: رسل ملك بيزنطة، ضمن مجلة «العربي»، عدد ١٦٦، ص: ٨٤؛ الكويت، ١٩٧٢.

(٤) بشار بن برد: الديوان، ٢٠٠/٢.



ويقول منصور النمري في الخليفة نفسه: (من الكامل)
 هَلْ تَعْلَمُونَ خَلِيفَةً مِنْ قَبْلِهِ
 أَجْرَى لِغَايَتِهِ الَّتِي أَجْرَى لَهَا
 طَلَعَ الدُّرُوبَ مُشَمَّرًا عَنْ سَاقِهِ
 بِالْخَيْلِ مُنْصَلِتًا يُجِدُّ نِعَالَهَا
 حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ خَيْلِهِ
 جِيحَانٌ بَثٌّ عَلَى الْعَدُوِّ رِعَالَهَا
 أَحْمَى بِإِلَادِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ
 وَأَبَاحَ سَهْلَ بِلَادِهَا وَجِبَالَهَا^(١)

وقد تحدث هذا الشاعر عن هارون الرشيد في السياق نفسه بقوله: (من الطويل)

وَسُدَّتْ بِهَارُونَ التُّغُورُ فَأُخِجِمَتْ
 بِهِ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ الْمَرَائِرُ
 وَمَا انْفَكَ بِأَمْرِ مَعْقُوداً لِوَأُوهَا
 لَهُ عَسْكَرٌ عَنْهُ تَشْطَى الْعَسَاكِرُ
 وَكُلُّ مُلُوكِ الرُّومِ أَعْطَاهُ جِرْيَةً
 عَلَى الرَّغْمِ قَسْرًا عَنْ يَدٍ وَهُوَ صَاغِرٌ^(٢)

تجدر الملاحظة إلى أن هذا الشعر المتعلق بالحروب مع الروم لم يُكَوَّنْ غرضاً مستقلاً بذاته في أغلب الأحيان، وإنما كان يأتي ضمن المدائح كقسم من الأقسام المختلفة التي كانت تتكون منها قصيدة المدح التقليدية. إذن قد تعرض الشعراء في مدائحهم تلك إلى قضايا الحدود وهم يمجدون الخلفاء والقادة العسكريين

(١) الشريف المرتضى: الأمالي، ٢٩/٣.

(٢) مروان بن أبي حفصة: شعر مروان، ٥٣.



العباسيين. ولا نجد هذا النوع من الشعر إلا في هذا المجال^(١). هذه هي الخاصية الأولى لهذا الشعر. والخاصية الثانية أن هذا الجزء الصغير في قصيدة المدح المخصص للعلاقات مع الروم ربط في أغلب الأحيان هذه الحملات العسكرية، وكذلك ما يسمى بالصوائف والشواتي، بالجهاد أو بالحرب المقدسة التي تهدف إلى نشر الدين الإسلامي والدفاع عنه. لنا أمثلة كثيرة في هذا المجال كما في النموذج التالي للفضل بن العباس الخُزاعي الذي كان جندياً مرابطاً في الحدود: (من البسيط)

إِنَّا عَلَى الثُّغْرِ نَحْمِيهِ وَنَمْنَعُهُ
بِنُصْرَةِ اللَّهِ وَالْمَنْصُورِ مَنْ نُصِرَا^(٢)

وقد تغنى البحري بأمجاد البطل سعيد الثغري الذي أبعد العباسيون، على ما يبدو، بسبب شهرته وسمعته: (من الكامل)

صَرَفُوكَ عَن حَرْبِ الثُّغُورِ بِقَدْرِ مَا
عَرَفُوكَ يَا بَنَ مُحَمَّدٍ بِسِوَاكَ
وَالرُّومُ تَعْلَمُ أَنَّ سَيْفَكَ لَمْ يَزَلْ
حَتْفًا لِصَيْدِ مُلُوكِهَا وَهَالَاكَ^(٣)

نجد بين الجيوش المرابطة في الحدود مع الروم كثيرا من المتطوعين لاعتقادهم أنهم يجاهدون في سبيل الله. ويذكر أن العامة ثارت مرة في بغداد وشغبت مطالبة الخليفة بإرسال جيش للجهاد^(٤). وتتمثل الخاصية الثالثة لهذا الشعر في المبالغة المفرطة في وصف المعارك والقادة العسكريين، ولكن في الغالب في قالب فني وجمالي مقبول، كما نرى ذلك في وصف البحري التالي لأبي سعيد الثغري: (من الخفيف)

(١) نصرت عبدالرحمن: السابق، ٧٩-٨٠.

(٢) المرزباني: معجم الشعراء، ١٨١.

(٣) البحري: الديوان، ٣/١٥٦٩-١٥٧.

(٤) فاروق عمر: السابق، ٢٢٨.

رُبَّمَا وَقَعَةٌ شَمِلَتْ بِهَا الرُّو
مَ فَبَاتُوا أَذِلَّةً خَاضِعِينَ
قَدْ أَمِنَّا أَنْ يَأْمَنُوكَ عَلَى حَا
لٍ وَلَوْ صَيَّرُوا النُّجُومَ حُصُونًا^(١)

ويصف أبوتمام هذا البطل أيضا بقوله الجميل: (من الخفيف)

وَلَقَدْ أَنْصَعْتَ وَالشَّتَاءُ وَجُدْ
لَهُ يَرَاهُ الْكُمَاةُ جَهْمًا قَطُوبًا
فِي لَيَالٍ تَكَادُ تُلْقِي بِحَدِّ الشَّمْسِ
شَمْسٍ مِنْ رِيحِهَا الْبَلِيلِ شُحُوبًا^(٢)

أما الخاصية الرابعة لهذا الشعر الثغري إذا صح التعبير فتتمثل في تشخيص الفردية المفرطة، لأن الشخص المدوح يهيمن على كل المعارك وكأنه يقوم بالحرب لوحده ضد بيزنطة، وينجح دائماً في التغلب عليها. وحتى إذا كان الشعراء أحياناً يشيرون إلى الآخرين الذين يشاركون في تلك الحروب فإن ظهورهم باهت جداً لأن القائد البطل يغطي كل شيء^(٣).

أخيراً لا بد من الإشارة إلى أن هذا النوع من الشعر ليس محصوراً في الصراع مع الروم، بل بالعكس من ذلك، فقد عرفت الحدود الشرقية للدولة العباسية الظاهرة نفسها. لذا نجد أيضاً شعراً مرتبطاً بتلك المناطق، لأن الحدود الشرقية كانت دائماً مهددة من قبل الشعوب التي كانت تعيش هناك مثل الديلم الذين ثاروا سنة ١٤٣هـ/٧٦٠م وقتلوا عدداً من المسلمين^(٤). وهاجم الخزر في السنة نفسها

(١) البحري: السابق، ٤/٢١٦٥.

(٢) أبوتمام: السابق، ٣٠.

(٣) نصرت عبدالرحمن: السابق، ٨١-٨٢.

(٤) ابن العماد: السابق، ١/٢١١.

أرمينية^(١). وعاودوا الكرة سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م فأوغلوا في قتل المسلمين والمسيحيين معاً؛ ويبدو أنهم أسروا أكثر من مئة ألف أسير^(٢).

بقي أن نقول كلمة حول تلك الدويلات التي نشأت في الحقبة التي ندرسها من رحم الإمبراطورية العباسية. أغلب هذه الدول لم تحاول إنشاء نظام جديد يختلف عن النظام العباسي، فكل قائد دولة كان يتصرف كالخليفة وكأنه الحاكم المطلق. وكانت إداراتهم كذلك مستنسخة من الإدارة العباسية في كل شيء^(٣). ولا نجد إلا الرستميين والقرامطة الذين شذوا على هذه القاعدة. كلا الدولتين حاولت إنشاء نموذج جديد للسلطة. الرستميون اعتمدوا على إجماع الرعية بينما نجد لدى القرامطة سلطة دستورية تعتمد على المجالس.

(١) نفسه، ٢١٦/١.

(٢) نفسه، ٣٠٢/١.

(٣) فيصل السامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ٣٠٢؛ مطبعة الإيمان، بغداد، ١٩٧٠.

الفصل الرابع: الشعر والمعارضة

أولاً - الشعر والمعارضة المذهبية

١ - الشعر والشيعة:

لا بد أولاً من تحديد مصطلح «الشيعة». تعني هذه اللفظة في اللغة العربية «الأتباع والأنصار» وهي تضم المفرد والجمع. جمع هذه اللفظة هو «شيع» أو «أشياع»^(١). ويمكن أن نعود إلى القرآن الكريم حيث ورد هذا اللفظ عدة مرات. نجد مثلاً في الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢). وكذلك في الآية الكريمة: ﴿إِنْ فَرَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ جَعَلْنَا مِنْهُمْ شَيْعاً يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣). أو الآية الكريمة التالية: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾^(٤).

كما نلاحظ، فإن لهذه اللفظة عدة معانٍ تدور كلها حول الجماعة أو المجموعة. عموماً هو يدل على الأتباع والأنصار دون أن يكون هناك أية صلة بالإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وكان في بداية الإسلام يدل على الحزب السياسي دون أن يختص بحزب بعينه. وفي هذا السياق نجد عبارات مثل: شيعة علي، وشيعة معاوية، وشيعة عائشة إلخ. المهم أنه كان يدل على الأحزاب السياسية التي رأت النور بسبب الإمامة.

(١) لسان العرب، مادة: شيع.

(٢) سورة الحجر، الآية ١٠.

(٣) سورة القصص، الآية ٣.

(٤) سورة القصص، الآية ١٤.

أما الحزب الذي نحن بصدده الآن، أي الشيعة، فقد حمل في البداية اسم «آل البيت» أو «شيعة آل البيت» دون تحديد فرع معين من أسرة النبي ﷺ. سيبقى الأمور هكذا إلى أن يعتلي العباسيون سدة الحكم^(١). ابتداء من ذلك الوقت بدأ مفهوم الشيعة كما نعرفه اليوم يتكون شيئاً فشيئاً حتى صار يعني في النهاية سلالة علي بن أبي طالب وحده على حساب الهاشميين الآخرين. لعل هذا الحزب هو أقدم حزب في الإسلام لأنه تكوّن مباشرة بعد وفاة الرسول ﷺ. وكان مبنياً على أساس القرابة منه. وكان تنشيطه يتسم بثلاثة محاور متوازية هي السياسة، والعسكرة، والتشريع^(٢).

بعد هذه البداية السياسية، سوف ينزع هذا الحزب عبر السنين نوعاً ما نحو النضال من أجل تحسين الظروف الاجتماعية للطبقات المحرومة. وكانت مطالبه تتمثل في العدالة، والصراع ضد الأمويين الذين كانوا يعدون طواغيت ظلمة لا يحترمون حقوق الناس^(٣).

أما في العصر العباسي فسوف يقتصر هذا الحزب على الطالبين وحدهم، وبالذات على أحفاد علي بن أبي طالب، ولن يحمل اسم «الشيعة» رسمياً إلا في العصر العباسي الثاني. وتجدر الملاحظة أن خصومهم كانوا يطلقون عليهم اسم «الرافضة» بينما لا ينطبق هذا الاسم في الحقيقة إلا على فرع الزيدية الذين يستحقونه فعلاً لرفضهم الاعتراف بخلافة الخليفين الأولين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب تماماً كما كان يفعل الإماميون^(٤).

وإذا عدنا إلى الإطار النظري لنشأة الشيعة كحزب سياسي أولاً ثم كمذهب ديني ثانياً لرأينا بسهولة أن السبب الرئيسي يعود إلى الخلاف الذي حدث حول

(١) مونتغمري وات (M. Watt): السابق، ٧٦.

(٢) عمر فاروق: السابق، ١٢٣ وما بعدها.

(٣) أحمد عباس صالح: اليمين واليسار في الإسلام، ١٨٨ وما بعدها.

(٤) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، ١٩/٥؛ البغدادي: الفرق بين الفرق، ٢١؛ ابن خلدون: السابق، ٦٩٩/٢.

خلافة الرسول ﷺ بعد وفاته مباشرة. لا داعي للعودة إلى كل تلك الأحداث المعروفة كاجتماع سقيفة بني ساعدة وكل ما دار فيها. لكن نسمح لأنفسنا بالتذكير أن مجموعة صغيرة من المسلمين على رأسهم علي بن أبي طالب كانت تعتقد أن الخلافة حق لعلي لأسباب كثيرة أولها وأهمها القرابة من الرسول. منذ الوهلة الأولى أرادت هذه المجموعة أن تحسم الأمر لصالحها ظناً منها أنها تقدم حجة كافية ودامغة لا ترد ألا وهي هذه القرابة من الرسول.

لكن هذه المجموعة لم تكن وحدها التي تدعي هذه القرابة بل هناك مجموعات أخرى تنازعها ذلك وهي الفروع الهاشمية الأخرى. وقتها لجؤوا إلى وسيلة أخرى وهي ما يعرف بمبدأ «الوصية» التي لم تترك نظرياً أية فرصة للخصوم. لقد أبرزوا بعضاً من معاملة الرسول ﷺ لابن عمه علي وخاصة ما وقع في «خُم»^(١). كل الفكر الشيعي يركز على هذه النقطة أي الوصية.

وقد أثرت هذه القضية في فكر الشيعة وانعكست على كل تصرفاتهم في جميع الميادين. من ذلك مثلاً مبادئ «النص»، و«الحق الإلهي»، وفيما بعد الانتفاضات والثورات والحروب. وسوف ينعكس ذلك حتى على الفقه والتشريع. إن «الوصية» هي حجر الزاوية في النظرية الشيعية التي ستولد عنها عبر السنين مواقف سياسية وإيديولوجية نظرية وفلسفية تكونت من خلالها مجموعات وفرق شيعية مختلفة. انطفاً بعضها ولكن بعضها الآخر استمر إلى يومنا هذا، حتى وإن ابتعدت عن نقطة انطلاقتها، بينما ستتطور أخرى وتصبح أقوى، وتتوسع قاعدتها مع احتفاظها دوماً بوجودها وبأصولها^(٢).

في المنطلق، هناك عامل نظري مشترك بين جميع فرق الشيعة مهما كانت الفوارق بينها، يمكن تلخيصه كما يلي: هو الاعتقاد الراسخ بأن «الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها، ولا يجوز فيها تقليد الآباء

(١) منبع مائي صغير قرب مكة حيث أوصوا الرسول هذه الوصية.

(٢) حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ٤٩٣/١.

والأهل والمربين مهما عظموا وكبروا، بل يجب النظر فيها كما يجب النظر في التوحيد والنبوة^(١). بحيث لا يجوز للبشر اختيار من يتولاها ولا من ينصبهم. حتى الرسول ﷺ لا يحق له التفاضل عن هذا الأمر لأنه ملزم وجوباً بتعيين من يخلفه. هذا الإمام الذي يختار معصوم كالنبي تماماً، وعلي بن أبي طالب هو الإمام الذي اختاره الرسول ﷺ. وهذه العصمة عامة تشمل كل شيء «الردائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، عمداً وسهواً، يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان؛ لأن الأئمة حفظة الشرع، والقوامون عليه، حالهم في ذلك حال النبي، والدليل الذي اقتضانا أن نعتقد بعصمة الأنبياء هو نفسه يقتضينا أن نعتقد بعصمة الأئمة، بلا فرق»^(٢).

كل هذه الصفات لا يمكن أن تتوافر إلا في شخص خارق للعادة، شخص عظيم، شخص كامل الأوصاف مثل نبي. إن هذا التشدد في المبادئ الشيعية هو تدعيم للنظرية الشيعية للفصل في جميع القضايا، فبعد أن جعلوا من الإمامة أصلاً إلزامياً في الاعتقاد، أضفوا على الأئمة صفات القداسة والألوهية مما قوى حججهم. لأن الإمام معصوم من الخطأ فهو إذن الأكثر شرعية، والأنسب، والأكفأ ليعتلي منصب الإمامة.

إن الإمامة أمر جاد ومهم لا يمكن أن يسيره إلا شخص موهوب لأنه مطلوب منه أن يدافع عن الدين، والأمة، والحق. هل يمكن أن نجد شخصاً أحسن من الذي اختارته العناية الإلهية ومكتسب لصفات خارقة ليقوم بهذه المسؤولية؟ هكذا دخلت فكرة «الحق الإلهي» في الفكر الإسلامي، هذه الفكرة الغربية في الحقيقة عن الرسالة المحمدية. سواء أكان الشيعة محقين أم مخطئين فإن الذي حدث قد حدث، وما كان، قد كان، ولا يمكن تغيير شيء من ذلك سوى أن نحاول فهم

(١) محمد رضا المظفر: عقائد الإمامية، ١٠٤.

(٢) نفسه.

الأحداث وأسبابها لا أن نغيرها أو نفضل بعضها على الآخر. ثم جاء بعد ذلك تعميم فكرة «المهدية»^(١). لقد اعتقدت بعض الفرق الشيعية بالمهدي المنتظر الذي سيعود إلى الأرض ليملاها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

يبدو أن أول من تلقب بالمهدي بين الفرق الشيعية هو محمد بن الحنفية^(٢) بعد دعوة كيسان مولى علي بن أبي طالب لذلك. جاءت هذه الفكرة إلى الإسلام من اليهودية والمسيحية. وقد تبنت فرق أخرى غير شيعية هذه الفكرة في فترات زمنية مختلفة. نجد ذلك مثلاً عند الأمويين عندما أزيحوا عن الحكم فصاروا يعتقدون فيما يسمى «السفياني المنتظر».

في الحقيقة لا يهمن كثيراً من أين جاءت هذه الفكرة ولا نهايتها لكن لا بد من الإشارة إلى أن هذه الفكرة كانت تظهر عادة عند المستضعفين والمقموعين والمضطهدين. لذلك اعتنقها آل البيت عند اضطهادهم من قبل الأمويين، كما تبناها هؤلاء بدورهم عندما اضطهدهم العباسيون. وسيلجأ العباسيون كذلك إلى الاعتقاد نفسه كلما كان خصومهم أقوى منهم. لكن الشيعة، الذين اضطهدوا أكثر من غيرهم، ألحوا أكثر على هذا الاعتقاد حتى صارت ركناً من أركان الإيمان عندهم. وكانت «الرجعة» هي النتيجة الحتمية لهذا الاعتقاد لأن المهدي سيعود ذات يوم.

وقد ارتبط مبدأ آخر بـ«المهدية» و«الرجعة» هو «التقية»^(٣) التي تقتضي أن يظهر المرء عكس ما يبطن حتى يتخلص من أعدائه.

(١) للمزيد حول فكرة المهدية يمكن العودة إلى الكتب التالية: أحمد أمين: المهدي والمهدية؛ ضمن سلسلة «إقرأ»، رقم ٠٢، القاهرة، ١٩٥١؛ سعد محمد حسن: المهدية في الإسلام؛ القاهرة، ١٩٥٢؛ عبدالرزاق

الحصان: المهدي والمهدية؛ بغداد، ١٩٥٧؛ فريد حجاب: المهدي المنتظر.

(٢) الأزدي: تاريخ الموصل (ط مصر)، ١٨١.

(٣) انظر جميل مصطفى الشيببي: التقية، ضمن «مجلة جامعة الإسكندرية»، المجلد ١٦، ١٩٦٢-١٩٦٣.

أ - الانتفاضات الشيعية في العصر العباسي؛

إن عدد فرق الشيعة يتجاوز العشرين حسب كتب الفرق. تحمل هذه الفرق عادة اسم شخص أو قائد تميز برأي مخالف لبقية الفرق بأصالته أو بكل بساطة بخلاف ما مهما كان يسيراً. لكن كما أشرنا سابقاً هناك دائماً قاسم مشترك بين كل هذه الفرق الشيعية.

منذ البداية كان أهل الشيعة متيقنين أن العباسيين لن يتركوهم يعتلون سدة الحكم أبداً، ولذلك، لن يتورعوا عن استخدام كل وسائل القمع ضدهم كالاغتيالات والتعذيب والنفي. لم يكن عندهم إذاً حل آخر سوى الاستعداد للثورة ضد العباسيين كلما رأوا في أنفسهم القدرة على فعل ذلك. وفي مقابل ذلك كان العباسيون يخشون بني عمهم بشدة، ويفعلون كل ما في وسعهم لإضعافهم ومعرفة مشاريعهم وخططهم.

لنستعرض الآن الثورات الشيعية التي حدثت في العصر المدروس. انطلقت الثورة الأولى سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، وكان قاده النفس الزكية^(١) وأخوه إبراهيم حيث انتفض الأول في المدينة المنورة، والثاني في البصرة بعد عدة أشهر من ذلك. وقضى على هذه الثورة ولي العهد آنذاك، قبل أن يخلع، عيسى بن موسى^(٢). صار الصراع بين الفرعين المتنافسين من بني هاشم صريحاً وواضحاً في هذه الحقبة بعد فترة قصيرة من التعايش السلمي بينهما. كل فرع كان يقدم حججه للبرهنة والتدليل على أحقيته في الخلافة والإمامة. يمكن هنا أن نذكر الرسائل المتبادلة بين النفس والزكية والخليفة العباسي المنصور. حاول العباسيون في البداية مهادنة الطالبيين باستمالتهم ومنحهم عفواً عاماً، والحرية لأسراهم إذا استسلموا بدون شرط. وكان

(١) انظر المصدر السابق، ٨٦.

(٢) ابن خياط: السابق، ٦٤٩/٢.

رد قائد الثوار كالتالي: «وأنا أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت علي، فإن الحق حقنا، ولنا ادعيتم هذا الأمر، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بعصبتنا، وإن أبانا علياً عليه السلام كان الوصي وكان الإمام عليه السلام، فكيف ورثتم ولايته وأولاده أحياء؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا، وشرف آبائنا، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل، وأنا بنو أم أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة عليها السلام في الإسلام- دونكم؛ إن الله عز وجل اختارنا واختار لنا، فوالدنا من الناس محمد صلى الله عليه وسلم، أفضلهم، ومن السلف أولهم إسلاماً، علي، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة، وأول من صلى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيده نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدي شباب أهل الجنة عليهما السلام، وإن هاشمًا ولد علياً مرتين، وإن عبدالمطلب ولد حسنًا مرتين، وأبي أوسط بني هاشم نسبًا، وأصرحهم أبًا، وما زال الله عز وجل يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى اختار لي ما اختار، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وابن أهونهم عذابا في النار»^(١)، فرد عليه الخليفة ردًا سريعًا فند فيه كل ما جاء في تلك الرسالة، ودحض كل حججه واحدة تلو الأخرى^(٢). ولنذكر هنا أن النفس الزكية كان قد ذكر الخليفة من قبل نقضه لعهوده ومواريثه، وأمانه الذي أعطاه لأشخاص آخرين ولم يحترمه.

لقد كانت هذه الثورة الشيعية نتيجة المضايقات والقمع الذي تعرض له الطالبيون وخاصة النفس الزكية وأسرته. انتشرت في عدة مناطق كالمدينة المنورة، ومكة، والبصرة.

(١) الأزدى: تاريخ الموصل، ١٨٢-١٨٣؛ المبرد، محمد بن يزيد (٢٨٦هـ/٨٩٩م): الكامل في اللغة والأدب، ٢٨٤/٢؛ مكتبة المعارف، القاهرة، د.ت.؛ ويلاحظ أن هناك فوارق طفيفة بين الروايتين.
(٢) المبرد: نفسه، ٢٨٥/٢ وما بعدها.

وقد تلقى قائدها المبايعة من كل من خراسان، ومصر، وسورية، والسند. وبقية الأحداث معروفة خاصة الدور الذي قام به ولي العهد عيسى بن موسى^(١). وما يمكن قوله أيضاً حول هذه الثورة أنها عانت من سوء التخطيط والتحضير، ومن تسرع المشرفين عليها. ولا نفهم لماذا لم ينطلق الأخوان في وقت واحد حتى أن موقفهما ذلك سمح للقوات الحكومية للتصدي لهما كل على حدة. وكانت سياسة المنصور تجاه الطالبيين من أهم الأسباب التي أدت إلى تلك الثورة، فقد كان يتحرش بهم باستمرار، ويسجنهم، ويعذبهم. وقد ذكر الشعراء الطالبيون تلك المعاملة السيئة وما كان يتعرضون له مثل موسى بن عبدالله بن أبي طالب^(٢) الذي ضرب بالسوط ألف جلدة من قبل المنصور دون أن يقول كلمة، ولكنه قال شعرا: (من الكامل)

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَزِيدُهُمْ
جَلْدًا وَصَبْرًا قَسْوَةً السُّلْطَانِ^(٣)

ثم يتحدث بمرارة عن خداع المنصور ومكره: (من مجزوء الوافر)

تَوَلَّيْتُ بِهَجَّةِ الدُّنْيَا
فَكُلُّ جَدِيدِهَا خَلْقٌ
وَحَافِئُ النَّاسِ كُلُّهُمْ
فَمَا أَذْرِي بِمَنْ أَثِقُ
رَأَيْتُ مَعَالِمَ الْخَيْرِ
تَسُدَّتْ دُونَهَا الطُّرُقُ

(١) للمزيد حول هذه الثورة يمكن العودة إلى كتاب: عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ٧٨-٩٦.

(٢) هو أخو النفس الزكية.

(٣) الحصري القيرواني، أبواسحاق إبراهيم بن علي (٤٥٣هـ/١٠٦١م): زهر الآداب وثمر الألباب، ٨٣/١؛ المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٥٢.

فَلَا حَسَبٌ وَلَا نَسَبٌ
وَلَا دِينٌ وَلَا خُلُقٌ
فَلَسْتُ مُصَدِّقَ الْأَقْسَا
مِ فِي شَيْءٍ وَإِنْ صَدَّقُوا^(١)

وكان النفس الزكية أيضاً شاعراً، فما هو يعدد أسباب ثورته بقوله:
(من المنسرح)

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ مَا بُلِيتُ بِهِ
فَبِأَنَّهُ عَالِمُ الْخَفِيَّاتِ
مِنْ فَقْدِي الْعَدْلَ فِي الْبِلَادِ وَمِنْ
جَوْرِ مُقِيمِ إِلَى الْبَرِيَّاتِ
رَجَوْتُ كَشْفَ الْبَلَاءِ فِي زَمَنِ
فَصِرْتُ فِيهِ أَخَا بَلِيَّاتِ^(٢)

ويبدو أن بعض رفاقه نصحوه بقبول الأمان الذي أعطاه إياه المنصور، لكنه
كان يعرف خداع العباسيين، فقال: (من البسيط)

أَبْعَدَ أَنْ قَتَلُوا أَعْلَامَ سَادَتِنَا
وَجَرَعُونَا كُؤُوسَ الْحَتْفِ وَالذُّلِّ
وَقَدْ شَهَرْتُ حُسَامَ اللَّهِ مُبْتَغِيًا
فِي الْأَرْضِ مَا ضَيَّعُوا مِنْ سِيرَةِ الْعَدْلِ
أُعْطِي يَدِي لِأَنَاسٍ قَطَعُوا رَحْمِي
هَذَا لَعْمُكَ مِنِّي غَايَةُ الْجَهْلِ^(٣)

(١) نفسه، ٨٢/١-٨٣.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٠٥/٤.

(٣) نفسه، ١٠٥/٤.

لقد تعاطف الناس مع هذه الثورة أثناء قيامها لجملة من الأسباب، منها الأمل في أن يسود العدل والمساواة في حال انتصارها. وتعاطفوا معها كذلك بعد إخفاقها بسبب المقاتل والمجازر التي ارتكبتها العباسيون في حق الطالبين. انعكس ذلك بطبيعة الحال على الشعر. أولاً بكى إبراهيم أخاه طويلاً قبل أن يقتل هو بدوره: (من البسيط)

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَوْ خَشَيْتُهُمْ
وَأَوْجَسَ الْقَلْبُ مِنْ خَوْفِ لَهُمْ جَزَعًا
لَمْ يَقْتُلُوهُ وَلَمْ أُسَلِّمْ أُخِي لَهُمْ
حَتَّى نَمُوتَ جَمِيعًا أَوْ نَعِيشَ مَعًا^(١)

لكن هذه العاطفة الإنسانية الجياشة لم تمنعه من مواصلة الحرب حتى الموت، قائلاً: (من الطويل)

سَأُبْكِيكَ بِالْبَيْضِ الرَّقَاقِ وَبِالْقَنَا
فَإِنَّ بِهَا مَا يُدْرِكُ الْوَاتِرَ الْوَثْرَا
وَلَكِنِّي أَشْفِي فُؤَادِي بِغَارَةِ
أَلْهَبٍ مِنْ قُطْرِي كَنَائِبِهَا جَمْرًا^(٢)

سيبكي الشعراء طويلاً هؤلاء الأخوين مبيينين كفاحهم من أجل العدالة والمساواة، كما فعل غالب بن عثمان الحمداني الذي بكى إبراهيم، قتيل باخمري^(٣) بقوله: (من مجزوء الكامل)

وَقَتِيلِ بَاخْمَرِي الَّذِي
نَادَى فَاسْمَعَ كُلَّ شَاهِدِ

(١) أبوالفرج الإصفهاني: مقاتل الطالبين، ٣٤٢.

(٢) الصفدي: السابق، ٢٩٨/٣.

(٣) باخمري: مكان بين الكوفة وواسط؛ انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣١٦/١.

قَادَ الْجُنُودَ إِلَى الْجُنُودِ
دِ تَزْحَفُ الْأَسَدِ الْحَوَارِدِ
فَدَعَا لِدِينِ مُحَمَّدٍ
وَدَعَا إِلَى دِينِ ابْنِ صَائِدٍ^(١)

أما عبدالله بن مصعب فيبكيه بكاء حاراً ويعدد خصاله: (من الكامل)

يَا صَاحِبِي دَعَا الْمَلَامَةَ وَاعْلَمَا
أَنْ لَسْتُ فِي هَذَا بِأَلْوَمٍ مِنْكُمْ
وَقِفَا بِقَبْرِ ابْنِ النَّبِيِّ فَسَلَّمَا
لَا بَأْسَ أَنْ تَقِفَا بِهِ فَتَسَلَّمَا
قَبْرُ تَضْمُنَ خَيْرَ أَهْلِ زَمَانِهِ
حَسَباً وَطَيْبَ سَجِيَّةٍ وَتَكَرَّمَا
رَجُلٌ نَفَى بِالْعَدْلِ جَوْرَ بِلَادِهِ
وَعَفَا عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ وَأَنْعَمَا
لَمْ يَجْتَنِبْ قَصْدَ النَّبِيِّ وَلَمْ يَحِدْ
عَنْهُ وَلَمْ يَفْتَحْ بِفَاحِشَةٍ فَمَا^(٢)

ثم جاء دور الحسين بن علي المسمى صاحب فخ الذي ثار سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م فأعلن في بيان ثورته أنه قام ضد الظلم. قتل في السنة نفسها وكانت المجزرة التي تلت ذلك كبيرة جداً قتل فيها خلق كبير. وكان الشعراء موجودين لبيكوا قتلى فخ، فهذا واحد منهم هو عيسى بن عبدالله يقول: (من مجزوء الكامل)

تُرْكُوا بِفَخٍّ غُدُوءَةً
فِي غَيْرِ مَا مَنْزِلَةِ الْوَطَنِ

(١) أبوالفرج الإصفهاني: مقاتل الطالبين، ٢٨٤؛ ابن صايد: شخصية خرافية إذا ظهرت تكون نهاية العالم.
(٢) الأزدى: السابق، ١٩١-١٩٢.



كَانُوا كِرَامًا فَانْقَضُوا
 لَا طَائِشِينَ وَلَا جُبِينَ
 غَسَلُوا الْمَذَلَّةَ عَنْهُمْ
 غَسَلَ التَّيَابِ مِنَ السُّدْرَيْنِ^(١)

وتحدث الشاعر داوود السُّلَمي عن أولئك الضحايا قائلاً: (من البسيط)

مَاذَا يَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَهُمْ
 مَاذَا صَنَعْتُمْ بِنَا فِي سَالِفِ الزَّمَنِ
 لَا النَّاسُ مِنْ مُضِرِّ حَامُوا وَلَا غَضِبُوا
 وَلَا رَبِيعَةٌ وَالْأَحْيَاءُ مِنْ يَمَنِ
 يَا وَيْحَهُمْ كَيْفَ لَمْ يَرْعَوْا لَهُمْ حُرْمًا
 وَقَدْ رَعَى الْفَيْلُ^(٢) حَقَّ الْبَيْتِ ذِي الرُّكْنِ^(٣)

أعلن يحيى بن عبدالله الثورة على هارون الرشيد سنة ١٧٦هـ/٧٩٣م، لكن الخليفة استطاع أن يتخلص منه بمنحه العفو ثم بإلقاء القبض عليه ووضعه في السجن فور وصوله. ثم نكث العهد بتركه يموت جوعاً في السجن^(٤).

ثم اندلعت ثورة كبيرة في عهد المأمون سنة ١٩٩هـ/٨١٥م بقيادة أبي السرايا^(٥) الذي أفتع شخصية شيعية لتكون على رأس هذه الثورة هو محمد بن إبراهيم

(١) أبوالفرج الإصفهاني: مقاتل الطالبين، ٤٥٨-٤٥٩.

(٢) يشير إلى حملة أبرهة الحبشي حيث يذكر أن الفيلة ترددت في مهاجمة الكعبة.

(٣) أبوالفرج الإصفهاني: السابق، ٤٦٠؛ ابن الأثير: السابق، ١٢٥/٦-١٢٦.

(٤) ابن الأثير: السابق، ١٢٥/٦-١٢٦.

(٥) أبوالسرايا: هو السري بن منصور من ولد هانئ بن قُبَيْصَةَ الشَّيباني؛ مغامر وقاطع طريق وقائد عسكري عباسي قبل أن يلتحق بابن طباطبا.



المعروف بابن طَبَّاطِبَا^(١). لكن هذا القائد سرعان ما لقي حتفه، وربما يكون قد اغتيل بعد نجاح الثورة في الكوفة حيث التحق بها عدد كبير من الناس. ثم استعان أبو السرايا بعلوي آخر هو زيد النار^(٢)، فاستولى على البصرة، وانتشرت حركته بعد ذلك في الحجاز، لكنه قتل في السنة نفسها عندما تدخل الجيش الحكومي بقيادة هرثمة بن أعين^(٣). وقد كان قائد هذه الثورة شجاعاً وشاعراً أيضاً حيث قال وقتها:

(من الرجز)

وَجَبْهِي رُمَجِي وَالْحَسَامُ حِصْنِي
وَالرَّمْحُ يُنْبِي بِالضَّمِيرِ عَنِّي
وَالْيَوْمَ يَنْبُدُو مَا أَقُولُ مِنِّي^(٤)

كما هو منتظر فإن هذه الثورة أيضاً كانت تهدف إلى رفع الظلم عن الناس والرد على المضايقات التي تعرض لها الطالبيون. وقد قال الزعيم الروحي لتلك الثورة ابن طباطبا بعض الأشعار فيها متحدثاً عن ذلك الظلم: (من الطويل)

وَكُنْتُ عَلَى جِدٍّ مِّنَ الْأَمْرِ فَرَزَانِي
إِلَى الْجِدِّ جِدًّا مَا رَأَيْتُ مِنَ الظُّلْمِ
أَيَذْهَبُ مَالُ اللَّهِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ
وَيُنْزَلُ أَهْلُ الْحَقِّ فِي جَائِرِ الْحُكْمِ^(٥)

(١) ابن طباطبا: هو محمد بن إبراهيم طباطبا، ولقب بذلك لأنه أراد أن يقول قبا فقال طبا، لردة في لسانه، ابن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الشَّيْبَةَ بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. وأمه: أم الزبير بنت عبدالله بن أبي بكر بن عباس بن عبدالرحمن بن الحرث بن هشام بن المغيرة بن عبدالله ابن عمرو بن مخزوم. وكان أبوه إبراهيم في حبس محمد الملقب بالمهدي، وموسى بعده، وهارون الرشيد بعده، ومات في الحبس. إسماعيل، وجعفر، وعبدالله، وفاطمة، أمهم أم جعفر بنت إسحاق بن إبراهيم ابن جعفر بن عبدالله بن عبدالرحمن بن الأزهر بن عوف بن عبدالحرث بن زهرة، ولهم عقب. انظر: الزركلي: الأعلام، ١٨٢/٦.

(٢) هو زيد بن موسى أخو أبي الحسن الرضا.

(٣) ابن الأثير: السابق، ٣٠٢/٦؛ عبدالمنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ٣٠٨-٣١٣.

(٤) الصفدي: السابق، ٣٢٨/١.

(٥) نفسه، ٣٣٩/١.

وقد أدلى بدلوه في أحقية الطالبين بالخلافة بقوله: (من الوافر)
 أَيْنُقْضُ حَقُّنَا فِي كُلِّ وَقْتٍ
 عَلَى قُرْبٍ وَيَأْخُذُهُ الْبَعِيدُ
 فَيَا لَيْتَ التَّقَرُّبُ كَانَ بُعْدًا
 وَلَمْ تَجْمَعْ مَنَاسِبَنَا الْجُدُودُ^(١)

وفي السنة نفسها اندلعت ثورة شيعية أخرى في اليمن فأوجدت فيه سلطة ظلت مستمرة طوال المدة التي قضاها المأمون في خراسان^(٢). وكان قائد هذه الثورة هو إبراهيم بن موسى الكاظم^(٣) من ولد جعفر الصادق^(٤).

من الواضح أنه لم يكن هناك أي تنسيق بين هاتين الثورتين اللتين اندلعتا في سنة واحدة. لكن هذه الثورات المستمرة استطاعت أن تخلق شعوراً بعدم الاستقرار لدى الناس، وولدت أيضاً بلبلة لدى العباسيين. ولعل هذه الوضعية ليست غريبة على تسمية المأمون لولي عهد شيعي هو علي الرضا ابن موسى الكاظم. وربما كان المأمون يقصد من وراء ذلك سحب البساط من تحت أرجل العلويين حتى يكفوا عن ثوراتهم التي أنهكت الدولة. ولا ننس أنه كان قد خرج للتو من حرب أهلية بينه وبين أخيه الأمين تسببت في تشتيت الأسرة العباسية وانقسامها بينهما.

وفي سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م اندلعت ثورة أخرى في اليمن بقيادة عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالله. وكان سوء معاملة عمال اليمن الرسميين للناس سبباً مباشراً في اندلاع تلك الثورة^(٥) مما جعل خلقاً كثيراً يلتحقون بها.

(١) نفسه.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول هذه الثورة انظر: عبدالمنعم ماجد: السابق، ٣١٣-٣١٤.

(٣) الكاظم هو موسى بن جعفر الصادق (١٢٨هـ-١٨٣هـ/٧٤٥م-٧٩٩م)؛ هو الإمام السابع لدى الإمامية الاثني عشرية؛ توفي في السجن؛ انظر: الزركلي: السابق، ٢٧٠/٨.

(٤) جعفر الصادق (٥٨٠-١٤٨هـ/٦٩٩م-٧٦٥م)؛ الإمام السادس عند الإمامية؛ انظر: الزركلي: نفسه، ١٢١/٢.

(٥) ابن الأثير: السابق، ٣٨١/٦.

وثار شيوعي آخر هو أبو الحسن يحيى بن عمر^(١) ضد الطاهريين سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م، لكنه قتل بعد سنتين من ذلك، وحملت رأسه إلى بغداد لتصلب. لذلك هدد الشاعر الطالبي أبوهاشم الجعفري الطاهريين بقوله: (من الخفيف)

يَا بَنِي طَاهِرٍ كُؤُوهُ وَبِيًّا
إِنَّ لَحْمَ النَّبِيِّ غَيْرُ مَرِيٍّ
إِنَّ وَثْرًا يَكُونُ طَالِبَهُ اللَّهُ
لَوْ تَرُّ بِالْفَوْتِ غَيْرُ حَرِيٍّ^(٢)

ونجد كذلك الشاعر الشيعي ونقيب العلويين أثناء تلك الفترة في الكوفة علي ابن محمد الحِمَّانِي يعدد خصال هذا البطل، ويمدح شجاعته بقوله: (من الطويل)

فَإِنْ مَاتَ تَلَقَّاءَ الرَّمَّاحِ فَإِنَّهُ
لَمَنْ مَعْشَرَ يَشْنُونُ مَوْتَ التَّتَرُّفِ^(٣)

وفي سنة ٢٧١هـ/٨٨٥م حدثت انتفاضة شيعية أخرى بقيادة الأخوين محمد وعلي ابني الحسين بن جعفر، دخلا على إثرها المدينة المنورة فقتلا بعض الناس وطلبوا الأموال من الآخرين. كما عطلت الصلاة في مسجد النبي لأربعة أسابيع^(٤).

أما في طبرستان فقد ثار ضد السامانيين ثائر من ولد زين العابدين هو الأطروش^(٥)، ودامت ثورته من سنة ٣٠١هـ إلى ٣٠٤هـ. وقد كان شاعراً فتحدث في شعره عن الأسباب التي دعت به إلى الثورة، لكن، وبصفة غير معتادة في ذلك العصر، نجده يتحدث عن رفاقه، ويصف شجاعاتهم وهذا عكس المألوف حيث كان القائد

(١) يحيى بن عمر (٢٥٠هـ/٨٦٤م)، ثار أولاً سنة ٢٣٥هـ أثناء خلافة المتوكل ثم مرة ثانية سنة ٢٤٨هـ بعد أن

قضى عدة سنوات في السجون العباسية. انظر ابن الأثير: السابق، ١٧/٧؛ ٤٠/٧.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٦٢/٥.

(٣) المسعودي: نفسه، ٦٥/٥.

(٤) الطبري: السابق، ٧/١٠.

(٥) انظر أعلاه، ص: ٢٠٩.

يركز على شخصه هو فقط ويختصر كل شيء فيه وحده. ها هو يقول بعد تعداد أسباب ثورته: (من الكامل)

فَحْشِيْتُ أَنْ أَلْقَى الْإِلَهَ وَمَا
أُبَلَيْتُ فِي أَعْدَائِهِ عُذْرِي
فِي فِتْنِيَةِ بَاعُوا نُفُوسَهُمْ
لِلَّهِ بِالْغَالِي مِنَ الْأَجْرِ
صَبَرُوا عَلَى غَيْرِ الزَّمَانِ وَمَا
لَأَقُوا مِنَ الْبِأَسَاءِ وَالْخُسْرِ
صَبَرُوا وَلَوْ شَاءُوا نَجَّوْا فَبَاوَا
إِلَّا جَمِيلَ عَوَاقِبِ الذِّكْرِ^(١)

واندلعت ثورة أخرى في نيسابور سنة ٣٠٧هـ/٩١٨م قادها الثائر ليلي بن نعمان، لكنه سرعان ما قتل، وأرسلت رأسه إلى بغداد، فرثاه الشاعر محمد بن أحمد المعصومي بقوله: (من الطويل)

لَقَدْ عَاشَ مَحْمُودًا كَرِيمًا فِعَالُهُ
وَمَاتَ شَهِيدًا يَوْمَ وَلَّى فَوَدَعَا
وَقَدْ ثَلِمَ الدَّهْرُ الْعَلَاءَ بِمَوْتِهِ
وَأُوْهِنَ رُكْنُ الْمَجْدِ حَتَّى تَضَعُضَعَا^(٢)

وقبل ذلك كان محمد بن القاسم قد ظهر في الطالقان^(٣).

وفي الأخير استطاعت كل هذه الانتفاضات وهذه الثورات أن تؤتي أكلها بحيث استطاع بعض الشيعة من الإحراز على عدة انتصارات مكنتهم من تأسيس

(١) الصفدي: السابق، ١٢/١١١-١١٢.

(٢) القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف (٦٤٦هـ/١٢٤٨م): المحمدون من الشعراء، ١٣؛ تحقيق رياض

عبد الحميد مراد، دمشق، ١٩٧٥.

(٣) ابن الأثير: السابق، ٦/٤٤٢.

دول مستقلة عن العباسيين. وهكذا، لجأ إدريس بن عبدالله إلى مراكش وكوّن دولة الأدارسة التي استمرت من سنة ١٧٢هـ إلى سنة ٣١٣هـ. وقد كان إدريس شاعراً كذلك حيث نجده يتحدث عن تغريبه وثورته: (من السريع)

عَرَبْتُ كَيْ أُغْرِبَ فِي ثَوْرَةٍ
أَشْفِي بِهَا كُلَّ فَتَى ثَائِرٍ
لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ لِمَنْ يَغْتَدِي
فِي الْأَرْضِ جَاراً لِأَمْرِي جَائِرٍ
وَالْأَرْضُ مَا وَسَّعَهَا رَبُّهَا
إِلَّا لَتَبْدُو هِمَّةَ السَّائِرِ^(١)

وقد استطاع الزيدون كذلك تأسيس دولة في اليمن سنة ٢٤٦هـ، والطيالبيون في طبرستان سنة ٢٤٥هـ واستمرت حتى سنة ٤٢٥هـ. وبعدهم سيأتي الطالبيون والفاطميون فيقيمون أيضاً دولاً كبيرة.

ب- الشعر الشيعي: إن الشعر الشيعي هو شعر سياسي قبل كل شيء، حتى في الأغراض التي تبدو بعيدة عن السياسة مثل الرثاء^(٢). إنه شعر ملتزم بمبادئ حزب الشيعة في جميع المجالات السياسية، والشرعية، والدينية. إنه مرتبط بعاطفتين اثنتين هما الغضب والحزن. لقد تولدت من الغضب تلك الثورة الدائمة المستمرة التي لم تنقطع ولم تتوقف لا في العهد الأموي ولا في العهد العباسي. إنه غضب ضد الذين اغتصبوا السلطة بالقوة، وعذبوا الطالبيين. وكانت تلك الثورات دوماً متبوعة بمأساة كبيرة جداً أي بأحزان كبيرة كذلك. وكان الشعر وسيلتهم ليعبروا عما عانوه من ويلات، وما تلقوه من عذاب، وأيضاً وسيلة ليكون بها موتاهم لعلها تخفف من أحزانهم قليلاً.

(١) الصفدي: السابق، ٢١٩/٨.

(٢) عباس الجراري: الشعر السياسي، ١٤٠؛ دار الثقافة، المغرب، ١٩٧٤.

لقد ذكرنا من قبل أنه مهما تعددت الفرق الشيعية فإن قاسماً مشتركاً يجمع بينها جميعاً هو «الوصية» التي تدور حولها سياستهم وكل مواقفهم وتصرفاتهم. من الطبيعي إذاً أن يركزوا كل جهودهم الدعائية، وخاصة في الشعر، على هذا المبدأ الذي يتمثل في جعل علي بن أبي طالب الشخص المختار الوحيد من قبل الرسول ﷺ ليكون خليفته، ومن ثم، اختيار نسله ليكونوا الخلفاء من بعده كتحصيل حاصل.

كثير من الشعراء الشيعة يتحدثون عن هذا المبدأ إن لم نقل جميعهم. وفيما يلي سنذكر بعض الأمثلة لأن هذا الشعر غزير جداً. هذا محمد بن حبيب الضبي يقول في هذا المجال: (من الوافر)

وَصِيٌّ مُخَمِّدٌ حَقًّا عَلِيٌّ
وَقَتَّالُ الْجَبَابِرِ وَالْقُرُومِ
وَحَازِنُ عِلْمِهِ وَأَبُو بَنِيهِ
وَوَارِثُهُ عَلَى رَغَمِ الْمُلِيمِ
شَفَاعَتُهُ لِمَنْ وَالَاهُ حَتْمٌ
إِذَا فَرَّ الْحَمِيمُ مِنَ الْحَمِيمِ
وَمَنْ يَغْلِقُ بِحَبْلِ اللَّهِ فِيهِ
فَقَدْ أَخَذَ الشُّفَاعَةَ مِنَ الْجَحِيمِ^(١)

وطبعاً يضي الشعراء، ومن قبلهم عموم الشيعة، قدسية على الإمام علي تجعله بمرتبة النبي، كما نرى ذلك في قول دعبل الخزاعي: (من مجزوء الكامل)

إِنَّ الْمَذْمُومَةَ لِلْوَصِيِّ
— هِيَ الْمَذْمُومَةُ لِلنَّبِيِّ^(٢)

كل الشعراء الشيعة متفقون أن الوصي هو علي بن أبي طالب وأن النبي أوصى له صراحة بذلك. وهذا أيضاً هو رأي عبدالله بن عبدالله المعروف بالمطوطي^(٣): (من مجزوء المنسرح)

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ٤١٩.

(٢) البيهقي: المحاسن والمساوئ، ٦٨.

(٣) توفي سنة ٣٤٩هـ.

قَدْ صَحَّ قَوْلُ النَّبِيِّ عِنْدِي
 أَنَّ عَلِيًّا هُوَ الْإِمَامُ
 فَفَضْلُهُ فَاتَتْ كُلَّ فَضْلٍ
 يَعْجِزُ عَنْ فَضْلِهِ الْأَنْبَاءُ
 ذَا مَذْهَبِي لَيْسَ لِي سِوَاهُ
 انْقَطَعَ الْقَوْلُ وَالسَّلَامُ^(١)

بينما نجد السيد الحميري يصف بكل تفصيل تلك الجلسة التي تمت فيها
 الوصية لعلي بغدير خم بقوله: (من الطويل)

أَلَمْ يَسْمَعُوا يَوْمَ الْغَدِيرِ مَقَالَهُ
 يُوقِّرُ خَيْرَ النَّاسِ عُدْوًا وَمُعْتَصِرُ
 يَقُولُ: أَلَا هَذَا ابْنُ عَمِّي وَوَارِثِي
 وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّى وَأَوَّلُ مَنْ نَصَرَ
 وَلِيُّكُمْ بَعْدِي فَوَالْوَاوِ لِيَّهِ
 وَكُونُوا لِمَنْ عَادَى عَدُوًّا لِمَنْ كَفَرَ^(٢)

إنه يشير إلى الحديث الشهير عند أهل الشيعة، حديث خم، الذي استعملوه
 مراراً بالإضافة إلى بعض الآيات القرآنية لتدعيم مبدأ «الوصية». ويحكى أن علياً
 قال: (من الرجز)

أَنَا عَلِيٌّ صَاحِبُ الصَّمْصَامَةِ^(٣)
 وَصَاحِبُ الْحَوْضِ لَدَى الْقِيَامَةِ
 أَخُو نَبِيِّ اللَّهِ فِي الْعِلْمَةِ
 قَدْ قَالَ إِذْ عَمَّمَنِي الْعِمَامَةَ

(١) القفطي: السابق، ٩٣.

(٢) السيد الحميري، إسماعيل بن محمد (١٠٥-١٧٣هـ/٧٢٣-٧٨٩م): الديوان، ٥٥ (الهامش): تحقيق شاكر
 هادي شكر، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

(٣) الصمصامة: اسم سيف عمرو بن معديكرب.

أَنْتِ أَخِي وَمَعْدِنُ الْكِرَامِ

وَمَنْ لَهُ مِنْ بَغْدِي الْإِمَامِ^(١)

وقد جعلوا هذا الحديث في مرتبة الكلام المقدس الذي لا يدحض، كما يرى الشاعر أبو محمد عبدالله بن عمار البرقي أن إنكار هذا الحق إنما هو إنكار لما جاء في القرآن، أي هو بمثابة الكفر بل هو الكفر عينه: (من البسيط)

لَنْ يَدْفَعُوا حَقُّكُمْ إِلَّا بِدَفْعِهِمْ

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ آيٍ وَقُرْآنٍ^(٢)

ويقال إن الخليفة المتوكل أمر بأن يقطع لسان هذا الشاعر الذي مات إثر ذلك بعد أيام. كان تضمين الأحاديث النبوية في الشعر الشيعي أمراً مألوفاً جداً، خاصة الحديث الشهير «فمن مات ولم يعرف الإمام مات ميتة جاهلية»^(٣). استعمل هذا الحديث أولاً لتعميم مبدأ وجوب الإمامة وأحقية علي بن أبي طالب. الشاعر السيد الحميري ضمن هذا الحديث في شعره بقوله: (من الطويل)

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ

وَمَاتَ فَقَدْ لَاقَى الْمَنِيَّةَ بِالْجَهْلِ^(٤)

وفي السياق نفسه، كثيراً ما نجد الشعراء يصفون أبناء علي بأبناء الوصي تأكيداً لهذه المقولة عند الشيعة، كما يقول عبدالله بن أيوب الحزبي التيمي^(٥) وهو يوجه الكلام للإمام الجواد^(٦) بن الإمام الرضا: (من الكامل)

(١) ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ٢١٩/١.

(٢) العاملي: أعيان الشيعة، ٣٧٨/١.

(٣) النووي، محبي الدين يحيى بن شرف (٦٧٦هـ/٢٧٦م): رياض الصالحين، ٢٣٨؛ الكويت-بيروت، ١٩٧٠؛ النويختي: السابق، ٢٨.

(٤) السيد الحميري: الديوان، ٣٤٤.

(٥) الحزبي: توفي سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م، انظر: البغدادي: تاريخ بغداد، ٤١١/٩.

(٦) الجواد: هو محمد بن علي الرضا (١٩٥-٢٢٠هـ/٨١١-٨٣٥م)؛ الإمام التاسع لدى الاثني عشرية. ربه الخليفة المأمون وزوجه إحدى بناته، وهي «أم الفضل»؛ ألف محمد بن وهبان الديبلي سيرته بعنوان: «أخبار أبي جعفر الثاني» للتفريق بينه وبين الإمام الباقر؛ انظر اليافعي: مرآة الجنان، ٨٠/٢؛ البغدادي: تاريخ بغداد، ٥٤/٣؛ الزركلي: الأعلام، ١٥٥/٧.



يَابْنَ الْوَصِيِّ وَصِيَّ أَفْضَلِ مُرْسَلٍ
أَغْنِي النَّبِيَّ الصَّادِقَ الْمَضْدُوقَا^(١)

وقال الشيعي الثائر، عبدالله بن موسى، كذلك: (من المتقارب)

أَنَا ابْنُ الْفَوَاطِمِ مِنْ هَاشِمٍ
نَمَانِي عَلِيٍّ وَبِنْتُ النَّبِيِّ
إِلَيَّ تَنَاهَى فَخَارُ الْوَرَى
وَكُلُّهُمْ لِي بِحَقِّ وَلِيِّ^(٢)

إن الإلحاح والتأكيد على هذا المبدأ أوصل في النهاية إلى مبدأ «الحق الإلهي». هناك نور رباني ينتقل بين هؤلاء الأئمة عند بعض فرق الشيعة، والذين تحولوا عندهم إلى قديسين. هذا ما يعتقده السيد الحميري مثلاً في قوله: (من البسيط)

هُمُ الْأَيْمَةُ بَعْدَ الْمُصْطَفَى وَهُمْ
مَنْ اهْتَدَى بِالْهُدَى وَالنَّاسُ ضَالُّ
وَأَنْهُمْ خَيْرٌ مَنْ يَمْثِلِي عَلِيَّ قَدَمٍ
وَهُمْ لِأَحْمَدَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَالْأَلِّ^(٣)

وكان الشاعر العبدي أيضاً يقول في السياق نفسه: (من الرجز)

يَا سَادَتِي يَا بَنِي عَلِيٍّ
يَا آلَ طَهَ وَآلَ صَادٍ
مَنْ ذَا يُوَازِيكُمْ وَأَنْتُمْ
خَلَائِفُ اللَّهِ فِي الْبِلَادِ^(٤)

(١) العاملي: السابق، ج ٤، القسم الأول، ٢٤٦.

(٢) نفسه.

(٣) السيد الحميري: الديوان، ٣٠١.

(٤) ابن شهر آشوب: السابق، ٤٩١/٣.



وهكذا فَهَمَّ في نظر الشعراء مثل النجوم اللامعة التي يهتدي بها الناس نحو
السبيل السليم كما يقول العبيدي دائماً: (من الوافر)
عَلِيٌّ وَالْأَيْمَةُ مِنْ بَنِيهِ
هُمُ سَادُوا الْأَلَى عَرَباً وَعَجَمًا
نُجُومٌ نُورُهَا يَهْدِي إِذَا مَا
مَضَى نَجْمٌ أَتَى وَاللَّهُ نَجْمًا^(١)

وكان الشاعر الشيعي المعروف بالمفجع^(٢) يقول في الإطار نفسه: (من السريع)
لَنَا سِرَاجٌ نُورُهُ ظُلْمَةٌ
لَيْسَ لَهُ ظِلٌّ عَلَى الْأَرْضِ
كَأَنَّهُ شَخْصُ الْإِمَامِ الَّذِي
يَبْغِي الْهُدَى مِنْهُ أَوْلُو الْقَرْضِ^(٣)

أما ابن المولى فحتى النور ملك لهم، كما يتضح من قوله: (من الخفيف)
هُمُ ذَوُّ النُّورِ وَالْهُدَى وَمَدَى الْأُمِّ
رِ وَأَهْلُ الْبُرْهَانِ وَالْعِرْفَانِ
مَعْدِنُ الْحَقِّ وَالنُّبُوءَةِ وَالْعَدْلِ
لِ إِذَا مَا تَنَازَعَ الْخَصْمَانِ^(٤)

ومن المعقول جداً أن النتيجة الطبيعية لكل ما سبق هي الدفاع عن الحق
الشرعي لعلي بن أبي طالب وذريته في الخلافة والميراث.

ويمكن أن نعد من ضمن الشعر السياسي تلك الأشعار المتعلقة بمبدأ «الغيبة»
التي كانت من العناصر الأساسية لمذهب الشيعة. أول من تحدث عن هذا الموضوع

(١) ابن شهر آشوب: السابق، ٤٢٥/٣.

(٢) المفجع: هو محمد بن أحمد (٢٢٠هـ/٩٣٢م)، شاعر شيعي متطرف؛ انظر: الزركلي: الأعلام، ١٩٨/٦.

(٣) الصفدي: السابق، ١٢٩/١.

(٤) أبو الفرج الإصفهاني: الأغاني، ٢٩٤/٣.

هو كيسان، مولى علي بن أبي طالب، الذي نادى بأن محمد بن الحنفية لم يمت بل هو مختف في جبل «رَضْوَى»^(١)، وأنه سيعود ذات يوم إلى الأرض لينشر العدل.

مات هذا الإمام سنة ٨١هـ زمن الأمويين. من الواضح إذاً أن أفكار «المهدية» و«الرجعة» مرتبطت ببعضها ببعض. إن تركيز الشيعة على فكرة المهدية كان وسيلة لزرع الأمل لدى الأنصار حتى لا ييأسوا، وحتى لا ينفد صبرهم، مع العلم أن عدة مذاهب واتجاهات إسلامية لجأت إلى الطريقة نفسها^(٢).

أما رجعة الأئمة فقد جعل الشيعة منها ركيزة قوية من ركائز مذهبهم، فهذا السيد الحميري يقدم لنا مثلاً جيداً وهو يؤكد ويلح على «الرجعة»، خاصة رجعة محمد بن الحنفية: (من الطويل)

أَيَا شِعْبِ رَضْوَى مَا لِمَنْ بِكَ لَا يُرَى
فَحَتَّى مَتَى تُخْفَى وَأَنْتَ قَرِيبٌ
وَيَا بْنَ الْوَصِيِّ يَا سَمِيَّ مُحَمَّدٍ
وَكُنْيَتَهُ نَفْسِي عَلَيْكَ تَذْوِبُ^(٣)

الأوبة آتية لا محالة بالنسبة إلى هذا الشاعر مهما طال الزمن.

وحتى النحوي الشهير مُعَاذُ الْهَرَاءِ^(٤) نجده يتحدث عن المهدي المنتظر بشغف:

(من المتقارب)

وَمَا زِلْتُ فِي طَمَعٍ رَاجِيًا
أَوْ مَلُّ كَبْشٍ هُمْ أَنْ يَجِينَا^(٥)

(١) رضوى: جبل قرب المدينة؛ انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٥١/٣.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢٤١/٣؛ دار الكتاب العربي، دون تاريخ.

(٣) السيد الحميري: الديوان، ٦٨-٦٩.

(٤) معاذ الهراء (١٨٧هـ/٨٠٣م)، سمي الهراء لأنه كان يبيع الثياب الآتية من مدينة هرات.

(٥) المرزباني: معجم الشعراء، ٢٩٢.

وكان دعبل الخزاعي أيضاً متيقناً من هذه الرجعة: (من الطويل)
خُرُوجُ إِمَامٍ لَمْ يَخْرُجْ خَارِجٌ
يَقُومُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ
يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ
وَيَجْزِي عَلَى النُّعْمَاءِ وَالنَّقَمَاتِ^(١)

إن شعراء الشيعة يمدحون كل الطالبين وخاصة من يعدونهم أئمة لهم، لأن حب آل محمد من الإيمان. وقد استتبطوا هذا الموقف من الآية الكريمة: ﴿...قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٢). وقد علّق أحد المنظرين الشيعة على هذه الآية بقوله: «نعتقد: أنه زيادة على وجوب التمسك بآل البيت، يجب على كل مسلم أن يدين بحبهم ومودّتهم؛ لأنه تعالى في هذه الآية المذكورة حصر المسؤول عليه الناس في المودة في القربى. وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وآله: أن حبهام علامة الايمان، وأن بغضهم علامة النفاق، وأن من أحبهم أحب الله ورسوله، ومن أبغضهم أبغض الله ورسوله، بل حبهم فرض من ضروريات الدين الإسلامي التي لا تقبل الجدل والشك، وقد اتفق عليه جميع المسلمين على اختلاف نحلهم وآرائهم، عدا فئة قليلة اعتبروا من أعداء آل محمد، فنّبزوا باسم (النواصب) أي من نصبوا العداوة لآل بيت محمد»^(٣).

ولا داعي للقول بأن شعراء الشيعة كانوا فخورين بالحب الذي يكونه لآل البيت، فهذا ابن هرمة مثلاً يذكر ذلك بكل اعتقاد وإيمان: (من المتقارب)
وَمَهُمَا أُلَمُّ عَلَى حُبِّهِمْ
فَإِنِّي أُحِبُّ بَنِي فَاطِمَةَ

(١) دعبل: نفسه، ٨٧.

(٢) سورة الشورى، آية ٢٣.

(٣) محمد رضا المظفر: عقائد الإمامية، ١٠٩-١١٠.

بَنِي بِنْتٍ مَن جَاءَ بِالمُحْكَمَا

تِ وَالذَّيْنِ وَالسُّنَّةِ الْقَائِمَةَ^(١)

وكان الشاعر المكفوف أيضاً فخوراً بهذا الحب حيث يصرح قائلاً: (من الطويل)

أُحِبُّكُمْ حُبًّا عَلَى اللَّهِ أَجْرُهُ

تَضَمَّنُهُ الْأَحْشَاءُ وَاللَّحْمُ وَالِدَمُّ^(٢)

ويرى شاعر فاطمي مجهول ألا خلاص إلا بحب آل فاطمة: (من الرجز)

سَفِينَةُ النَّجَاةِ آلُ فَاطِمَةَ

تُرْوَى بِهِمْ نَارُ الْكُرُوبِ الْحَاطِمَةَ^(٣)

وكان الشاعر جحظة البرمكي أيضاً موافقاً لهذا الرأي: (من البسيط)

أَنَا الَّذِي حُبُّ آلِ الْبَيْتِ أَفْقَرُهُ

وَالْعَدْلُ مُسْتَعْبِرٌ وَالْجَوْرُ مُبْتَسِمٌ^(٤)

نجد أيضاً الكاتب الكوفي يوسف لقوة،^(٥) والأموي مروان بن محمد

السروجي،^(٦) وغيرهما كثيرون الذي تحدثوا جميعاً عن ضرورة حب آل محمد.

لكن يجب أن نلاحظ أن هذا الحب في العصر العباسي كان مرادفاً للتعذيب والألم.

لقد كان الشعراء الذين كانت عندهم شجاعة للتصريح بحبهم لآل البيت، أو حتى

الذين كان يشك في ولائهم لهم، يعاقبون ويعذبون من طرف العباسيين. كان هذا

الموقف ينظر إليه على أنه موقف سياسي بالدرجة الأولى وفي أغلب الأحيان.

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء المحدثين، ٢٠-٢١؛ ابن كثير: السابق، ١٠/١٧٠.

(٢) ابن عبدربه: العقد الفريد، ١/٢٨.

(٣) ابن الساعي: كتاب مختصر تاريخ الخلفاء، ٦٠.

(٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (طبعة الإرشاد)، ٢/٢٥٥.

(٥) نفسه، ٥٠٤.

(٦) نفسه، ٣٢١.

كل ذلك لأن هؤلاء الشعراء كانوا يمدحون الأئمة الشيعة واحداً واحداً مبرزين زهدهم، وعلمهم، وكرمهم، وكفاءتهم، مما يعني بطريقة غير مباشرة، أن الخلفاء العباسيين لا تتوافر فيهم تلك الصفات. يمكن أن نلمس ذلك مثلاً في المدائح الموجهة لعلي بن أبي طالب كما في القول التالي: (من السريع)

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَالْإِثْمِ
وَالْمَرْءِ عَلَى مَا قَالَ مَسْئُولٌ
أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ
عَلَى الثُّقَى وَالْبِرِّ مَجْبُورٌ^(١)

وإذا وضعنا الاتجاهات الشيعية جانباً، فإننا نلاحظ أن الشعراء تحدثوا عن كل الأئمة الطالبية وخاصة علي بن أبي طالب وأولاده الثلاثة الحسن والحسين ومحمد. هذا السيد الحميري الذي كان معروفاً بولائه للكيسانية، يتحدث عن هذا الإمام وأولاده الثلاثة: (من الوافر)

أَلَا إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ
وُلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ
عَلِيٌّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ
هُمُ أَسْبَاطُهُ وَالْأَوْصِيَاءُ^(٢)

هذا الشاعر مدح أيضاً جعفر الصادق^(٣)، وكذلك مدح الشعراء أمثال عبدالله ابن المبارك^(٤)، والحماني^(٥) الإمام الجواد.

كل شعراء الشيعة الحقيقيون كانوا مقتنعين وملتزمين يعملون وفق هذا البرنامج المرتبط بالعقيدة، ومن هنا نجاعته.

(١) أحمد فريد الرفاعي: عصر المأمون، ٢/٣٤٤، دار الكتب، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٢٧.

(٢) السيد الحميري: الديوان، ٥٠-٥١.

(٣) ابن شهر آشوب: السابق، ٣/٣٧١-٣٧٢.

(٤) نفسه، ٣/٣٩٧.

(٥) العاملي: السابق، المجلد الرابع، القسم الثاني، ٢٨٦.

لإكمال هذه الصورة، كان على شعراء الشيعة أن يواجهوا العباسيين مباشرة
بنعتهم بالكفار، والبخل، والجهل، والطاغوت والاعتصاب، وما إلى ذلك. كل هذا
ليدفعوا الناس للتخلي عنهم والالتحاق بالطالبيين.

كثير من هؤلاء الشعراء اشتهروا بشعرهم الهجائي ضد خلفاء بني العباس
مثل دعبيل الخزاعي الذي كان يهاجمهم علناً دون أن يتجنب واحداً منهم ودون أن
يخشى انتقامهم. يمكن أن نذكر هنا تلك القصيدة التي هجا فيها كل خلفاء بني
العباس منذ اعتلائهم العرش حتى العهد الذي عاش فيه، فهو يقول: (من الطويل)

بَكَى لِسْتَاتِ الدِّينِ مُكْتَتِبٌ صَبُ
وَقَاضٍ بِفَرْطِ الدَّمْعِ مِنْ عَيْنِهِ غَرْبُ
وَقَامَ إِمَامٌ لَمْ يَكُنْ ذَا هِدَايَةِ
فَلَيْسَ لَهُ دِينٌ وَلَيْسَ لَهُ لُبُ
وَمَا كَانَتْ الْأَنْبَاءُ تَأْتِي بِمِثْلِهِ
يُمَلِّكُ يَوْماً أَوْ تَدِينُ لَهُ الْعُرْبُ
وَلَكِنْ كَمَا قَالَ الَّذِينَ تَتَابَعُوا
مِنَ السَّلَفِ الْمَاضِي الَّذِي ضَمَّهُ التُّرْبُ
مُلُوكُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ
وَلَمْ تَأْتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُمْ كُتُبُ
كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ^(١) فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ
خِيَارٌ إِذَا عُدُّوا وَثَامِنُهُمْ كَلْبُ
وَأِنِّي لِأُعْلِي كَلْبَهُمْ عَنْكَ رِفْعَةً
لَأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبُ^(٢)

(١) سورة الكهف.

(٢) دعبيل: نفسه، ٤٩-٥٠.

ولم يسلم إبراهيم بن شكلة الذي نصب خليفة في بغداد بعد الحرب بين
الأخوين الأمين والمأمون مع الغمز في كونه كان مغنياً، مما جعل الخلافة يمكن أن
تؤول لأحد المغنين مثل مخارق: (من الكامل)

أَنْى يَكُونُ وَلَا يَكُونُ وَلَمْ يَكُنْ
يَرِثُ الْإِمَامَةَ فَاسِقٌ عَنْ فَاسِقِ
إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمَ مُضْطَلِعاً بِهَا
فَلْتَصْلُحَنَّ مِنْ بَعْدِهِ لِمَخَارِقِ^(١)

إن رشاقة هذا النص تكمن في أن الشاعر استعمل الأسلوب نفسه الذي
اعتمده الشعراء المناصرون للعباسيين للدفاع عن قضيتهم. كره هذا الشاعر
للخلفاء العباسيين واضح وجلي لأنه يراهم عبئاً على الرعية، وهي مجبرة على
تحملهم بالغم من كل شيء: (من البسيط)

خَلِيفَةٌ مَاتَ لَمْ يَخْزَنْ لَهُ أَحَدٌ
وَأَخْرُقَ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحَدٌ^(٢)

إن شراسة هذا الشاعر لا يمكن تفسيرها إلا بقناعته الكبيرة بقضية الطالبين
وبحب كبير لهم.

تشاء الأقدار أن يدفن هارون الرشيد في مكان سيدفن فيه الإمام الرضا
الطالبي أيضاً، فينبري هذا الشاعر لهذه المصادفة ويهاجم الخليفة العباسي،
ويقارن بينه وبين هذا الإمام بقوله: (من البسيط)

مَا يَنْفَعُ الرَّجْسُ مِنْ قُرْبِ الرَّكِيِّ وَلَا
عَلَى الرَّكِيِّ بِقُرْبِ الرَّجْسِ مِنْ ضَرِّ
قَبْرَانِ فِي طُوسَ خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ
وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعَبْرِ^(٣)

(١) ابن طيفور: نفسه، ١٠٦؛ ابن قتيبة: السابق، ٥٣١؛ ومُخَارِقُ كان مغنياً مشهوراً في ذلك العصر.

(٢) المرزباني: أخبار شعراء الشيعة، ٩٢-٩٣.

(٣) الحصري القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، ٨٥/١.

وقد تصدى الشعراء كذلك لأنصار العباسيين ولعمالهم وموظفيهم، خاصة أولئك الذين عرفوا بعدائهم للطالبيين مثل الوزير القاسم بن عبيد الله^(١). عندما مات هذا الوزير استغل أحد الشعراء ذلك فقال: (من الطويل)

خَرَجْتَ مِنَ الدُّنْيَا ذَمِيمًا إِلَى الْقَبْرِ
فَلَا أَحَدٌ يَأْسَى وَلَا عَبْرَةٌ تَجْرِي
وَتَرْتِ رَسُولَ اللَّهِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهَ طَالِبَ بِالْوَثْرِ^(٢)

لقد كان التزام هؤلاء الشعراء يدفعهم لرتاء كل الطالبيين، وخاصة الأئمة منهم، فيصفون تعاستهم، ومصائبهم، وكل المآسي التي تعرضوا لها. وكما هو منتظر فإن رثاءهم هو شعر حزين. حتى عندما يرثون طالبياً معيناً كانوا ينتهون دوماً بشمل كل الطالبيين وكل الشيعة، كما نرى ذلك في قول الشاعر غالب بن عثمان الطائي وهو يرثي إبراهيم بن عبدالله: (من الخفيف)

كَيْفَ بَعْدَ الْمَهْدِيِّ أَوْ بَعْدَ إِبْرَا
هِيمَ نَوْمِي عَلَى الْفِرَاشِ الْوَثِيرِ
وَهُمُ الدَّائِدُونَ عَنِ حُرْمِ الْإِسْ
لَامِ وَالْجَابِرُونَ عَظْمَ الْكَسِيرِ^(٣)

ويمكن أن نلاحظ الشيء نفسه عند السيد الحميري، أي طابع الحزن: (من الطويل)

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ أَلَّ مُحَمَّدٍ
قَتِيلٌ وَبَاقِ هَائِمٌ وَأَسِيرٌ

(١) وزير المعتضد من سنة ٩٠١م إلى ٩٠٢م، ووزير المكتفي من سنة ٩٠٢م إلى ٩٠٤م؛ انظر: D.Sourdel .Op.cit ٣٤٥-٣٥٧

(٢) البيهقي: المحاسن والمساوي، ٣٤٨.

(٣) أبو الفرج الإصفهاني: مقاتل الطالبيين، ٣٨٥.

تَنَامُ الْحَمَامُ الْوُرُقُ عِنْدَ هُجُوعِهَا

وَنَوْمُهُمْ عِنْدَ الرُّقَادِ زَفِيرٌ^(١)

نجد هذه المعاناة التي تعرض لها الطالبيون أيضاً مذكورة في شعر ابن الرومي (علي بن العباس)^(٢).

ومهما كان حديث هؤلاء الشعراء عن العذاب والمآسي التي تعرض لها الطالبيون فإنهم لم يستطيعوا وصف الحقيقة التي كانت تفوق ذلك بكثير. لقد تعذب الطالبون حقاً في عهدي الأمويين والعباسيين معاً. أبوتمام من الشعراء الذين استوحوا من هذا العذاب عدة أشعار^(٣). لكن لعل أشهرهم هو دعبل بن علي الخزاعي الذي يعد من المدافعين الشرسين عن قضية الطالبين شعراً وحرمة. لقد كانت أشعاره منتشرة بكثرة بين الناس، وخاصة تأييده الشهيرة: (من الطويل)

أَلَمْ تَرَ أَنِي مُذْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً

أُرْوَحُ وَأَغْدُو دَائِمَ الْحَسَرَاتِ

أَرَى فَيَتَّهُمْ فِي غَيْرِهِمْ مُتَقَسِّمًا

وَأَيْدِيهِمْ مِنْ فَيْتِهِمْ صَفِرَاتِ

بَنَاتُ زِيَادٍ فِي الْقُصُورِ مَصُونَةٌ

وَبِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْفَلَوَاتِ^(٤)

لم يكن لبني العباس من عذر في نظر هذا الشاعر لأنهم أقرباء الطالبين وأبناء عمومتهم بينما لم تكن قرابة الأمويين معهم بالدرجة نفسها: (من البسيط)

أَرَى أُمِّيَّةً مَعْدُورِينَ إِنْ قَتَلُوا

وَلَا أَرَى لِبَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ عُذْرٍ^(٥)

(١) السيد الحميري: الديوان، ٢٠٨.

(٢) أبو الفرج الإصفهاني: نفسه، ٦٤٦-٦٤٧.

(٣) أبوتمام: الديوان، ٤٩: ٦٦.

(٤) دعبل: نفسه، ٨٥-٨٦.

(٥) المرزباني: أخبار شعراء الشيعة، ٩٤-٩٥: العاملي: أعيان الشيعة، ج ٤، قسم ٢، ٢١٤.

كان لهذا البيت من الشعر صدى كبير بين الناس لصراحته وصحته. وهنا يمكن أن نذكر حديث النفس الزكية لما بكى عندما سمع شعراً للعبلي^(١) يبكي فيه بني أمية، والذي مطلعته:

تَقُولُ أُمَامَةٌ لَمَّا رَأَتْ

نُشُوزِي عَنِ الْمَضْجَعِ الْأَنْفَسِ

«فقال له عمه الحسن بن الحسن بن علي عليهم السلام: أتبكي على بني أمية وأنت تريد ببني العباس ما تريد؟ فقال: والله يا عم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم، وإن الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم. ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر»^(٢).

لقد بينت التجربة فيما بعد أنه كان على صواب في قوله، وقد تحدث الشعراء مراراً على غدر العباسيين، خاصة غدر الخليفة المنصور بالذات، أمثال عيسى بن زيد^(٣) زمن المهدي، وغيره كثيرون^(٤).

من الطبيعي ألا يطال ذلك الظلم الطالبين وحدهم فحسب، بل كذلك أنصارهم، خاصة الشعراء منهم الذين يعدون جنوداً من نوع خاص. هناك نص لأبي بكر الخوارزمي يذكر فيه كل ذلك بالتفصيل حيث يقول: «نص الخوارزمي»^(٥) لقد اتسمت العلاقات بين الطالبين والعباسيين دوماً بالعنف والعداوة المتبادلتين ما عدا في فترات قصيرة جداً التي عرفت نوعاً من الهدنة. لقد انغرس

(١) العبلي: هو عبدالله بن عمر بن عبدالله بن علي بن عدي، من الأمويين؛ كان منقطعاً إلى بني هاشم لكنهم في العصر العباسي جفوه فتار على المنصور مع النفس الزكية؛ انظر: أبو الفرج الإصفهاني: الأغاني، ٣٠٠/١١.

(٢) أبو الفرج الإصفهاني: نفسه، ٣٠٠/١١.

(٣) أبو الفرج الإصفهاني: مقاتل الطالبين، ٤١١-٤١٢.

(٤) ابن شهر آشوب: السابق، ٤٤١/٣.

(٥) عز الدين إسماعيل: الشعر العباسي، ٦٥-٦٦.

التشيع حتى في البلاط العباسي أو على الأقل نوع من العطف والمحبة والصدقة مع الطالبين. لنا أمثلة كثيرة على هذا الاختراق الشيعي الذي مس رجالاً كباراً ومؤثرين في محيط الخلفاء أمثال البرامكة والفضل بن سهل^(١) والظاهرين. مثلاً، في الأبيات التالية يكاد الفضل بن الربيع^(٢) يصرح بحبه للطالبين عندما يقول: (من مجزوء الكامل)

إِنِّي أَمْزُؤُ مِنْ هَاشِمٍ
بِفِنَاءِ مَعْمُورِ النَّوَاجِي
أَهْلِ الْهُدَى وَذَوِي التُّقَى
وَأُولِي الْبَسَالَةِ وَالسَّمَا حِ
أَهْلِ الْمَعَالِمِ وَالْمَكَامِلِ
رِمٍ وَالْكَمَالِ بِرَغْمِ لَأَحِي
يَتَأَلَّمُونَ مِنَ الصُّدُورِ
بِ وَيَضْبِرُونَ عَلَى الْجِرَاحِ^(٣)

وما جرى بين المأمون والإمام الرضا معروف. وما زال المؤرخون يحاولون إيجاد تفسير لذلك الانقلاب الذي قام به المأمون عندما عين أحد الشيعة ولياً للعهد. ولعل ذلك مرده إلى أن المأمون أراد أن يحد من ثورات الشيعة التي ازدادت حدة من جهة، ومن جهة ثانية الثورات الأخرى التي حدثت في جميع ربوع المملكة في بداية خلافته. لا ننس أنه خرج منهكاً من الحرب ضد أخيه الأمين مما شجع أبا السرايا على القيام بهجوم واسع في الوقت الذي كان فيه بابك الخرمي

(١) الفضل بن سهل (١٥٤-٢٠٢هـ/٧٧١-٨١٨م): كان وزيراً للمأمون؛ ثم كان قائداً عاماً للجيش العباسي ولهذا سمي «ذا الرياستين».

(٢) الفضل بن الربيع (١٣٨-٢٠٨هـ/٧٥٥-٨٢٤م): كان وزيراً لهارون الرشيد بغد سقوط البرامكة لكنه أبعد عن الشؤون العامة من قبل المأمون حتى وفاته.

(٣) الحصري القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، ٢/٢٥٤.

يستعد مع أصحابه للثورة أيضًا. إن اختيار أحد الشيعة وليًا للعهد كان تكتيكيًا من المأمون. ولكي يمعن في ذلك نجده يغير حتى شعار الدولة نفسه الذي أصبح أخضر بلون الطالبين^(١).

ويبدو أن هذا الطالب يرفض في البداية هذا العرض لكنه قبله بعد شهرين من التردد^(٢). لقد رفض العباسيون هذا الإجراء، كما كان منتظرًا، خشية منهم أن تؤول الخلافة بصفة نهائية إلى الطالبين. وقد حسم الخليفة هذا الجدل حول الرضا بقوله إنه يعرف الله أحسن منهم ويعرف رسوله وسنته وحديثه^(٣). لكن هذا المشروع لن يرى النور أبدًا لأن ذلك العلوي سرعان ما يموت في ظروف غامضة. يعتقد الشيعة أن الخليفة وضع له السم. وهي فرضية لا نستبعداها، كما لا نستبعد أن يكون العباسيون هم الذين قتلوه. وفي جميع الحالات، فإن الشاعر دعبل الخزاعي يظن ذلك الأمر الذي لا يبرئ العباسيين: (من الطويل)

شَكَكْتُ فَمَا أُذْرِي أَمْسَقِي شَرْبَةَ
فَأَبْكِيكَ أَمْ رَيْبُ الرَّدَى فَيَهُونُ^(٤)

أما الشاعر السوسي فقد كان مقتنعًا أن الخليفة هو الذي سمه: (من الرجز)

بِأَرْضِ طُوسَ نَائِي الأَوْطَانِ
إِذْ غَرَّهُ المَأْمُونُ بِالأَمَانِي
حِينَ سَقَاهُ السُّمَّ فِي الرُّمَّانِ^(٥)

لقد عرف الخليفة المتوكل بعدائه الشديد للطالبين. وهو الذي أمر بهدم مرقد الإمام الحسين سنة ٢٣٦هـ مما فسر على أنه إهانة كبرى للمعتقد الشيعي.

(١) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢/٢.

(٢) المسعودي: إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، ٢١٦؛ الطبعة الرابعة، النجف، ١٩٥٥.

(٣) أبو الفرج الإصفيهاني: مقاتل الطالبين، ٥٧١؛ العاملي: أعيان الشيعة، م ٤ قسم ٢٣٠-٢٣٢.

(٤) دعبل: نفسه، ٢٥١.

(٥) ابن شهر آشوب: السابق، ٤٨٢/٣.

جعلت هذه الفعلة عددًا كبيرًا من شعراء الشيعة يتصدون له بغضب، ويتحدثون
بمرارة عن هذا الحدث مثلما فعل علي بن بسام: (من الكامل)

تَالَهُ إِنْ كَانَتْ أُمِّيَّةٌ قَدْ أَتَتْ
قَتَلَ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّهَا مَظْلُومًا
فَلَقَدْ أَتَاهُ بَنُو أَبِيهِ بِمِثْلِهِ
هَذَا لَعَمْرُكَ قَبْرُهُ مَهْدُومًا
أَسْفُوا عَلَى أَنْ يَكُونُوا شَارِكُوا
فِي قَتْلِهِ فَتَتَّبِعُوهُ رَمِيمًا^(١)

لقد كان مرد موت هذا الخليفة جزئيًا إلى هذه الحادثة بينما نجد ابنه
المنتصر الذي خلفه عكس ذلك تمامًا. لقد قرب الطالبيين منه وعاملهم معاملة
حسنة مما جعل الشعراء يشكرون له هذا الصنيع. هذا البحرني يشكره على هذا
الموقف الكريم بقوله: (من المتقارب)

فَقَرَّبْتِ مِنْ حَظِّهِمْ مَا نَأَى
وَصَقَّيْتِ مِنْ شُرْبِهِمْ مَا كَدَزَ^(٢)
وهذا يزيد المهلبي يشكره كذلك: (من الكامل)
وَلَقَدْ بَرَّرْتَ الطَّالِبِيَّةَ بَعْدَمَا
ذُمُّوا زَمَانًا بَعْدَهَا وَزَمَانًا
وَرَدَدْتَ أُلْفَةَ هَاشِمٍ فَرَأَيْتَهُمْ
بَعْدَ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ إِخْوَانًا
أَمْنْتِ لِيَالَهُمْ وَجَبَدْتَ عَلَيْهِمْ
حَتَّى نَسُوا الْأَحْقَادَ وَالْأَضْغَانَ^(٣)

(١) ابن بسام: السابق، ٥٦.

(٢) الصولي: أخبار البحرني، ١٠١ (هامش): تحقيق صالح الأشر، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٥٨.

(٣) نفسه، ١٠١؛ ابن الساعي: السابق، ٦٨.

ربما كان هذا الخليفة صادقاً في مشاعره نحو الطالبين لكنه للأسف لم يبق في الخلافة سوى ستة أشهر، لكن هذه الطريقة التي اتبعها كانت كثيراً ما تستعمل من قبل العباسيين لضرب خصومهم واستدراجهم. في هذا السياق، وجدنا وثيقة مهمة تعود إلى عهد المهدي نقلاً عن الأزدي في تاريخه للموصل.

هي عبارة عن كتاب أرسله المهدي إلى عبدالسلام بن هارون الرشيد اليشكري الذي خرج ثائراً في منطقة الموصل. جاء في هذا الكتاب ما يلي: «إني عجبت من إقدامك وبغيك حيث تكلمت بكلمة حق تريد بها باطلاً ما الله مجزيك به وسألتك عنه مع مناوأتك خليفته ونزعك يدك من طاعته، وشتك أبا الحسن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، ووقوعك فيه وتقصك إياه، وولايتك لمن عاداه الله عز وجل، فالله عز وجل عصيت، ونبيه صلى الله عليه وسلم عادت، فقد أتاك يقينا ماضياً وحديثاً صادقاً عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(١). إنها وثيقة خطيرة حيث يعترف الخليفة المنصور نفسه بذلك الحديث الذي يعتمد عليه الشيعة في أحقيتهم بالخلافة، فهو هنا يعتمده كذلك لمجابهة أحد الخصوم وتأييب الرأي العام ضده باستعمال هذا الحديث.

لقد اعتمد شعراء الشيعة طريقتين للإعلان عن مواقفهم، تتمثل الأولى في المجابهة المباشرة والصريحة والإعلان عن ذلك بكل شجاعة، بينما تتمثل الثانية في اعتماد السرية عندما تقتضي الظروف ذلك، والتستر والتمويه. كان للطريقتين هدف واحد هو الاستيلاء على الخلافة والحكم، ليس بطريقة مباشرة دائماً ولكن بتحضير الشعب لذلك وتحسيسه. يجب الملاحظة هنا أن مرحلة التكنم والسرية هي ضرورية أحياناً لكل الحركات التي تطمح في تغيير النظام القائم. حتى العباسيون اعتمدوا الطريقة نفسه في أول أمرهم عندما كانوا يعدون لثورتهم.

(١) الأزدي: تاريخ الموصل، ٢٢٨.

وجدت في تلك المدة عدة مجموعات من الشيعة كانت تشتغل في سرية.
وقد اتبع بعض الشعراء الطريقة نفسها أي اعتماد السرية. ويحكى أن الإمام زين
العابدين كان يمدح مزايا السرية في البيتين التاليين: (من البسيط)

إِنِّي لَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِي جَوَاهِرَهُ
كَئِلاً يَرَى الْحَقُّ ذُو الْجَهْلِ فَيَفْتِنَنَا
وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا أَبُو حَسَنِ
إِلَى حُسَيْنٍ وَأَوْصَى قَبْلَهُ الْحَسَنًا^(١)

وقد كان هؤلاء الشعراء يتصرفون بهذا الشكل خشية انتقام العباسيين منهم
كما يقول الخباز البلدي: (من الوافر)

جَحَدْتُ ولاءَ مَوْلَانَا عَلِيٍّ
وَقَدَّمْتُ الدَّعِيَّ عَلَى الوَصِيِّ
مَتَى مَا قُلْتُ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى
مِنَ اللَّحَظَاتِ فِي قَلْبِ الشَّجِيِّ^(٢)

كان بعض الشعراء يبالغون في هذا التصرف مثل منصور النمري الذي كان
يتظاهر بكونه المدافع المنافح القوي عن أحقية العباسيين بالخلافة إلى درجة جعلته
يسيء أحياناً إلى الطالبين^(٣). ويعتقد أنه عندما كان يذكر هارون الرشيد إنما كان
يقصد علي بن أبي طالب كما في قوله هذا: (من البسيط)

أَلِ الرَّسُولِ خِيَارُ النَّاسِ كُلِّهِمْ
وَخَيْرُ أَلِ رَسُولِ اللَّهِ هَارُونَ
رَضَيْتُ حُكْمَكَ لَا أَبْغِي بَدَلًا
لَأَنَّ حُكْمَكَ بِالتَّوْفِيقِ مَقْرُونٌ^(٤)

(١) الجرازي: الشعر السياسي، ١٢٥.

(٢) القفطي: المحمدون من الشعراء، ٣٣.

(٣) الحصري القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، ٦٨/٣.

(٤) الشريف المرتضى: أمالي المرتضى، ٢٧٦/٢.

ولكنه أحياناً يعلن صراحة حبه للطالبيين: (من مجزوء الكامل)

أَلِ الرَّسُولِ وَمَنْ يُحِبُّهُمْ

يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ^(١)

ومرات نجده يهاجم كل من يتعرض للطالبيين بسوء كما في قوله:

(من المنسرح)

شَاءَ مَنْ النَّاسِ رَاتِعُ هَامِلُ

يُعَالُّونَ النَّفُوسَ بِالْبَاطِلِ

تُقْتَلُ ذُرِّيَّةُ النَّبِيِّ وَيَرُ

جُونَ جِنَانَ الْخُلُودِ لِلْقَاتِلِ

وَعَاذِلِي أَنِنِي أُجِيبُ بَنِي

أَحْمَدَ فَالْتُرْبُ فِي فَمِ الْعَاذِلِ

قَدْ ذُقْتُ مَا دِينُكُمْ عَلَيْهِ فَمَا

وَصَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِلِ^(٢)

وقد فعل الشاعر محمد بن صالح الطالبي الشيء نفسه بمدحه للخليفة المتوكل متبعاً الطريقة ذاتها^(٣). وكان البحثري أيضاً ضمن أولئك الشعراء المناصرين خفية للشيعة^(٤).

ومن جهة ثانية، كان هناك الموقف الصريح والشجاع والعلني أين يتكلم الشعراء بوضوح عن معتقدتهم الشيعي دون خشية من العباسيين الذين كان بيدهم كل الوسائل المختلفة لإسكاتهم. لكن هذا الموقف، كما سنرى، لم يكن له دوماً

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء المحدثين، ٢٤٦.

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ٥٢٧؛ ابن المعتز: نفسه، ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) أبوالفرج الإصفهاني: مقاتل الطالبيين، ٦١٠.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٩٨/٣.

الدرجة نفسها عند هؤلاء الشعراء. يبدأ ذلك الموقف عادة بالشكوى من الظلم والظيم كما هي الحال عند أبي طالب محمد بن عبدالله بن حسين الجعفري الذي حاول تبييه العباسيين من أن التعذيب والاضطهاد لا يولدان إلا الحقد والانتفاضة: (من الطويل)

بَنِي عَمَّنَا لَا تُذْمِرُونَا سَفَاهَةً
فَيَنْهَضَ فِي عِضْيَانِكُمْ مَنْ تَأَخَّرَا
وَإِنْ تَرْكَبُونَا بِالْمَذَلَّةِ تَبِعْتُمَا
لِيُوثَا تَرَى وَرَدَ الْمَنْيَّةِ أَعْذَرَا
وَإِنْ تَرْفَعُوا عَنَّا يَدَ الظُّلْمِ تَجْتَنُّوَا
لِطَاعَتِكُمْ مِنَّا نَصِيباً مُؤَخَّرَا^(١)

وقد ذهب هذا المذهب شاعر شيعي مجهول من أهل الكوفة أثناء ثورة محمد ابن عبدالله حين حذر من النتيجة الوخيمة التي يمكن أن يصل إليها العباسيون بسبب سياستهم المتبعة تجاه الطالبين: (من الوافر)

أَرَى نَاراً تُشَبُّ عَلَى يَفَاعِ
لَهَا فِي كُلِّ نَاجِيَةٍ شُعَاعِ
وَقَدْ رَقَدَتْ بَنُو الْعَبَّاسِ عَنْهَا
وَبَاتَتْ وَهِيَ أَمِنَةٌ رِتَاعِ
كَمَا رَقَدَتْ أُمِّيَّةٌ ثُمَّ هَبَّتْ
تُدْفَعُ حِينَ لَاتٍ دِفَاعِ^(٢)

ويمكن أن نذكر في هذا السياق أشعار الحماني الموجهة إلى حسن إسماعيل، القائد العسكري العباسي الذي قتل ابن عمه يحيى بن عمر^(٣). كما نذكر أيضاً

(١) الصفدي: السابق، ٣/٢٤٤؛ المرزباني: السابق، ٣٨٢.
(٢) ابن خلكان: السابق، ٣/١٥٠؛ في البيت الأخير إقواء.
(٣) الحماني: الديوان، ٢١٤؛ أبو الفر الإصفهاني: مقاتل الطالبين، ٤٧٦.

بعض الكتاب المجهولين^(١)، أو أشعار محمد بن عبدالله بن حسين^(٢)، أو موسى بن عبدالله^(٣). غير أن بعض الشعراء لم يبقوا عند هذا الحد من المواجهة بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بتحديهم للخلفاء أنفسهم حين كان هؤلاء الخلفاء يقتلون حتى من يشكون في اتجاهه الشيعي. لنا مثال في جعفر بن القاسم الذي قال للوائح شخصياً: (من الكامل)

فَمَتَى تُنَالُ خِلَافَةَ بِوِلَادَةٍ
وَأَنَا أَحَقُّ مِنَ الْإِمَامِ الْقَائِمِ
لَوْ قِيلَ لِلْمَهْدِيِّ مَنْ لِخِلَافَةِ
مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ يَا بَنَ خَيْرِ الْعَالَمِ
لَحَكَى حِكَايَةَ عَالِمٍ بِمَقَالَةٍ
إِنَّ الْخَلِيفَةَ جَعْفَرُ بْنُ الْقَاسِمِ^(٤)

مع الملاحظة أن هذا الشاعر كان موظفًا عباسياً وكان والياً على البصرة.

لقد نتج عن الصراع بين الفرعين الهاشميين نوع من الشعر يمكن أن نسميه «شعر الجدل المذهبي» أو بكل بساطة «الشعر الأيديولوجي». يرتكز هذا الشعر على الحجة والدليل. إنه رد على الشعر العباسي في هذا المجال مما أدى إلى ظهور «نقائض» مثل تلك التي كانت معروفة في العصر الأموي وحتى قبله. يتعلق الأمر هنا كذلك بالرد على الشاعر الخصم بقصيدة على القافية نفسها، وعلى الروي نفسه. عندنا مثال على ذلك فيما نقض فيه شعر مروان بن أبي حفصة المعروف بتحمسه وعداوته للطالبيين، فعلى قصيدته التي مطلعها:

أَنْى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنِ
لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَأثَةَ الْأَعْمَامِ

(١) المرزباني: السابق، ٣٨٢-٣٨٣.

(٢) نفسه.

(٣) أبو الفرج الإصفهاني: نفسه، ٤٥٤.

(٤) الصفدي: السابق، ١٠/١٣٢.

يرد عليه عفان الطائي بقوله: (من الكامل)

لَمْ لَا يَكُونُ وَإِنَّ ذَاكَ لَكَائِنُ

لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَاثَةُ الْأَعْمَامِ^(١)

وهذا أبو علي البصير يرد على علي بن الجهم بقوله: (من الكامل)

إِنْ لَمْ أَشُنْ عَلَى عَلِيٍّ^(٢) حَمَلَةٌ

تُضْحِي قَذَى فِي أَعْيُنِ الْأَشْرَافِ^(٣)

ويقول البحري أيضاً في السياق نفسه راداً على هذا الشاعر كذلك:

(من السريع)

إِنْ أَكْسَدَتْ سُوقُكَ أَوْ أَخْلَقَتْ

بِضَاعَةٍ مِنْ شِعْرِكَ الْخَائِبِ

أَنْشَأْتَ كَيْ تَنْفِقَهَا مُزْرِيًّا

عَلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبِ

قَدْ أَنْ يَبْرُدَ مَعْنَاكُمْ

لَوْلَا لَجَاجُ الْقَدْرِ الْغَائِبِ^(٤)

وفي المقابل، نجد طبعاً شعراء العباسيين يردون كذلك على شعراء الشيعة

ويتصدون لهم كرد أحمد بن يحيى^(٥) على الخليفة الفاطمي بقوله: (من الطويل)

أَلَسْتَ قَرِيبًا كُنْتَ تَدْعُو إِلَى امْرِئٍ

سِوَاكَ إِمَامٍ كَانَ عِنْدَكَ مُرْتَقِبٌ

(١) أبو الفرج الإصفيهاني: الأغاني، ٩٥/١٠.

(٢) يقصد علي بن الجهم الشاعر.

(٣) أبو علي البصير، الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس النخعي (٢٥٥هـ/٨٦٩م): أشعار أبي علي البصير،

١٦٢٥؛ تحقيق يونس أحمد السامرائي، ضمن مجلة «المورد»، مجلد ١ العددان ٣ و٤، بغداد، ١٩٧٧.

(٤) البحري: الديوان، ١٧٦/١.

(٥) لعله أحمد بن يحيى البلاذري (٢٧٩هـ/٨٩٢م).

فَصِرْتَ الَّذِي قَدْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّهُ
 إِمَامُكَ بِالْخِذْلَانِ ذَا أَعْجَبِ الْعَجَبِ
 فَإِنَّكَ فِي دَعْوَاكَ أَنْكَ مِنْهُمْ
 كَمَنْ يَدَّعِي أَنْ النُّحَاسَ مِنَ الذَّهَبِ
 وَلَوْ كُنْتَ مِنْهُمْ مَا انْتَهَكْتَ مَحَارِمًا
 يَذُبُّونَ عَنْهَا بِالْأَسِنَّةِ كَالشُّهُبِ^(١)

لقد انتشر شعر النقائض هذا في تلك الفترة من الزمن. ولعل أحسن مثال له هو تلك النقائض المتبادلة بين عبدالله بن المعتز وتميم بن المعز، فهي وحدها تشكل ديواناً كبيراً^(٢).

لقد كان هؤلاء الشعراء يحاربون على عدة جبهات وبكل الوسائل، فهم يستعملون التاريخ والقرآن والحديث والسنة والمنطق وكل الحجج الممكنة. وكلما ازداد تشبث العباسيين بالسلطة كلما كرر هؤلاء الشعراء أفكارهم الهجومية. وكان واحد من تلك الأسلحة التي استعملوها في ذلك الصراع مقارنة الإمام علي بن أبي طالب مع بقية الخلفاء الراشدين. ولنر كيف يرد الحماني، نقيب أشرف الكوفة، هجوم العباسيين بقوله: (من الطويل)

لَقَدْ فَاحَرَّتْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ
 بِمَطِّ خُدُودٍ وَأَمْتِدَادِ أَصَابِعِ
 فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْفَخَارَ قَضَى لَنَا
 عَلَيْهِمْ بِمَا نَهَوَى نِدَاءَ الْجَوَامِعِ
 بَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَا شَكَّ جَدُّنَا
 وَنَحْنُ بَنُوهُ كَالنُّجُومِ الطَّوَالِعِ

(١) ابن ظافر، جمال الدين علي ظافر بن حسين الأزدي الخزرجي (٥٦٧-٦١٣هـ/١١٧١-١٢١٦م): أخبار الدول المنقطعة، ٣: تحقيق اندريه ف. إفيو (André F. Iféo)، القاهرة، ١٩٧٢.
 (٢) انظر أحمد محمد السيد: نقائض ابن المعتز وتميم بن المعز، الطبعة الثانية، دار البعث، قسنطينة، ١٩٨٠.

تَرَانَا سُكُوتًا وَالشَّهِيدُ بِفَضْلِنَا

عَلَيْهِمْ جَهِيرُ الصُّوتِ فِي كُلِّ جَامِعٍ^(١)

لقد فتح الحماني بهذه المرافعة أمام الشعراء الشيعة الباب واسعاً للمقارنة بين الصحابة أنفسهم ليبرهنوا في النهاية أن علياً كان أفضلهم، ومن ثم، فهو الأجدر للقيام بمهام الخلافة السامية. وكانت هذه المقارنة تتم عادة بينه وبين الخليفين الأوليين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب اللذين كانا يحظيان باحترام كبير من قبل المسلمين. بالنسبة إلى عمر، نجد مثلاً قول العبدي الذي يذكر اعتراف عمر بكفاءة علي: (الرجز)

إِنَّا رَوَيْنَا فِي الْحَدِيثِ خَبَرًا

يَعْرِفُهُ سَائِرُ مَنْ كَانَ رَوَى

أَنَّ ابْنَ الْخَطَّابِ أَتَاهُ رَجُلٌ

فَقَالَ: كَمْ عِدَّةَ تَطْلِيْقِ الْإِمَامِ؟

فَقَالَ: يَا حَايِدِرْ كَمْ تَطْلِيْقَةٌ

لِلْأَمَّةِ؟ اذْكُرْهُ فَأَوْصَى الْمُرْتَضَى

بِإِضْبَاعِيهِ فَتَنَى الْوَجْهَ إِلَى

سَائِلِيهِ، قَالَ: ائْتِنَانِ وَإِنْتَنَى

قَالَ لَهُ: تَعْرِفُ هَذَا؟ قَالَ: لَا

قَالَ لَهُ: هَذَا عَلِيٌّ ذُو الْعُلَى^(٢)

واضح أن الشاعر، وهو يعرف أن عمر بن الخطاب كان كفواً في هذا المجال، إلا أنه من حين لآخر كان يستشير علي بن أبي طالب ويأخذ رأيه في بعض قضايا الدين كهذه القضية مثلاً. هذا الشعر إذن يتضمن أن علياً كان أكفأ من عمر في مجال التشريع والفقه، ولذا فهو أصلح لتولي المنصب الذي كان يشغله عمر.

(١) الحماني: الديوان، ٢٠٩.

(٢) ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ٢/٢٩٨.

ويتكلم الحماني عن أبي بكر معترفاً بمكانته بقوله: (من السريع)
 قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ لَهُ فَضْلُهُ
 قَلْنَا لَهُمْ: هَذَا اللَّهُ
 نَسِيْتُمْ خُطْبَةَ (خُمْ) وَهَلْ
 يُشَبِّهُ الْعَبْدُ بِمَوْلَاهُ؟
 أَنْ عَلِيًّا كَانَ مَوْلَى بِنْتِ
 كَانَ رَسُولِ اللَّهِ مَوْلَاهُ^(١)

ويكرر السيد الحميري الكلام عن حديث خم مؤكداً أنه جرى بحضور عدة صحابة، وهم الشهود على شرعية علي وأحقيته بالخلافة: (من الرجز)

قَامَ النَّبِيُّ يَوْمَ خُمٍّ خَاطِبًا
 بِجَانِبِ الدُّوْحَاتِ أَوْ حِيَالِهَا
 فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ لَهُ مَوْلَى فَهَذَا
 مَوْلَاهُ رَبِّي اشْهَدُوا مِرَارًا قَالَهَا
 قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا كُلُّنَا
 وَأَسْرَعُوا بِاللِّسَانِ اشْتِغَالَهَا
 وَجَاءَهُمْ مَشِيخَةٌ يَفْدُهُهُمْ
 شَيْخٌ يَهْنَأُ حَيْدَرًا مِثَالَهَا
 قَالَ لَهُ: بَخٍ بَخٍ مَنْ مِثْلَكَ؟
 أَصْبَحْتَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ يَا لَهَا^(٢)

(١) الأميني، عبدالحسين: الغدير في الفقه والسنة والأدب، ٥٣/٣: الطبعة الثانية، مطبعة الحيدري، تهران، ١٣٧٢هـ.

(٢) السيد الحميري: الديوان، ٣٢٩-٣٣٠.

باختصار، بذل شعراء الشيعة، وخاصة من كانوا طالبين مثل الحماني، كل الجهود المضنية والممكنة لتتجح قضيتهم. والحقيقة أنه لم يكن بإمكانهم سوى فعل ذلك.

ج - خصائص الشعر الشيعي:

يتميز الشعر الشيعي بعدة خصائص يمكن ملاحظتها واستنباطها بسهولة، وهي كالتالي:

الصدق العاطفي:

يمكن أن نفسر هذا الصدق العاطفي بكون شعراء الشيعة مقتنعين بمبادئ قضيتهم، ولا يريدون من وراء ذلك لا جزاء ولا شكورا، وإنما يسدون خدمة إلى حزبهم عكس الشعراء المناصرين للعباسيين الذي كانوا يتلقون أموالاً مقابل مواقفهم تلك. كان شعراء الشيعة مقتنعين أن دينهم يفرض عليهم أن يتصرفوا بذلك الشكل زيادة على حبهم للنبي ولابنته. كانوا يطلبون الرضوان من خلال ذلك الحب، دون أن ننسى أن المعاناة التي تعرض لها الطالبيون جعلتهم يتحولون إلى رموز للمطالب الشعبية الراغبة في إيجاد مجتمع أفضل لا وجود فيه للظلم واللامساواة. لم يكونوا يملكون وسيلة أخرى غير الشعر لمواجهة القمع العباسي.

هذا الشعر الذي كان ملجأً للهروب من الواقع المظلم أيضاً بالنسبة إليهم. وكان هذا الصدق يتجسد أحياناً في تلك الشجاعة النادرة التي تحلى بها أولئك الشعراء في الإعلان عن مواقفهم وإبداء رأيهم في الشأن السياسي للدولة العباسية، وأيضاً بإعلانهم الصريح عن حبهم للطالبين، كما يلخص ذلك الإمام الشافعي: (من الكامل)

إِنْ كَانَ رَفْضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ

فَلَيْشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِي رَافِضِي^(١)

(١) الشافعي، محمد بن إدريس (١٥٠-٢٠٤هـ/٧٦٧-٨٢٠م): الديوان، ١١٨؛ دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢.

ويظهر هذا الصدق أحياناً في تلك الشجاعة الاستثنائية في المواجهة المباشرة للعباسيين على الرغم من قوة بطشهم، كما كان يفعل دعبل بن علي الخزاعي مع الخلفاء، وبحضورهم أحياناً. وفي كلمة واحدة، نقول إن الشعر الشيعي كان صادقاً عكس ما يزعمه بعض الباحثين^(١).

القوة والحماس:

نستطيع أن نتحسس هذه القوة وهذا الحماس في شعر الشيعة الموجه مباشرة للخصوم. ولكن، عندما يهتم هذا الشعر بالحجاج والجدال تنقص تلك القوة، ويخفت ذلك الحماس تاركين المجال للتريث والتدقيق ومقارعة الحجّة بالحجة، لأن الشعراء حينها يحتاجون إلى الهدوء والرصانة لتحقيق ذلك. والحقيقة أننا لسنا في حاجة للبرهنة على هذا الحماس الذي يتميز به الشعر الشيعي، فهو تحصيل حاصل، لأنهم كانوا مدفوعين بعاطفة صادقة أساسها حب آل محمد.

الأسلوب:

يتراوح أسلوب الشعر الشيعي بين القوة والضعف، والفصاحة والبساطة لأنهم كانوا متأثرين جداً بالعاطفة التي تحكمهم أثناء قول الشعر. لقد كانوا يهتمون بالدرجة الأولى بالبرهنة على شرعية مطالبهم ومبادئهم أي شرعية الطالبين وأحقيتهم في الخلافة مما جعل بعض أشعارهم تتحول إلى شعر تعليمي مليء بالآيات والأحاديث، وحينها يضعف أسلوبهم، ويختفي الجانب الجمالي من شعرهم ليترك المكان للحجة.

الحزن:

الحزن خاصية أساسية من خصائص شعر الشيعة بسبب المآسي التي تمتد عبر تاريخ الطالبين منذ وفاة الرسول ﷺ إلى العصر العباسي الذي نحن بصددده.

(١) الجراي: الشعر السياسي، ١٥٨ وما بعدها.

والحزن أيضاً مصدره العقوق ونكران الجميل تجاه عائلة الرسول ﷺ. لقد لخص الشاعر دعبل بن علي الخزاعي هذه الحال بقوله: (من الكامل)

إِنَّ الْيَهُودَ بِحُبِّهَا لِنَبِيِّهَا
أَمِنَتْ مَعَرَّةَ دَهْرِهَا الْخَوَّانِ
وَدَوُّو الصَّلِيبِ بِحُبِّ عَيْسَى أَضْبَحُوا
يَمَشُّونَ زَهْوَاً فِي قَرَى نَجْرَانَ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِحُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ
يُرْمَوْنَ فِي الْأَقَاقِ بِالنَّيْرَانِ^(١)

لقد اشتهر شعراء شيعة كثيرون بشعرهم الحزين أمثال دعبل بن علي الخزاعي^(٢)، وموسى بن عبدالله^(٣)، وعلي بن عبيد الله^(٤)، وغيرهم.

٢ - الشعر والخوارج:

لن نتحدث عن ظهور الخوارج الذي يدور حوله جدال كبير في المصادر والمؤلفات المختلفة^(٥). لكن لا بد من الإشارة إلى أن هذا الظهور مرتبط بالظروف التي سادت بعد وفاة الرسول ﷺ، والخلاف الذي حدث بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب. كانوا في الأصل أنصاراً لعلي قبل أن يتخلوا عنه وأن يرتدوا عليه وعلى معاوية معاً. كان ذلك بعد التحكيم الشهير بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري. لقد انقسموا بعد ذلك إلى عشرين فرقة أشهرها الأباضيون والصفريّة والنجدات والأزارقة^(٦). لكن هذه الفرق جميعها يجمعها قاسم مشترك يتمثل في المبادئ الخارجية التي يمكن إجمالها كالتالي:

- (١) دعبل: نفسه، ٢٧٣؛ البيهقي: المحاسن والمساوي، ٦٨.
- (٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٣/٢٩٧.
- (٣) أبو الفرج الإصفهاني: مقاتل الطالبين، ٣٩٤.
- (٤) المرزباني: معجم الشعراء، ١٣٧.
- (٥) انظر نايف معروف: الخوارج في العصر الأموي؛ دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٩.
- (٦) البغدادي: الفرق بين الفرق، ٧٢ وما بعدها.

١ - الإمامة يستلها الشخص الأفضل دون تمييز في العرق أو اللون أو الأصل.

٢ - الإمامة فرع وليست أصلاً من أصول الإيمان وتتم بالاختيار وبالبيعة.

٣ - الخروج ضد كل سلطان ظالم واجب.

٤ - مرتكب الكبائر يخلد في النار.

٥ - الإيمان بالوعد والوعيد والعدل والتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١).

هناك فرق إسلامية أخرى تشترك معهم في بعض من هذه المبادئ لكن الذي يميزهم حقاً هو رأيهم في الإمامة الذي يتميز باتجاه ديمقراطي في تلك الحقبة من تاريخ الإسلام.

اعتمد الخوارج منذ أول ظهورهم مبدأ الثورة على الطغاة والظلمة. لن يفارقهم هذا المبدأ طوال تاريخهم أبداً، فهم لم يتوقفوا بعد ذلك عن محاربة الأمويين حتى أنه من المؤكد أنهم قاموا بدور كبير في إضعافهم.

ونجدهم في العهد العباسي كذلك ثائرين على النظام القائم الذي يرون فيه اغتصاباً وطمعاً. وهكذا تواجهنا عدة ثورات خارجية في الموصل، والجزيرة، وخراسان، والمغرب. إن نظرة سريعة إلى هذه الثورات المستمرة تعطينا فكرة عن اتساع رقعة الفكر الخارجي في الإمبراطورية الإسلامية. لقد ثار الخوارج في المغرب العربي في بداية العصر العباسي، وكونوا دولتهم الأولى في طرابلس ثم في تيهرت، وقد ساعدتهم في ذلك الصدى الإيجابي لأفكارهم بين أوساط سكان تلك المنطقة. لقد اعتنق البربر الأفكار الخارجية لأنها تتماشى مع توجهاتهم الديمقراطية.

(١) النوبختي: فرق الشيعة، ٣١؛ علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ٦٢/١؛ محمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم، ١٤٥-١٤٦؛ حسن مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ٥٠٩/١؛ عبد الحميد بلع: أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، ٢٥-٢٦؛ مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٩؛ عبد المحسن طه حميدة: أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، ٨٠؛ دائرة المعارف، ١٤/١.

لقد حاول العباسيون كعادتهم القضاء على تلك الحركة فأمروا حاكم مصر،
العوام بن عبدالعزيز البَغَلِي بالتوجه إليهم إلا أن الخوارج الذين كانوا في انتظاره
بقيادة أبي الخطاب عبدالمملك بن أسمح انتصروا عليه وأسروا جل جنده أو
قتلوه^(١). حدث ذلك سنة ١٤٢هـ/٧٥٨م.

وفي السنة الموالية توجه نحوهم كذلك قائد عسكري عباسي آخر هو
أبوالأحوص، على رأس جيش مكون من ستة آلاف جندي فاشتبك معهم قرب برقة
ولكن بدون نتيجة. ثم وجه قائد ثالث هو ابن الأشعث فاستطاع في النهاية أن يقتل
أبا الخطاب وأن يستولي على القيروان^(٢). يتجه الخوارج بعد ذلك نحو الغرب أكثر
فأكثر فيكونون بعد مدة قليلة من ذلك دولتهم في تيهرت^(٣).

أما في المشرق فإن الموصل كانت مركزهم المفضل على ما يبدو للثورة
والانتفاضة على النظام العباسي، فقد توالى ثوراتهم هناك. في سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م
اندلعت ثورة خارجية بقيادة قائد اسمه عبدالسلام^(٤).

وفي سنة ١٦٨هـ/٧٨٤م استطاع ياسين، وهو بدوي من قبيلة تميم، أن ينتصر
على حامية الموصل ومعظم ديار بكر والجزيرة. وقد استطاع هذا الرجل أن يقف
في وجه قائدين عباسيين مشهورين هما حُرَيْرَة بن فَرُوخ وهرثمة بن أعين.

لكنه يقتل فيما بعد مع عدد من رفاقه^(٥). ثم ظهر الصحاح بعد ثلاث
سنوات من ذلك في الجزيرة وتوجه إلى الموصل^(٦). وفي سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م يظهر
الوليد بن الطريف الشاري المشهور في الجزيرة، ويقتل القائد العباسي خازم بن
خُزَيْمَة في ناصِيبين ثم يتوجه نحو أرمينية^(٧).

(١) ابن خياط: السابق، ٦٤٤/٢.

(٢) ابن الخياط: السابق، ٦٤٥/٢.

(٣) انظر جودت عبدالكريم: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ٢٧ وما بعدها.

(٤) ابن الأثير: السابق، ٤٨/٦.

(٥) نفسه، ٧٨/٦.

(٦) نفسه، ١١٢/٦.

(٧) ابن الأثير: السابق، ١٣٣/٦-١٣٤.

وفي سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م ظهر سيف بن بكر من ناحية بني عبدالقيس^(١). ثم ثار ثرؤان بن سيف في السنة الموالية في ضواحي مولايا^(٢). وبعدها خرج كل من مهدي بن علوان^(٣) سنة ٢٠٢هـ/٨١٨م، ومساور بن عبدالحميد^(٤) سنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م إلخ. يعلل بعض الباحثين وجود هذا العدد الكبير من الثورات في منطقة الجزيرة بسبب وجود عدد من القبائل العربية هناك مع تنوع مواقفها وأهدافها. وربما كان لنمط عيشها البدوي الرعوي دور في ذلك أيضا، خاصة قبيلة شيبان التي كانت أكبر قبيلة. وكانت مرابعا شرق الموصل^(٥).

هذا صحيح، ولكن لا يمكن أن يكون ذلك هو السبب الوحيد لتلك الثورات المتكررة. يمكن أن نضيف الأسباب السياسية العباسية السيئة في مجال الضرائب. ولا ننس أيضا أنه كان لتلك القبائل بعض الامتيازات لكنها فقدتها بعد اعتلاء العباسيين السلطة. لقد وصلت الأمور إلى درجة خطيرة في تلك المناطق لأن عمال الخراج لم يكتفوا باستخراج المتأخر منه بعنف وقسوة بل أضافوا أشياء أخرى أكثر قساوة وتشدداً كاستحداث ضريبة على الأغنام وأخرى على الدواجن^(٦).

مع ذلك تتابنا حيرة كبرى أمام صمت المصادر العربية حول حركة الخوارج في العصر العباسي. لقد لاحظنا من قبل الموقف نفسه تجاه دولة الرستميين بتيهرت، هذا الموقف الذي لا يمكن تفسيره إلا بالتعصب الديني. إن شعر الخوارج هو الذي عانى كثيراً من هذا الصمت. لكن الشيء القليل المتبقي منه يبين أنه يتسم بخاصيتين: الغضب والحزن، تماماً مثل الشعر الشيعي. إن غضبهم من الأوضاع

(١) الأزدي: السابق، ٢٨٠.

(٢) ابن الأثير: السابق، ١٩٧/٦.

(٣) نفسه، ٢٠٥/٦.

(٤) الأزدي: السابق، ٣٥١.

(٥) فيصل السامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ٦٢.

(٦) محمد عبدالحى شعبان: الدولة العباسية، ٥١: المكتبة الأهلية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١.

في الدولة العباسية كان يدفعهم دوماً لحمل السلاح ضد الأئمة العباسيين الذين يعدونهم طغاة. لم ينتج عن هذه الثورة المستمرة إلا كثرة الضحايا في صفوفهم، ومن ثم الحزن الذي يتسم به شعرهم.

ما يمكن ملاحظته أولاً في هذا الشعر هو الإعلان عن ذلك الغضب ضد النظام العباسي، وعن التذمر من الأوضاع المتبوع غالباً بالدعوة إلى الانتفاضة والثورة. هذا التصرف هو ثمرة قناعتهم التي تدفعهم لمحاربة كل سلطان طاغ متجبر وظالم، كما يقول الوليد بن الطريف الشاري: (من الرجز)

أَنَا الْوَلِيدُ بْنُ الطَّرِيفِ الشَّارِي
ظَلَمْتُكُمْ أَخْرَجَنِي مِنْ دَارِي^(١)

ونجد الشاعر الثائر مساور بن عبد الحميد يعلن أنه لم يحمل السلاح إلا لأنه وجد نفسه مدفوعاً بظلم العباسيين: (من الرجز)

أَنَا الْغُلَامُ الْبَجَلِيُّ الشَّارِي
ظَلَمْتُكُمْ أَخْرَجَنِي مِنْ دَارِي^(٢)

وهناك شاعر آخر هو عَطِيَّةُ اللَّيْثِي يعلن ذلك أيضاً: (من الطويل)

وَحَسْبِي مِنَ الدُّنْيَا دِلَاصٌ حَصِينَةٌ
وَمَعْقِرُهَا يَوْمًا وَصَدْرٌ قَنَاقَةٌ
وَأَجْرَدٌ مَحْبُوكُ السَّرَاةِ مُقْلَصٌ
شَدِيدٌ أَعَالِيَهُ وَعَشْرُ شَرَاةٍ
فَأَبْلَغُ مِنْهُ حَاجَتِي وَبَصِيرَتِي
وَأَشْفِي نَفْسِي مِنْ وِلَاةِ طَغَاةٍ^(٣)

(١) الأزدي: السابق، ٢٨٠.

(٢) ابن الأثير: السابق، ١٧٥/٧.

(٣) المرزباني: معجم الشعراء، ١٥٨.

بطبيعة الحال فإن هذا الشاعر يكرر اعتقاد هؤلاء الشعراء وقناعتهم المتمثلة في أن كل سلطان ظالم وطاغية يجب أن يحارب مباشرة وبكل الوسائل بما فيها الحرب.

يجب الملاحظة كذلك أن المذهب الخارجي لم يبق تماماً في الإطار النظري والسياسي الخاص به كما انطلق في البداية دون تغيير بل اندمج عبر السنوات والعصور مع مطالب الجماهير ذات الطابع الاجتماعي كذلك.

لقد كان أغلب الثوار الخارجيين من البدو الذين كانت قبائلهم تعيش في الصحراء دون احتكاك بالمدن وبالحضارة الجديدة. كانوا شجعاناً ذوي خصال كثيرة. قد حاربوا الجيش الحكومي أحياناً بأعداد صغيرة وهم مدركون أنهم مقبلون على الموت المحتم لا محالة، لكنهم فضلوا أن يموتوا وهم يقاتلون أفضل من أن يسكتوا على الظلم. من الطبيعي إذن أن يفتخروا بهذه الخاصية فيهم، كما يقول أحد الشعراء من فرقة الأزارقة: (من الطويل)

وَأِنَّا لَقَوْمٌ مَا نُعَوِّدُ خَيْلَنَا
إِذَا مَا التَّقِينَا أَنْ تَحِيدَ أَوْ تَنْفِرَا
وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا
صَحَا حَاً وَلَا مُسْتَنْكَرَا أَنْ تُعْفَرَا^(١)

إنه يمدح شجاعة فرسان الصحراء هؤلاء واصفاً خيلهم بهذه الطريقة. وهذا يعني بالنسبة إليهم أنهم لن يتراجعوا أبداً، وأن الموت من أجل مبادئهم هو شرف.

أبو العيزار يصف كذلك شجاعتهم بقوله: (من الكامل)
وَمُسْؤُومٍ لِمَمُوتٍ يَرْكَبُ رَدْعَهُ
بَيْنَ الْقَوَاضِبِ وَالْقَنَّا الْخَطَارِ

(١) ابن طيفور: نفسه، ٤٥-٤٦.

يَدْنُو وَتَرْفَعُهُ الرَّمَّاحُ كَأَنَّهُ
شِلْوُ تَنْشَبَ فِي مَخَالِبِ ضَارِ
فَثْوَى صَرِيحاً وَالرَّمَّاحُ تَنْوُشُهُ
إِنَّ الشُّرَاةَ قَصِيرَةٌ الْأَعْمَارِ^(١)

إنه وصف رائع لموت هذا الرجل المتعصب لمعتقده الخارجي.
وقد تحدث مساور كذلك عن شجاعتهم وصبرهم وتكتيكهم في محاربة
الخصوم: (من المتقارب)

فَجَعْتُ العِرَاقَ بِبَنْدَارِهَا
وَحُزْتُ البِلَادَ بِأَقْطَارِهَا
وَحُلَّوَانِ صَبَّخَتْهَا غَارَةٌ
فَقَتَّلْتُ أَغْرَارَ غَرَارِهَا
وَعُقْبَةَ بِالمُوصِلِ أَحْجَرْتُهُ
وَطَوَّقْتُهُ الذُّلَّ فِي كَارِهَا^(٢)

وكان الوليد بن الطريف الشاري يستعد على طريقة القدامى للحرب وقبل كل
معركة بإنشاد الشعر الحماسي، كما في قوله: (من الوافر)

سَتَعْلَمُ يَا يَزِيدُ^(٣) إِذَا التَّقَيْنَا
بِشَطِّ الرِّزَابِ أَيُّ فَتَى تُلَاقِي^(٤)

هي عادة قديمة جداً عند العرب أن ينشدوا الأراجيز خاصة قبل بدء المعارك،
وإن كان ذلك أيضاً يتم في باقي مجالات الحياة الأخرى عندما يحضرون الآبار مثلاً
أو يسوقون القطعان والإبل وما إلى ذلك^(٥).

(١) نايف معروف: ديوان الخوارج، ١٤.

(٢) ابن الأثير: السابق، ١٨٠/٧.

(٣) يقصد يزيد بن مَرِيد الشيباني.

(٤) ابن خياط: السابق، ١٠٣/١.

(٥) الأزدي: السابق، ٣٥١.

كان الخوارج وهم يحاربون أعداءهم، الذين يعتقدون أنهم كفار، ينتظرون المكافأة الكبرى أي الجنة الموعودة. وهذا ما نراه في قول هذا الخارجي من الأزارقة: (من الطويل)

إِذَا مَا التَّقِينَا كُنْتُ أَوْلَ فَارِسِ
يَجُودُ بِنَفْسٍ أَثْقَلَتْهَا ذُنُوبُهَا^(١)

يبين هذا الشعر الذي استشهدنا به تلك التضحيات التي قام بها أولئك الرجال لنشر أفكارهم وللدفاع عنها. يمكن أن نرى ذلك في الأبيات التالية لتميم ابن جميل، هذا الخارجي الذي ثار زمن المعتصم، والذي سجن وحمل إلى الخليفة: (من الطويل)

أَرَى الْمَوْتَ بَيْنَ النَّطْعِ وَالسَّيْفِ كَامِنًا
يُلاحِظُنِي مِنْ حَيْثُ مَا أَتَلَفْتُ
وَأَكْثَرَ ظَنِّي أَنَّكَ الْيَوْمَ قَاتِلِي
وَأَيُّ امْرِئٍ مِمَّا قَضَى اللَّهُ يُفْلِتُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَأْتِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ
وَسَيْفِ الْمُنَايَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُضَلَّتْ
وَمَا جَزَعِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنِّي
لَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُؤَقَّتٌ
وَلَكِنْ خَلْفِي صِبْيَةٌ تَرَكْتُهُمْ
وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ
كَأَنِّي أَرَاهُمْ جِئْنَ أَنْعَى إِلَيْهِمْ
وَقَدْ لَطَمُوا تِلْكَ الْخُدُودَ وَصَوَّتُوا^(٢)

(١) ابن عبدربه: العقد الفريد، ١٠٢/١.

(٢) ابن حجة الحموي، أبوبكر بن علي بن عبدالله (٨٢٧هـ/٤٣٣م): ثمرات الأوراق، ٣٠/٢؛ دار الفكر، بيروت، د.ت؛ نايف معروف: ديوان الخوارج، ٣٥-٣٨.

أما الخاصية الثانية في الشعر الخارجي فهي الحزن المصاحب لكل ثورة بسبب القتلى الذين يسقطون دوماً في مثل تلك النزاعات. لكنه حزن لا ينقص من عزمهم لأننا نشعر أنهم يظلون أقوياء بقناعاتهم حتى وهم يرثون ضحاياهم. كانوا مقتنعين أن موتهم لم يكن سدى لأنهم يحاربون الظلم والطغيان والقمع. من ذلك ما رثت به الفارعة أخاها الوليد بن الطريف الشاري الذي قتل في عهد هارون الرشيد سنة ١٧٩هـ كما أسلفنا سابقاً: (من الطويل)

بِتَلِّ بُنَاتًا رَسُمُ قَبْرِ كَأَنَّهُ
عَلَى عَلمِ فَوْقِ الجِبَالِ مُنِيفِ
تَضَمَّنَ جُوداً حَاتِمِيّاً وَنَائِلاً
وَسَوْرَةَ مِقْدَامٍ وَقَلْبَ حَصِيفِ^(١)

ونجدها تقول كذلك بالأسلوب نفسه: (من المتقارب)

ذَكَرْتُ الْوَلِيدَ وَأَيَّامَهُ
إِذِ الْأَرْضُ مِنْ شَخْصِهِ بَلَقَعُ^(٢)

ورثاه شاعر آخر، هو أبو الهول، بقوله: (من الكامل)

قُلْ لِلْقَوَائِلِ وَالْجُنُودِ وَغَيْرِهِمْ
سَيَرُوا فَقَدْ قَتَلَ الْوَلِيدَ يَزِيدُ
لَا ذَا يَنِي طَلَباً وَلَا ذَا يَأْتِي
هَرَباً فَاذَا نَصَبٌ وَذَا مَجْهُودُ
كَاللَّيْلِ يَطْلُبُهُ النَّهَارُ بِضُوئِهِ
فَقَطْلَامُ ذَاكَ بِنُورِ ذَا مَطْرُودُ^(٣)

(١) ابن الخياط: السابق، ٧٢٣/٢؛ الطبري: السابق، ٢٦١/٨؛ ابن الأثير: السابق، ١٤٢/٦؛ ابن تغري بردي: السابق، ٩٥/٢؛ الأزدي: السابق، ٢٨٢.
(٢) أبو الفرج الإصفهاني: الأغاني، ١٠٠/١٢.
(٣) ابن أبي عون، إبراهيم بن محمد (٢٢٢هـ/٩٤٣م): كتاب التشبيهات، ١٥٦؛ تحقيق عبدالمعين خان، جامعة كمبردج، ١٩٥٠.

وفي السياق نفسه، نجد الشاعر عمرو بن الحسن ييكي الأباضيين بقوله:
(من الكامل)

فِي فِتْيَةٍ شَرَطُوا نُفُوسَهُمْ
لِلْمَشْرِفِيَّةِ وَالْقَنَا السُّمْرِ^(١)

أما الخصائص الأخرى للشعر الخارجي في العصر العباسي فلا تختلف عما كان موجوداً منها في العصر الأموي. نجد لهم عموماً مقطعات صغيرة أو بعض الأبيات لأسباب كثيرة لعل أهمها أنه لم يكن لهؤلاء المحاربين وقت لكتابة قصائد طويلة. كانوا يستعملون عموماً شعر الرجز الذي كان يتلاءم مع أشعارهم تلك.

وزيادة على الموقف الانتقائي للمؤرخين العرب في تلك الحقبة، الذين لم يسمحوا بذكر هذا الشعر الخصم، فإنه من المحتمل جداً أن هذا الشعر ما زال حبيس المخطوطات التي لم تر النور بعد لأنها فقدت بكل بساطة. غير أن بعض المؤرخين أوردوا بعض المقتطفات من هذا الشعر.

مع ذلك فإننا نلاحظ أن هذا الشعر كان يحترم ما يسمى بوحدة الغرض ووحدة الموضوع الأمر الذي لا نجده عموماً في الشعر العربي آنذاك. كذلك هذا الشعر فصيح وقوي ونقي، لم يتأثر بالأسلوب الحديث الذي بدأ ينتشر في العصر العباسي لأن هؤلاء الخوارج كانوا عموماً بدوا يسكنون الصحراء أو رعاة وفلاحين يسكنون البادية، ولم يكن لهم احتكاك كبير بأهل المدن.

شعرهم العباسي إذن يشبه شعرهم في العصر الأموي فإننا نجد الموضوعات نفسها تتكرر، أي أنهم كانوا دوما يتحدثون عن قناعتهم الفكرية والعقدية، وعن زهدهم في الدنيا، وعن ورعهم، وعن مذهبهم. كل ذلك في جو ديني قوي جداً يمتاز بالاستعمال المتكرر للمصطلحات الدينية.

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ٤٨-٤٩.

٣- الشعر والقرامطة

يتسم ظهور حركة القرامطة بكثير من الغموض لأنها حركة باطنية تؤمن بأن لكل شيء ظاهراً وباطناً. من ذلك أن للقرآن عندهم معنيين، ما هو ظاهر منه، وما هو باطن نكتشف فيه أموراً مجهولة تماماً وغير معروفة انطلاقاً من هذا الباطن. لكن تفسير القرآن بهذا الشكل لا يمكن أن يقوم به إلا المنحدرون من سلالة علي ابن أبي طالب.

إذن في هذا السياق ظهر الجانب الخفي والأسطوري لهذه الحركة التي تركز هي أيضاً على الحق الإلهي. لقد ظهرت هذه الفكرة في العصر الأموي مع الكيسانية^(١) والسبئية^(٢)، ثم انتشرت في العصر العباسي بدعم من الإسماعيلية. هذه الفرقة الأخيرة، الإسماعيلية، جاءت تسميتها من إسماعيل بن جعفر الصادق الذي عينه والده كوريث لكنه توفي قبل أبيه فعين شخصاً آخر. غير أن أتباعه ظلوا أوفياء له وبايعوا ابنه محمداً. وهو بالنسبة إليهم الإمام السابع الذي اختفى بعد ذلك بقليل. وهو في نظرهم أيضاً المهدي المنتظر والمخلص. تسمى هذه الفرقة الإسماعيلية، وكذلك السبئية والقطعية لأنهم توقفوا عند الإمام السابع. تولد عن هذه الفرقة فرقتان أخريان هما القرامطة والفاطميون.

لا نعرف بالضبط من هو المحرك الحقيقي أو الإمام المختفي في سلمية بسورية الذي أرسل الدعاة في كل الجهات. لكننا نعرف أن أسرة القداح قامت بدور كبير في ظهور حركة القرامطة. كان لعبدالله بن ميمون القداح^(٣) ولد اسمه أحمد. يبدو أن أحمد هذا هو الذي كان ينسق بين الإمام ودعاته. وهكذا فقد أرسل

(١) الكيسانية: حركة تنتسب إلى كيسان مولى علي بن أبي طالب، وهو الذي نشر أفكارها.

(٢) السبئية: حركة أخذت تسميتها من عبدالله بن سبأ (٤٠هـ/٦٦٠م) الذي كان يدعو إلى عبادة علي كإله.

(٣) القداح (١٨٠هـ/٧٩٦م): كان يصنع القداح ومن هنا جاء اسمه؛ كان محدثاً لكن السنة أبعدوه فاقترب من الشيعة؛ وهو من أصل فارسي التحق بقبيلة بني مخزوم؛ انظر الزركلي: الأعلام، ٤/٢٨٦.

إلى سواد العراق الداعية الشهير حسين الأهوازي حيث سيلتقي حمدان قرمط الذي سيقوم بمفرده بتنظيم الحركة بعد أن تلقى تدريبات منه .

لقد عرف مسؤولو هذه الحركة جيداً الأمراض التي يعاني منها النظام العباسي وطبيعة المنطقة التي نشروا فيها أفكارهم أي سواد العراق. لقد ساعدت الفوضى التي كان يتخبط فيها النظام العباسي والأوضاع الاقتصادية السيئة على استقطاب تعاطف الكثيرين من المتذمرين. يلاحظ كذلك أن هذه المنطقة كانت تميل إلى القضية الشيعية. لذلك استطاع علي بن محمد، زعيم الزنج، من قبل أن يستغل تلك الأوضاع نفسها .

ترتبط هذه الحركة إذن في بدايتها مع الفكر الشيعي الذي منحها الغطاء الديني الذي كان ضرورياً لكل حركة في تلك الحقبة. في هذا الإطار بالذات بدأ حمدان قرمط تحضير حركته وتنظيمها ببطء ولكن على أسس متينة. كان نداؤه لرفع الظلم عن الناس قد سهل له الأمر إضافة إلى سوء الوضع الاقتصادي الذي زاد من تضخيم عدد أنصاره .

تذكر المصادر أن هذه الحركة خرجت للعلن وتركت السرية سنة ٢٧٨هـ/٨٩٢م^(١). وهي تذكر كذلك أن رجلاً جاء من خوزستان واستقر في ضواحي الكوفة، متظاهراً في صورة رجل تقي يشتغل في سعف النخيل ليحصل على قوته من عرق جبينه. ثم أعلم الناس أنه يعمل باسم إمام من آل علي فتبعه خلق كبير .

الحقيقة أن هذه الحركة وجدت قبل سنة ٢٧٨هـ/٨٩٢م. ولم تظهر للعلن إلا بعد أن صارت لها العدة والعدد لمواجهة القوات الحكومية. حتى حمدان قرمط الذي كان على رأس الحركة عند ظهورها كان يشتغل بثيرانه في المنطقة. ثم انتشر هذا المذهب بسرعة في سواد العراق وازداد عدد المنتسبين إليه^(٢).

(١) الطبري: السابق، ٢٣/١٠؛ ابن الأثير: السابق، ٤٤٤/٨؛ ابن تغري بردي: السابق، ٧٨/٣.

(٢) الطبري: نفسه، ٢٥/١٠.

أما فيما يخص اسم هذه الحركة فكثير من الباحثين يرون أنه مرتبط باسم حمدان قرمط^(١)، واسمه حمدان بن الأشعث. لكن الحقيقة أن هذه التسمية وجدت قبل حمدان بل أعطي له هذا اللقب عندما اعتنق هذا المذهب. لقد أطلق السوريون قبل ذلك هذا اللقب على كل الإسماعيليين للحط من قيمتهم^(٢). بينما راح باحثون آخرون يحاولون تفسير لفظة «قَرَمَط» . بالنسبة إلى البغدادي، فإن حمدان حمل هذا اللقب بسبب مشيئة العرجاء أو بسبب كتابته العوجاء^(٣). بينما يظن آخرون أن سكان قريته لقبوه بذلك لكون عينيه كانتا دائماً حمراوين^(٤)، ويرى بعضهم أنه يعني «السيد السري»^(٥)، أو أنه يدل على جنس متميز هم القرامطة^(٦). أما الباحث عبدالحى شعبان فيبني نظرية كاملة انطلاقاً من ملاحظة قام بها الرحالة المقدسي الذي يعتقد أن لفظ «القرامطة» يطلق على شعبين هم القرامطة وأهل النوبة، وكلاهما له بشرة سوداء. وهذا الباحث يعتقد أن الاسم مشتق من مدينة «جَرَمَة»، وهي مركز تجاري ليبي قديم^(٧).

والحقيقة أنه لا يهم كثيراً معرفة المؤسس الحقيقي لهذه الحركة، ولا المعنى الدقيق لهذا اللفظ بل المهم هو الظاهرة في حد ذاتها من حيث أسبابها، وأهدافها، ونتائجها. والأهم أن هذه الحركة كانت في منطلقها مرتبطة عضويًا بالإسماعيلية، ثم ظهرت بداخلها خلافات نعتقد أن سببها ذو طابع عملي وتصرف سياسي أكثر منه أخلاقي أو أيديولوجي أو مذهبي^(٨).

(١) ثامر عارف: القرامطة، ٦٢، دار الكتاب العربي- مكتبة النهضة، بغداد، د.ت.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق، ٢٨٢.

(٣) البغدادي: نفسه، ٢٨٢.

(٤) الطبري: السابق، ٢٦/١٠.

(٥) Cf. Brockelmann: Idem

(٦) ابن منظور: لسان العرب، مادة «قَرَمَط».

(٧) محمد عبدالحى شعبان: القرامطة، ١٥٨.

(٨) حسين مروة: السابق، ١٨/٢.

انتشرت هذه الحركة في البداية بين الفلاحين، والزراع الكادحين على مستوى المدن والقبائل العربية^(١). وكان العنصر الريفي هو المهيمن في أنصار القرامطة. يذكر أن القائد العباسي بدرا تمكن من ضرب القرامطة ضربة حاسمة عندما قتل عدداً كبيراً منهم في ضواحي مَيْسَانَ إلا أنه خفف من وطأته حتى لا يأتي عليهم جميعاً خشية أن تتضرر الزراعة، لأنهم كانوا من فلاحي السواد^(٢). كانوا يشتغلون عموماً إما في الفلاحة، وإما في الزراعة أو كانوا بكل بساطة عاطلين عن العمل. حتى أبوسعيد الجنابي^(٣) الذي سيرأس الحركة من بعد، نجده يبيع الطعام للناس أو يقوم لهم بالعمليات المحاسبية^(٤). من الطبيعي أن يستفيد قادة هذه الحركة من التجارب السابقة في هذا الميدان، خاصة من ثورة الزنج التي وقعت في المنطقة نفسها. إن حركة القرامطة هي في الحقيقة امتداد لهذه الثورة. وسوف نتحدث لاحقاً عن اللقاء الذي حدث بين علي بن محمد وحمدان قرمط^(٥).

لقد حضر القرامطة أنفسهم أول الأمر في سرية تامة فجمعوا الأموال وجندوا الأنصار، فكوّنوا تنظيمًا هرميًا حيث يكون الأنصار فيه منظمين بطريقة لا يعرف فيها بعضهم البعض حتى يحافظوا على السرية للحفاظ على تنظيمهم. وكان النظام المتبع من قبلهم مقسمًا إلى سبع رتب حسب أهمية مركز الأنصار في التنظيم السري^(٦). لم يكن أحد يطلع على سرهم قبل أن يمتحن ويجرب. وقبل أن يصل إلى هذه الدرجة لا بد له أن يقضي وقتاً معيناً في الحركة. كانت المراتب

(١) نفسه، ١٨/٢؛ عبدالعزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ٨٢-٨٣؛ الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٤.

(٢) سهيل زكار: أخبار القرامطة، ١٦؛ الطبعة الأولى، مطبعة عبدالهادي الحرسومي، دمشق، ١٩٨٠؛ انظر كذلك عبدالفتاح محمد عليان: قرامطة العراق؛ القاهرة، ١٩٧١.

(٣) أبوسعيد الجنابي حسن بن بهرام (٣٠١هـ-٩١٤م): شاعر وقائد قرمطي؛ استولى على البحرين وكون فيها دول؛ انظر الزركلي: الأعلام، ١٩٩/٢.

(٤) سهيل زكار: السابق، ١٧.

(٥) ابن الأثير: السابق، ٤٤٩/٧.

(٦) البغدادي: السابق، ٢٩٨؛ سهيل زكار: نفسه، ١٨.

الثلاث الأولى تشبه النظام الحالي للانخراط في الأحزاب في عصرنا، لكن المراتب الأخرى الأعلى كانت مخصصة للمسؤولين الكبار. كان يوجد على رأس التنظيم الدعاة، وهم مقسمون قسمين: المستجيبون والمكاسرون. وقد اشترط في هذه الفئة الأخيرة أن يكونوا أذكاء، لهم ثقافة كبيرة، ويملكون قدرة كبيرة على المجادلة. وكان كل داعية يقود اثني عشر عميداً مكلفين بنشر المذهب وجمع الأموال من الأنصار الذين كان عليهم أن يدفعوا ديناراً واحداً للإمام^(١).

لقد أنشأوا نوعاً من المجتمع الاشتراكي أطلقوا عليه اسم «الألفة»^(٢) حيث يجمع كل ما يملكه الأنصار من قبل الداعية، وهو الذي يسلم كل شخص ما يحتاج إليه.

انتشر المذهب القرمطي بعد العراق في سائر الأقاليم كالحجاز وسورية واليمن والبحرين وما إلى ذلك. أرسل حَمَدَان وصهره عَبْدَان الدعاة إلى كل الأماكن. وهكذا أرسل ابن حَوْشَب إلى اليمن، وأبوسعيد إلى إيران، إلا أن هذا الأخير وجد بعض الصعوبة في تنفيذ مهمته.

بدأ نشاطهم المسلح الأول في سنة ٢٧٨هـ في مكان اسمه جُبَيْلَة^(٣) حيث قتلوا هناك مجموعة من الناس^(٤)، لكن الحاكم والقائد بدرا استعاد المبادرة بسرعة ورد في هجوم مضاد عنيف كاد فيه أن يفنيهم جميعاً لولا خشيته من النتائج الوخيمة على الزراعة في تلك المنطقة كما ذكرنا أنفاً^(٥). ثم ثار القرامطة في السنة الموالية لكن الخليفة أرسل لهم جيشاً بدهم جميعاً. في هذه الأونة يختفي حمدان وصهره

(١) ابن الأثير: السابق، ٤٤٥/٨-٤٤٦.

(٢) يوسف العش: نفسه، ١٥٩؛ فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ١٦٦-١٦٧.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١١٠/٢.

(٤) الطبري: السابق، ٧٩/١٠.

(٥) ابن تغري بردي: السابق، ١٢٢/٣.

عبدان؛ لعلهما قتلا من قبل الإسماعيليين، ولعل خليفتهما زُكْرُوَيْه بن مَهْرُوَيْه^(١) كان وراء قتلهما كذلك^(٢).

وفي سنة ٣١١هـ/٩٢٣م نجد قائداً قرمطياً آخر هو سليمان بن الحسن المعروف بأبي طاهر^(٣) يهاجم البصرة ويقتل واليها سَبَكَةَ الْمُفْلِحِي ويأخذ معه الخيرات من البصرة إلى البحرين^(٤). وفي السنة التالية نجد هذا القائد يهاجم قوافل الحجيج فيقتل ويأسر النساء والأطفال^(٥). وفي سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م جاء الدور على الكوفة لكي تنهب^(٦). وفي سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م يهزم القائد العباسي ابن أبي الساج ويأسره. وفي سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م يدخل مكة المكرمة التي ينزع منها الحجر الأسود ويأخذه إلى البحرين بعد أن يقتل عدداً كبيراً من الناس^(٧). وفي سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م نجده يحاصر العاصمة بغداد دون أن يتمكن منها. ثم يموت بعد مدة من ذلك في مدينة هيت^(٨).

تفادياً للضغط العباسي، قرر القرامطة فتح جبهة ثانية لتشتيت الجيش الحكومي. وقد اختار لذلك سورية. وكان يحيى، صاحب الناقية، يقود هذه الجبهة الجديدة. ويعتقد أنه الابن الأكبر لزكرويه. حاول في البدء حصار مدينة دمشق، لكن الحاكم الطولوني لهذه المدينة، بدر بن عبدالله، استطاع أن يصدّهم وأن يردهم إلى الرقّة. ثم قتل يحيى هذا بسرعة^(٩)، لكنه كان قبل ذلك قد استطاع أن ينشر

(١) زكرويه بن مهرويه (٢٩٤هـ/٩٠٦م): هو الذي تسبب في القلاقل التي كان مصدرها القرامطة في بادية العراق؛ انظر الزركلي: السابق، ٧٨/٣.

(٢) يوسف العث: السابق، ١٦٠.

(٣) أبوطاهر (٣٢٢هـ/٩٤٤م): من جنابة في فارس، خلف أباه أبا سعيد الجنابي بعد إخفاق أخيه سعيد الذي كان زعيم القرامطة في البحرين قبل ذلك؛ انظر الزركلي: السابق، ١٨٣/٣-١٨٤.

(٤) البغدادي: السابق، ٢٩٠.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه، ٢٩٠-٢٩١.

(٧) نفسه، ٢٩١.

(٨) ابن الأثير: السابق، ٥١١/٧.

(٩) ابن الأثير: السابق، ٥١١/٧.

التعاليم القرمطية بين بدو قبيلة بني العُليّص، وتلقب بلقب «أمير المؤمنين»^(١). ثم خلفه أخوه حسين بعد موته. وقاد هو بدوره عدة معارك حول دمشق وحمص وحلب وحماه بين سنتي ٢٩٠هـ/٩٠٣م و٢٩١هـ/٩٠٤م^(٢). كانت خطته تتمثل في مهاجمة المدن على حين غرة، ثم يهرب في البادية، إلى أن بعث له المكتفي جيشاً مكوناً من عشرة آلاف جندي فأسر وأرسل إلى بغداد حيث سيقتل. وقد تلقب هو أيضاً بـ«أمير المؤمنين»^(٣).

أما في البحرين فقد كان أول ظهور لهم سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م بقيادة أبي سعيد الجنابي الذي نشر هناك الفكر القرمطي من قبل لحساب حمدان قرمط. كان أتباعه من عرب قبيلة بني عبدالقيس، وكانت عاصمته الأحساء التي أعاد تسميتها «المؤمنية». بعدما اجتمع له عدد معتبر من الأتباع اتجه نحو القطيف ثم عرج على البصرة^(٤). ثم هاجم ضواحي هجر بعد سنة من ذلك واستولى عليها بعد ذلك بقليل^(٥).

لقد كوّن القرامطة في تلك المنطقة دولة ديمقراطية يقودها أبوسعيد الجنابي وعائلته من جهة، وممثلو القبائل العربية من جهة ثانية.

أما مبادئ القرامطة فتكمن في أنهم يدعون إلى دحض السلاطين وعلماء العصر... وأن الخلاص يأتي من ذلك^(٦). لقد ركزوا على الجانب المادي عموماً. لكننا يجب أن نحتاط ونحن نقرأ المصادر السنوية وغيرها، وهي للأسف، تكاد تكون هي الوحيدة التي تحدثت عنهم. من الطبيعي أن يصف هؤلاء المؤرخون السنيون

(١) يوسف العث: السابق، ١٦٠-١٦١.

(٢) الطبري: السابق، ١٠/١٠٦-١١٤.

(٣) نفسه، ١٠/١٢١-١٢٢.

(٤) الطبري: السابق، ١٠/٧١؛ البغدادي: السابق، ٢٨٣؛ ابن الأثير: السابق، ٧/٤٩٣.

(٥) الطبري: نفسه، ١٠/٧٥ وما بعدها.

(٦) عبدالعزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ٨٣.

المنحازون للعباسيين أولئك القرامطة بأبشع الأوصاف والنعوت. وقد أشار بعض المؤرخين إلى ذلك^(١). من ذلك أنه يذكر أن القرامطة أنشأوا ديناً جديداً غير الإسلام، وأنهم يريدون القضاء على أمة محمد، وأن واحداً من أهدافهم أن يقتلوا جميع الناس إلا الذين يدخلون في دينهم^(٢). وقد دعوا، على ما يبدو، إلى اقتسام النساء، فيما يشبه تعدد الأزواج^(٣). لقد عطلوا القوانين والأديان، وهم، حسب البغدادي، «يزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلباً للزعامة بدعوى النبوة والإمامة»^(٤). وكانوا يقولون «إن المسميين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة فخدعوهم بنيرنجات واستعبدوهم بشرائعهم»^(٥).

من الواضح أن القرامطة لم يكن لهم معتقدات دينية بمعنى الكلمة بل كان عندهم نوع من الفلسفة العقلية الموجودة في عبادة العقل الإلهي. مع ذلك، لم يمنعوا المسلمين من القيام بشعائرتهم^(٦). ونحن نتساءل هل كان هذا الموقف المضاد للدين ناتجاً عن الواقع الذي رأوه في العصر العباسي؟ المهم أنهم رأوا مغتصبين استولوا على الحكم، وحكموا الشعوب ظلماً، وعاملوهم بعنف باسم الدين^(٧). لقد أدرك القرامطة أن العباسيين استولوا على الخلافة باستغلالهم قراباتهم من الرسول ﷺ. وقد دحض هذه الحجة المتعلقة بالقرابة قرمطي اسمه أبو الفوارس عندما أعلن ذلك صراحة للخليفة المأمون عندما قال له: «إن رسول الله ﷺ مات

(١) سهيل زكار: السابق، ١٢ (الهامش).

(٢) مجهول: العيون والحداثق في أخبار الحقائق، مجلد ٤، ٧٠/١.

(٣) البغدادي: السابق، ٢٩٧.

(٤) البغدادي: نفسه، ٢٩٧.

(٥) البغدادي: نفسه، ٣٠٢؛ لاحظ أن هذا الكلام يذكرنا برأي كارل ماركس في الدين.

(٦) حسين مروة: السابق، ٢١/٢.

(٧) البغدادي: نفسه، ٢٩٧-٢٩٨.

وأبوكم العباس حي، فهل طلب الخلافة؟ وهل بايعهم أحد من الصحابة؟ ثم مات أبوبكر واختار قبل ذلك عمر بن الخطاب خليفة له دون أن يعين أباكم مع معرفته بمكانته. ثم مات عمر وترك الخلافة شورى بين خمسة أشخاص دون أن يقترح عليهم أباكم ولا حتى أن يكون من بينهم. بماذا استحققتم الخلافة إذن وقد اتفق الصحابة على إبعاد أبيكم؟^(١).

أما ممارستهم للسلطة، فقد أنشأوا نظاماً لم يكن معروفاً من قبل. إنها أول جمهورية في تاريخ الإسلام لها نظريتها، وأيديولوجيتها، وبرنامجها الاجتماعي الاقتصادي السياسي، غير معتمدة أصلاً على الدين بل تقترب أكثر من مفهوم اللاتكزية المعروف حالياً^(٢). القرارات تؤخذ عندهم بالأغلبية من قبل المجلس الحاكم الذي يشبه بشكل غريب المكاتب السياسية للديمقراطيات الشعبية المعروفة في عصرنا. كان هذا المجلس يسمى «مجلس العقدانية». يروي ناصر خسرو من خلال رحلته التي قام بها للأحساء سنة ١٠٢٥م أن ذلك النظام كان ما زال موجوداً حتى ذلك الوقت. وأبناء أبي سعيد يكوّنون ذلك المجلس، وهم الحكام الفعليون إذن. «ولهؤلاء الحكام الآن قصر منيف هو دار ملكهم وبه تخت يجلسون هم الستة عليه، ويصدرون أوامرهم بالاتفاق، وكذلك يحكمون ولهم ستة وزراء على تخت آخر، ويتداولون في كل أمر كان لهم»^(٣). «وهؤلاء السلاطين الستة يسمون السادات، ويسمى وزراءهم الشائرة»^(٤).

كل القرارات والإجراءات المتخذة من قبل تلك الحكومة كانت في صالح الشعب. لقد ألغت مثلاً الضرائب على الأرض (الخراج) والإتاوات.

(١) سهيل زكار: السابق، ١٨.

(٢) حسين مروة: السابق، ٢٠/٢.

(٣) ناصر خسرو علوي (١٠٥٨هـ/١٠٥٨م): السابق، ٩٣؛ ترجمها عن الفارسية يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٥.

(٤) نفسه.

أما الضرائب التي تركوها فلا تضر بالمواطنين كتلك التي ضربت على قوافل الحجيج المارة بأراضيهم، أو على التجارة البحرية^(١). وزيادة على ذلك، أنشأوا نظاماً للخدمات العامة يستفيد منه جميع المواطنين؛ «وإذا افتقر إنسان أو استدان يتعهدونه حتى يتيسر عمله، وإذا كان لأحدهم دين على آخر لا يطالبه بأكثر من رأس المال الذي له؛ وكل غريب ينزل في هذه المدينة وله صناعة يعطى ما يكفيه من المال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدد وآلات، ويرد إلى الحكام ما أخذ حين يشاء؛ وإذا تخرب بيت أو طاحون أحد الملاك ولم تكن لديه القدرة على الإصلاح، أمروا جماعة من عبيدهم بأن يذهبوا إليه ويصلحوا المنزل أو الطاحون، ولا يطلبون من المالك شيئاً. وفي الحسا مطاحن مملوكة للسلطان تطحن الحبوب للرعية مجاناً، ويدفع فيها السلطان نفقات إصلاحها وأجور الطحانين»^(٢).

هذا النظام إذن جمهوري اشتراكي يهدف إلى تحسين أوضاع الرعية ومستوى معيشتهم، وإقامة الأمان والرفاه. ويمكن أن نقول بدون تحفظ إن القرامطة وفوا بوعودهم وطبقوا شعاراتهم التي نادوا بها في بداية حملتهم. لقد برهنوا أن ذلك لم يكن ديماغوجية فقط لجلب الأتباع والأنصار بل كانوا يفعلون ذلك عن قناعة. لكن الظلام يلف الحركة الشعرية التي من المفروض أن تصاحب هذه الثورة. لكننا متأكدون من شيء واحد وهو أن الشعر صاحب هذه الحركة منذ بدايتها. وكدليل على ما نقول هذه المقتطفات الشعرية التي نقلها الرواة على الرغم من ذاتيتهم الواضحة والمؤكدة كالعادة، عندما يسردون شعر الخصوم أو الأعداء حيث يختارون منه ما يمس بهم أو يضرهم. ويلاحظ كذلك أن الخلاف بين القرامطة والإسماعيلية له دور في هذا كذلك عكس الحركة الفاطمية التي حفظت أشعارها.

(١) حسين مروة: السابق، ٢١/٢-٢٢.

(٢) ناصر خسرو: السابق، ٩٣.

إن هذه المقتطفات الباقية تنسب للقادة القرامطة مثل أبي سعيد الجنابي، وأبي طاهر، وصاحب الخال^(١) إلخ. نجد أبا سعيد مثلاً في الأبيات التالية يتحدث عن هزيمته: (من الطويل)

أَعْرَكُم مِّنِّي رُجُوعِي إِلَى هَجْرٍ
وَعَمَّا قَلِيلٍ سَوْفَ يَأْتِيَكُمُ الْخَبْرُ
إِذْ طَلَعَ الْمَرِيخُ فِي أَرْضِ بَابِلٍ
وَقَارَنَهُ النُّجْمَانِ^(٢) فَالْحَذَرَ الْحَذْرُ
أَلَسْتُ أَنَا الْمَذْكُورُ فِي الْكُتُبِ كُلِّهَا
أَلَسْتُ أَنَا الْمُبْعُوثُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ
سَامِلِكُ أَهْلَ الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
إِلَى قَيْرَوَانَ الرُّومِ وَالتُّرْكِ وَالْخَزْرَ^(٣)

إني أشك في نسبة هذه الأبيات إلى أبي سعيد الجنابي التي يكون قد قالها عند عودته إلى هجر بعد هزيمة ضد الجيش العباسي والتي لم يستطع أن ينتصر فيها كالعادة. إنه يتحدث فيها عن أسطورة سحرية تروي أن السلطة الفارسية ستسترجع ذات يوم. وحسب البغدادي فإن شخصاً يدعى عبدالله الأردني كتب لهم كتاباً في هذا الشأن يتحدث فيه عن عودة السلطة الفارسية التي تتوافق مع خلافة المكتفي^(٤). إن انتحال هذا الشعر واضح للعيان إذ يبدو أن أيدي العباسيين ليست غريبة عنه.

(١) صاحب الخال (٢٩١هـ/٩٠٤م): هو حسين بن زكرويه الذي كان يعمل لصالح الطولونيين ثم ثار ضد العباسيين، وأقنع أصحابه أن شعاره هو «الخال». صلب من قبل العباسيين بعد القبض عليه وبعد المعرك الكثيرة التي خاضها ضدهم وانتصر فيها في منطقة الشام؛ انظر الزركلي: «الأعلام»، ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) النجمان هما زحل والمشتري.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق، ٢٨٦-٢٨٧؛ ابن تغري بردي: السابق، ٢٢٥-٢٢٦، وينسب الأبيات إلى أبي طاهر.

(٤) البغدادي: السابق، ٢٨٧.

صحيح أن القرامطة لم يتخرجوا في مهاجمة الحجيج والبقاع المقدسة للإسلام. ونحن نعتقد أن هذا الموقف كان نتيجة عاملين اثنين أولهما هو موقفهم العام من جميع الديانات كما أسلفنا ذكره من قبل، وثانيهما مرتبط بالتجارة المزدهرة في مواسم الحج. إن أخذ الحجر الأسود من مكة إلى البحرين كان هدفة تجارياً محضاً. لقد حاولوا بذلك الفعل جلب وجهة الحجاج من مكة إلى البحرين حتى تجتاز التجارة أراضيهم. نجد مثلاً أبا طاهر يقول وهو يهاجم مكة المكرمة: (من الطويل)

فَلَوْ كَانَ هَذَا الْبَيْتُ لَلَّهِ رَبَّنَا
لَصَبَّ عَلَيْنَا النَّارُ مِنْ فَوْقِنَا صَبًّا
لَأَنَا حَجَبْنَا حَبَّةً جَاهِلِيَّةً
مُجَلَّلَةً لَمْ تُبْقِ شَرْقاً وَلَا غَرْباً
وَأَنَا تَرَكْنَا بَيْنَ زَمْرَمَ وَالصَّفَا
جَبَابِرَ لَا نُبْقِي سِوَى رَبِّهَا رَبًّا^(١)

وقد قال أيضاً في السياق نفسه: (من الرمل)

أَنَا بِاللَّهِ وَبِاللَّهِ أَنَا
يَخْلُقُ الْخَلْقَ وَأَفْنِيهِمْ أَنَا^(٢)

نحن نقف حيارى أمام هذا الشعر القرمطي المناقض تماماً للأفكار القرمطية. نحن لا ندافع عنه ولكننا نعاين ونلاحظ أنه من غير المنطقي أن يقوم ثوار مثل هؤلاء، وهم المهتمون دوماً بجلب أكبر عدد من الأنصار والأتباع لقضيتهم، بمثل هذه التصرفات التي تنفر منهم الناس. إنهم يعرفون جيداً عواطف المسلمين تجاه

(١) اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ٣٢٤.

(٢) ابن تغري بردي: السابق، ٢٢٤/٣.

الإسلام وطقوسه، وتجاه الأماكن المقدسة. ونلاحظ هنا أن مهاجمة الكعبة لم يكونوا وحدهم الذين فعلوا ذلك. لقد سبقهم الأمويون في ذلك بكثير. أما مهاجمة قوافل الحجيج فكانت أمراً مألوفاً في ذلك الزمن. كان الحجاج يعرفون ذلك، ولهذا كانت قوافلهم دوماً محروسة.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية كيف نوفق بين هذه الأشعار وبين أشعار أخرى منسوبة إلى القرامطة كذلك ولكنها مناقضة تماماً في محتواها لهذه؟ مثال ذلك هذه الأبيات المنسوبة لصاحب الخال أحمد بن عبدالله: (السريع)

وَهَلْ أَرَى الدُّنْيَا بِإِلَّا كَاذِبٍ
وَلَا حَـرُورِيٍّ وَلَا نَاصِبٍ
مَتَى أَرَى السَّيْفَ عَلَى كُلِّ مَنْ
عَادَى عَلِيٍّ بِنَّ أَبِي طَالِبٍ
مَتَى يَقُولُ الحَقُّ أَهْلَ النُّهَى
وَيُنْصَفُ المَغْلُوبُ مِنْ الغَالِبِ
هَلْ لِبَغَاةِ الخَيْرِ مِنْ نَاصِرٍ
هَلْ لِكَوْؤُسِ العَدْلِ مِنْ شَارِبٍ^(١)

نجد لهذا القائد أشعاراً أخرى تدور في السياق نفسه، مما يدل على أن الأشعار الأخرى المنسوبة إليهم قد تكون من صنع خصومهم.

وفي جميع الحالات، فإن خصائص هذا الشعر لا تختلف في شيء عن الخصائص المعروفة في ذلك العصر. وهذا يعني أننا نجد عادة، مثلما هو الشأن لدى شعر الثورات، مقطعات قصيرة وأبياتاً مفردة، وهي صادقة عموماً أو تبدو كأنها صادقة.

(١) الصفدي: السابق، ٧/١٢٠.

ثانياً: الشعور والمعارضة الشعبية

أ - أسباب الانتفاضات والثورات في العصر العباسي

المجتمع العباسي معقد في تركيبته لتعدد شعوبه، ودياناته، واتجاهاته. كل هذا زاد من حدة المشكلات المختلفة التي كان يعيشها ذلك العصر زيادة على السياسة العباسية المطبقة في مختلف المجالات؛ ويضاف إلى ذلك كله المساحة الشاسعة لتلك الإمبراطورية الممتدة من الشرق إلى الغرب مع وسائل الاتصال البسيطة والمتواضعة في تلك الحقبة. في ذلك المجتمع المتحرك الذي يعيش في غليان سرعان ما تظهر الحركات والثورات المتنوعة شعبية وعسكرية وغيرها.

يمكن أن نجمل أسباب ذلك الحراك في عوامل محددة وواضحة فهي اقتصادية، وسياسية، ودينية، وإدارية إلخ.

لعل الظروف الاقتصادية هي المصدر الرئيس لتلك الانتفاضات التي عرفها العصر العباسي. إنها تكمن في الفقر الذي طال أغلبية الناس بينما كانت أقلية تتكون عموماً من رجال البلاط وأتباعهم تنعم بكل الخيرات التي تزخر بها الدولة. وليس غريباً هنا أن نجد الشعراء، الذين ينتمون في النهاية إلى الطبقات الشعبية، يدينون تلك الوضعية. هذا ما نجده في قول الفقيمي للخليفة المنصور عندما زار الكوفة: (من الطويل)

نَزَلَتْ بِأَقْوَامٍ خِمَاصٍ بَطُونُهُمْ
وَأَنْتَ بَطِينٌ وَالْبَرِّيَّةُ جُوعٌ
سِوَى عُضْبَةٍ كَانُوا مِنَ الْفَيْءِ مَرَّةً
فَصَارَ لَهُمْ مَا فِي الْبَرِّيَّةِ أَجْمَعُ
تَقُومُ إِذَا مَا قُمْتَ تَشْفَعُ خُطْبَةً
تَشَقُّقُ فِيهَا وَالْدُّمُوعُ تَرَبُّعُ

كَأَنَّكَ صَيَّادٌ تَسِيلُ دُمُوعُهُ
 مِنَ الْقَرِّ وَالصَّيَّادُ يَفْرِي وَيَقْطَعُ
 يَجْذُ رِقَابَ الطَّيْرِ مِنْ غَيْرِ رَحْمَةٍ
 وَعَيْنَاهُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيَّةِ تَدْمَعُ
 فَأَنْتَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ يَا شَرًّا عَامِلٍ
 رَأَيْنَا عَلَى أَعْوَادِهَا يَتَخَشَعُ
 تُزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ بِنَهْبِهَا
 مُلِحٌّ عَلَى الدُّنْيَا تُكِدُّ وَتَجْمَعُ^(١)

إنه ينتقد العباسيين ويفضحهم لأنهم لم يفوا بوعودهم التي قطعوها للناس. نلاحظ صدق هذا الشاعر وشجاعته في مواجهته المباشرة لخليفة مثل المنصور. لعل هذه الجرأة جاءت من كون هذا الشاعر وأمثاله قد صدقوا فعلاً إمكانية تحسين ظروف حياة المواطنين ومستواهم المعيشي.

يتجسد أحياناً سوء الظروف الاقتصادية التي كان يشتهي منها المواطنون في الزيادة المستمرة في أسعار بعض المواد الأساسية، مما جعلهم يربطون ذلك باعتلاء العباسيين السلطة. وهذا ما نلاحظه في قول شاعر مجهول: (من الطويل)

بَنِي هَاشِمٍ عُودُوا إِلَى نَحْلَاتِكُمْ
 فَقَدْ قَامَ سِعْرُ التَّمْرِ صَاعاً بِدِرْهِمٍ
 وَإِنْ قُلْتُمْ رَهْطُ النَّبِيِّ وَقَوْمُهُ
 فَهَذِي النَّصَارَى رَهْطُ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمٍ^(٢)

حتى وإن كانت تلك الزيادة في الأسعار مؤقتة فإن الوضع كان يزداد سوءاً مما نتج عنه كثير من التذمر، وكثير من الانتفاضات كذلك. مثلاً في سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م

(١) القفطي: المحدثون من الشعراء، ٤٢٥: الصفدي: السابق، ٨٠/٣.

(٢) البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ٥٤٥/٩: الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٦؛ يوسف خليف: حياة الشعر في الكوفة، ٤٣٩.

عرف سعر القمح ارتفاعاً كبيراً فحدثت بلبلة كبيرة لأنه بلغ ما بين أربعين إلى خمسين درهماً^(١). وفي سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م شغبت العامة شغباً كبيراً فأحرقت دار الوزير ثم توجهت لدار الخليفة المقتدر فرمتها بالنيران؛ كما نهبوا أملاك الناس في طريقهم؛ وجرحوا قائد الشرطة وكل المسؤولين الذين صادفهم في طريقهم. كان ذلك بسبب ارتفاع الأسعار. ثم فتحوا السجون، وسرقوا المساجد، واعتدوا على الخطباء^(٢).

الحقيقة أن الشعراء لم يتوقفوا أبداً في التبليغ عن مثل هذه الوضعيات، فهم أحياناً يشيرون إلى تلك الأزمات وأحياناً أخرى يسدون بالنصائح للخلفاء كما نرى ذلك في شعر أبي العتاهية الذي وجهه للخليفة هارون الرشيد: (من مجزوء الكامل)

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْإِمَامَا
مَنْ نَصَائِحاً مُتَوَالِيَةً
إِنِّي أَرَى الْأَسْعَارَ أَسْفَلَ
عَمَّارَ الرَّغْبِيَّةِ غَالِيَةً
وَأَرَى الْمَكَاسِبَ نَزْرَةً
وَأَرَى الضَّرُورَةَ فَاشِيَةً^(٣)

أقل ما يقال عن هذه المطالب إنها مشروعة وحققة لأن الشاعر بلغ الخليفة بأوضاع الرعية الحقيقية تماماً كما تفعل وسائل الإعلام في عصرنا هذا، بكل صدق وبكل صراحة. لقد ذكَّره أن المعيشة غالية وأن الأرزاق أو الوظائف نزرة.

(١) الطبري: السابق، ٥٩/٨

(٢) مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، مجلد ٤، ٢٠٩/٣.

(٣) أبوالعتاهية، إسماعيل بن القاسم (١٣٠-٢١١هـ/٧٤٨-٨٢٦م): ديوان أبي العتاهية، ٤٨٧؛ دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.

يمكن أن نجد مظهرًا آخر من مظاهر الوضعية الاقتصادية السيئة يتمثل في مصادرة الأملاك بالقوة. كان العمال العباسيون يلجؤون إلى هذه العملية أحياناً بدون عقاب. كانوا يقومون بذلك لإسكات السلطة المركزية وإرشائها بالأموال والهدايا للحفاظ على مناصبهم، ومن ثم الحفاظ على امتيازاتهم كذلك. لدينا عدة أمثلة على جشع هؤلاء العمال وعلى فسوتهم في التصرف مع الرعية^(١). لكننا نجد عموماً أن أهم مصدر تسبب في أغلب الانتفاضات هو الخراج.

الخراج قيمة من المال أو من المنتوجات الزراعية أو هما معاً تفرض على الأرض المأخوذة عنوة من قبل المسلمين إذا لم يقسمها الخليفة على الفاتحين. وحتى الأراضي المأخوذة عن صلح تخضع للخراج بعد اتفاق بين الدولة والملوك على قيمة محددة تدفع لبيت مال المسلمين^(٢). أما الأراضي التي لا تخضع للخراج فتدفع العشر من غلتها.

أما الطريقة المعتمدة في استخراج الخراج عند المسلمين حتى عهد الخليفة المهدي فقد كانت تعتمد المساحة أي اعتماد قيمة معينة على كل قطعة أرض تدفع مرة واحدة كل سنة بدون أن يؤخذ بالحسبان لا نوعية الأرض وحالتها، ولا تقلب الأحوال المناخية من سنة لأخرى^(٣). إن كمية المحصول تختلف حسب تلك الأحوال الجوية بينما قيمة الضريبة تبقى ثابتة دائماً الأمر الذي لا يساعد الزراع في أغلب الأحيان.

وبناء على ذلك، غير المهدي هذا النظام الضريبي هادفاً من وراء ذلك إلى أغراض سياسية، وأيضاً إلى تحسين ظروف معيشة المواطنين. كان قراراً سياسياً

(١) البيهقي، محمد بن حسين (٤٧٠هـ/١٠٧٧م): تاريخ البيهقي، ٤٤٢-٤٤٣ ترجمه من الفارسية يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٥٦؛ ابن الأثير: السابق، ٤٢٦/٦.

(٢) ضياء الدين الرئيس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ٢٦٥؛ الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦١.

(٣) نفسه، ٤١٧.

واقتراديا استقبله الناس إيجابياً، خاصة أهل الريف. وهو يقضي أن تقع مقاسمة بين الزراع، أصحاب الأراضى، والدولة حسب نسبة مئوية متفق عليها. وكان التأثير الإيجابي لهذا القرار ملموساً بسرعة^(١).

لقد كلف الوزير أبو عبيد الله بتطبيق هذا القرار الذي حددت النسبة المستوجبة فيه حسب سقاية الأراضى. انطلاقاً من نوعية السقاية يدفع الفلاحون إما النصف، وإما الثلث، وإما الربع^(٢).

على الرغم من إيجابية القرار عمومًا إلا أن تطبيقه أدى إلى نتائج عكسية تمامًا مما دفع بالخليفة إلى إرسال مبعوثين عنه إلى كل الأقاليم لمعاملة أهل الخراج معاملة حسنة، والتوقف النهائي عن التعذيب الذي كان معتمداً في عملية الخراج^(٣). لكن المزارعين لم يستفيدوا طويلاً من تلك الإجراءات لأن المعاناة والمضايقات استمرت بدون توقف.

وكان ذلك خطأ كبيراً ارتكبه الدولة لأن ثقل الضرائب أدى بالمزارعين إلى ترك الزراعة وهجر الأرض، الأمر الذي يؤدي بسرعة إلى عواقب وخيمة على الاقتصاد العباسى. أدت تلك الهجرة الجماعية للأرض إلى جعل الأراضى الفلاحية في حالة كمون، ودون إنتاج يذكر، وكأنها رأسمال ميت. وهذا جعفر بن يحيى يلخص تلك الحال بقوله: «الخراج عماد الملوك، وما استعزوا بمثل العدل، وما استندروا بمثل الظلم. وأسرع الأمور في خراب البلاد تعطيل الأراضى، وهلاك الرعية، وانكسار الخراج من الجور. ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأراضى مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع، فهو إن شبع من ناحية، فقد ضعف من ناحية أخرى، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع

(١) نفسه، ٤١٧.

(٢) ضياء الدين الرئيس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ٤٢١.

(٣) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب، ١٤٢-١٤٣.

أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع. ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته. وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فيتركونها فتخرب الأرض، ويهرب المزارعون فتضعف العمارة، ويضعف الخراج، وينتج من ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند، طمح الأعداء في السلطان»^(١).

نظرًا لأهمية الخراج، كلف الخليفة هارون قاضي القضاة أبا يوسف بالقيام بدراسة حول الموضوع، فكان أن ألف القاضي «كتاب الخراج». إن المحاور التي تناولها هذا الكتاب تعطينا من التعليق عليه، لكن نذكر فقط ونشير أن المؤلف كان شاهد عيان على ما يكتب أحيانًا حول الوسائل المعتمدة في استخراج الخراج. ها هو يذكر ما سمع من تلك الأمور المعتمدة من قبل عمال الخراج حيث يقول: «بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويطلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام»^(٢). نقلت لنا مصادر الكتب عدة روايات عن التعسف في استخراج الخراج، فإننا نجد مثلاً أنه في سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م لجأ الخليفة المنصور إلى وسيلة ذكية لمعرفة العدد الحقيقي لسكان البصرة ليجعلهم يدفعون ضريبة قيمتها ٤٠ درهمًا على كل نفس، فأمر بتوزيع مبلغ خمسة دراهم كهدية منه حتى يسجلوا أنفسهم. وهكذا احتال عليهم بهذه الحيلة، فقال شاعر مجهول حول هذا الموضوع: (من مجزوء الرمل)

يَا لَقَوْمِي مَا لَقِينَا
مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
قَسَمَ الْخُمْسَةَ فِينَا
وَجَبَانَا الْأَزْبَعِينَ^(٣)

(١) الأبيشي، شهاب الدين محمد بن أحمد: المستطرف في كل فن مستظرف، ١/١٠٨؛ دار الفكر، بيروت، د.ت.

(٢) أبويوسف: كتاب الخراج، ١٢١.

(٣) الطبري: السابق، ٤٦/٨؛ ابن الأثير: السابق، ٥/٦.

هارون الرشيد نفسه استعمل العنف وإدخال الناس للسجن لاستخراج المتأخر من الخراج^(١). وكان موسى بن مصعب أيضاً قاسياً جداً في تحصيل جباية مصر^(٢). وكان لوالي الموصل يحيى بن سعيد سمعة سيئة أيضاً في هذا المجال^(٣). أما إسحاق ابن سليمان فقد كرهه الناس في مصر بسبب الضرائب التي كان يفرضها عليهم حتى ثاروا عليه^(٤). وفي عهد هارون الرشيد تصرف علي بن عيسى بالطريقة نفسها في خراسان^(٥). وهكذا لم يبق أمام المزارعين الذين لم يكن بإمكانهم دفع تلك الضرائب المرتفعة باطراد سوى أن يهجروا الأرض أو أن يثوروا.

من الناحية المبدئية يرسل جزء من الأموال المستخرجة إلى الحكومة المركزية في بغداد، وما تبقى يصرف في الأقاليم لدفع رواتب العمال والجنود، أو يستعمل في بعض الأعمال. لقد ذكر لنا الثعالبي بعض الأمثلة من الأموال والأشياء التي كانت ترسل سنوياً إلى بغداد. لقد جُلب إلى العاصمة سنوياً ثلاثون ألف تفاعحة مع خراج حمص ودمشق ومقداره ٤٠٠٠ دينار^(٦). أما الأهواز فخارجها ٢٠٠٠٠ درهم مع ١٥٠٠٠ كلف من السكر^(٧). وخراج أرمينية ١٣ مليون درهم مع ثلاثين زربية مطرزة^(٨). وخراج إصبهان ٢١ مليون درهم و ١٠ آلاف كلف من العسل، و ١٠ آلاف كلف من الشمع^(٩). وكان العسل كذلك يجلب مع خراج الموصل الذي بلغ قدره ٢٤ مليون درهم^(١٠) إلخ...

(١) الطبري: نفسه، ٢٧٢/٨.

(٢) الكندي: السابق، ١٢٥.

(٣) ابن الأثير: نفسه، ١٥٣/٦.

(٤) ابن تغري بردي: السابق، ٨٧/٢.

(٥) الجهشيارى: السابق، ٢٢٨.

(٦) الثعالبي: كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ٥٣٧.

(٧) الثعالبي: نفسه، ٥٣٧.

(٨) نفسه، ٥٣٨.

(٩) نفسه، ٥٣٨-٥٣٩.

(١٠) نفسه.

التذمر الشعبي في العصر العباسي: استطاع العباسيون أن يستولوا على السلطة بفضل برنامجهم المعلن كما أسلفنا سابقاً، ذلك البرنامج الذي كان من المفروض أن يمثل تطلع الرعية في العيش الأفضل حيث تكون الغلبة للعدل قرابتهم من الرسول زادت في شعبيتهم وفي عدد أنصارهم، وفي آمالهم في تطبيق مبادئ الإسلام في العدالة والمساواة.

بعد استقرار نسبي، تبين للناس أنهم خدعوا من قبل العباسيين، وأدركوا أن طغيان النظام العباسي وتعسفه ليس بأحسن حال مما كان موجوداً في النظام الأموي^(١). بعد عام فقط من ظهور العباسيين، نجد شريك بن شيخ المهري يثور على أبي مسلم الخراساني في بخارى. وكان سبب تلك الثورة كما أوضحها زعيمها حينما وجه كلاماً لأبي مسلم قائلاً «ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء، وأن يعمل بغير الحق. وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفاً»^(٢). هكذا بدأت الشكاوى من النظام الجديد تظهر شيئاً فشيئاً وبسرعة كبيرة. وقد بدأت هذه الشكاوى تكبر باطراد حتى تحولت إلى ثورات كبيرة فيما بعد. يمكن أن نسوق هنا بعض الأمثلة على هذا التذمر الشعبي. التقى الخليفة المنصور مرة بدويّاً فقال له: «احمد الله يا أعرابي الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت؛ قال: إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل: ولايتكم والطاعون»^(٣). وكان الشعراء أيضاً من ضمن المتذمرين، فهذا أبودلامة^(٤) يتحدث بسخرية عن خيبة أمه في العباسيين بقوله: (من الطويل)

وَكُنَّا نَرْجِي مِنْ إِمَامٍ زِيَادَةً

فَزَادَ الْإِمَامُ الْمُصْطَفَى فِي الْقَلَانِسِ^(٥)

-
- (١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ١/١٧٠-١٧١.
(٢) ابن الأثير: السابق، ٤٤٨/٥.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ٤٤٨/٥.
(٤) أبودلامة، زند بن الجون (١٦١هـ/٧٧٨م): شاعر فكاهي في بلاط العباسيين؛ كان متهمًا بالزندقة؛ انظر: أبوالفرج الإصفهاني: الأغاني، ١٠/٢٣٥-٢٧٢.
(٥) الطبري: نفسه، ٤٢/٨؛ ابن الأثير: نفسه، ٦١/٥.

سار ذلك التذمر في كل أقاليم الخلافة العباسية مما سهل أمر قادة الحركات والثورات في جلب الأنصار الغاضبين لقضاياهم. وكان أن حدث عدد كبير من الانتفاضات والثورات بحيث لم يعد هذا الأمر غريباً بسبب تلك الأوضاع. لقد كان الناس في خلاف مع بني العباس وكثير منهم ثاروا ضدهم^(١). يمكن أن نضيف إلى ذلك المعاملة السيئة التي امتاز بها موظفو بني العباس في جميع الميادين. هذا الشاعر أبوالسعلاة الكوفي يحدثنا عن ذلك بقوله: (من الطويل)

بِكُوفَتِنَا وَالِ عَلَى صَلَوَاتِنَا
ظُلُومٌ غَشُومٌ ظَاهِرُ الْفُسُوقِ مُتْرَفٌ
وَقَاضٍ ضَعِيفُ الْحِلْمِ وَالْعَقْلِ جَاهِلٌ
يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ وَيَخْنَفُ
يُغَيِّرُ عَلَى أَمْوَالِنَا وَضِيَاعِنَا
فَيُسْعِفُهُ الْقَاضِي عَلَيْهَا وَيَكْنِفُ^(٢)

والآن سنتحدث عن بعض الثورات وبعض الانتفاضات مبتدئين بالبدو.

بعد الفتوحات الإسلامية الأولى استوطنت بعض القبائل العربية في الأراضي الجديدة المفتوحة مثل مصر والشام والعراق وغيرها. وكان ذلك من أجل هدف واضح هو تحفيز المسلمين وجعلهم ينصهرون مع المواطنين المحليين لنشر الإسلام من جهة، وللحفاظ على سلطة العرب من جهة ثانية. لكن البدو ظلوا دائماً مشاغبين وكانت انتفاضاتهم مستمرة لا تنقطع. وكانت الأوضاع الاقتصادية هي السبب الرئيس لها. لقد امتنعوا عدة مرات عن دفع الضرائب، وكان ذلك الرفض متبوعاً في الغالب بمعارك مع عمال الخراج الذين كان يصحبهم دوماً مجموعات من الجنود لتحصيل الضرائب بالقوة.

(١) ابن دحية: السابق، ٢٢.

(٢) ابن طيفور: المنثور والمنظوم أو القصائد التي لا مثل لها، ١٢٣-١٢٤؛ تحقيق محمد محسن غياض، تراث عويدات، بيروت - باريس، ١٩٧٧.

لقد دفعهم القحط كذلك وقلة المؤن إلى قطع الطرق والقيام بعمليات غزو ونهب ضد قوافل الحجيج التي كان لها أيضاً هدف تجاري. وكان الشغب أحياناً مرده إلى العصبية القبلية التي لم يقض عليها الإسلام نهائياً، خاصة إذا علمنا أن عدداً لا بأس به من تلك القبائل ظلت متراصة فيما بينها ولم تختلط بغيرها من الشعوب من أهل البلد الذي تعيش فيه. لقد اهتمت القبائل العربية في مصر بالزراعة مثل قيس وقضاة. لذلك نجد البدو يشتكون باستمرار من تصرف عمال الخراج ولم تتوقف ثوراتهم بل ازدادت. لقد احتفظ الكندي بعدة أشعار لهم تتحدث عن تلك الثورات. مثلاً في سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م ثاروا ضد الوالي موسى بن مصعب، فقال شاعرهم سعيد بن عفير في ذلك: (من الطويل)

أَلَمْ تَرَهُمْ أَلَوْتُ بِمُوسَى سَيُوفَهُمْ
وَكَاَنْتَ سَيُوفٌ لَا تُدِينُ مُتْرِفٍ^(١)

وكان هذا الوالي معروفاً بقسوته في تحصيل الخراج بل ضاعف الضريبة على الفدان، وفرض ضريبة أخرى على الحيوانات والأسواق. وفوق هذا كان متهماً بالرشوة.

وفي سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م اشتكى هؤلاء البدو من جديد لليث بن الفضل^(٢) بدون جدوى، مما جعلهم يرفضون دفع الضرائب مرة أخرى^(٣). فعلوا الشيء نفسه في السنة الموالية، لكن الدولة هذه المرة أرسلت لهم جيشاً بقيادة هرثمة بن أعين لقمع تمردهم^(٤). وفي سنة ١٩١هـ/ ٨٠٦م تكرر المشهد نفسه فقال شاعرهم البدوي أبوالندي: (من الوافر)

(١) الكندي: نفسه، ١٢٧.

(٢) الليث بن الفضل (توفي بعد ١٨٧هـ/ ٨٠٣م)؛ من أبيورد في خراسان؛ كان والياً على مصر في عهد هارون الرشيد لمدة أربع سنوات وسبعة أشهر؛ كان قاسياً على فلاحي الحوف بمصر وقتل عدداً كبيراً من محرضيهم؛ انظر الزركلي: الأعلام، ١١٥/٦.

(٣) الكندي: نفسه، ١٤٠-١٤١.

(٤) الطبري: نفسه، ٢٥٦/٨؛ ابن الأثير: نفسه، ١٤١/٦.

أَقُولُ إِذَا الرَّفَاقُ بَدَتْ لِوَجْهِهِ
أَلَا حُلُّوا رِحَالَكُمْ وَطَيِّرُوا
وَإِنْ لَمْ تَتْرُكُوهَا فَاسْتَعِدُّوا
لِحَرْبٍ مِثْلَ حَاصِبَةٍ تَفُورُ
أَقُولُ لِصُخْبَتِي كُرُّوا عَلَيَّهِمْ
فَلَيْسَ يَرُدُّهُمْ إِلَّا الْكَرُّورُ^(١)

إنه يشجعهم على مواجهة القوات الحكومية التي جاءت لتفرض عليهم الضرائب والتي لن تمتنع عن قتلهم. وقعت معارك عديدة بين الطرفين. وكان الجيش الحكومي هذه المرة بقيادة يحيى بن معاذ. وفي السنة الموالية قتل الشاعر أبوالندى. وبهذه المناسبة يقول شاعر من الخصوم هو أبوعثمان السُّكْرِي: (من الخفيف)

وَجَبَيْنَا قَيْسًا وَلَمْ تَكُ تُجَبِي
وَقَتَلْنَا أَبَا النَّدَى وَابْنَ عَابِسَ
وَتَرَكْنَا لَحْمًا وَحَيِّي جُذَامَ
لَا يُطِيقُونَ رَفَعَ كَفَّ ثَلَامِسَ
أَمَّنَ اللَّهُ بِأَمْبَارِكَ يَحْيَى
حَوْفَ مِضْرٍ إِلَى دِمَشْقَ فَبَالِسَ^(٢)

لقد كانت معارضة هؤلاء الفلاحين كبيرة حسب هذا الشاعر إذ نجد عدة قبائل قد اشتركت فيها مثل قيس ولخم وجذام إلخ. وقد استمرت الحرب معهم سنة على الأقل. ويخبرنا هذا الشاعر أيضا أن عددا من القادة العباسيين قد انكسروا أمام هذه القبائل المتمردة والثائرة والرافضة لدفع الخراج. ونجده

(١) الكندي: نفسه، ١٤٤.

(٢) باليس: مكان ما بين حلب والرقعة؛ انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١/٣٢٨.

في النهاية ينصحهم بدفع ما عليهم من ضرائب حتى لا يتعرضوا لغضب الدولة عليهم: (من البسيط)

يَا قَيْسَ عَيْلَانَ إِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ
أُدُّوا الْخَرَاجَ وَخَافُوا الْمَوْتَ وَالْحَرْبَا^(١)

وها هم يثورون مرة أخرى سنة ٢١٤هـ/٨٢٩م ضد عمير بن الوليد^(٢) الذي سوف يقتلونه بعد شهرين من تعيينه. وفي سنة ٢١٦هـ/٨٣١م شغبوا أيضاً على العباسيين. وعندما عين عنبسة بن إسحاق^(٣)، قال أحد شعراء تلك المنطقة وهو يحيى بن الفضل متهمًا إياه بالاتجاه الخارجي: (من الخفيف)

خَارِجِيًّا يَدِينُ بِالسِّنْفِ فِينَا
وَيَرَى قَتْلَنَا جَمِيعاً صَوَابَا^(٤)

واضح إذن أن كل ثورات فلاحي مصر تسببت فيها السياسة الضريبية السيئة التي طبقتها العباسيون في تلك المنطقة.

أما القبائل العربية في الحجاز التي ما فتئت تجوب الصحراء فلم تتخل أبداً عن عاداتها في الغزو. لقد كان الأعراب يهاجمون باستمرار المدن وقوافل الحجيج. فعلوا ذلك ليقاوموا قساوة المحيط الذي كانوا يعيشون فيه والطبيعة القاسية التي وجدوا فيها. وقد تدمروا كذلك من الضرائب التي فرضها العباسيون على قطعانهم علما أنهم لم يكادوا يعترفون أصلاً بسلطتهم. ونلاحظ أنهم كانوا أكثر شغباً في العصر العباسي الثاني، فقد ظلوا يتحرشون بالقوافل بدون انقطاع.

(١) الكندي: نفسه، ١٤٥.

(٢) عمير بن الوليد (٢١٤هـ/٨٢٩م): قتله الفلاحون؛ انظر ابن تغري بردي: نفسه، ٢/٢٠٧؛ الزركلي: نفسه، ٢٢٦/٥.

(٣) عنبسة بن إسحاق (٢٦٠هـ/٨٦٠م): كان والياً على الرقة في عهد المأمون ثم والياً على مصر في عهد المنتصر في سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م إلى غاية ٢٤٢هـ/٨٥٦م. يبدو أنه كان ذا ميول خارجية وكان عادلاً مع الرعية؛ وهو آخر وال عربي على مصر؛ انظر الزركلي: الأعلام، ٢٦٨/٥.

(٤) ابن تغري بردي: نفسه، ٢/٢٩٤.

ويمكن أن نفسر ذلك بأن تلك القوافل كانت أيضاً وسيلة تجارية بين الحجاز وباقي المناطق الأخرى. مثلاً في سنة ٢٣٠هـ/٩٤٨م نجد قبيلة بني سليم تفرض سيطرتها على ضواحي المدينة المنورة. لقد أخذوا من الأسواق ما شاؤوا، بل أكثر من ذلك قتلوا بعضاً من كنانة وباهلة^(١).

كان زعيمهم هو عَزِيزَةَ بن قَطَّابِ السُّلَمِيِّ. لكن الخليفة أرسل لهم جيشاً بقيادة بُغَالِإِعادَة الهدوء إلى تلك المنطقة، فقتل عدداً منهم وأسر عدداً آخر. وهذا ما جعل أحد شعرائهم يقول وهو يطلب الصفح عنهم: (من الوافر)

وَكُنَّا نَرُدُّ الْجَوْرَ عَنَّا
إِذَا انْتَضَيْتْ بِأَيْدِينَا السُّيُوفُ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَمَا إِلَيْنَا
سُمُو اللَّيْثِ ثَارَ مِنَ الْغَرِيفِ
فَإِنْ يَمُنُّنْ فَعَفَوِ اللَّهُ نَرْجُو
وَإِنْ يَفْتُلْ فَقَاتِلْنَا شَرِيفاً^(٢)

إن هذا الشاعر، وهو يطلب الصفح، لا يتراجع عن موقفه بل يؤكد أنهم ثاروا بسبب الجور والظلم.

وفي سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م زرعت قبيلة بني عُقَيْلِ الفوضى في ضواحي جُدَّة. وهنا نجد قائدهم يقول شعراً للقائد العباسي: (من الرجز)

عَلَيْكَ تَوْبَانِ وَأُمِّي عَارِيَهُ
فَأَلِقْ لِي تَوْبَكَ يَا بَنَ الزَّانِيَةِ^(٣)
واضح أن هذه الانتفاضة مردها إلى الفقر.

(١) الطبري: السابق، ١٢٩/٩؛ ابن الأثير: السابق، ١٢/٧.

(٢) الطبري: نفسه، ١٣٤/٩.

(٣) الطبري: نفسه، ٣٤٦/١٠.

وفي سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م قطع البدو الطريق بين ثور وسميراء^(١) فأخذوا من الحجاج ٥٠٠٠ ناقة بحمولتها^(٢). وكانت تلك الحمولة، بدون شك، موجهة لمكة المكرمة والمدينة المنورة.

وفي سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م هاجمت قبيلة طيء قافلة قادمة من مكة ومتوجهة إلى بغداد غير أن حراسها استطاعوا أن يصدوا الهجوم على الرغم من أن البدو كانوا في حوالي ٢٠٠٠ فارس أو أكثر^(٣). وفي سنة ٣٠٢هـ/٩١٣م هاجموا قافلة أخرى وأخذوا كل ما كان بحوزتها^(٤).

حتى العراق، وهو قلب الدولة العباسية، لم يسلم من الاضطرابات التي تسبب فيها البدو. في سنة ١٦٧هـ/٧٨٣م قاموا بالتهب في أرياف البصرة فأرسل لهم الخليفة المهدي جيشاً لكنهم قاوموا ذلك الجيش بقوة وقضوا عليه نهائياً^(٥). وفي سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م اضطرت قبيلة الأزدي في ضواحي الموصل، وقام قائدها العطف ابن سليمان بجباية الخراج لمدة سنة، وكان على رأس ٤٠٠٠ فارس^(٦). وفي سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م قامت قبيلتا ودبعة وشيبان بنشر الفوضى في طرق خراسان لكن الخليفة المأمون أرسل في إثرهم واليه على الموصل السيد بن أنس^(٧)، وطلب منه أن يذهب إليهم مع قبيلته وأن يقضي عليهم ويأسر أبناءهم^(٨). وفي سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م هاجم بعض الأعراب من شيبان مدينة الأنبار وأخذوا منها بعض القطعان^(٩).

(١) ثور وسميراء: مكانان قرب مكة؛ انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢/٨٦-٨٧ و٣/٢٣٥.

(٢) ابن الأثير: السابق، ٧/٣٩٦.

(٣) الطبري: نفسه، ١٠/٧٤؛ ابن الأثير: نفسه، ٧/٥٠٨.

(٤) الطبري: نفسه، ١٠/١٥٠-١٥١.

(٥) ابن الأثير: نفسه، ٦/٧٧.

(٦) ابن الأثير: نفسه، ٦/١٤٠.

(٧) السيد بن أنس (٢١١هـ/٨٢٦م): هو من قبيلة الأزدي؛ مغوار وخطيب مفوه مشهور؛ كان المأمون يثق في قدره ويكلفه مراراً بمحاربة القبائل المشاغبة؛ انظر الزركلي: الأعلام، ٣/٢١٦.

(٨) الأزدي: نفسه، ٣٦٤.

(٩) الطبري: نفسه، ١٠/٧٢-٧١.

الحقيقة أننا لا نستطيع أن نجمل كل الثورات والانتفاضات التي قام بها البدو في العصر العباسي لأنها كثيرة. لكن نلاحظ أن موقف الدولة تجاه هؤلاء البدو كان يتسم بالعداوة بالإضافة إلى أن هؤلاء البدو كانوا يشعرون أن العباسيين لم يهتموا بهم كما اهتموا بغير العرب. يضاف إلى كل هذا مشاكستهم الطبيعية المعهودة عنهم. كانوا يشعرون دوماً بالحرية، ولم يقتنعوا أنهم محكومون لأنهم لم يألفوا أن يحكمهم الآخرون. دون أن ننسى أوضاعهم المعيشية المزرية.

ولم يستسيغوا كذلك دفع الضرائب للدولة. يمكن أن نستشهد على تلك العداوة المتبادلة بين العباسيين وهؤلاء البدو بالحديث الذي دار بين المأمون وأحد المزارعين الذي عاتبه على المزايا التي استفاد منها غير العرب على حساب العرب، عندما قال له: «يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان. فقال له: أكثرت علي، والله ما أنزلت قيساً من ظهور خيولها إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد - يعني فتنة ابن شيبث العامري -؛ وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحببتي قط؛ وأما قضاة فساداتها تنتظر السفيناني وخروجه حتى تكون من أشياعه؛ وأما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث الله نبيه من مضر»^(١).

لكن أيضاً نشير إلى أن هذا التذمر لم يكن في البوادي والأرياف فقط كما لم يكن محصوراً في العرب وحدهم، فحتى غير العرب ثاروا أحياناً، كما فعل أهل قم مثلاً^(٢).

أما في المدن فقد انتظم العمال البسطاء في شكل مجموعات، فظهرت عصابات من كل نوع. لعل أشهر هذه العصابات «الشُّطَّار» و«العَيَّارُونَ» الذين برزوا أثناء الحرب بين الأمين والمأمون، وقاموا بدور كبير في المقاومة ضد جيش طاهر بن الحسين. إن هذه الجماعات أو هذه العصابات تقوم ظاهرياً بأعمال

(١) الطبري: نفسه، ٦٥٦/٨؛ ابن الأثير: نفسه، ٤٣٢-٤٣٣.

(٢) الأزدي: السابق، ٣٦٨؛ الطبري: نفسه، ٦١٤/٨؛ ابن الأثير: نفسه، ٣٩٩/٦.

السرقية والنهب وزرع الرعب بين الناس، ولكنها في الحقيقة ظهرت نتيجة للظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية السيئة التي عرفها العصر العباسي. لقد تسببت تلك الجماعات في عدة انتفاضات بالمدن، خاصة بمناسبة زيادة أسعار المواد ذات الاستهلاك الواسع^(١).

لقد امتلأت المدن بالبطلين، ومع مرور الزمن، كوّنوا جماعات، لينتقموا من الأغنياء. لقد كونت هذه الجماعات حركة اجتماعية اقتصادية سوف تعتمد على مرور السنوات قواعد وعادات وأخلاقاً خاصة بها^(٢). لقد كانوا خليطاً من الجنسيات والأعراق التي كانت تحتوي عليها المدن التي لم تعد تعتمد على النظام القبلي أو العرقي بكثرة كما هو الشأن في البوادي والأرياف. وقد كان بعض زعماء هذه الجماعات مشهورين مثل محمد بن هارون الذي كان خياطاً في الأصل ثم استطاع أن يجمع البطلين ويصنع منهم جيشاً. وكان الشاعر الخوافي يسخر منه ويذكره بأصوله المتواضعة بقوله: (من البسيط)

كَانَ ابْنُ هَارُونَ خَيَّاطًا لَهُ إِبْرُ
وَرَايَةٌ سَامَهَا عَشْرًا بِقِيرَاطٍ
فَأَنْسَلَّ فِي الْأَرْضِ يَبْغِي الْمَلِكَ فِي عَضْبٍ
رُطٌّ وَنُوبٌ وَأَكْرَادٌ وَأَنْبَاطٌ^(٣)

قد قامت هذه المجموعات أحياناً بالنهب وقطع الطريق. إن تنوع أعراقها ليس هو سبب جمعها ولا يمكن أن يكون كذلك بل الفقر هو الذي جمعهم. ويحكى أن النظام كان يستعين بهم من حين لآخر عند الضرورة. نحن نظن أن هذه الحركة كانت تنشط بنوع من الحرية لكونها كانت تشعر أنها محمية نوعاً ما.

(١) الطبري: نفسه، ٢٣٤/٩.

(٢) انظر رجب النجار: حكايات الشطار والعيارين في العصر العباسي؛ ضمن سلسلة «عالم المعرفة»، رقم ٤٥، الكوي؛ عبدالعزيز الدوري: تاريخ العراق، ٧٩.

(٣) ابن الأثير: نفسه، ٥٥١-٥٥٢؛ فيما يخص هذه الأجناس انظر لسان العرب حسب كل مادة.

ويلاحظ كذلك أن هذه الجماعات تبرز في أوقات القلاقل كالحروب الأهلية أو حروب الصراع على السلطة. وهذا أمر طبيعي لأنه في مثل تلك الظروف ينفرد النظم وتترك الجماهير لحالها. وهذا ما يسمح لمثل هذه الجماعات بأن تتحرك بكل حرية وأن تفعل ما تشاء. وأيضاً تجد الجماهير نفسها مضطرة للدفاع عن نفسها بتكوين جماعات مثل «المطوعة» الذين يمثلون الوجه الآخر لهذا المجتمع الذي يغلي داخلياً. حدث ذلك عندما فرض الشطار على الناس دفع علاوات أو عندما بدأوا يأخذون النساء والأطفال علناً وفي وضوح النهار أو بنهب الأسواق والدور^(١).

بينما نجد مجموعات أخرى ظهرت نتيجة الظروف السياسية والاقتصادية والدينية لتلك الحقبة المدروسة. مثلاً نجد الزُطَّ يثورون سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م زمن الخليفة المعتصم حيث تحكّموا في البصرة وأخذوا غلال الناس وزرعوا الرعب في تلك المنطقة، فكلف الخليفة القائد عُقَيْل بن عنبسة لتأديبهم فقتل عدداً كبيراً منهم وحاصر الآخرين الذين استسلموا في النهاية. وكان زعيم الزط يسمى محمد ابن عثمان. ثم تصرف الخليفة معهم بعد ذلك تصرفاً غريباً إذ نقلهم جميعاً إلى خانقين حيث الحدود مع بيزنطة. كان عددهم ٢٧ ألفاً من ١٢ ألف مقاتل. ويحكى أنهم قتلوا جميعاً من قبل البيزنطيين في إحدى المعارك^(٢).

ونجد الشاعر علي بن الجهم يتحدث عنهم وهو يمدح الخليفة^(٣). ونجد أحد شعرائهم المجهولين يتحدث عن ثورتهم وأسبابها. لقد اشتغلوا في تجارة التمور فتسببت ثورتهم تلك في عرقلة تزويد العاصمة بتلك المادة الضرورية للمواطنين.

وشاعرهم هذا يشير إلى ذلك بقوله: (من البسيط)

(١) الطبري: نفسه، ٥٥١/٨-٥٥٢؛ ابن الأثير: السابق، ٣٢٤-٣٢٥.

(٢) الطبري: نفسه، ٨/٩-١٠؛ ابن تغري بردي: السابق، ٢/٢.

(٣) علي بن الجهم: الديوان، ١١-١٠.

يَا أَهْلَ بَغْدَادَ مُوتُوا دَامَ غَيْضُكُمْ
شَوْقاً إِلَى تَمْرِ بَرْزِيِّ وَشَهْرِيزِ
نَحْنُ الَّذِينَ ضَرَبْنَاكُمْ مُجَاهِرَةً
قَسِراً وَسَقْنَاكُمْ سَوْقَ الْمَعَاجِيزِ
لَمْ تَشْكُرُوا اللَّهَ نِعْمَاهُ الَّتِي سَلَفَتْ
وَلَمْ تَحُوطُوا أَيَادِيهِ بِتَغْزِينِ
فَاسْتَنْصِرُوا الْعَبْدَ مِنْ أَبْنَاءِ دَوْلَتِكُمْ
مِنْ يَا زَمَانٍ وَمِنْ بَلَجٍ وَمِنْ تُوَزِ
وَمِنْ شَنَاسٍ وَأَفْشِينٍ وَمِنْ فَرَجِ
الْمُغَمَلِينَ بِدِيْبَاكِ وَإِيرِيزِ^(١)

وقد عرفت هذه الحقية توترات أخرى ذات طابع ديني كحركة الراوندية سنة ١٤١هـ / ٧٥٨م، أو حركة أستاذسيس سنة ١٥٠هـ / ٨١٨م أو حركة المقنع الخراساني سنة ١٥٩هـ / ٨٢٧م.

ب - الشعر وثورة بابك

اتفق المؤرخون على ظهور بابك الخُرَمي سنة ٢٠١هـ / ٨١٦م بضواحي الجاودانية في قرية البَدِّ^(٢). لكننا نلاحظ أن هذه الحركة قد بدأت قبل ذلك بكثير، وبالضبط في عهد الخليفة هارون الرشيد الذي أرسل ضدهم جيشاً مكوناً من عشرة آلاف جندي بقيادة عبدالله بن مالك الذي قتل زعيمهم وأسر النساء والأطفال. وقد أمر الخليفة هذا القائد بقتل الأسرى وبيع النساء^(٣).

(١) مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ٤، ٢٢٧/٣.

(٢) الطبري: نفسه، ١١/٩؛ ابن العماد: نفسه، ٢/٢.

(٣) ابن الأثير: نفسه، ٢٠٨/٦.

يبدو أن هذه الثورة عرفت تحريفًا كبيرًا من طرف المؤرخين القدامى الذين أَلصقوا بها كل الرذائل. والدليل على ذلك أنهم حين يذكرون بابكًا الخرمي ينعنونه دومًا بالملحد الكافر^(١) الفاسق العاهر^(٢) إلخ.

من جهة أخرى يبدو أنه لم يكن لأولئك المؤرخين فكرة واضحة عن الخرمية، فقد أعطوا عدة أسماء للحركات الخرمية التي كانت كثيرة على ما يبدو. لقد انطلقت الخرمية من عدة مناطق مثل أذربيجان وأرمينية وإيران وما وراء النهر، غير أن الخرمية حركة دينية واحدة وحيدة تحتوي على عدة مجموعات^(٣). وفوق هذا نجد أن المسخ قد مس أحداث تلك الحركة وأهدافها وأيديولوجيتها ومبادئها الاجتماعية^(٤). يرجع هؤلاء المؤرخون ظهور حركة بابك الخرمي لمعتقده المزدكي^(٥). ويرى آخرون أنه من ولد أبي مسلم الخراساني، وأن أباه هو مُطَهَّر بن فاطمة بنت أبي مسلم^(٦). من هنا جاءت علاقته بلفظة «خُرْم» الفارسية التي تعني «اللذة والسعادة» تلك مبادئ مزدك حيث يتزوج الشخص مع أمه أو أخته أو ابنته. لذلك سُمِّوا دينه بدين اللذة. وهم يعتقدون بالبعث، وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى آخر^(٧). هذه التهم ليست غريبة عن المؤرخين الرسميين الذين كانوا عمومًا في صف النظام القائم أي في صف العباسيين. لقد صار معروفًا أنه كلما ظهرت حركة ما قد تضر بالسلطة العباسية إلا ويتصدى لها هؤلاء المؤرخون فيسوّدون صفحات زعمائها مظهرين إياهم على أنهم كفّار يجب محاربتهم. ولم تفلت حركة بابك الخرمي من ذلك.

(١) ابن العماد: نفسه، ٢/٢.

(٢) ابن الأثير: نفسه، ٣٢٨/٦.

(٣) حسين قاسم العزيز: البابكية، ١٣٠؛ مكتبة النهضة ببغداد ومكتبة ودار الفارابي ببغداد، د.ت.

(٤) حسين مروة: نفسه، ٦٩/٢.

(٥) البغدادي: الفرق بين الفرق، ٢٦٦؛ ابن الأثير: نفسه، ٣٢٨/٦.

(٦) أبوحنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ٤٠٢.

(٧) ابن الأثير: نفسه، ٣٢٨/٦.

إن نظرة بسيطة إلى الاضطرابات التي عرفتها تلك الحقبة تبين لنا أن الدين كان دائماً ضرورياً لكل حركة، مهما كانت تلك الحركة، لأن العقليات في ذلك الزمن لم تكن تتقبل الأفكار إلا إذا كانت مغلفة بغلاف ديني. لذلك ليس غريباً أن نجد كل الحركات التي عرفها ذلك العصر مرتبطة بدين ما أو بمبادئ دينية ما كما هو الشأن مع الشيعة والخوارج.

أما المؤرخون المحدثون فهم يركزون على الدوافع الاجتماعية والاقتصادية التي تسببت في تلك الحركة دون أن يستبعدوا الجانب الديني.

الشيء الأول الملاحظ في هذه الحركة أن عدة شعوب قد أسهمت فيها مثل الفلاحين الأكراد والفرس والأرمن والبيزنطيين وغيرهم من قبائل ما وراء القوقاز^(١). والشيء الثاني أن أغلب الذين التحقوا بتلك الحركة كانوا من الفلاحين^(٢).

إذن لا بد من البحث عن الأسباب في الظروف الاقتصادية في المناطق التي رأت ميلاد هذه الحركة. إلى جانب الضرائب التي ما فتئت ترتفع كان هناك عامل آخر كان له تأثير قوي، وقام بدور كبير في سوء العلاقة بين سكان تلك المناطق والسلطة العباسية، وهو أن الفتح الإسلامي المتأخر لتلك المناطق تسبب في استيطان بعض المستعمرات العربية مما نشأ عنه مشكلات كبيرة بين السكان الأصليين والوافدين الجدد. وكانت تلك المناطق، زيادة على ذلك، تحتوي على سهول شاسعة وخصبة وسلسلة من الجبال الغنية بالمناجم. وكانت الأزمة المقنعة بالتعايش السلمي الظاهري بين العرب الوافدين والسكان الأصليين موجودة دوماً وملحة.

لقد ذهب وفد عن تلك المناطق لزيارة الخليفة المأمون لطرح مشكلاتهم عليه وأطلعوه على عينة من المعادن الموجودة عندهم متكونة من أربعين معدناً^(٣). في

(١) حسين مروة: السابق، ١٥/٢.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق، ٢٦٩؛ حسين قاسم العزيز: البابكية، ١٢٠.

(٣) الأزدي: السابق، ٣٥٤؛ ممد عبدالحى شعبان: الدولة العباسية، ٧٦.

البداية لم يقرر المسلمون ضربية على المعادن، لكن العباسيين بعد أن أدركوا قيمتها فرضوا عليها ضرائب خاصة بها الأمر الذي زاد من غضب سكان تلك المناطق. وهكذا زادت الضرائب من تفاقم المشكلات التي عرفتها^(١). لقد مثلت الضريبة على المعادن خمس الإنتاج الصافي منها^(٢). كل هذا مضافاً إلى النزعة الاستقلالية التي كانت دوماً موجودة في تلك المناطق^(٣).

يمكن بسهولة أن نتصور الأسباب التي أدت بشعوب تلك المناطق إلى الثورة بكثافة ضد السلطة العباسية التي لم تف بالوعود التي قطعتها من قبل من تحسين الوضعية الاقتصادية للبلاد^(٤). اتخذت هذه الحركة الخرمية الغطاء الديني لتتويع كل ذلك بهذه المسحة الأيديولوجية لتلك الثورة الشعبية.

عنصران واضحا يميزان تلك الثورة: التنظيم المحكم لها والأهداف التي سطرت لبلوغها^(٥). يركز برنامج البابكية على مبادئ مهمة تتمثل في مصادرة الملكيات الزراعية الكبرى وتوزيعها على الفقراء، وإلغاء الضرائب، وحرية المرأة والوقوف ضد كل أنواع الظلم والاستغلال^(٦).

هناك بعض الإشارات في المصادر إلى الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الحركة الكبيرة. أبوحنيفة مثلاً يرجع ذلك إلى أن بابكاً قد عاش في مناخ تكتنفه الفوضى وتسود فيه الانتفاضات المستمرة^(٧). لعله يشير إلى الحرب الأهلية بين الأميين والمؤمنين، والحروب التي دارت بين العباسيين والطلبيين. أما المسعودي

(١) محمد عبدالحى شعبان: نفسه، ٧٨.

(٢) نفسه، ٧٩.

(٣) الأزدي: السابق، ٣٥٨.

(٤) بندلي صليباً الجوزي: دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، ٨٣.

(٥) نفسه، ٧٨.

(٦) حسين قاسم العزيز: السابق، ١٣٠.

(٧) أبوحنيفة: السابق، ٤٠٢.

فينفرد برواية فريدة عندما يذكر أن قحطاً وقع في بلاد المشرق سنة ٢٠٤هـ/٨٢٠م، وحدث وباء في خراسان وغيرها. وفي تلك السنة ظهر بابك الخرمي في بلاد البَدْ^(١). إذن مناخ الفوضى، والقحط، والأوبئة، والضرائب، والمستوطنات العربية وغيرها دفعت تلك المنطقة بسهولة إلى الثورة. ولا ننس أيضاً دور بيزنطة في تشجيع بابك فهذا مؤكد تاريخياً، وحتى بابك كان يشجع بيزنطة ضد العباسيين للهجوم في وقت واحد حتى تشتت الجيوش العباسية، وحتى تخف الضغوط على الطرفين^(٢).

البرنامج الذي طبقه بابك الخرمي سمح له بأن يستمر في المقاومة عشرين سنة كاملة ضد الجيش الحكومي. لقد برهن بابك أنه استراتيجي ممتاز وتكتيكي جيد، فقد استطاع أن يهزم عدداً كبيراً من القادة العسكريين العباسيين كلهم جيدون ومشهورون مثل يوسف الأفشين وأبي دلف^(٣). من الطبيعي أن تكون تلك الحملات العسكرية قد كلفت الخزينة العباسية أموالاً طائلة حيث يذكر أن الأفشين وحده كان يتلقى عشرة آلاف درهم على كل يوم يحارب فيه وخمسة آلاف درهم على كل يوم لا يحارب فيه^(٤).

وفي النهاية هزم بابك الخرمي من قبل الأفشين الذي سيتهم فيما بعد بأنه كان متواطئاً معه، وسيقتل بسبب ذلك^(٥). وكان هذا القائد قد كرم من قبل من الخليفة ومن الشعراء. هذا ابن الطبيب^(٦) إسحاق بن خَلَف يمدحه بما يلي:
(من الكامل)

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجواهر، ٢٢٥/٤.

(2) M. Rekaya: *Mise au point sur Théophobe et l'alliance avec Babek*, IN « Byzantion », T44, p :47-67.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق، ٢٦٨.

(٤) عاطف سلام: الثورة البابكية، ٩٢-٩٣.

(٥) البغدادي: نفسه، ٢٦٨.

(٦) ابن الطبيب (-٢٣٠هـ/٨٤٥م)، شاعر وموسيقي؛ انظر الزركلي: الأعلام، ٢٨٦/١.

مَا غِبْتِ عَنْ حَرْبٍ تَحَرَّقُ نَارُهَا
 بِالْبَدِّ، كُنْتِ هُنَا وَأَنْتِ هُنَاكَ
 عَزَّتِ بِأَفْشِيٍّ حُسَامِكَ أُمَّةٌ
 وَالذَّيْنُ مُسْتَمْسِكٌ بِهِ اسْتِمْسَاكَ
 لَمَّا أَتَاكَ بِبَابِكَ تَوَجَّتَهُ
 وَأَحَقُّ مَنْ أَضْحَى لَهَا تَاجَاكَ^(١)

لقد فرح المعتصم فرحاً كبيراً عندما ألقى القبض على بابك الخرمي بحيث كان «يبعث للأفشين منذ توجه إلى بغداد في كل يوم خلعة وفرساً بفرحته ببابك»^(٢). كان بابك رجلاً عظيماً، وقد ظهرت تلك العظمة في حربه ضد العباسيين كما في موته. لمرة واحدة خرج المؤرخون عن ذاتيتهم ونقلوا لنا صورة مشرقة عن شجاعة هذا الرجل وهو يواجه موتاً بدون أن يتحرك له ساكن، ودون خوف يذكر. لحسن الحظ لم تطمس هذه الشهادات. ابن تغري بردي يقول عنه مثلاً: «كان بابك من أبطال زمانه وشجعانهم»^(٣).

وقد أمر الخليفة بقطع أطرافه الأربعة «فلما قطعت يده مسح بالدم على وجهه حتى لا يرى أحد أن وجهه اصْفَرَّ خيفة من القتل»^(٤). إن هذا الإصرار على تقطيع أطراف بابك وتشويهه يعود إلى كونه تسبب في عدة صعوبات للعباسيين وجعلهم يشعرون بكثير من الخطر. وعندما مَثَّلَ مع أخيه أمام الخليفة قال هذا الأخ، وكان أشجع منه على ما قيل: «يا بابك، قد عملت ما لم يعمله أحد، فاصبر صبراً لم يصبره أحد؛ قال: سوف ترى»^(٥).

(١) أبوحنيفة الدينوري: نفسه، ٤٠٥.

(٢) ابن تغري بردي: نفسه، ٢٣٧/٢.

(٣) نفسه، ٢٣٦/٢.

(٤) ابن تغري بردي: نفسه، ٢٣٨/٢؛ ابن العماد: نفسه، ٥١/٢.

(٥) ابن تغري بردي: نفسه، ٢٣٨/٢؛ ابن العماد: نفسه، ٥١/٢.

بدئ ببابك فقطعت يده، «فلما قطعوا يده، خضب صورته بالدم؛ فقال المعتصم: لم فعلت؟ قال: إنك أمرت بقطع أطرافي، وفي نفسك أن لا تكويها فينزف الدم فيصفر لوني فتظنونني جزعاً مني؛ فقال: لولا أن أفعاله لا تسوغ الصنعة والعضو لاستبقيته»^(١). ثم قطعت أطرافه كلها ووضعت على بطنه، ثم أحرق بالنار في النهاية. ثم فعلوا الشيء نفسه بأخيه، لكن أحداً منهما لم يتأوه^(٢). صلب بابك بعد ذلك ووضع على خشبة بجوار المازيار الذي كانت ثورته امتداداً لثورة بابك. وقد وصف الشاعر أبوتمام ذلك بقوله: (من الكامل)

وَلَقَدْ شَفَى الْأَحْشَاءَ مِنْ بُرْحَائِهَا
 إِذْ صَارَ بَابِكُ جَارَ مَازِيَارِ
 فَكَأَنَّمَا انْحَنَى لِكَيْمَا يَطْوِيَا
 عَنْ يَاطِسٍ خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ^(٣)

وكان ياطس هذا قد صلب في المكان نفسه غير أن اللوحة التي صلب عليها مالت نحوهما فاستغل الشاعر ذلك المنظر البشع وجسمه في هذه الصورة الشعرية الرائعة.

من الطبيعي إذن ألا يتخلف الشعر عن حادثة إلقاء القبض على بابك وقتله، وقد خلقت كل ذلك الحماس وكل تلك الفرحة في البلاط العباسي. يمكن أن نتصور بسهولة طوابير الشعراء والرواة الوافدة على الخليفة لتهنئته بذلك الفوز العظيم^(٤). لكن لم يبق من ذلك الشعر إلا القليل. ومن جهة ثانية، لا بد أنه كان هناك شعر بابكي أو أدب بابكي.

(١) الصفدي: نفسه، ٦٣/١٠-٦٤؛ ابن تغري بردي: نفسه، ٢٢٨/٢؛ ابن العماد: نفسه، ٥١/٢.

(٢) التتوخي: نشوار المحاضرة، ١٤٨/١.

(٣) أبوتمام: الديوان، ١٦٣.

(٤) المسعودي: نفسه، ٣٥٦/٤.

لقد رأينا قبل قليل كيف مدح المؤرخون شجاعة بابك الخرمي وأخيه. وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن أنصاره يكونون حتماً قد مدحوه ومدحوا أخاه في حياته، ورثوهما بعد موتهما. لكن للأسف الشديد لا تتحدث المصادر العربية عن هذا الشعر. نحن نستبعد فرضية كون الحركة البابكية لم تنجب كتاباً وشعراء، وأنه لم يهتمهم حتى يكون لهم موقف جمالي من ثورته^(١). يعزو بعض الباحثين عدم وجود شعر بابكي إلى أن تلك الحركة انتشرت في مناطق لا تتكلم العربية جيداً بحيث يستطيع شعراءها كتابة الشعر بها، وأن الكتاب قد هجروها إلى مناطق أخرى، وأنها أخيراً كانت حركة فقراء وأميين^(٢).

كل هذا الكلام صحيح لكنه لا يعطينا تفسيراً لتلك الظاهرة لأن الفقر والأمية ليستا حجتين صالحتين هنا على عدم وجود أدب بابكي.

أما نحن فنعتقد أن هناك سببين لذلك، أولهما احتقار المؤرخين العرب لذلك الأدب الذي يمدح تلك الحركة، ومبادئها، ومعاركها، وشهداءها، والثاني أنه ربما يكون هذا الأدب قد استعمل لغة أخرى غير العربية بحيث تعذر على المؤرخين العرب أن ينقلوه منها علماً أن هؤلاء المؤرخين قد نقلوا شذرات من أدب الحركات المشابهة.

وعكس ذلك فقد أنتجت البابكية شعراً معادياً لها. وكما هو منتظر فإن هذا الشعر غزير. لكن هؤلاء الشعراء لم يذكرُوا بابكاً أو ثورته إلا عرضاً وهم يمدحون هذا الخليفة أو ذاك، أو هذا القائد الذي حارب بابكاً أو ذاك. لقد أشار إليه شعراء كبار مثل البيهتري وأبي تمام وعلي بن الجهم عندما مدحوا الأفشين وأبا دلف. كما هو منتظر، فإن هؤلاء الشعراء تحدثوا عن إلقاء القبض على بابك الخرمي، وعلى قتله، وعلى الفرحة التي تمت في البلاط العباسي بسبب كل ذلك. هذا مثلاً محمد

(١) عاطف سلام: نفسه، ٩٤.

(٢) نفسه.

ابن عبد الملك الزيات يتحدث عن نقل بابك على فيل كما جرت العادة في معاملة كل الشخصيات المهمة بهذه الطريقة: (من السريع)

قَدْ خَضِبَ الْفِيلَ كَعَادَاتِهِ

يَحْمِلُ شَيْطَانَ خُرَاسَانَ

وَالْفِيلُ لَا تُخَضِبُ أَعْضَاؤَهُ

إِلَّا لِذِي شَانٍ مِّنَ الشَّانِ^(١)

ما هو غريب في هذا الشعر الخصم أو المخاصم هو أن ثورة بابك لا يكاد يكون لها وجود يذكر فيه أو، على الأقل، ليست هي سوى ذكرى باهتة عندما تذكر خصال الخليفة أو أحد قواده. يتسم هذا الشعر كذلك بالجفاف، فهو خال من كل حرارة عاطفية ومن كل صدق في الأحاسيس والمشاعر لأن الشعراء لم يشاركوا في تلك المعارك، ولم تكن تعنيهم في حد ذاتها بل كانوا يستعملون خيالهم ويعتمدون على ما حكى لهم عنها. هذا الجفاف مرده عموماً إلى انعدام الرغبة والهدف لدى هؤلاء الشعراء. لكن لا بد من الملاحظة أن الشعراء الذين تحدثوا عن هذا الموضوع هم محترفو المدح مثل البحثري وعلي بن الجهم، وأن هدفهم من وراء ذلك كله هو ربح المال لا أكثر ولا أقل. لقد حاول الشعراء تعويض تلك البرودة بالإكثار من ذكر الأماكن التي حدثت فيها المعارك.

ج- الشعر وثورة الزنج

من هو علي بن محمد؟ هو علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب^(٢). إنه إذن علوي. من هنا نستطيع معرفة سبب الجدل الذي دار حول أصله خاصة في تلك الحقبة المدروسة. أغلب المؤرخين

(١) ابن الأثير: نفسه، ٤٧٧/٦.

(٢) الطبري: نفسه، ٤١٠/٩؛ ابن الأثير: السابق، ٢٠٥/٧؛ وانظر لمزيد من المعلومات فيصل السامر: ثورة الزنج، بغداد، د.ت.

العرب شككوا في أصله.إنها استراتيجية عباسية معروفة تتمثل في زرع الشك والخلاف بين الثائرين لإضعافهم.

نلاحظ هنا أن الطالبيين في القرن الثالث الهجري قد سهلوا من مهمة العباسيين بعنصرين اثنين من عناصر تلك الاستراتيجية الهدامة. أولاً ارتفاع عدد الطالبيين ارتفاعاً ملحوظاً وانتشارهم في البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً، وحتى في المناطق النائية جداً للدولة العباسية.

وثانياً السرية التي أحاطوا بها أنفسهم. لقد استعملت السرية كوسيلة للإفلات من عيون الأعداء ليعطوا نفساً جديداً لحركتهم. كانت تضفي على أئمتهم مسحة عجيبة تجلب الأنصار أكثر. وقد تصدى العباسيون لتلك المناورة بوسيلتين قويتين كذلك. أولاً قمع عائلات الطالبيين المتخفيين والتكيل حتى يخرجوهم من سريتهم تلك، وثانياً زرع الشكوك حول قرابتهم مع آل البيت. وهكذا أصبح الناس لا يعرفون من هو الطالب الحقيقي من المزيف من بين كل الطامحين. يمكن أن نفهم، والسياق هكذا، لماذا ران نوع من الشك حول أصل علي بن محمد.

لكن إصرار الرواة والمؤرخين العرب على هذا هو الدليل على أنه فعلاً ينتمي إلى الأسرة. ويؤكد البيروني هذا الانتماء عندما يذكر أن الشيعة يحتفلون كل سنة بميلاده في السادس والعشرين من شهر رمضان^(١). لكننا نجد شعراً للحماني، الذي كان يسمى هو أيضاً علي بن محمد، وكان نقيباً للطلالبيين بالكوفة في القرن الثالث، ينفي هذه القرابة: (من الوافر)

يَقُولُ لَكَ ابْنُ عَمِّكَ مِنْ بَعِيدٍ
لَتَبَّتْ أَوْ لِنُوحٍ أَوْ لِهُودٍ
لَهَجَّتْ بِنَا بِلَا نَسَبٍ إِلَيْنَا

(١) «دائرة المعارف، مقال: «الزنج»، ٤٢٢/١٠.



فَهَبْنَا قَدْ رَضِينَاكَ ابْنَ عَمٍّ

فَمَنْ يَرْضَى بِأَفْعَالِ الْيَهُودِ^(١)

كما أشرنا سابقاً، فإن كل الحركات كانت مضطرة في ذلك الوقت لاتخاذ غطاء أيديولوجي ديني لتجد لها قبولاً بين الناس، وإلا فإن مآلها الإخفاق المحقق. كان التشيع هو المظلة المثالية في تلك المنطقة منذ العهد الأموي. كل المعطيات التي ذكرناها سابقاً استطاعت في النهاية أن تجعل تلك الحركة تتفجر في سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م. نلاحظ كذلك أنه ليست المرة الأولى التي يثور فيها الزنج. نحن نجد لهم ثورة أولى سنة ١٤١هـ/٧٥٨م في البصرة لكن تلك الثورة قمعت من قبل قائد الشرطة حفص بن النضر^(٢).

من هم هؤلاء الزنج الذين أدى تجمعهم إلى هذه الانتفاضات المتكررة؟ أولاً هم عبيد سود جاؤوا نتيجة تجارة الرق التي كانت مزدهرة في تلك الحقبة في كل مناطق الدولة تقريباً. وجاء بعضهم، من جهة أخرى، نتيجة الهجرات المتكررة من إفريقيا السوداء نحو بلاد الإسلام لأهداف تجارية. وعلى مر الزمن تكونت مستعمرات كبيرة في الموانئ، وخاصة في البصرة. لكن، بعد فترة، تخلى هؤلاء الزنوج عن التجارة ليهتموا بالعمل في الزراعة. لقد اعتنق بعضهم الإسلام واحتفظ البعض الآخر بديانته الأصلية^(٣).

إن اعتبار هذه الثورة ثورة على الطريقة الإسبرطية تحليل غير مقبول وخاطئ لسبب بسيط هو أن المشاركين فيها لم يكونوا جميعاً من العبيد السود، بل نجد بينهم بعض البدو من القبائل العربية التي كانت متواجدة في المنطقة مثل تميم وباهلة وهمدان وعبد القيس وغيرها^(٤). صحيح أن الزنوج كونوا القسم الأكبر من

(١) ابن الخياط: نفسه، ٦٤٣/٢.

(٢) ابن الخياط: نفسه، ٦٤٣/٢.

(٣) محمد عبد الحي شعبان: نفسه، ١٣٢.

(٤) الطبري: نفسه، ٦٠٧/٩؛ ابن الأثير: نفسه، ٣٦٥/٧؛ دائرة المعارف: مقال «الزنج»، ٤٢٣/١٠.



جند تلك الثورة لكن البدو ساعدوهم حتى النهاية، وزودوهم بالمؤن والمواد الغذائية وغيرها^(١). وحتى سكان البصرة التحقوا في النهاية بتلك الثورة.

لقد كانت وضعية هؤلاء الزوج مزرية في تلك الحقبة، فقد اشتراهم أغنياء البصرة واستخدموهم في المستنقعات لاستصلاحها وتجفيف ما فيها من أملاح ثم زراعتها فيما بعد. إن هذه الأراضي المستصلحة نتج عنها جبال من الرمال والأملاح المنقاة وضعت في ضواحي البصرة. لقد كانوا بالآلاف في أنهار البصرة، يعملون في الأرض ولا يفتاتون إلا على الدقيق والتمر^(٢). كانوا موزعين في مجموعات من خمسمائة إلى خمسة آلاف عامل^(٣).

كانت تلك الأراضي المستصلحة والأملاح المستخرجة منها والموجهة للتجارة بصفة عامة ملكاً لممثلي الدولة العباسية في تلك المنطقة، وهم في الغالب عسكريون، والذين أصبحوا يمثلون، بعد ظهورهم على الساحة السياسية، ما يمكن أن نسميه الإقطاع العسكري. وجد نظام ذلك العصر نفسه مضطرباً في ظل نقص السيولة النقدية للجوء إلى هذه الطريقة وهذا الحل المتمثل خاصة في العقود المبرمة بين الدولة وحكام الأقاليم وكبار الملاك لتلك الحقبة، والتي يتم بموجبها دفع مبالغ محددة سنوياً حتى تضمن الدولة دخلاً دائماً ومستقراً من جهة، ولتضمن أيضاً الاستقرار والهدوء في تلك المناطق.

ومن ثم، فإن حكام الأقاليم كانوا في أغلبهم من قادة الجيوش، فأصبحوا هم المسؤولون على استخراج الخراج. وكانت هذه العملية تحتاج إلى أيد عاملة عديدة على ألا تكون مكلفة حتى يفي أولئك الحكام بالتزاماتهم تجاه الحكومة المركزية من جهة، وحتى يُكوّنوا لأنفسهم ثروة من جهة أخرى، ليدفعوا رواتب الجند وعمال

(١) ابن تغري بردي: نفسه، ٢٢/٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مقالة «الزنج»، ٤٢٢/١٠.

(٣) نفسه.

الخراج. هكذا وجد كل حاكم نفسه مضطراً لفرض ضرائب من كل نوع الأمر الذي دفع كثيراً من ملاك الأراضي إلى هجرها، خاصة الصغار منهم، والالتحاق بالعمل في المستنقعات للهروب من التعسف والتعذيب المستمر والمعهود من عمال الخراج. لقد استطاع علي بن محمد أن يستغل בזكاء الوضعية المحلية والعامية التي انغمست فيها الدولة العباسية. لقد أدرك أنه سيبلغ أهدافه وما خطط له باعتماده على المتذمرين من تلك الوضعية. الهدف الأول هو طبعاً الإطاحة بالعباسيين. وسوف نرى فيما بعد أن استغلال تلك الوضعية لم يكن سوى تكتيك من قبل علي بن محمد. الدليل على ذلك أنه لم يلغ الرق كلياً بل، بالعكس، شجع الثوار على اقتناء العبيد.

كان يعرف جيداً الوسط الذي كان يشتغل فيه أولئك العبيد في المستنقعات. وقد قال أحد العبيد، واسمه ريجان بن صالح، عن علي بن محمد: «سألني عن أخبار غلمان الشورجيين وما يجري لكل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر وعمن يعمل في الشورج من الأحرار والعبيد فأعلمته ذلك فدعاني إلى ما هو عليه»^(١).

لقد استعمل القوة في البداية حسب الطبري ليُكوّن ميليشيته وجيشه، فلما صار إلى مؤخر القصر الذي كان فيه لقيه غلمان رجل من الشورجيين يعرف بالطار متوجهين إلى أعمالهم فأمر بأخذهم فأخذوا وكتف وكيلهم وأخذ معهم وكانوا خمسين غلاماً ثم صار إلى الموضع الذي يعمل فيه السنائي فأخذ منه خمسمائة غلام فيهم المعروف بأبي حديد وأمر بوكيلهم فأخذ معهم مكتوفاً وكانوا في نهر يعرف بنهر المكاثر ثم مضى إلى موضع السيرافي فأخذ منه خمسين ومائة غلام فيهم زريق وأبو الخنجر، ثم صار إلى موضع ابن عطاء فأخذ طريقاً وصبيحاً الأعرس وراشداً المغربي وراشداً القرماطي، وأخذ معهم ثمانين غلاماً، ثم أتى موضع إسماعيل المعروف بغلام سهل الطحان، ثم لم يزل يفعل ذلك كذلك

(١) الطبري: نفسه، ٤١٣/٩.

في يومه حتى اجتمع إليه بشر كثير من غلمان الشورجيين ثم جمعهم وقام فيهم خطيباً فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرأسهم ويملكهم الأموال، وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم، ثم دعا مواليهم فقال قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم أن تفعلوه بهم وجعلتم عليهم مالا يطيقون، فكلمني أصحابي فيكم فرأيت إطلاقكم، فقالوا إن هؤلاء الغلمان أباق، وهم يهربون منك فلا يبقون عليك ولا علينا فخذ منا مالا وأطلقهم لنا، فأمر غلمانهم فأحضروا شطبا ثم بطح كل قوم مولاهم ووكيلهم فضرب كل رجل منهم خمسمائة شطبة وأحلفهم بطلاق نسائهم ألا يعلموا أحداً بموضعه ولا بعدد أصحابه وأطلقهم فمضوا نحو البصرة»^(١).

بعدهما كون علي بن محمد هذا الجيش، جمع أصحابه وألقى فيهم خطاباً تحدث فيه عن الظروف السيئة التي كانوا يعيشون فيها، وأن الله قوضه لتحريرهم، وأنه جاء ليرفع من رتبهم، وأن يمنحهم عبيداً، وأموالاً، ودوراً، وأنه سيصل معهم إلى عمل أشياء كبيرة^(٢). ثم طلب من الذين فهموا أن يفهموا الآخرين الذين لم يفهموا، خاصة الذين هم من غير العرب ليطمئنوا^(٣). كان هذا الخطاب بمثابة البرنامج الذي قدمته قيادة الحركة للأنصار والأتباع، غير أننا نلاحظ أن هذا الخطاب لا يتعرض لنوع الحكم الذي سيكون في حال النجاح، مما يعني أن هذه الحركة لم تستطع إنشاء نموذج جديد للسلطة بله نوع جديد للنظام^(٤).

حتى في المنطلق كانت هناك هوة بين القيادة وبين الجماهير التي تمثلها. لا يرجع هذا الخلل لعدم وجود محتوى اجتماعي وتاريخي لهذه الحركة، فقد عرفت منطقة البصرة ثورتين مماثلتين من قبل، بل لأن الزعيم علي بن محمد لم يكن له أي

(١) الطبري: نفسه، ٤١٤/٩.

(٢) نفسه، ٤١٤/١٠-٤١٥.

(٣) مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، م ٤؛ ١٦/١-١٧٠.

(٤) سعد أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي، ١٦٨؛ الطبعة الأولى، دار ابن خلدون، ١٩٧٩.

مبرر طبقي أو أيديولوجي يمكن أن يجعله أكثر كفاءة ليكون الناطق الرسمي المعبر عن أيديولوجية هذه الطبقة الاجتماعية المحرومة^(١). ثم إنه لم يحسن استغلال كل العناصر الإيجابية لصالحه والمضرة بالعباسيين. مثلاً عدم التنسيق الجيد مع القرامطة والصفاريين والطولونيين إلخ. لكنه مع ذلك استغل تحلل الخلافة العباسية الذي سمح للثوار بالتحرك^(٢). حتى الجنود السود في الجيش الحكومي العباسي التحقوا بحركة الزنج بالإضافة إلى الفلاحين الأحرار، وصغار الفلاحين الذين جلبتهم مبادئ المساواة التي تقترب من مبادئ الخوارج^(٣).

نلاحظ كذلك أن هذه الحركة استطاعت أن تجلب إليها كذلك بعض رجال الدولة العباسيين النافذين مثل محمد بن الحسن بن سهل، وبعض أفراد أسرة المهلبى الشهيرة، كما نجد فيها يهوداً ومسيحيين^(٤). وكان هذا التحالف ممثلاً بطريقة جيدة في قيادة الحركة^(٥). وقد ظل بعض التجار يمؤنون هذه الحركة حتى النهاية، مما جعل أحد الباحثين يظن أن السبب الحقيقي لهذه الحركة هو التجارة الإفريقية. لقد كان لتلك المشكلة تأثير على خليج العرب ثم على كل مناطق إفريقية الشمالية، وعلى مصر وساحل البحر الأحمر، وعلى سورية وحتى امتداد الحدود البيزنطية^(٦).

يرى هذا الباحث إذن أن هذه الثورة قد جاءت لتستحوذ على الخطوط التجارية المعروفة في ذلك الوقت. هذا الاستنتاج مغر حقاً ولكنه لا يفسر كل الإشكالية. صحيح نحن لا نستبعد فرضية أن يكون الثوار قد فكروا في الربح الذي

(١) حسين مروة: نفسه، ١٧/٢.

(٢) يوسف العشي: نفسه، ٢١.

(٣) سعد أحمد صادق: نفسه، ١٦٧.

(٤) عبدالحى شعبان: السابق، ١٢٨.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه، ١٢٩.

يجنونه لو يستطيعون السيطرة على الخطوط التجارية، خاصة إذا علمنا أنهم كَوَّنُوا أسطولاً خاصاً بهم.

لقد استطاعت هذه الحركة أن تدوم طويلاً نتيجة الدعم غير المباشر لأنصار الزنج مثل الصفاريين والطولونيين والشيعية والخوارج والحرب الدائمة لبيزنطة⁽¹⁾ ضد العرب، والذي قلل نوعاً ما من جهود العباسيين التي بذلت للقضاء عليها.

يبدو أن لقاء قد وقع بين حمدان قرمط وزعيم الزنج. وبعد حوار نظري طويل افترق الزعيمان دون اتفاق⁽²⁾. ولنا أن نتخيل لو أن اتفاقاً عسكرياً قد تم في ذلك اللقاء، ماذا كان سيحدث؟ كانت الأحداث ستجري بطريقة أخرى، وربما ماجريات التاريخ تكون قد تغيرت. مرد هذا الخلاف بين القائدين يعزوه بعض الباحثين إلى الاختلاف الحقيقي بين الحركتين في الأهداف والأفكار. الحركة القرمطية حركة ثورية فكرية تحويلية فلسفية لها أهداف بعيدة المدى وقيم اجتماعية قوية وجديدة، بينما حركة الزنج انتفاضة لها أهداف معينة لا تركز على أفكار ثقافية ذات جذور بعيدة. إنها تعد كثورة محلية تتدلع ثم تنطفئ لأنها ليس لها أهداف واقعية في خدمة الفكر والمجتمع⁽³⁾.

خطة زعيم الزنج تمثلت في اتباع تكتيك معين استعمل وسائل سمحت له بالاستمرار في الزمن، والمقاومة لمدة طويلة. لقد اعتمد على المباغته في مهاجمة القرى والمدن حتى يتزود بالطعام والحاجات الضرورية. لقد تجنب دائماً الالتحام مع الجيش العباسي أو المواجهة الحقيقية والفعلية، لأنه يعلم أن الجيش النظامي يفوقه عدداً وعدة. وقد تجنب كذلك الأماكن المكشوفة للقيام بالمعارك. لقد وزع جيشه الثائر في الخمائل وفي المستنقعات والجبال ليستطيع الانقضاض في

(1) Alexandre Popovic: *Ali b. Muhammad et la révolte des esclaves à Basra*, 101.

(2) الطبري: السابق، ٢٧/١٠.

(3) عارف ثامر: القرامطة، ٦٢؛ دار الكتاب العربي، مكتبة النهضة، بغداد، د.ت.

أي لحظة على الجيش العباسي. لقد طبق فعلاً حرب استنزاف ضد العباسيين بالتحرش المستمر بهم. لقد شيد أيضاً بعض القلاع لتكون عبارة عن خط للرجعة عند الضرورة^(١).

كانت أكبر نتيجة لهذه الثورة مخالفة ومعاكسة تماماً لأهدافها المسطرة ولطموحات الذين فجروها. لقد استطاعت الخلافة العباسية، بفضل هذه الثورة، أن تسترجع عافيتها لمدة من الزمن. لقد وجد الضباط الكبار في الجيش العباسي والقادة العسكريون أنفسهم مضطرين لمغادرة العاصمة لمواجهة خطر حركة الزنج الذي أصبح يهددهم في عقر دارهم فتوقفوا بذلك مؤقتاً عن التآمر ضد الخلفاء. وفي الختام، قضى القيم الموفق على تلك الثورة سنة ٨٨٣م. يحكى أن علي بن محمد قد أصيب بسهم فقتل وهو ينشد: (من البسيط)

مَيِّتَةٌ يَلْقَاهَا الْإِنْسَانُ وَاحِدَةً

خَيْرٌ لَهُ مِنْ لِقَاءِ الْمَوْتِ مَرَّاتٍ^(٢)

هذا البيت ليس لعلي بن محمد لكن هذا لم يمنعه من كونه شاعراً^(٣). لقد احتفظت بعض المصادر العربية ببعض من شعره عكس ما حدث مع بابك الخرمي. هذا الشعر، أو لنقل ما بقي منه، له محتوى سياسي بصفة كلية. وهو أيضاً موجه كله ضد العباسيين وحلفائهم. نجده في البداية يركز كثيراً على نسبة الطالبية حتى يواجه الدعاية العباسية المضادة من جهة، وحتى يقنع أتباعه وأنصاره من جهة ثانية. ها هو يوجه الكلام للعباسيين قائلاً: (من الطويل)

بَنِي عَمَّنَا وَلَيْتُمْ التُّرُكُ أَمْرَنَا

وَنَحْنُ قَدِيمًا أَضْلَاهَا وَعَمُودُهَا

(١) يوسف العشي: السابق، ١٢٤-١٢٥.

(٢) الحميري، محمد بن عبد المنعم (١٤٩٥/٥٩٠٠م): الروض المعطار في أخبار الأقطار، ٥٢٥؛ تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥.

(٣) جمعت أشعار علي بن محمد من قبل أحمد الناجي تحت عنوان «أشعار صاحب الزنج»؛ وطبعت سنة ١٩٧٤؛ وانظر علي جواد الطاهر: «نشر الشعر وتحقيقه في العراق».

فَمَا بَالُ عُجْمِ التُّرْكِ تُقْسِمُ فَيَتَنَا
وَنَحْنُ لَدَيْنَا فِي الْبِلَادِ شُهُودَهَا
فَأُقْسِمُ لَا أَنْوُقَ الْقَرَّاحَ وَإِنْ أَدُقُ
فَبُلْغَةُ عَيْشٍ أَوْ يُبَادَ عَمِيدُهَا^(١)

يتحدث هنا عن الوضعية التي آلت إليها الخلافة العباسية حيث أصبح الأتراك يتحكمون في زمام الأمور ويقبضون مقاليد الحكم، بينما يرى أنه وأسرتة أحق بذلك منهم. إذا صحت نسبة هذه الأبيات إلى علي بن محمد فهذا يعني أن هذا الرجل لم يكن سوى طامح من أولئك الطامحين الطالبيين الذين لا يعدون ولا يحصون في تلك الحقبة. وقد كانت البصرة الميالة منذ زمن بعيد للتشيع أكبر سند له لتحقيق طموحه.

ومن جهة ثانية، يريد أن يظهر في أحسن وجه أمام رفاقه وأنصاره وأتباعه فيركز على الجانب الخلقى لمهاجمة خصومه. البلاط العباسي في نظره عش للفساد والرذيلة يجب محاربتة. لذا يقول في هذا السياق: (من الخفيف)

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قُصُورِ بَبْغَدَا
دَ وَمَا قَدْ حَوَتْهُ مِنْ كُلِّ عَاصِ
وَحُمُورِ هُنَّاكَ تُشْرَبُ جَهْرًا
وَرَجَالِ عَلَى الْمَعَاصِي حِرَاصِ
لَسْتُ بِأَبْنِ الْفَوَاطِمِ الزُّهْرَانِ لَمْ
أُقْحِمِ الْخَيْلَ بَيْنَ تِلْكَ الْعِرَاصِ^(٢)

كما نرى، فإنه يتزىي بزى الأتقياء الذي يثور ضد المنكر والمفاسد التي تجري في البلاط. طبعا له هدف مقصود من ذلك وهو جلب كل المؤمنين الأتقياء الذين لا ترضيهم تلك الأعمال التي يقوم بها الخليفة وحاشيته.

(١) القيرواني: زهر الآداب، ١/٥٨٨.

(٢) القيرواني: زهر الآداب، ١/٥٨٨.

ونجده في شعر آخر يتحدث عن أصله الطالبي وعن ثورته ضد العباسيين:
(من المتقارب)

مَنَابِرُهُنَّ بُطُونُ الْأَكْفِ
وَأَغْمَادُهُنَّ رُؤُوسُ الْمُلُوكِ
وَمَا لِي فِي الْخَلَائِقِ مِنْ شَبِيهِ
وَلَا فِي احْتِسَابِ الْمُعَالِي مِنْ شَرِيكِ^(١)

كان من عادة القادة من هذا النوع أن يتسموا بالمركزية الذاتية، أي يحصرون كل شيء في شخصهم، ويجعلون كل الأنظار تتجه إليهم وحدهم فقط مبرزين شجاعتهم وإقدامهم. لكننا، من حين لآخر، نجد هذا القائد يتحدث عن رفاقه، ويعلي من شأنهم، ويفتخر بهم: (من الطويل)

عَدِمْتُ عِتَاقَ الْخَيْلِ إِنْ لَمْ أَزُرْ بِهَا
عَلَيْهَا الْكُمَاةَ الدَّارِعُونَ الْبَطَارِقُ
عَلَيْهَا رَجَالٌ مِنْ تَمِيمٍ وَقَصْرَهَا
كُلَيْبُ بْنُ يَزْبُوعِ الْكِرَامِ الْمَصَادِقُ^(٢)

يلاحظ من هذه الأبيات مشاركة القبائل العربية في ثورة الزنج مما يدل على أنها لم تكن فقط ثورة عبيد.

كانت الدعاية العباسية تقدم قائد ثورة الزنج على أنه دعي لا علاقة له بالطالبيين، وأنه من قبيلة عبدالقيس. ولكي يبعد عنه هذه التهمة نجده يهدد هذه القبيلة التي كانت توجد في ذلك الوقت قرب البصرة، وأنه سينتقم منها حسب قوله: (من الطويل)

أَتَحَسَبُ عَبْدَ الْقَيْسِ أَنِّي نَسِيْتُهَا
وَلَسْتُ بِنَاسِيهَا وَلَا تَارِكاً ثَأْرِي^(٣)

(١) القيرواني: ذيل زهر الآداب، ١٥٧.

(٢) أحمد غُلبي: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد ٢٤: الطبعة الأولى، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١.

(٣) نفسه، ٢٣.

ونرى علي بن محمد في شعر آخر نادماً على كل ما بدر منه، وعلى كل ما فعل. وإن صح ذلك الشعر له فإنه يكون قد قاله عندما بدأت الأمور تتأزم بالنسبة إليه، ورأى أن الأمر قد أنتهى: (من مجزوء الوافر)

قَتَلْتُ النَّاسَ إِشْفَاقًا
عَلَى نَفْسِي كَيْ تَبْقَى
وَحُزْتُ الْمَالَ بِالسَّيْفِ
لِأَنْعَمَ لِي كَيْ أَشْقَى
فَمَنْ أَبْصَرَ مَثْوَايَ
فَلَا يَظْلِمُ إِذْ خَلَقَا
فَوَا وَيْلِي إِذَا مَا مِتُّ
عِنْدَ اللَّهِ مَا أُلْقَى
أُخْلَدُ فِي جِوَارِ اللَّهِ
أَمْ فِي نَارِهِ أُلْقَى^(١)

إن الخاصية العامة لهذا الشعر هي أنه شعر مذهبي وسياسي، وبعبارة أخرى هو شعر ملتزم. تظهر المذهبية في الدفاع عن العلوية وعن حق الطالبين في الخلافة. أما الجانب السياسي فيظهر في المآخذ ضد العباسيين من أنهم تركوا الأتراك يستحوذون على السلطة والحكم. حتمًا، إن علي بن محمد يكون قد تكلم في هذا الشعر عن ثورته، وعن أهدافها، وعن المعارك التي خاضها ضد الجيش العباسي.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن هذه الثورة، مثل الثورة البابكية، قد أنتجت شعراً وأدباً مضادين. مما يعطينا فكرة على تأثيرها في الدعاية الحكومية.

(١) زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب، ١٦٦؛ دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١.

كانت النقطة الأولى التي ركز عليها هذا الشعر المضاد هي زرع الشك والبلبلة حول نسب علي بن محمد . مثلاً، نجد الشاعر يحيى بن محمد الأسلمي^(١) مستغلاً الهجوم الذي قاده القيم الموفق قبل أن يصبح خليفة ليوجه ضربة إلى الطالبين بقوله: (من الطويل)

وَيُثَلَّى كِتَابُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ
وَيَبْقَى دُعَاءُ الطَّالِبِينَ خَاسِيًا^(٢)

أما ابن الرومي فلا يرى في علي بن محمد سوى دعي وإمام مزيف:
(من الخفيف)

وَتَسْمَى بِغَيْرِ حَقِّ إِمَامٍ
لَا هَدَى اللَّهُ سَعْيَهُ مِنْ إِمَامٍ^(٣)

أما عبدالله بن المعتز فيصمه مباشرة بالدعي: (من الطويل)

وَمَا طَغَى فِعْلُ الدَّعِيِّ رَمَيْتَهُ
بِجَيْشٍ يَقُلُّ الخُطْبَ وَهُوَ جَلِيلٌ^(٤)

إن إصرار هؤلاء الشعراء واضح ومفهوم لأن هدفهم هو التقليل من قيمة علي بن محمد وزرع البلبلة بين أنصاره وأتباعه . كانت تلك هي وسيلتهم التكتيكية للرد على هذا الزعيم الذي استغل الأوضاع المزرية التي كانت تعيش فيها الرعية، والانتساب إلى الأسرة الطالبية إن حقاً وإن باطلاً .

(١) يحيى بن محمد الأسلمي (٢٥٨هـ/٨٧٢م): من البحرين، معروف بالبحريني؛ ثار أولاً ضد المقتدر سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م قبل أن يلتحق بالزنج. ثم قد جيش الزنج في البصرة التي عينه صاحب الزنج والياً عليها. ألقى عليه الموفق القبض وقتله في سامراء. لعله قال هذا الشعر وهو سجين. انظر الزركلي: الأعلام، ٢٠٦/٩.

(٢) الطبري: السابق، ٦٦٤/٩؛ ابن الأثير: السابق، ٤٠٦/٧.

(٣) أحمد علي: السابق، ٩٧.

(٤) الصولي: أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، ١٣٠.

أما النقطة الثانية التي وجه الشعراء إليها ألسنتهم وأسلحتهم الفنية فهي وصف المدن والقرى التي خربها جيش الزنج، بالإضافة إلى النهب الذي قام به أولئك الثوار، زيادة على عرقلة الطرق التجارية وتذبذب الحرمة فيها من قبل علي ابن محمد وكتائبه. وكان الهدف من ذلك أن تظهر تلك الثورة في شكل فوضوي ومتوحش. صحيح أن تلك الثورة قامت بضربات قاصمة وحاسمة لبعض المدن، وسقط جراء ذلك عدد كبير من الضحايا الأبرياء، وأحدثت كثيرًا من الخسائر المادية. كان ذلك، بشكل من الأشكال، نتيجة ما يمكن أن نسميه الإرهاب الثوري. ولعل ابن الرومي هو أبرع الشعراء الخصوم الذين وجهوا ضربة قوية وموجعة للثوار عندما رثى مدينة البصرة، حيث قال ليثير الناس ضد الزنج: (من الخفيف)

أَنْفِرُوا أَيُّهَا الْكِرَامُ خَفَافًا
وَتَقَالًا إِلَى الْعَبِيدِ الطَّغَامِ
إِنْ قَعَدْتُمْ عَنِ اللَّعِينِ فَأَنْتُمْ
شُرَكَاءُ اللَّعِينِ فِي الْأَتَامِ^(١)

وهي قصيدة طويلة مؤثرة جدًا، تعرض فيها للمجازر التي ارتكبتها الزنج في حق أهل البصرة والتكيل الذي نكلوه بأهلها أطفالاً ونساءً وشيوخاً.

سواء أتصرف ابن الرومي المتشيع بصدق بعد تأثره بالدعاية العباسية أم بداعي الريح المادي، فإن تلك القصيدة قد قدمت، بدون شك، خدمة جلييلة للدعاية الحكومية. إنه من أكثر الناس تشددًا على الزنج. ربما كان لديه أمر ذاتي لا نعرفه. وها نحن نجده مرة أخرى يتعرض لهم أثناء مديحه للموفق: (من الطويل)

حَصَرْتُ عَمِيدَ الزَّنْجِ حَتَّى تَخَاذَلْتُ
قُؤَوَاهُ وَأَوْدَى زَادَهُ الْمُتَزَوُّدُ

(١) زكي المحاسني: السابق، ١٥٤-١٥٥؛ وهو يشير إلى الآية الكريمة ٤١ من سورة التوبة: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وَكَاثَتْ نَوَاجِيهِ كِثَافاً فَلَمْ تَزَلْ
تَحَيِّفُهَا سُخْتاً كَأَنَّكَ مِيزِدُ
تُفَرِّقُ عَنْهُ بِالْمَكَائِدِ جُنْدَهُ
وَتَزِدُّهُمْ جُنْداً وَجَيْشَكَ مُخَصِداً^(١)

إن هذا الشعر، كما في الأمثلة السابقة، مرتبط عادة بالمدح. وفي هذه الحال فإن كل الخصال والصفات النبيلة يستفيد منها الشخص الممدوح. إن كل مدح لشخص ما هو هجاء لغيره من الخصوم. طبعاً المقصود هنا هو علي بن محمد وحركته. يمكن أن نلاحظ ذلك مرة أخرى في شعر الأسلمي التالي: (من الطويل)

أَقُولُ وَقَدْ جَاءَ الْبَشِيرُ بِوَقْعَةٍ
أَعَزَّتْ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا كَانَ وَاهِيَا
جَزَى اللَّهُ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ بَعْدَمَا
أُبِيحَ حِمَاهُمْ خَيْرَ مَا كَانَ جَازِيَا^(٢)

لا ينسى هذا الشاعر طبعاً أن يشير إلى أن الموقف أعاد جباية الخراج في تلك المناطق بعدما عطلها الزنج بثورتهم أو أخذوها لصالحهم. ونجد في هذا الشعر أيضاً تهمة الكفر التي وجدناها من قبل في الشعر الموجه ضد بابك الخرمي. نرى ذلك مثلاً في البيت التالي للشاعر يحيى بن خالد: (من الطويل)

بِسَيْفِ وَلِيِّ الْعَهْدِ طَالَتْ يَدُ الْهُدَى
وَأَشْرَقَ وَجْهُ الدِّينِ وَاضْطَلَمَ الْكُفْرُ^(٣)

ويلخص عبدالله بن المعتز تلك القضية في هذا المديح الموجه للموفق بقوله:

(من الرجز)

(١) ابن أبي عون: كتاب التشبيهات، ١٥٤-١٥٥.

(٢) الطبري: السابق، ٦٦٣/٩-٦٦٤؛ ابن الأثير: السابق، ٤٠٥/٧-٤٠٦.

(٣) الطبري: نفسه، ٦٦٥/٩.

فَلَمْ يَزَلْ بِالْعَلَوِيِّ الْخَائِنُ
الْمُهْلِكِ الْمَخْرَبِ الْمَذَائِنُ
الْبَائِعِ الْأَخْرَارِ فِي الْأَشْوَاقِ
وَصَاحِبِ الْفُجَّارِ وَالْمُرَاقِ
وَقَاتِلِ الشُّيُوعِ وَالْأَطْفَالِ
وَنَاهِبِ الْإِزْوَاحِ وَالْأَمْـُـوَالِ
وَمَالِكِ الْقُصُورِ وَالْمَسَاجِدِ
وَرَأْسِ كُلِّ بِدْعَةٍ وَقَائِدِ
حَتَّى عَلا رَأْسَ الْقِنَاةِ رَأْسُهُ
وَزَالَ عَنْهُ كَيْدُهُ وَبَأْسُهُ
شَيْخُ ضَلَالٍ شَرٌّ مِنْ فِرْعَوْنَ
لِحَيْثُهِ كَذَّبَ الْبِرْدُونَ
إِمَامٌ كُلِّ رَافِضِيٍّ كَافِرِ
مِنْ مُظْهِرِ مَقَالَةٍ وَسَاتِرِ
وَقَالَ سَوْفَ أَفْتَحُ السَّوَادَا
وَأَمْلِكُ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَا
وَيَدْخُلُونَ عَاجِلًا بَعْدَازَا
فَلَمْ يَرَ الْكَذَّابَ ذَا وَلَا ذَا
صَاحِبَ قَوْمًا كَالْحَمِيرِ جَهْلَهُ
وَكُلُّ شَيْءٍ يَدَّعِيهِ فَهُوَ لَهُ
فَخَرَّبَ الْأَهْمُوزَ وَالْأُبْلَةَ
وَوَاسِطَ قَدْ حَلَّ فِيهِ حَلَّهُ

وَتَرَكَ الْبَصْرَةَ مِنْ رَمَادٍ

سَوْدَاءَ لَا تُوقِنُ بِالْمِيعَادِ^(١)

إن عبدالله بن المعتز، الخليفة العباسي ليوم واحد، والشاعر المناضح عن العباسيين بدون هوادة، وذلك أمر طبيعي، يرى من الطبيعي أن يهاجم العلويين، وأن يدحض حججهم المختلفة في أحقيتهم بالخلافة. إنه يجعل من هذه المهمة قضية شخصية. لكنه، بدون أن يقصد، يؤكد عكس ما كانت الدعاية العباسية تروج له بكل الوسائل بخصوص نسب علي بن محمد زعيم الزنج. لقد فضل المصلحة الخاصة أولاً حتى ولو كان في ذلك تناقض.

في الختام، لا بد من القول إن هذه الثورة كانت محل تأويلات متنوعة وتفسيرات متعددة لأحداثها. هي بالنسبة إلى بعض الباحثين ثورة كتلك الثورات التي ينتجها النظام الآسيوي للإنتاج. لكن لا بد من الملاحظة هنا أن المشرق الإسلامي لم يعرف هذا النظام لأن الدولة نفسها كانت هي الملاك العقاري الأكبر.

(١) ابن المعتز: الديوان، ١٥٤-١٥٥.

الفصل الخامس: الشاعر في البلاط العباسي

أ- الشعر السياسي والمدح

إن الشعر السياسي، كما تبين لنا عبر الفصول السابقة، مرتبط ارتباطاً عضوياً بالمدح في العصر الذي نحن بصدده، لأن الشعر كان بالنسبة إلى أغلب شعراء البلاط، إن لم يكن كلهم، هو مصدر الرزق الوحيد. كان إذن، على كل من يرغب في أن يصبح واحداً من شعراء البلاط في ذلك الوقت، أن يعرف ويتعلم قواعد صنعته وفنه، لأن الشعر، ككل نشاط إنساني، يتحسن بالدربة والمران والتجربة.

كانت حياة شاعر البلاط مغامرة مستمرة تبدأ منذ صغر سنه لأنه كان عليه أن يتعلم أولاً معارف عصره في الحواضر عادة. كانت المدارس العامة متوفرة تقريباً في كل مكان، وكان التعليم والتثقف في متناول كل من يرغب في ذلك، خاصة في المساجد التي يعد بعضها فعلاً جامعات ذلك الزمن. كان كل معلم أو أستاذ يلقي دروسه وهو جالس على الأرض. وكان طلبة العلم يأتون من كل مكان.

وهكذا كان يوجد في زاوية ما لغوي كبير يلقي دروسه، وعلى بضعة أمتار عالم آخر في الفلسفة، وثالث قريب منهما في النحو وما إلى ذلك. كان نظام التعليم في ذلك الوقت يقضي بإرسال الصبيان إلى الكتّاب حيث يحفظون القرآن، ويتعلمون مبادئ العلوم الضرورية في ذلك الوقت مثل النحو واللغة والحديث وغيرها. بعد مدة يتقدم الصبي في تعلمه ويبلغ مرتبة يكافئها الأولياء بتنظيم حفل عائلي. يمكن أن نذكر هنا نموذج علي بن جبلة العكوك الذي أورده أبو الفرج الإصبهاني حيث

يروى عن ابن أخيه قوله: «كان لجدي أولاد، وكان علي أصغرهم، وكان الشيخ يرق عليه، فجدر فذهبت إحدى عينيه في الجدري، ثم نشأ فأسلم في الكتاب، فحذق بعض ما يحذقه الصبيان، فحمل على دابة ونثر عليه اللوز، فوقعت على عينه الصحيحة لوزة فذهبت؛ فقال الشيخ لولده: أنتم لكم أرزاق من السلطان، فإن أعنتموني على هذا الصبي وإلا صرفت بعض أرزاقكم إليه، فقلنا: وماذا تريد؟ قال: تختلفون به إلى مجلس الأدب، قال: فكنا نأتي به مجالس العلم ونتشاغل نحن بما يلعب به الصبيان، فما أتى عليه الحول حتى برع، وحتى كان العالم إذا رآه قال لمن حوله: أوسعوا للبنوي، وكان ذكياً مطبوعاً فقال الشعر..»^(١)

أغلب شعراء تلك الحقبة مرؤوا بهذه الطريق الإجبارية للتعلم. كان الشعر، بطبيعة الحال، أول شيء يجلب انتباههم، خاصة المدح وكل ما يحيط به، لأنهم كانوا يدركون أنهم لو أصبحوا أقوياء في هذا الغرض فسيكون بإمكانهم الحصول على جوائز الأغنياء وتكوين ثروة طائلة. كانوا إذن يتعلمون طرق الشعر المختلفة المعروفة في عصرهم. هذا ما يمكن أن نلاحظه في قول القِصافي الكبير: «الشعرُ كله من هذه الألفاظ، ولكن الشأن في عقل يُحسن أن يعرفها ويؤلفها، وإذا مدحت قلت: أنت، وإذا هجوت قلت: لست، وإذا رثيت قلت: كنت»^(٢). هذا الكلام ليس غريباً من هذا الشاعر لأن هذه الأغراض الثلاثة كانت تؤدي في ذلك الوقت إلى النتيجة نفسها وهي الحصول على مكافأة.

كان هؤلاء الشعراء يتوجهون أولاً إلى الأغنياء ورجال الدولة لأنهم يملكون في الوقت نفسه المال والسلطة، مما كان يسمح لهم بمكافأتهم بسخاء. ليس غريباً بعد هذا أن نجد شاعراً مثل مروان بن أبي حفصة يجهر بالقول بأنه يتشرف بألا يمدح إلا الذين لهم سلطة ما: (من الكامل)

(١) أبوالفرج الإصبهاني: الأغاني، ١٤/٢٠-١٤.

(٢) ابن الجراح: الورقة، ٩.

مَا زِلْتُ أَنْفُ أَنْ أُؤَلِّفَ مِدْحَةً

إِلَّا لِصَاحِبِ مِئْبَرٍ أَوْ سَرِيرٍ^(١)

لا بد من الإشارة هنا أن المدح يمثل الجزء الأكبر في الشعر العربي القديم، علماً أنه في أغلب الأحيان، يخدم نوعاً ما شرف المداحين وتختفي قيمتهم الإنسانية كبشر، لأن شخصياتهم تمحي أمام الأغنياء الممدوحين بصفة مهينة. لكن يمكن أن نتفهم تلك الوضعية إذا علمنا أن أغلب أولئك الشعراء كانوا من طبقات فقيرة ومحرومة. كما لاحظنا فإن الشعر العربي لم يعد من اختصاص العرب وحدهم، بل إن الشعوب الأخرى التي انصهرت في الإسلام أنجبت شعراء باللغة العربية ربما أقوى وأشهر، وهذا بعد المرحلة الأولى من التعريب التي عرفتها تلك الشعوب إبان الفتوحات الإسلامية. لكن اللافت للنظر، أن هؤلاء الشعراء، عرباً وغير عرب، كانوا عموماً فقراء. نستطيع بسهولة أن نستدل على هذا القول عندما نعرف مهن هؤلاء الشعراء أو مهن آبائهم. مثلاً أبو العتاهية كان يبيع الجرار قبل أن يصبح شاعراً مشهوراً ويجمع ثروة كبيرة بشعره^(٢).

وكان أبوه حلاقاً لكن لم تكن تلك المهنة تدر عليه شيئاً. وكانت أم أبي نواس الشهير تخيط الصوف للناس حتى تعيل ابنها وتحصل على مصاريف تعليمه^(٣). وكان والد بشار بن برد يكسر الحجارة بينما كان أخواه جزارين، وكان والد مسلم بن الوليد خياطاً شعبياً^(٤). وأما والد أبي تمام فكان يبيع العقاقير^(٥). لعل هذا الأصل الشعبي هو الذي يمنح لمدائح أولئك الشعراء نبرة شعبية نستشفها في الصورة المثالية التي يرسمونها في خيالهم للحاكم.

(١) مروان بن أبي حفصة: شعر مروان، ٥٦.

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ٤٩٧.

(٣) شوقي ضيف: الشعر وطوايعه على مر العصور، ٦٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.

(٤) نفسه، ٦٢.

(٥) نفسه.

كان شعراء البلاط هؤلاء أحسن وسيلة إعلامية للحكام وللمحكومين معاً. من جهة، يبرزون كل الصفات الحميدة التي يريدون أن يروها، أو التي تريد الرعية أن تراها في الحكام خاصة العدل والإنصاف، ومن جهة ثانية، يقومون بنشر أفكار الحكام بين الرعية، ويعلون من قيمة القرارات التي اتخذوها في جميع المجالات للتأثير عليها^(١). وهذا ما ذكرنا بقول أبي تمام في هذا المعنى: (من الطويل)

وَلَوْ لَا خِلَالَ سِنَّهَا الشُّعْرُ مَا دَرَى

بُعَاةَ العُلَى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى المَكَارِمُ^(٢)

كل هذا إذن ممكن، لكن الشيء المؤكد عند أولئك الشعراء هو ذلك الأمل الدائم في الحصول على مكافأة من أحد رجال الدولة أو من الخليفة. نرى ذلك في قول أبي يعقوب الخريمي عندما عيب عليه أن مراثيه في محمد بن منصور بن زياد لم تبلغ المستوى الذي كانت عليه مدائحه فيه فكان رده: «كنا يومئذٍ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد»^(٣).

إنه يعلن صراحة أن هدفه في المدح كان مادياً فقط بينما هو في الرثاء غير ذلك، ففي الأول كان هناك حافز مهم، وفي الثاني اختفى ذلك الحافز. لكن هذا لم يمنع أن المدح في تلك الحقبة كان بمثابة التعبير عن التزام سياسي لأولئك المداحين لأننا نجدهم، وهم يغدقون الصفات الحميدة على الخلفاء ورجال الدولة، إنما كانوا يدافعون عن قضية معينة خاصة بحزب سياسي معين، أو عن اتجاه ما، أو عن حركة ما. هذا الالتزام، كما يمكن أن نستنتج من النماذج التي ذكرنا، يتجه في اتجاهات ثلاثة: السياسة، والدين، والاجتماع^(٤).

(١) نفسه، ٩٣.

(٢) أبوتمام: الديوان، ٥٠٦.

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ٥٤٣.

(٤) أحمد أبو حاققة: الالتزام في الشعر العربي، ٨١.

ب - نحو البلاط

قبل أن يصبح للشعراء مكانة في البلاط، كان عليهم أن يمروا بعدة اختبارات، وأن يخرجوا منها سالمين. عندما كانوا يرون في أنفسهم القدرة على كتابة شعر المديح، كانوا يتوجهون في أول أمرهم إلى بعض النبلاء عادة في المنطقة التي يقطنون فيها حتى تشتهر أسماءهم وأشعارهم، وليتحسسوا الطريق، ويعرفوا مقدار الجوائز والمكافآت التي يمكن أن يحصلوا عليها. لم يكن سهلاً أن يقبلوا في تلك المجالس، ولم يكن سهلاً كذلك الوصول إلى بلاط الخليفة. كانوا دائماً في حاجة إلى وسيلة لينشدوا أشعارهم أمام أولئك الأسياد.

كان أغلب الشعراء يبحثون عن وسيط يسهل لهم الدخول إلى تلك القصور، أو على الأقل يوصل شعرهم إلى آذان أولئك القادة ورجال الدولة والخلفاء الذين قد يروق لهم قريضهم فيستدعونهم لسماعهم مباشرة. عندنا أمثلة كثيرة على هذا البحث عن وسيط ليفتح أمامهم أبواب المجد والغنى. مسلم بن الوليد الذي كان واحداً من شعراء القائد العسكري يزيد بن مَزَيْد، وجد صعوبة كبيرة في البداية حتى يسمعه ذلك القائد^(١). وكذلك الشأن مع أبا ن بن عبد الحميد اللاحي مع البرامكة قبل أن يصبح من أشهر شعرائهم. لقد سافر من البصرة إلى بغداد بهدف إنشاء مدحته أمام البرامكة المشهورين بكرمهم، وتوجه خاصة إلى الفضل بن يحيى لكنه كان غائباً، فظل مدة من الزمن ينتظر لعله يستقبل ولكن بدون جدوى. واضطر في النهاية للاستعانة بأحد الهاشميين لإدخال شعره^(٢). ونجد الأمر نفسه يحدث لأشجع السُّلَمي مع البرامكة^(٣).

(١) أبو الفرج الإصبهاني: الأغاني، ٤٠/١٩-٤١.

(٢) نفسه، ١٦/١٣.

(٣) نفسه، ٢١٨/١٣-٢١٩.

وكان على الشعراء أن يبذلوا أضعاف ذلك من المجهودات ليدخلوا بلاط الخلفاء. مثلاً هارون الرشيد الذي كان بلاطه يعج بعدد هائل من الشعراء كان صعب المنال، وكان الشعراء يجدون صعوبة كبيرة جداً للوصول إليه.

وهكذا فإن البرامكة، على الرغم من سطوتهم وجاههم وقربهم من الخليفة هارون الرشيد، إلا أنهم لم يستطيعوا إدخال أبان بن عبد الحميد اللاحقي عليه. لذلك لامهم هذا الشاعر على ذلك خاصة وهو يرى زميله مروان بن أبي حفصة مقرباً ويستقبل استقبالاً حسناً في بلاط الخليفة ويكافأ مكافآت سنيّة. وبعد إلحاحه، اقترحوا عليه أن يسلك الطريق التي سلكها مروان أي نظم أهاج في حق الطالبين إذا أراد أن يكون من ضمن شعراء البلاط، وهو ما فعله فعلاً قبل أن يدخل ذلك البلاط^(١).

الوسيط المفضل لدى هؤلاء الشعراء هو عادة أحد أقرباء الخليفة أو رجل الدولة أو شخص له مكانة مرموقة في الحاشية مثل الوزراء وكبار القضاة وما إلى ذلك. مثلاً، كان المغني والأديب إسحاق بن إبراهيم الموصل^(٢)، الذي كان يحتل مكانة كبيرة في بلاط هارون الرشيد، واسطة خير لعدد كبير من الشعراء. لكي يدخلهم على هذا الخليفة، كان عادة ما يصنع ألحانا بأشعارهم كان موضوعها مدح الخليفة، وإذا نال ذلك إعجابه فإنه يكافئ المغني أولاً ثم الشاعر.

وهكذا فقد أدخل الشاعر عبدالله بن أيوب التيمي^(٣) على هارون الرشيد بسبب إحدى أغاني إسحاق الموصل^(٢)، فكافأه الخليفة بمبلغ ثلاثين ألف درهم مع تدوين قصيدته في سجل رسمي كما كانت العادة مع كل المدائح التي قيلت في

(١) نفسه، ١٦١/١٨.

(٢) إسحاق الموصل^(٢) (١٥٥-٢٣٥هـ/٧٧٢-٨٥٠م): هو ابن الموسيقي الشهير إبراهيم الموصل^(٢)؛ أديب وموسيقي ومؤرخ وشاعر؛ انظر الزركلي: الأعلام، ١/٢٨٣.

(٣) التيمي (٢٠٩هـ/٨٢٤م): انظر: البغدادي: تاريخ بغداد، ٩/٤١١.

الخليفة^(١). وكان وسيط أشجع السُّلَمِي لدى هارون الرشيد هو الفضل بن الربيع^(٢)؛
ووسيط العُماني^(٣) هو عبد الملك بن صالح^(٤). وقد وجد عُمارة بن عقيل بعض
الصعوبات مع الخليفة المأمون قبل أن يستقبله بعد إلحاح النَّخَعِي عليه. وعندما
دخل عليه أنشد قصيدته التي مطلعها: (من الكامل)

حَتَّامَ قَلْبِكَ بِالْحِسَانِ مُوَكَّلُ
كَلِّفَ بِهِنَّ وَهِنَّ عَنْهُ ذُهْلُ^(٥)

فلما فرغ من إنشادها قال المأمون: «يا نَخَعِي، ما أدري أكثر ما قال، إلا أنا
نشك، وقد أمرت له لكلامك فيه بعشرين ألفاً»^(٦). أما الشعراء الآخرون الذين لا
يستطيعون أو لا يريدون البحث عن وسيط فيلجؤون إلى طرق أخرى للوصول إلى
الخلفاء ورجال الدولة. نجد مروان بن أبي الجنوب مثلاً يعرف مدى العلاقة السيئة
بين الخليفة المتوكل وبين الطالبين فراح ينظم أهاجي ضدهم فوصلت إلى أسماع
العاهل فاستدعاه وكافأه مكافآت عظيمة على ذلك^(٧). وقد استعمل آخرون ذكاءهم
للوصول إلى الخلفاء أو بعض الطرق الملتوية والحيل، كما فعل يوسف لَقَوَّة الذي
كان يعرف الطريق التي سيسلكها الخليفة هارون الرشيد وهو متجه من بغداد إلى
الرقعة، «فلما ورد هارون الرشيد الرقة خرج يوسف بن الصيقل، وكمن له في نهر
جاف على طريقه، وكان لهارون الرشيد خدم صغار، يسميهم النمل، يتقدمونه،
بأيديهم قصب البندق، يرمون بها من يعارضه في طريقه، فلم يتحرك يوسف

(١) أبو الفرج الإصبهاني: الأغاني، ٥٥/٢٠.

(٢) نفسه، ٢٢٢/١٨-٢٢٣.

(٣) العماني، محمد بن ذؤيب؛ شاعر رشدي؛ انظر أبو الفرج الإصبهاني: الأغاني، ٣١١/٢٣٨.

(٤) عبد الملك بن صالح (-١٩٦هـ/١١١م): أمير عباسي، كان والياً على الموصل في عهد الهادي، وقائدًا
للصوائف في عهد هارون الرشيد الذي سجنه فيما بعد لاتهامه بمحاولة الانقلاب عليه؛ أطلق الأمين
سراحه وعينه والياً على الجزيرة وسورية؛ انظر الزركلي: الأعلام، ٣٠٤-٣٠٥/٤.

(٥) أبو الفرج الإصبهاني: السابق، ٢٥٣/٢٤.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه، ٢٠٦/٢٣.

ج - مرتبة الشاعر في هرم البلاط والمراسيم الخاصة به.

كان الأعيان ورجال الحاشية يحترمون المراسيم الخاصة بالبلاط، وخاصة الشعراء منهم الذين كانوا يتقدمون أمام الخلفاء حسب شهرتهم إذا كانوا معروفين، أو حسب سنهم إن لم يكن يعرفهم الخليفة. أشجع السُّلَمِي يحدثنا عن تلك المراسيم بقوله: «شخصت من البصرة إلى الرقة، فوجدت هارون الرشيد غازياً، ونالني خلة، فخرجت حتى لقيته منصرفاً من الغزو، وكنت قد اتصلت ببعض أهل داره، فصاح صائح ببابه: من كان ههنا من الشعراء فليحضر يوم الخميس، فحضرنا سبعة وأنا ثامنهم؛ وأمرنا بالبكور في يوم الجمعة فبكرنا، وأدخلنا وقدم واحد منا ينشد على الأسنان، وكنت أحدث القوم سنّاً، وأرثهم حالاً، فما بلغ إلي حتى كادت الصلاة أن تجب، فقدمت وهارون الرشيد على كرسي، وأصحاب الأعمدة بين يديه سماطان، فقال لي: أنشدني، فخفت أن أبتدئ من أول قصيدتي بالتشبيب فتجب الصلاة ويفوتني ما أردت، فتركت التشبيب وأنشدته من موضع المديح في قصيدتي التي أولها :

تَذَكَّرَ عَهْدَ الْبَيْضِ وَهُوَ لَهَا تَرَبُّ
وَلَأَيَّامَ يُضْبِي الْغَانِيَاتِ وَلَا يَضْبُو

فابتدأت قولتي في المديح:

إِلَى مَلِكٍ يَسْتَعْرِقُ الْمَالَ، فضحك هارون الرشيد وقال لي: خفت أن يحضر وقت الصلاة فينقطع المديح عليك فبدأت به وتركت التشبيب، وأمرني بأن أنشده التشبيب، فأنشدته إياه، فأمر لكل واحد من الشعراء بعشرة آلاف درهم، وأمر لي بضعفها»^(١).

نستنتج من هذا الخبر أن الخلفاء ورجال الدولة الذين كانوا يقلدونهم في جميع المجالات، كان لهم ديوان يتكفل بالشعراء وبكل ما يلزمهم من استقبال وإقامة

(١) أبو الفرج الإصبهاني: السابق، ٢٢/٢١٢-٢١٣.

ومأكل. وهذا طبعاً ما نجده في خبر الشاعر أبي نُحَيْلَةَ^(١) حين دفعته الحاجة «فأتى القعقاع بن ضرار وهو يومئذٍ على شرطة الكوفة، فمدحه، وأنزله القعقاع، بن ضرار وابنيه وعبيده وركابهم في دار، وأقام لهم الأنزال، ولركابهم العلوفة، وكان طباخ القعقاع يجيئهم في كل يوم بأربع قصاع، فيها ألوان مطبوخة من لحوم الغنم، ويأتيهم بتمر وزيد»^(٢).

أما مرتبة الشاعر في البلاط العباسي فيحدثنا عنها حميد الطوسي بقوله: «كنت حاضرًا دهليز المأمون، فدعا بالناس لقبض أرزاقهم، فكان أول من دخل إسحاق الموصلي مع الوزراء، ثم دعا بالقواد فكان أول من دخل إسحاق الموصلي، ثم دعا بالقضاة فكان أول من دخل إسحاق، ثم دعا بالفقهاء والمعدلين فكان أول من دخل هو، ثم دعا بالشعراء فكان أول من دخل هو، ثم دعا بالمغنين فكان أول من دخل هو، ثم دعا بالرماة في الهدف فكان أول من دخل هو، فعجبت من كثرة علمه وفنونه»^(٣).

كان بعض الخلفاء، خاصة في بداية العصر العباسي، لا يستقبلون الشعراء مباشرة بل كانوا يستمعون إليهم من خلف ستار. يروي القالي أيضاً أن الخليفة المنصور كان يتصرف بتلك الطريقة حيث «دخل الشعراء على المنصور وفيهم طريح ابن إسماعيل الثقفي^(٤) وابن ميادة^(٥) وغيرهم، فأذن لهم في الإنشاد، فأنشدوه من وراء حجاب، حتى دخل ابن هرمة في آخرهم، فأنشده حتى بلغ إلى قوله في شعره:

(١) أبونُحَيْلَةَ بن زائدة بت لَقِيَط (-١٤٥هـ/٧٦٢م): أبونخيلة اسمه وليس كنية؛ انظر الشريف المرتضى: الأمالي، ١/٥٨٠-٥٨٢.

(٢) أبو الفرج الإصبهاني: نفسه، ٤١٣/٢٠.

(٣) أبو علي القالي: ذيل الأمالي والنوادر، ٩٠؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.

(٤) طريح بن إسماعيل الثقفي (-١٦٥هـ/٧٨١م): الشاعر الخاص للخليفة الأموي الوليد بن يزيد؛ انظر الزركلي: ٣/٢٢٥.

(٥) ابن ميادة، الرحمن بن أبرد (-١٤٩هـ/٧٦٦م): كتب عدة مدائح في الخلفاء الأمويين والعباسيين معاً؛ انظر أبو الفرج الإصبهاني: الأغاني، ٢/٨٥-١١٦.

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَجَاوَزَتْ
بِنَا بَيْدَ أَجْوَاكِ الْفَلَاحِ الْرُؤَاغِلُ
يَرْزَنُ أَمْرًا لَا يُصْلِحُ الْقَوْمَ أَمْرَهُ
وَلَا يَنْتَجِي الْأَذُنُونَ فِيمَا يُحَاوِلُ

فقال: يا غلام، ارفع الحجاب، وأمر له بعشرة آلاف، والدينار يومئذٍ بسبعة،
وأعطى الباقي ألفين ألفين»^(١).

كان من حظ الشعراء الذين يجلبون انتباه الخلفاء أو رجال الدولة أن تسجل
أسماءهم فيما يسمى «ديوان الشعراء» فيعدون لذلك وكانهم موظفون يتقاضون
راتبًا من الدولة. لكننا نجد عدة شعراء موسميين أو غير مقيدين في الديوان، ولا
يعدون من شعراء البلاط، يأتون من حين لآخر يطرقون أبواب الخلفاء والأغنياء.
هذا ما يفسر ظاهرة تواجد طوابير الشعراء أمام أبواب الخلفاء ورجال الدولة.
يمكن أن نذكر هنا مثال الشاعر أبي نخيلة الذي وقف أمام باب الخليفة المنصور
دون أن يؤذن له بالدخول «وأقبلت الخراسانية تدخل وتخرج فتتهزأ به، يرون شيخًا
أعرابيًا جلفًا، فيعبثون به»^(٢). وهذا يوسف لقوة ينبئنا بصورة أخرى بائسة لأولئك
الشعراء الذين يقفون أيامًا وأيامًا أمام باب الخليفة دون أن يؤذن لهم بالدخول،
وهم يحملون في أيديهم رقاعًا فيها مدائحهم، وهم يرتجون أن يسلموها لواحد من
المقربين من حاشية الخليفة لعله يشفق عليهم ويوصلها.

وكان يوسف بن الصيقل المعروف بلقوة «رأى الشعراء بأيديهم الرقاع يطوفون
بها، فقال: صنع الله لكم، ثم أقبل على إبراهيم الموصلية فقال: كنا نهزل فنأخذ
الرقاع، وهؤلاء المساكين الآن يجدون فلا يعطون شيئًا»^(٣). إنها صورة حقيقية

(١) نفسه، ٤٠.

(٢) أبوالفرج الإصبهاني: نفسه، ٤٢١/٢٠.

(٣) نفسه، ٢١٧/٢٣.

ينقلها لنا هذا الشاعر عن زملائه الذين كانوا يستجدون فعلاً ويهينون أنفسهم بدون جدوى أحياناً وهم يبحثون عن وسيط يوصل أشعارهم إلى الخليفة أو رجال الدولة. هكذا نجد مثلاً أبا محمد اليزيدي^(١) يلح على باب المأمون علماً أنه كان من المقربين منه سابقاً لأنه كان من معلميه. لكن الحاجة والعوز أو الطمع أحياناً كان يدفع أولئك الشعراء لمعاودة المحاولة مراراً وتكراراً من أجل الوصول إلى الخليفة أو رجال الدولة أو الأغنياء عموماً. يروي لنا أبو علي القالي قصة شاعر فيقول: «كان شاعر يفد إلى يزيد بن يزيد في كل سنة، فقال له يزيد: كم يكفيك في كل سنة؟ فقال كذا وكذا، فقال: أقم في بيتك يأتك ذلك، ولا تتعبنَّ إلينا،... والشاعر مسلم بن الوليد»^(٢).

د - يأس شعراء البلاط

تستمر معاناة شاعر البلاط بعد الصعوبات التي أشرنا إليها سابقاً، فبعد الانتظار الطويل للحصول على دعوة من أحد الأغنياء، وبعد الرحلة الطويلة التي لم تكن دائماً مريحة، وبعد الاستجداء والاستدلال للحصول على وسيط، كان بعض الشعراء، مع ذلك، يعودون بخفي حنين وقلوبهم تنفطر حسرة. هذه الحال نجدها تذكر كثيراً في شعرهم وفي أهاجيتهم لأولئك الأغنياء الذين كانوا هم أملهم الوحيد للخروج من الفقر. كان هؤلاء الأغنياء، وهم عادة من رجال الدولة بدءاً بالخليفة نفسه، لا يحترمون دوماً كرامة أولئك الشعراء ولا شعورهم الذاتي، ولا يعيرون أي اهتمام لما لاقوه من معاناة قبل الوصول إليهم. أبو عطاء السندي مثلاً لم ينل من الخليفة المنصور شيئاً بعد محاولات عديدة ومتكررة^(٣). وقد نال عشرات من

(١) أبو محمد، يحيى بن المبارك اليزيدي (١٣٨-٢٠٢هـ/٧٥٥-٨١٨م)، انظر: أبو الفرج الإصهاني: نفسه، ٢٠/٢١٦-٢٦٢.

(٢) أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم: كتاب الأمالي في لغة العرب، ٢/٨٦: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.

(٣) أبو الفرج الإصهاني: السابق، ١٧/٣٢٢.

الشعراء المصير نفسه لأسباب مختلفة سياسية ودينية وربما بسبب البخل أو غيره.
الشاعر العَطَوِيُّ يصف لنا حال أولئك الشعراء، على الرغم من وجود عدد كبير
من الملوك ومن الأغنياء الذين استفادوا من مدائحهم، إلا أنهم ظلوا فقراء بقوله:
(من مجزوء الرمل)

لِي خَمْسُونَ صَدِيقًا
بَيْنَ قَاصٍ وَأَمِيرٍ
لَبِسُوا الدُّنْيَا وَلَمْ أَخْ
لَعِبَهُمْ ثَوْبَ الْفَقِيرِ^(١)

أما محمود الوراق^(٢)، فيرى من جهته أن هؤلاء الأغنياء غالبًا ما يبالغون
في إهانة هؤلاء الشعراء وازدرائهم واحتقارهم بوضع مختلف الحواجز والعراقيل
أمامهم بقوله: (من الكامل)

شَادُوا لِلْمُلُوكِ قُصُورَهُمْ فَتَحَصَّنُوا
مِنْ كُلِّ طَالِبِ حَاجَةٍ أَوْ رَاغِبٍ
عَالُوا بِأَبْوَابِ الْحَدِيدِ لِعِزَّتِهَا
وَتَنَوَّقُوا فِي قُبْحِ وَجْهِ الْحَاجِبِ^(٣)

أما الشاعر محمود بن زنبور^(٤) فكان يتقرز من كون أولئك الأغنياء يتلذذون
بإهانة الشعراء قبل أن يكافئوهم بقوله: (من الخفيف)

زَهَدُوا فِي الْعُلَى وَفِي الْمَجْدِ حَقًّا
وَاسْتَحَفُّوا بِحُزْمَةِ الشُّعْرَاءِ

(١) الثعالبي: خاص الخاص، ١٢٧.

(٢) محمود بن حسن الوراق (٢٢٥هـ/٨٤٠م): انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، ٢/٢٨٥.

(٣) ابنة عبيدريه: العقد الفريد، ١/٧١-٧٢.

(٤) كان شاعرًا في عهد هارون الرشيد، وقد عرف بقريه من آل نوبخت.

لَعَنَ اللَّهُ مَعْشَرًا مِنْ ذَوِي السُّنْدِ

طَانَ يُضَيِّعُونَ حُرْمَةَ الْأَدْبَاءِ^(١)

ومما يزيد في حزن هؤلاء الشعراء أنهم كانوا يعملون أذهانهم ويتعبون للبحث عن صور وأفكار أصيلة لتنميق مدائحهم التي قد تكون أحياناً بديعة ورائعة لكنهم لا يأخذون مقابلها شيئاً. لعل هذا ما دفع علي بن الجهم ليقول لفرج الرُّخَجِي: (من البسيط)

جَمَعْتَ أَمْرَيْنِ ضَاعَ الْحَرْمُ بَيْنَهُمَا

تِيهِ الْمُلُوكِ وَأَفْعَالِ الصُّعَالِيكِ

أَرَدْتَ شُكْرًا بِلَا بَرٍّ وَلَا مَرْزُوقَةٍ

لَقَدْ سَلَكْتَ سَبِيلًا غَيْرَ مَسْلُوكِ^(٢)

لعل هذه الوضعية المزرية والمهينة هي التي دفعت ببعض الشعراء إلى عدم الوقوف أمام أبواب الخلفاء والأغنياء على الرغم من مقدرتهم المشهود لها في ميدان الشعر عموماً والمدح خاصة، كما هي الحال بالنسبة إلى محمد بن يسار الرياشي^(٣) الذي لم يغادر مدينة البصرة أبداً بهدف استجداء المكافآت والجوائز، ولم يزر لا خليفة ولا واحداً من رجال الدولة أو النبلاء^(٤). وكذلك الشأن بالنسبة إلى ديك الجن الحمصي الذي لم يتجاوز أبداً حدود سورية^(٥).

هـ-القدح والغيرة واختبار الشاعر

لم يتوقف بؤس هؤلاء الشعراء عند هذا الحد من وعناء السفر ومن الصعوبات والتعب، بل نجدهم يتصارعون فيما بينهم صراعاً مريراً لإزاحة كل المنافسين لهم

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ٧٤/٣.

(٢) ابن الأثير: السابق، ٣٩/٧.

(٣) الرياشي، محمد بن يسير (-٢١٠هـ/٨٢٥ م): انظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ٣٧١.

(٤) أبو الفرج الإصبهاني: السابق، ١٧/١٤.

(٥) نفسه، ٢١/١٧.

حتى يبقوا وحدهم في الساحة. كان كل واحد منهم يريد، بطبيعة الحال، جلب انتباه الأغنياء نحوه فقط ليحصل منهم على أكبر قدر من المال ومن الجوائز والمكافآت. لهذا لا نستغرب أبداً أن نجد القدر محتدماً بينهم، والتأمر على بعضهم البعض لا يتوقف، والإنفاص من قيمة بعضهم البعض متبادل ودائم. كان الشاعر عبدالله بن مصعب يغار من أحد الشعراء في بلاط المهدي اسمه الأُحَيحي^(١).

وساق لنا أبوعلي القالي مثلاً عندما «امتدح أبوالعتاهية عمر بن العلاء^(٢)، مولى عمرو بن حريث صاحب المهدي، فأمر له بسبعين ألف درهم، وأمر من حضره من خدمه وغلماؤه أن يخلعوا عليه، فخلعوا عليه حتى لم يقدر على القيام لما عليه من الثياب. ثم إن جماعة من الشعراء كانوا يباب عمر، فقال بعضهم: يا عجباً للأمير يعطي أبا العتاهية سبعين ألفاً، فبلغ ذلك عمر، فقال: علي بهم، فأدخلوا عليه، فقال: ما أحسد بعضكم لبعض، يا معشر الشعراء، إن أحدكم يأتينا يريد مدحنا فيشيب في قصيدته بصديقتة بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى تذهب لذادة مدحه ورونق شعره، وقد أتانا أبوالعتاهية فشيب بيتين، ثم قال: (من الكامل)

إِنِّي أَمِنْتُ مِنَ الزَّمَانِ وَرَيْبِهِ

لَمَّا عَلِقْتُ مِنَ الْأَمِيرِ جِبَالَ^(٣)

كانت الغيرة بين أولئك الشعراء أمراً عادياً، وكان كل وافد جديد يعد تلقائياً منافساً لهم. لذلك كانوا يحطون من قيمته أمام الخليفة أو رجال الدولة. القصة التالية بين علي بن جبلة وأبي دلف العجلي معبرة جداً لأنها تقدم لنا مثلاً جيداً على تلك الغيرة، «فقد بلغه أن الناس يقصدون أبا دلف لجوده وما كان يعطي الشعراء، فقصده، وكان يسمى علي بن جبلة العكوك فامتدحه بقصيدته التي أولها: (من مجزوء المديد)

(١) أبوالفرج الإصبهاني: السابق، ٢٤١/٢٤-٢٤٢.

(٢) عمر بن العلاء (-١٦٥هـ/٧٨٢م)، والي طبرستان في عهد المهدي: انظر الزركلي، ٢١٥/٥.

(٣) أبوعلي القالي: الأمالي، ١/٢٤٧.

ذَادُ وَزْدِ الْغَيِّ عَنِ صَدْرِهِ
وَأَزَعَوَى وَاللَّهُ مِنْ وَطْرِهِ

.....

فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ
وَأَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ

فلما وصل إلى أبي وعنده من عنده من الشعراء وهم لا يعرفونه استرابوا بها، فقال له قائده^(١)، إنهم اتهموك وظنوا أن الشعر لغيرك، فقال: أيها الأمير إن المحنة تزيل هذا، قال: صدقت، فامتحنوه، فقالوا له: صف لنا فرس الأمير وقد أجلكناك ثلاثاً، قال: فاجعلوا معي رجلاً تتقون به يكتب ما أقول، فجعلوا معه رجلاً، فقال هذه القصيدة من ليلته، وهي: (من الرجز)

رِيَعَتْ لِنَشُورٍ عَلَى مَفْرَقِهِ
ذَمٌّ لَهَا عَهْدَ الصَّبَا لَمَّا انْتَسَبَ

قال: فلما غدا عليه بالقصيدة وأنشده إياها استحسناها من حضر، وقال: نشهد أن قائل هذه قائل تلك، فأعطاه ثلاثين ألف درهم^(٢). والحقيقة أن تلك المحنة أو ذلك الاختبار الذي قد يتعرض له الشاعر كان أمراً عادياً في البلاط العباسي. لقد كانت قدرتهم على نظم الشعر بدهاء وبسرعة محل احتمال واردة في كل وقت، فكثيراً ما كان يطلب منهم وصف شخص أو شيء، أو كان يطلب منهم معارضة شاعر آخر أشهر منهم.

هذا ما حدث مثلاً ذات يوم حيث «اجتمع الشعراء على باب المعتصم فبعث إليهم محمد بن عبد الملك الزيات أن أمير المؤمنين يقول لكم من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول النمري في هارون الرشيد: (من البسيط)

(١) كان يستعين بمن يقوده لكونه كفيفاً.

(٢) أبو الفرج الإصبهاني: السابق، ١٨-١٥/٢٠.

خَلِيفَةُ اللَّهِ إِنَّ الْجُودَ أَوْدِيَةٌ
أَخْلَكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا
فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ

فليدخل وإلا فليصرف، فقام محمد بن وهيب^(١) فقال: فينا من يقول مثله،
قال: وأي شيء قلت؟ فقال: (من البسيط)

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ
شَمْسُ الضُّحَا وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
تُحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ
الْغَيْثُ وَاللَّيْثُ وَالصَّمْصَامَةُ الذَّكْرُ

فأمر بإدخاله وأحسن جائزته»^(٢).

أخيراً، إن ذلك النوع من الاختبار كان وسيلة لمعرفة إدراك الشاعر وسرعته
وبداهته في مختلف الوضعيات التي قد يجد نفسه فيها، فكثيراً ما كان يطلب منه
نظم الشعر في الحال. وهذا الوضع يعطينا فكرة عن القلق الدائم الذي كان يعيش
فيه شعراء البلاط.

و- شكليات الاستقبال ومراسيمها

كان على الشاعر الذي يقبل في البلاط أن يخضع للمراسيم، وأن يتصرف
حسب القواعد والتقاليد المتبعة في كل المناسبات. أحياناً، كانت تلك المراسيم تقل
في الجلسات والسهرات الخاصة التي كان الخليفة أو رجال الدولة يقيمونها من
حين لآخر. كان حينئذٍ بإمكان الحاضرين أن يقوموا ببعض التجاوزات كما كان
يحدث عادة في بلاط المأمون.^(٣)

(١) أبو جعفر محمد بن وهيب الحميري، (توفي حوالي سنة ٢٢٥هـ/٨٤٠م).

(٢) أبو الفرج الإصبهاني: السابق، ٢٥٢/٢٠.

(٣) أبو الفرج الإصبهاني: السابق، ٢٥٢/٢٠.

كان لمظهر الشعراء تأثير كبير، وهو يعد من أهم متطلبات مهنتهم. يلخص لنا ابن رشيقي في كلمات الصفات المطلوبة من كل شاعر، وخاصة ذلك الذي يرغب في أن يصبح من شعراء البلاط أو من الخاصة في قوله: «من حكم الشاعر أن يكون حلو الشمائل، حسن الأخلاق، طلق الوجه، بعيد الغور، مأمون الجانب، سهل الناحية، وطيب الأكناف، فإن ذلك مما يحببه إلى الناس، ويزينه في عيونهم، ويقربه من قلوبهم، وليكن مع ذلك شريف النفس، لطيف الحس، عزوف الهمة، نظيف البزة، أنفًا، لتهابه العامة، ويدخل في جملة الخاصة فلا تمجه أبصارهم، سمح الدين...»^(١).

كل هذه الصفات يمكن أن تنطبق على الشعراء العباسيين، فأشجع السُّلَمي الذي نال مكافأة من جعفر البرمكي كان يكتري ثيابه بدرهمين في اليوم الواحد، ثم اشترى ثياباً كثيرة من باب الكرخ لأبنائه، وأبناء إخوته، إلى أن أتى على كل المال الذي ناله^(٢). ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن أبي نواس، وعن مسلم بن الوليد، وعن دعبل بن علي الخزاعي، وعن الحسين بن الضحاك، وعن غيرهم كثير، فقد كانوا نظيفين ويهتمون بثيابهم، ويصرفون الأموال بلذة، ولا يحرمون أنفسهم من شيء. لكننا نجد في المقابل، شعراء آخرين كانوا عكس ذلك تماماً مثل مروان بن أبي حفصة الذي نال ثلاث مرات مبلغ مئة أُل دينار، ومع ذلك كان بخيلاً^(٣).

وكان أبوالعتاهية أيضاً بخيلاً على الرغم من تظاهره بالزهد. وكان البيهقي كذلك بخيلاً. وعموماً، يتماشى البخل مع عدم الاهتمام بالمظهر الخارجي. وكان هذا التصرف من الشعراء غير مستساغ ولا محبوب خاصة من قبل الشعراء

(١) ابن رشيقي، الحسن القيرواني (٤٦٣هـ/١٠٧١م): العمدة في محاسن الشعر وصناعته، ١/١٢١؛ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الأولى، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٣٤.
(٢) عبدالرحمن بن عبدالرحمن العباسي: معاهد التصحيح، ٢/١٢٤؛ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧.
(٣) أحمد فريد الرفاعي: عصر المأمون، ٢/٢٩٦.

الآخرين، لأنه في الحقيقة، يفترض فيهم أن يكونوا القدوة قبل أن ينادوا الناس لاتباع هذا الموقف أو ذلك، وكانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه لا يغتفر أن ينهى عن خلق ويؤتى مثله. ولعل هذا ما دفع أحمد بن أبي فَنَنَ للقول: (من الطويل)

وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاللُّؤْمِ شَاعِرٌ
يَلُؤْمُ عَلَى الْبُخْلِ الرَّجَالَ وَيَبْخُلُ^(١).

كان بعض الخلفاء ورجال الدولة يطلبون من الشعراء أن يلبسوا لباس الأعراب وهم ينشدون مدائحهم، تشبها بالأجواء التي كانت سائدة في البادية وفي الصحراء عندما كانوا يفتخرون بفضائل قبائلهم أو بأنسابهم. لهذا كان هارون الرشيد يتشبه كثيراً بالأعراب، لذلك كان يطلب من الشعراء، ومنهم العُماني الذي «دخل على هارون الرشيد لينشده، وعليه قلنسوة طويلة، وخف ساذج، فقال له: إياك أن تشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور، وخفان دملقان، فيكر عليه من الغد وقد تزيّاً بزي الأعراب، ثم أنشده وقبل يده»^(٢).

ز - عادات الشعراء في الإنشاد

الشعر العربي شعر غنائي في أغلبه، ولهذا السبب فهو عادة ينشد ولا يقرأ^(٣). والإنشاد موهبة تعتمد على الصوت مثل الغناء لأنه من جنسه، ويتحسن بالدربة والمران. لعل هذا هو السبب الذي جعل الشعراء يصفون أنفسهم بأنهم مغنون، وأنهم عسافير، وأنهم كالحمام. ثم إن الشعر يجب أن ينشده صاحبه لأنه هو الذي نظمه، وهو وحده يعرف ما النبيرة التي تعطى له، وما الصيغة التي يشخص فيها ويقدم، هذا إذا لم يكن هناك مانع. القصة التالية بين علي بن الخليل وهارون الرشيد تبين لنا مزايا الإنشاد المباشر للشعر. كان هذا الشاعر متهمًا بالزندقة،

(١) ابن عبد البر القرطبي: بهجة المجالس، ٦٢٩/١.

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ٤٧٥.

(٣) علي الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر، ٢١؛ دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩.

وكان الخليفة يبحث عنه، فاختفى مدة من الزمن وظل ينتظر الفرصة المواتية ليثبت براءته. وذات يوم جلس هارون الرشيد للمظالم واستقبل الناس وهم يقدمون له رقاعاً فيها قصصهم ليفصل فيها، «فدخل عليه علي بن الخليل وهو متكئ على عصا، وعليه ثياب نظاف، وهو جميل الوجه حسن الثياب، في يده قصة، فلما رآه أمر بأخذ قصته، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أحسن عبارة لها، فإن رأيت أن تأذن لي في قراءتها فعلت. قال: اقرأها، فاندفع ينشده فيها قصيدته: (من مجزوء الكامل)

يَا حَيْرَ مَنْ وَخَدَتْ بِأَرْحُلِهِ
نُجْبُ الرِّكَابِ بِمَهْمِهِ جَلَسِ

فاستحسنها هارون الرشيد، وقال له: من أنت؟ قال: أنا علي بن الخليل الذي يقال فيه إنه زنديق، فضحك، وقال له: أنت آمن، وأمر له بخمسة آلاف درهم، وخص به بعد ذلك وأكثر مدحه^(١). ويشبه هذا ما حدث لدعبل بن علي الخزاعي مع الخليفة المأمون وإن كان أكثر مغزى. كما ذكرنا سابقاً، كان دعبل من المتشيعين المتحمسين مما جعل العباسيين يزدرونه لأنه انتقدهم بشدة في عدة أهاج. أعطاه الخليفة المأمون الأمان واستقبله، «فلما دخل وسلم عليه تبسم في وجهه، ثم قال: أنشدني: (من الطويل)

مَدَارِسُ أَيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ
وَمَنْزِلٌ وَخِي مُقْفِرُ الْعَرَصَاتِ

فجزع، فقال له: لك الأمان فلا تخف، وقد رويتها ولكني أحب سماعها من فيك، فأنشده إياها إلى آخرها، والمأمون يبكي حتى اخضلت لحيته بدمعه، فوالله ما شعرنا به إلا وقد شاعت له أبيات يهجو بها المأمون بعد إحسانه إليه وأنسه به، حتى كان أول داخل وآخر خارج من عنده^(٢).

(١) أبو الفرج الإصبهاني: الأغاني، ٤٨٤٧/١٠ (طبعة وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧).

(٢) أبو الفرج الإصبهاني: السابق، ١٨١/٢٠.

كان للشعراء عدة عادات في إنشادهم الشعر، وكانوا يتخذون أيضاً عدة وضعيات لذلك، وهي كلها تبين عموماً طباعهم وحالاتهم النفسية واعتزازهم بشعرهم. كان الشعراء ينشدون أشعارهم أمام الخلفاء ورجال الدولة وهم واقفون، ما عدا بعض الاستثناءات القليلة جداً. كان بشار بن برد يصفق بيديه الاثنتين مثلاً، ويلقي ببصاقه يميناً وشمالاً قبل أن ينشد^(١). من المؤكد أنه كان يفعل ذلك ليجلب انتباه المستمعين لكونه كفيلاً، علماً أن الشعراء لم يكونوا يبدأون في إنشاد شعرهم إلا بعد أن يؤذن لهم بذلك. وكان البحثري يصاحب إنشاده بكثير من الاستفزاز والغرور والادعاء. يقول عنه صاحب الأغاني نقلاً عن أبي العنبيس الصيمري: «كنت عند المتوكل والبحثري ينشد: (من مجزوء الكامل)

عَنْ أَيِّ نَغْرٍ تَبْتَسِمُ
وَبِأَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمُ

وكان البحثري من أبغض الناس إنشاداً، يتشادق ويتزاور في مشيه مرة جانباً ومرة القهقري، ويهز رأسه مرة، ومنكبيه أخرى، ويشير بكمه، ويقف عند كل بيت ويقول أحسنت والله، ثم يقبل على المستمعين فيقول: ما لكم لا تقولون لي: أحسنت؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله، فضجر المتوكل من ذلك، وأقبل علي وقال: أما تسمع يا صيمري ما يقول؟ فقلت: بلى يا سيدي فمرني فيه بما أحببت، فقال: بحياتي اهجه على هذا الروي الذي أنشدنيه، فقلت: تأمر ابن حمدون أن يكتب ما أقول، فدعا بدواة وقرطاس، وحضرني على البديهة أن قلت:

أَدْخَلْتُ رَأْسَكَ فِي الرَّجْمِ
وَعَلِمْتُ أَنَّكَ تَنْهَزُمُ

قال: فغضب وخرج يعدو وجعلت أصيح به :

أَدْخَلْتُ رَأْسَكَ فِي الرَّجْمِ
وَعَلِمْتُ أَنَّكَ تَنْهَزُمُ

(١) أبو الفرج الإصفهاني: نفسه، ٢٠/١٨١.

والمتوكل يضحك ويصفق حتى غاب عن عينه» (١).

ومن جهة ثانية نجد أن بعض الشعراء كانوا يلاقون صعوبات في إنشاد شعرهم لأنهم كانوا من أصول غير عربية، وبقيت فيهم لكنه من لغاتهم الأصلية مما جعلهم يרטنون أحياناً كما كان الشأن بالنسبة إلى أبي عطاء السندي الذي كان يعاني من هذا العائق على الرغم من بداهته. إنه يذكر ذلك في المديح التالي الموجه إلى سليمان بن سليمان الكلابي: (من الخفيف)

أَعْوَزْتَنِي الرَّوَاةُ يَا بَنَ سُلَيْمٍ
وَأَبَى أَنْ يُقِيمَ شِعْرِي لِسَانِي
وَعَلَى بِالَّذِي أَجْمِمْ صَدْرِي
وَجَفَانِي لِعُجْمَتِي سُلْطَانِي
فَضَرَبْتُ الْأُمُورَ ظَهْرًا لِبَطْنِي
كَيْفَ أَخْتَالُ حِيلَةَ لِسَانِي
وَتَمَنَّيْتُ أَنْبِي كُنْتُ بِالشَّعْرِ
رَفْصِيحاً وَبَانَ بَعْضُ بَنَانِي
ثُمَّ أَصْبَحْتُ قَدْ أَنْخْتُ رُكْبِي
عِنْدَ رَحْبِ الْفَنَاءِ وَالْأَغْطَانِ
فَأَكْفِنِي عَمَّا يَضِيقُ عَنْهُ رُؤَاتِي
بَفْصِيحٍ مِنْ صَالِحِي الْغُلْمَانِ
يَفْهَمُ النَّاسُ مَا أَقُولُ مِنَ الشَّعْرِ
رِ فَإِنَّ الْبَيَانَ قَدْ أَعْيَانِي (٢)

(١) أبوالفرج الإصهاني: السابق، ٧٣٠١/١٥-٧٣٠٢ (طبعة وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧).

(٢) أبوالفرج الإصهاني: السابق، ٨٣/١٦.

وفعلا أعطاه غلاماً بربرياً فصيحاً سماه «عطاء»، ومن هنا كنيته، فحفظه شعره فراح ينشده بدله في كل المقابلات والحفلات.

وكان لأبي تمام إنشاد سيء بسبب تأتأة في لسانه، فلاقى بعض الصعوبات بسبب ذلك. يحكى مرة أنه ذهب عند إسحاق بن إبراهيم المصعبى^(١) لمدحه فوجد أنه سبقه الشاعر المخزومي، وكان بارعاً في الإنشاد، فقال له المصعبى ما معناه لو رأى كيف كان إنشاد المخزومي^(٢)، فأجاب أبوتمام بأن إنشاد المخزومي يفتح الطريق أمام شعره، وأنا شعري يفتح الطريق أمام إنشادي^(٣).

وكان مرة أخرى في مجلس أبي دلف العجلي وهو ينشد فسمع واحداً من الحاضرين يقول ما معناه: «ألا لعنة الله وكل البشر الذين خلقهم الله أجمعين». وهكذا نجد أخاه ينشد بدله لبعض الوقت. ثم أعطاه أبوسعيد الثغري غلاماً صار ينشد بدلاً عنه. وقد استغل مَخَلدُ بن بَكَّار ذلك الوضع، وكان لا يتفاهم معه، فقال يمازحه: (من مجزوء الرمل)

أَنْتَ مِنْ أَشْعَرُ خَلْقِ اللَّهِ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ^(٤)

وعكس ذلك، نجد شعراء أمثال المخزومي وأبي نواس ودعبل ومحمد البيدق قد اشتهروا بحسن إنشادهم وحلاوة أصواتهم^(٥).

نلاحظ أن حسن الإنشاد كان له حتماً تأثير ما على الخلفاء ورجال الدولة في تقدير الجائزة التي يستحقها هذا الشاعر أو ذلك بالإضافة إلى العوامل الأخرى بطبيعة الحال.

(١) المصعبى (-٢٣٥هـ/٨٥٠م): رئيس شرطة بغداد في عهد المأمون والمعتمد والوائق والمتوكل؛ كان طاهر بن الحين خاله؛ انظر الزركلي: ٢٨٣/١-٢٨٤.

(٢) المخزومي، أبوسعيد عيسى بن خالد بن الوليد (-٢٣٠هـ/٨٤٥): انظر الزركلي، ٢٨٦/٥.

(٣) علي الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر، ٦٠.

(٤) أبوالفرج الإصبهاني: السابق، ٤٧/١٨.

(٥) علي الجندي: السابق، ٥٩-٦٠.

ح- الأعيان والجوائز والهدايا

كل أتعاب السفر، وكل الصعوبات والاختبارات التي تعرض لها الشاعر تذهب فجأة عندما يؤذن له بالإنشاد أمام الخليفة أو الأغنياء. وكان أغلب الشعراء الذين يدخلون البلاطات ينالون الجوائز اللهم بعض الاستثناءات القليلة، وكانت تلك الجوائز نقدًا أو عينًا أو همًا معًا. وكانت قيمتها تختلف من خليفة لآخر. وكانت التقاليد تقتضي أن تكون قيمة جوائز رجال الدولة أقل من قيمة جوائز الخليفة حتى لا يزايدوا عليه. كان بعض الخلفاء يمنحون مبالغ خيالية حتى أن بعض الباحثين شكك في صحتها^(١). من جهة أخرى، لم يكن الخلفاء متشابهين في تقدير الشعراء، ولم يبد منهم تصرف واحد تجاههم جميعًا. إن بعض الخلفاء كانوا بخلاء مع المادحين مثل المنصور. القصة التالية بينه وبين الشاعر المؤمل بن أميل بن أسيد المحاربي^(٢) تعطينا فكرة واضحة عن الصورة التي كانت لديه حول هؤلاء الشعراء. يقال إن المؤمل بن أميل زار المهدي عندما كان وليًا للعهد ومدحه بقصيدة فكافأه المهدي بعشرين ألف درهم، لكن عندما علم والده بذلك أصدر أمرًا بالبحث عن الشاعر ليسترجع منه المال، وقال لولده ألا يعطيه إلا أربعة آلاف درهم بعد أن يمكث عامًا كاملًا أمام بابيه^(٣).

لقد كان من المعهود في ذلك الزمن أن يكون لميسوري الحال شعراء يمدحونهم. وقد كان أولئك المداحون يوزعون الصفات الحميدة المتعددة والمختلفة عن حق وعن باطل لكل من يدفع، لكن لا أحد كان يستهجن ذلك. وعليه، فقد كانت الجوائز والمكافآت متعددة ومتنوعة، لأن أولئك الأغنياء كانوا يرغبون في الشهرة وفي إذاعة أسمائهم، ولم يجدوا أحسن من أولئك الشعراء ليقوموا بذلك العمل. وكان الأغنياء

(١) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ٥٨/٢؛ دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٧.

(٢) المؤمل بن أميل (-١٩٠هـ/٨٠٥م)، انظر البغدادي: تاريخ بغداد، ١٣/١٧٧؛ المرزباني: معجم الشعراء، ٣٨٤.

(٣) أبو الفرج الإصهاني: السابق، ٢٢/٢٤٥.

مجبرين على الدفع ليحافظوا على تلك الشهرة، وحتى لا يكونوا عرضة لسخطهم وتهكمهم وهجائهم.

كانت المكافآت تتضمن الأموال والهدايا المختلفة كالخلع والرواحل والدور والإقطاعات، والعبيد وما إلى ذلك. لقد احتفظت لنا كتب الأدب بكثير من القصص حول تلك المكافآت. نجد مثلاً أن أبا دلامة أقطع أراضي شاسعة من قبل الخليفة السفاح كمكافأة^(١). ونال الشاعر التيمي ضيعة كمكافأة على مديح من الخليفة الأمين^(٢). ليس غريباً إذن، وقد رأينا سخاء بعض الخلفاء ورجال الدولة، أن يفتي بعض الشعراء ويجمعوا ثروة طائلة من مهنة التملق والإطراء والمداهنة. إن عوامل نجاحهم متنوعة ومتعددة، منها البراعة في نظم الشعر، والأفكار، والصور الشعرية، والفصاحة والإنشاد.

كل هذه الأمور وغيرها، كان لها دور في ذلك. وكان الحظ يبتسم لبعضهم أحياناً عندما يمثلون أمام الممدوحين وهم في حال نفسية مواتية للكرم والأريحية. ذات يوم تقدم الشاعر ابن الخياط^(٣) بمديح للخليفة المهدي فكافأه بخمسين ألف درهم، لكنه لم يكن يطمع في ذلك المبلغ، فبقي مشدوها من المفاجأة، وما كان عليه إلا أن يمدح من جديد ذلك الجود الحاتمي بقوله: (من الطويل)

أَخَذْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي الْغِنَى
وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُغْدِي
فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَقَادَ ذُو الْغِنَى
أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَثْلَفْتُ مَا عِنْدِي

(١) ابن قتيبة: السابق، ٤٨٧.

(٢) أبو الفرج الإصبهاني: نفسه، ٥٢/٢٠.

(٣) ابن الخياط: هو عبدالله بن محمد بن سالم، توفي في عهد المهدي؛ انظر أبو الفرج الإصبهاني: السابق، ٠١/٢٠.

وعندما بلغت هذه القصيدة أسماع الخليفة المهدي ضاعف مكافأته وأمر أن تحمل إليه في بيته^(١). وقد كان هذا الخليفة، عكس قساوة أبيه وشدته، محبوباً من الشعراء لكرمه. وكان أول خليفة عباسي يمنح مئة ألف درهم لشاعر، والشاعر المحظوظ هو مروان بن أبي حفصة^(٢). ونال بعده كذلك ابن مطير المبلغ نفسه من الخليفة نفسه^(٣).

يمكن أن نقول إنالمحظوظ مروان بن أبي حفصة قد حدد بورصة الشعر في ذلك الزمن، ولمدة معينة بعد أن أعطاه الخليفة هارون الرشيد ألف درهم عن كل بيت من الشعر^(٤)، وظل الأمر كذلك إلى وفاته^(٥). ومنذ ذلك الزمن، أصبح أمل الشعراء أن ينالوا ما نال مروان من مكافآت وجوائز.

وكان رجال الدولة والأغنياء أيضاً يكافئون المداحين بمبالغ ضخمة، فقد نال سلم الخاسر مثلاً عشرين ألف دينار من البرامكة بالإضافة إلى مبلغ مماثل من الخليفة هارون الرشيد دون أن ننسى ما حصل عليه من جهات أخرى^(٦).

ولكن الذي كان يهم هؤلاء الشعراء أكثر هو أن تسجل أسماؤهم في «ديوان الشعراء» حتى يضمنوا الحصول على منح وأعطيات دائمة وكأنها راتب، زيادة على استغلال المناسبات الرسمية لنظم بعض المدائح وإلقائها أمام الخلفاء والأغنياء ورجال الدولة.

وقد كوفئ بعض الشعراء مرتين، فزيادة على الجوائز التي نالوها من مال وهبات وأعطيات، فقد كلفوا ببعض المهام الإدارية، وقد ألحقوا أحياناً مباشرة

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ٨٨/١٠.

(٣) نفسه، ٢٣/١٤.

(٤) نفسه، ٨٨/١٠.

(٥) نفسه، ٨٨/١٠.

(٦) نفسه، ٢٧٠/١٩.

ببلاط الخليفة أو ببعض رجال الدولة. نسوق مثلاً على ذلك تكليف ولي العهد عيسى بن موسى الشاعر مُسَاوِر بن سَوَار بن عبد الحميد^(١) بعمل الخراج^(٢). وكافاً الفضل بن سهل الشاعر مسلم بن الوليد بأن كلفه بيريد جرجان^(٣). أما الشاعر إبراهيم بن المدبر فقد كلفه الخليفة المتوكل ببعض الأعمال^(٤).

(١) مساور بن سوار (توفي حوالي سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م)؛ انظر: الأغاني، ٢٣/٥٠-٥١.

(٢) أبو الفرج الإصبهاني: السابق، ١٨/١٥١-١٥٠.

(٣) نفسه، ١٩/٤٥.

(٤) نفسه، ٢٢/١٥٧-١٥٨.

خاتمة القول حول القيمة التوثيقية للشعر السياسي في العصر العباسي

أول شيء نلاحظه على الشعر السياسي في العصر العباسي المدروس هو أنه يحتوي على كل شيء وعلى لا شيء في الوقت نفسه. يمكن أن نجد كل شيء في هذا الشعر ويمكن ألا نجد فيه شيئاً بتاتاً. وبعبارة أخرى، إذا نظرنا إليه بصفة مطلقة، نجد فيه إشارات إلى كل الأحداث الكبرى التي عرفها ذلك العصر، ولكننا لا نجد فيه التفاصيل التي نتظرها من المؤرخين مثلاً.

هؤلاء الشعراء لم يكونوا مؤرخين حتى نسمح لأنفسنا بأن نطلب منهم أن يكونوا دقيقين وهم يذكرون تلك الأحداث، ولا أن يسببوها، ولا أن يعللوها، ولا أن يتعرضوا لنتائجها. ذلك العمل تركوه للمؤرخين. كان دورهم في ذلك أن يلاحظوا تلك الأحداث كظواهر وأن ينقلوها إلى أشعارهم لا كأحداث مفصلة بل لأن تلك الأحداث فرضت نفسها على الساحة السياسية المرتبطة بالأحداث في اللحظة التي ينظمون فيها أشعارهم.

لا بد من الإشارة كذلك إلى أن الشعر ليس ميداناً لمثل هذه الاستعراضات، أي أنه لا يسمح لنفسه بأن يذكر كل ما حدث في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها لعهد كامل بكل ما يحمل من تفاصيل دقيقة وأبحاث. إن مجال الشعر هو الشعور والعواطف، لهذا لا نجد انعكاسات تلك الأحداث فقط على الضمير الجمعي بل أيضاً ضمير الشاعر.

في هذه النقطة بالذات تكمن كل الصعوبة أيضاً لأن شعور الشاعر وعاطفته ليسا ثابتين. إنه مثل كل البشر يمكن أن يكون ضحية الظروف والظغوط. الخوف أيضاً ليس غريباً في هذا المجال. إن القوانين، والمصلحة العليا للدولة، والدين، والأخلاق وغيرها يمكنها جميعاً أن تؤثر في موقف الشعراء من الأحداث التي تجري حولهم.

من هنا جاءت فكرة ألا نثق كلياً في أحكامهم التي ينقلها شعرهم، لا لأن كلامهم ليس في المستوى أو ليس صحيحاً ودقيقاً بل لأنه مفروض من قبل عوامل ذاتية. إنه، أي شعرهم المدحي، يمثل وجهة نظر الممدوح أو المهجو مما يجعل حكمهم أحادي الجانب. يمكن أن نرى ذلك بسهولة عندما نقارن بين بعض المقتطفات لشاعر ما إذ نجده هو نفسه يمدح الأمويين والعباسيين والطالبين معاً. كيف يكون موقفنا من شاعر بهذه الشاكلة أو من شعره؟ من غير المعقول أن يعطي الحق للأطراف الثلاثة المتناقضة، بل المتعادية.

ألا نجد هنا خداعاً ومكرًا وانتهازية، بل لؤماً وتحريفًا للتاريخ؟ وعليه، لا بد من أن نفرق بين الشاعر السياسي الحقيقي، وبين الشاعر السياسي الانتهازي. الأول صريح مع نفسه ومع «حزبه». إنه يعبر عن عواطفه الحقيقية، وعن قناعاته الحقيقية كذلك حتى ولو كان في ذلك حتفه. وهكذا فإنه يتسم بالصدق العاطفي والأمانة الحزبية. بينما يقدم الثاني، أي الانتهازي، مصالحه الخاصة قبل كل شيء في حين يقدم الأول قناعاته قبل مصالحه.

إن الشعر السياسي، من جهة ثانية، مرتبط ارتباطاً عضوياً بالتاريخ لأننا دوماً في حاجة إلى إضاءات التاريخ وإيضاحاته لفهمه. من ثم فهذه هي الطريقة التي

طبقناها على امتداد هذا البحث. لقد بدا لنا هذا الشعر وكأنه يمثل عناوين كبرى للتاريخ. إنها تشير وتلمح إلى مختلف فصوله وتقترحها علينا. في الوقت الذي يكون فيه ذلك الشعر صورة ما لتلك الحقبة، يكون التاريخ هو المحتوى الذي يجد فيه كل شيء تفسيره.

الفرق بين المؤرخ والشاعر السياسي هو أن الأول يكتب وهو حر نسبياً من الأحداث التي ينقلها لأنه يتناول الماضي عموماً، بينما الثاني ينظم وهو في خضم الأحداث بالذات. ولعله انطلاقاً من هذا نرى الشاعر السياسي مائلاً في أغلب الأحيان لأنه مقيد بالأحداث الجارية، فلا يرى دائماً كل أبعادها، في الوقت الذي يدرسها المؤرخ على راحته، مقارنةً وجامعاً كل المعطيات الممكنة بما فيها تلك التي يوفرها الشعر. لا ننس هنا أن الشعر السياسي في ذلك العصر كان مرتبطاً بالمدح، وبعبارة أخرى، كان الشاعر مرغماً في جل الحالات أن يكون ملماً بالوقائع ليجلب انتباه الأشخاص المستفيدين من مدحه.

كل هذا يدفعنا للقول إن هذا الشعر تتقصه الدقة التاريخية، أي أنه لا يمكن أن يزودنا إلا ببعض المؤشرات التي باستطاعتها أن تكون سياقاً عاماً دون أن نستعمله كنص نهائي. ليس ذلك الشعر في الحقيقة سوى صدى عاطفي وجمالي للأحداث على نفس الشاعر الذي سينقلها حسب موقفه مما يدور حوله. إنه أيضاً وقع للحياة على خياله المتميز بذلك العصر عموماً بالمبالغة والتعصب المفرط.

ليس هناك أدنى شك من أن ذلك الشعر سياسي، لأن الشاعر يحاول من خلاله أن يقوم بإعطاء رأيه فنياً في قضايا عصره. إن قضية الخلافة، أو السلطة، أرقت الجميع، فهي تمثل حجر الزاوية لكل هذا الصرح. إذا كان مسموحاً لنا أن

نقيم مقارنة بين معتقداتنا الحديثة، وبين معتقدات الشعراء العباسيين، لوجدنا أن الخوارج وحدهم هم الذين كانوا نظرياً في الطريق السليم، ليس بسلوكهم وتصرفاتهم، بل بمعتقداتهم. كل الفرق، ما عداهم، أي كل الشعراء الآخرين، لم يقوموا سوى بتعميق الهوة في هذه العضلة. ما كان الحق الإلهي، والوراثة، وأمور أخرى سوى وجهات نظر بدون سند تاريخي حقيقي.

قائمة الخلفاء العباسيين في العصرين الأول والثاني

- ١ - السفاح: أبو العباس عبدالله بن محمد (١٢٢-١٣٦هـ/٧٥٠-٧٥٤م).
- ٢ - المنصور: أبو جعفر عبدالله بن محمد (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م).
- ٣ - المهدي: أبو عبدالله محمد بن عبدالله (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م).
- ٤ - الهادي: أبو محمد موسى بن محمد (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م).
- ٥ - هارون الرشيد: أبو جعفر هارون الرشيد بن محمد بن عبدالله (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م).
- ٦ - الأمين: أبو عبدالله محمد بن هارون الرشيد (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م).
- ٧ - المأمون: أبو العباس عبدالله بن هارون الرشيد (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٢٣م).
- ٨ - المعتصم: أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٢٣-٨٤٢م).
- ٩ - الواثق: أبو جعفر هارون الرشيد بن محمد (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م).
- ١٠ - المتوكل: أبو الفضل جعفر بن هارون الرشيد (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م).
- ١١ - المنتصر: أبو جعفر محمد بن جعفر (٢٤٧-٢٤٨هـ/٨٦١-٨٦٢م).
- ١٢ - المستعين: أبو العباس أحمد بن جعفر (٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م).
- ١٣ - المعتز: أبو عبدالله محمد بن جعفر (٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٧٠م).

- ١٤ - المهتدي: أبوإسحاق محمد بن هارون الرشيد (٢٥٥-٢٥٦هـ/١٧٠م).
- ١٥ - المعتمد: أبوالعباس أحمد بن جعفر (٢٥٦-٢٧٩هـ/١٧٠-١٩٢م).
- ١٦ - المعتضد: أبوالعباس أحمد بن الموفق (٢٧٩-٢٨٩هـ/١٩٢-٢٠٢م).
- ١٧ - المكتفي: أبوأحمد علي بن أحمد (١٨٩-٢٩٥هـ/٩٠٢-٩٠٨م).
- ١٨ - المقتدر: أبوالفضل جعفر بن أحمد (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م).
- ١٩ - عبدالله بن المعتز (خليفة ليوم واحد سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م).
- ٢٠ - القاهر: أبومنصور محمد بن أحمد (٣٢٠-٣٢٢هـ/٩٣٢-٩٣٤م).
- ٢١ - الراضي: أبوالعباس أحمد بن جعفر (٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٤-٩٤٠م).
- ٢٢ - المتقي: أبوإسحاق إبراهيم بن جعفر (٣٢٩-٣٣٣هـ/٩٤٠-٩٤٥م).
- ٢٣ - المستكفي: أبوالقاسم عبدالله بن علي (٣٣٣-٣٣٤هـ/٩٤٥-٩٤٦م).

فهرس المصادر والمراجع

- الأبشيهي، محمد بن أحمد (٨٥٢هـ/١٤٤٨م): المستطرف من كل فن مستظرف، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- ابن أبي الربيع، أحمد بن محمد (٢٧٢هـ/٨٨٥م): سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق ناجي التكريتي، تراث عويدات، باريس-بيروت، ١٩٧٨.
- ابن أبي عون، إبراهيم بن محمد (٣٢٢هـ/٩٣٤م): كتاب التشبيهات، تحقيق عبدالمنعم خان، جامعة كامبردج، ١٩٥٠.
- ابن الأثير، عز الدين أبوالحسن علي بن محمد (٦٣٠هـ/١٢٣٣م): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥.
- ابن الأزرقي، أبو عبدالله محمد بن علي (٨٩٦هـ/١٤٩١م): بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبدالكريم، تونس-طرابلس، ١٩٧٧.
- ابن بسام، علي بن محمد بن نصر بن بسام المعروف بالبسامي (٢٣٠-٣٠٢هـ): الديوان؛ تحقيق مزهر السوداني، الطبعة الأولى، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٩.
- ابن الجراح، أبو عبدالله محمد بن داوود (٢٩٦هـ/٩٠٩م): الورقة، تحقيق عبدالوهاب عزام وعبدالستار فراج، القاهرة، د.ت.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبوالفضل عبدالرحمن بن علي (٥٦٢هـ/١١٦٧م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، ١٩٣٩.

- ابن الحداد، محمد بن منصور بن حبيش (٦٤٨هـ/١٢٥٠م): في فضل السياسة من أرباب الرياسة، ضمن مجلة «الفكر العربي» عدد ٢٣.
- ابن الدمينة، عبدالله بن عبدالله (١٢٠هـ/٧٤٧م): ديوان ابن الدمينة برواية أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق محمد راتب النفاخ، دار العودة، القاهرة، ١٣٧٩هـ.
- ابن الساعي، علي بن أنجب بن المظفر (٦٧٤هـ/٢٧٥م): كتاب مختصر أخبار الخلفاء، مطبعة بولاق، ١٣٠٩هـ.
- ابن الطُّقَطَى، أبو جعفر محمد بن علي بن محمد ابن طَبَّاطِبَا (٦٦٠-٦٧٠هـ/٩١٢٦٢-١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانية، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٢٧.
- ابن العبري، مار عبراؤوس أبو الفرج يوحنا غريغوريوس (٦٨١هـ/١٢٨٦م): تاريخ مختصر الدول، تحقيق الشلحاني، بيروت، ١٨٩٠.
- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد (١٠٨٩هـ/١٦٧٩م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مطبعة القدسي، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (٥٥٨هـ/١١٦٣م): الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، ليدن ١٩٧٣.
- ابن المعتز، عبدالله (٢٤٧-٢٩٦هـ/٨٦١-٩٠٨م):
- ديوان عبدالله بن المعتز، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨١هـ/١٩٦١م
 - طبقات الشعراء المحدثين، تحقيق عبدالستار فراخ، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٨.

- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (توفي حوالي ٣٧٧هـ/٩٨٧م): الفهرست د.ت.
- ابن الوردي، عمر بن المظفر (-٧٤٩هـ/١٣٤٩م): تاريخ ابن الوردي، دون مكان ودون تاريخ.
- ابن برد، بشار، (-١٦٧هـ/٧٨٣م): ديوان بشار بن برد (٤ أجزاء)، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية والشركة الوطنية للنشر والإشهار (SNED)، تونس والجزائر، ١٩٦٧.
- ابن تَغْرِي بِرْدِي، جمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغري بردي بن عبدالله (-٨١٣-٨٧٤هـ / ١٤١٠-١٤٧٠ م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣٠.
- ابن حجة الحموي، أبوبكر بن علي بن عبدالله (-٨٣٧هـ/١٤٣٣م): ثمرات الأوراق، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (٤٥٦هـ/١٠٦٤م):
- أ - رسالة نقط العروس في تاريخ الخلفاء، تحقيق إحسان عباس، ضمن «رسائل ابن حزم»، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١.
- ب - الفِصَل في الملل والأهواء والنحل، المطبعة الرحمانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣١٧هـ.
- ابن حسول، محمد بن علي (-٤٥٠هـ/١٠٥٨م): كتاب تفضيل الأتراك على سائر الأجناد، تحقيق عباس العزاوي، مطبعة المعارف، اسطنبول، ١٩٤٠.
- ابن خلدون، ولي الدين أبوزيد عبدالرحمن بن محمد (٨٠٤هـ/١٤٠٦م): المقدمة، تحقيق علي عبدالواحد وافي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٦.

- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- ابن خياط، خليفة (٢٤٠هـ/٨٥٤م): تاريخ ابن خياط، تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٦٨.
- ابن دحية، عمر بن علي (٦٣٣هـ/١٢٣٥م): كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق، ع. العزاوي، دار المعارف، بغداد، ١٩٤٦.
- ابن دُرَيْد، محمد بن الحسن (٢٢٣-٣٢١هـ/٨٢٨-٩٣٣م): ديوان شعر الإمام ابن دريد، تحقيق محمد بدر الدين العلوي، لجنة التأليف، القاهرة، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.
- ابن رشيقي، الحسن القيرواني (٤٦٣هـ/١٠٧١م): العمدة في صناعة الشعر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة حجازي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣٤.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (-٤٥٨هـ/١٠٦٦م): المخصص، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٦هـ-١٣٢١هـ.
- ابن شاکر الکتبي، محمد بن شاکر بن أحمد (٧٦٤هـ/١٣٦٣م): فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣.
- ابن شهر آشوب، محمد بن علي (٥٥٨هـ/١١٩٢م): مناقب آل أبي طالب، المطبعة الحيدرية، النجف، د.ت.
- ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (٢٨٠هـ/٨٩٣م):
- أ - بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، دار المعارف، بيروت، ١٩٦٨.
- ب - المنثور والمنظوم أو القصائد التي لا مثل لها، تحقيق محسن غياض، تراث عوידات، بيروت - باريس، ١٩٧٧.

- ابن ظافر، جمال الدين علي ظافر بن حسين الأزدي الخزرجي (٥٦٧ هـ-٦١٣هـ/١١٧١-١٢١٦م): أخبار الدول المنقطعة (ج١٢)، تحقيق أندريه ف. إفيو (André F. Iféo)، القاهرة، ١٩٧٢.
- ابن عبدالبر القرطبي، يوسف بن عبدالله (٤٦٣هـ/١٠٧١م): بهجة المجالس، تحقيق محمد مرسى الخولي، القاهرة، د.ت.
- ابن عبدربه، أحمد بن محمد، (٣٢٨هـ/٩٤٠): كتاب العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٤٨.
- ابن عرنوس، محمد بن محمد: كتاب تاريخ القضاء في الإسلام، المطبعة المصرية الأهلية، د.ت.
- ابن غارسية، أبوعمار (ق٥هـ/١١م): رسالة في الشعوبية، تحقيق عبدالسلام هارون، ضمن «نوادير المخطوطات»، مطبعة البابي، الطبعة الثانية، القاهرة، د.ت.
- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ابن حماد (بعد ٣١٠ هـ / بعد ٩٢٢ م): رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (٢٧٦هـ/٨٨٩م):
- أ - الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي، القاهرة، د.ت.
- ب - كتاب المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٠.
- ت - كتاب الشعر والشعراء، تحقيق ميكائيل يان دو خويه (Michael Jan de Goeje)، ليدن، ١٩٠٢.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ/١٣٧٣م): البداية والنهاية، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣٢.
- ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (٤٢١هـ/١٠٣٠م): كتاب تجارب الأمم، القاهرة، ١٩١٥.

- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (-٧١١هـ/١٢١١م): لسان العرب، دار صادر - دار بيروت، بيروت، ١٩٦٨.
- ابن هرمة، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (٩٠-١٥٠هـ/٧٠٩-٧٦٧م): شعر إبراهيم ابن هرمة، تحقيق محمد راتب النفاخ وحسين عطوان، دمشق، سورية، د.ت.
- أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم (١٣٠-٢١١هـ/٧٤٨-٨٢٦م): ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.
- أبوالمجد، أحمد كمال: الشورى والديمقراطية ورؤية الإسلام السياسية، ضمن مجلة «العربي»، عدد أفريل ١٩٨٠.
- أبوتمام، أوس بن حبيب (١٩٢-٢٣١هـ/٨٠٧-٨٤٦م): ديوان أبي تمام، تحقيق شاهين عطية، بيروت، ١٩٦٨.
- أبوحاقة، أحمد: الالتزام في الشعر العربي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٧٩.
- أبوحنيفة الدينوري، أحمد بن داود (-٢٨٢هـ/٨٩٥م): كتاب الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم أمير، مطبعة البابي، القاهرة، ١٩٦٠.
- أبوحيان التوحيدي، علي بن محمد (٤١٤هـ/١٠٢٣م): كتاب الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، الحياة، (نسخة مصورة عن دار الكتب).
- أبوخليل، شوقي: هارون الرشيد، دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٧٧.
- أبو زُهْرَة، محمد: تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، د.ت.
- أبوزيد، فاروق: سعيد أفندي البستاني، ضمن مجلة «الهِلال» عدد أول جانفي ١٩٧٧.
- أبو علي البصير، الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس النَّخَعِي (٢٥٥هـ/٨٦٩م): أشعار أبي علي البصير، تحقيق يونس أحمد السامرائي، ضمن مجلة «المورد» مجلد ١، العددان ٣ و٤، بغداد، ١٩٧٧.

- أبويعلي الفراء، محمد بن الحسين (٤٥٨هـ/١٠٦٥م): الأحكام السلطانية، تحقيق محمد أحمد الفتى، القاهرة، ١٩٥٨.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (١٨٢هـ/٧٩٨م): كتاب الخراج، المطبعة المصرية، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٣٩٧هـ.
- الأتليدي، دياب: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، مطبعة الشيخ شرف موسى، د.ت.
- أرسطو (٣٨٤ ق.م- ٣٢٢ ب.م): السياسة، ترجمة لطفي السيد، دار الكتب، القاهرة، ١٩٤٧.
- أرنولد، توماس (Thomas Arnold): الخلافة، ترجمه من الإنجليزية جميل معلى، دار اليقظة، د.ت.
- الأزدي، أبوزكرياء محمد بن يزيد (٣٣٤هـ/٩٤٥م): تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، ١٩٦٨.
- إسماعيل، عز الدين: في الشعر العباسي: الرؤيا والفن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.
- أشجع السُّلَمِي (١٩٥هـ/٨٠١م): أشجع السلمي، حياته وشعره، تحقيق بنيان خليل الحسون، دار المسيرة، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٨١.
- الأشعري، أبوخلف سعد بن عبدالله (٣١٠هـ/٩١٨م): كتاب المقالات والفرق، تحقيق محمد جواد مشكور، تهران، ١٩٦٣.
- الإصنهاني، أبوالفرج علي بن الحسين (٣٥٦هـ/٩٦٧م):
- أ - كتاب الأغاني (٢٤ جزءاً)، دار الكتب، القاهرة، د.ت.
- ب - الأغاني (١٧ جزءاً)، وزارة الثقافة، الجزائر.
- ت - مقاتل الطالبين، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة البابي، القاهرة، د.ت.

- الألويسي، محمد شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٩٥٩.
- أمين، أحمد : ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، د.ت-المهدي والمهدية، ضمن سلسلة « اقرأ»، رقم ١٠٣، القاهرة، ١٩٥١.
- الأميني، عبدالحسين: الفدير في الفقه والسنة والأدب، مطبعة الحيدري، الطبعة الثانية، تهران، ١٣٧٢هـ.
- أنيس، إبراهيم: موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٧٨.
- الباشا، حسن: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٥.
- البحتري، الوليد بن عبادة (٢٠٦-٢٨٤هـ/٨٢١-٨٩٧م): ديوان البحتري، (٤ أجزاء)، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٣٦.
- بروكلمان، كارل (Carl Brockelmann): تاريخ الأدب العربي، ترجمه من الألمانية، عبدالحليم النجار، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٧٧.
- البستاني، سعيد أفندي: الحاكم والمحكوم، ضمن مجلة «الهلل»، عدد أول جانفي ١٩٧٧.
- البغدادي، أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر (٤٢٩هـ/١٠٣٧م): الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة الموفى، القاهرة، د.ت.
- بليغ، عبدالحميد: أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٩.
- بيطار، أمينة: تاريخ الدولة العصر العباسي، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨٠-١٩٨١.

- البيهقي، إبراهيم بن محمد (-٣٢٠هـ/٩٣٢م): كتاب المحاسن والمساوي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠.
- البيهقي، محمد بن حسين (٤٧٠هـ/١٠٧٧م): تاريخ البيهقي، ترجمه من الفارسية يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٥٦.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن موسى بن الضحاك (٢٠٩-٢٧٩هـ/٨٢٤-٨٩٢م): الجامع الصحيح أو سنن الترمذي، تحقيق محمود محمد محمود حسن نصار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- التتوخي، أبو علي الحسين بن علي (٣٨٤هـ/٩٩٤م):
- أ - الفرج بعد الشدة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد، الطبعة الأولى.
- ب - نشورا المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق الشلجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧١.
- توما، إميل: الحركات الاجتماعية في الإسلام، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٠.
- تيزيني، طيب: مشروع رؤيا جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، دار دمشق، دمشق، ١٩٧١.
- ثابت، نعمان: الجندية في الدولة العباسية، بغداد، ١٩٥٦.
- ثامر، عارف: القرامطة، دار الكتاب العربي-مكتبة النهضة، بغداد، د.ت.
- ثريا، حافظ عرفة: الخراسانيون ودورهم في العصر العباسي الأول، تهامة، السعودية، ١٩٨٢.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (٤٢٩هـ/١٠٣٨م):
- أ - خاص الخاص، تحقيق ح. الأمين، مكتبة الحياة، بيروت، .
- ب - كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مطبعة الظاهر، القاهرة، ١٩٥٠.
- ت - تحفة الوزراء، تحقيق رجينا هاينكيه (Régina Heinecké)، دار القلم، بيروت، ١٩٧٥.

- الجاحظ، عثمان بن بحر (٢٥٥هـ/٨٦٨م):
- أ - البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، دار سعد، بيروت، ١٩٦٨.
- ب - البرصان والعرجان والعميان والحولان، تحقيق مرسى الخولي، دار الاعتصام، القاهرة.
- ت - القول في البغال، تحقيق شار بيللا (Charles Pellat)، مطبعة الحلبي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٥.
- ث - التاج في أخلاق الملوك (منسوب إليه)، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، ١٩٧٠.
- ج - التاج في أخلاق الملوك (منسوب إليه)، تحقيق محمد أديب، بيروت، ١٩٥٥.
- الجراري، عباس: في الشعر السياسي، دار الثقافة، المغرب، ١٩٧٤.
- الجنابي، خالد: تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، أطروحة ماجستير، بغداد، ١٩٧١.
- الجندي، علي: الشعراء وإنشاد الشعر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩.
- الجهشياري، محمد بن عبدوس (٣٣١هـ/٩٤٢م): كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وأحمد شلبي، القاهرة، ١٩٣٨.
- الجوزي، بندلي صليبا: دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، تحقيق جلال السيد وناجي علوش، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.
- الجوهري، أبونصر إسماعيل بن حماد (٣٩٣هـ/١٠٠٣م): الصحاح، (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤.
- حجاب، فريد: المهدي المنتظر، المؤسسة الوطنية الجزائرية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤.
- حجاب، محمد نبيه: معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٣.

- حجار، طاهر: الاتجاه الشعبي في شعر العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير مخطوطة، كلية الآداب، جامعة دمشق، ١٩٨١.
- الحديثي، قحطان: الدولة الطاهرية، أطروحة ماجستير، بغداد، ١٩٦٦.
- حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، نهضة مصر، الطبعة الرابعة، القاهرة، د.ت-النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٤.
- حسن، سعد محمد: المهدي في الإسلام، القاهرة، ١٩٥٣.
- حسين، عطوان: الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، بيروت، د.ت.
- الحصان، عبدالرزاق: المهدي والمهدية، بغداد، ١٩٥٧.
- الحُصْرِي القِيروَانِي، أبوإسحاق إبراهيم بن علي (٤٥٣هـ/١٠٦١م) :
- أ - زهر الآداب وثمر الألباب، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٥٢.
- ب - ذيل زهر الآداب (جمع الجواهر في الملح والنوادر)، المطبعة الرحمانية، ١٣٥٣هـ.
- الحليمي، الحسين بن الحسن (٤٠٣هـ/١٠٢٥م): المنهاج ضمن «مجلة الفكر العربي»، عدد ٢٣.
- حمادة، ماهر: الوثائق السياسية العائدة إلى العصر العباسي الأول، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٩.
- الحِمَّانِي، علي بن محمد (٢٦٠هـ/٨٧٤م): ديوان الحماني، تحقيق محمد حسين الأعرجي، ضمن مجلة «المورد»، مجلد ٣، عدد ٢، بغداد، ١٩٧٤.
- حميدة، عبدالمحسن طه: أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، مطبعة السعادة، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٨.

- الحميري، محمد بن عبد المنعم (٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م): كتاب الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥.
- الخذوري، ماجد: الصلات الدبلوماسية بين هارون وشارلمان، بغداد، ١٩٣٩.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م): تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي (القاهرة) والمطبعة العربية (بغداد) ومطبعة السعادة، ١٩٣١.
- خلف الله، محمد: القرآن والدولة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨١.
- خلف، عبد الوهاب: السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٠ هـ.
- خليف، يوسف: حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، دار الكاتب، القاهرة، ١٩٦٨.
- الخوارزمي، أبو بكر محمد بن العباس (٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م): كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم، المطبعة العلمية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣١٠ هـ.
- دائرة المعارف الإسلامية: دائرة المعارف الإسلامية (بالعربية وبالفرنسية).
- دعبل، بن علي الخزاعي (١٤٨-٢٢٠ هـ / ٧٦٥-٨٣٥ م): ديوان دعبل الخزاعي، تحقيق عبد الكريم الأشر، دمشق، سورية، د.ت.
- الدلجي، أحمد بن علي (٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م): الفلاكة والمفلوكون، مطبعة الشعب، القاهرة، د.ت.
- الدوري، عبدالعزيز:
- أ - تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، الطبعة الثانية، بيروت.
- ب - الجذور التاريخية للشعبوية، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت.
- ت - فكرة المهديّة، ضمن «دراسات عربية مهداة إلى إحسان عباس»، الجامعة الأمريكية، بيروت.

- الديار بكري، حسين بن محمد (٩٦٦هـ/١٥٥٩م): تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهابية، ١٢٨٣هـ.
- ديك الجن الحمصي، عبدالسلام بن رغبان (١٦١-٢٣٥هـ/٧٧٧-٨٥٠م): ديوان ديك الجن الحمصي، تحقيق عبدالمعين ملوحي ومحيي الدين درويش، حمص، د.ت.
- ديوان الخوارج: ديوان الخوارج، تحقيق نايف معروف محمود، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٣.
- الديوه جي، سعيد: رسل ملك بيزنطة، ضمن مجلة «العربي»، العدد ١٦٦، الكويت، ١٩٧٢.
- الذهبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ/١٣٤٨م): تاريخ الإسلام، مطبعة القدسي، د.ت.
- الراغب الإصبهاني، أبو القاسم حسين بن محمد (٥٠٢هـ/١١٠٨م): محاضرات الأدباء ومحاولات الشعراء والبلغاء، المطبعة الشريفة، د.ت.
- الريداوي، محمود: التيارات والمذاهب الفنية في الأدب العباسي، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٨١-١٩٨٢.
- ربيعة الرُّقي، بن ثابت (١٩٨هـ/٨٠٣م): شعر ربيعة الرقي، تحقيق زكي ذاکر العاني، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ١٩٨٠.
- رجا، عيد: الشعر والنغم، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٥.
- الرفاعي، أحمد فريد: عصر المأمون، دار الكتب، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٢٧.
- الرفاعي، أنور: الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، ١٩٧٣.
- ابن طباطبا، أبو جعفر محمد بن علي بن محمد ابن طباطبا (٦٦٠-٧٠٩هـ/٩-١٢٦٢-١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانية، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٢٧.

- الرئيس، ضياء الدين: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦١.
- الزبير بن بكار (-٢٥٦هـ/٨٧٠م): الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكّي العاني، بغداد، ١٩٧٢.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، مطبعة كوستاتسوماس، القاهرة، ١٩٥٤-١٩٥٩.
- زكار، سهيل: القرامطة، مطبعة عبدالهادي الحرسومي، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٠.
- زكي، أحمد كمال: الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١.
- الزيات، حبيب: التشيع لمعاوية في العصر العباسي، ضمن مجلة «المشرق»، بيروت، ١٩٢٨.
- زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٧.
- سالم، عبدالعزيز: سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس، ضمن مجلة «المؤرخ العربي»، رقم ٢، بغداد، ١٩٧٥.
- السامر، فيصل: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، مطبعة الإيمان، بغداد، ١٩٧٠-ثورة الزنج، بغداد، د.ت.
- السامرائي، عبدالله سلوم: الشعبية، أطروحة ماجستير مخطوطة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٦٥.
- سركيس، إحسان: الأدب والدولة، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٧.
- السرنجاوي، عبدالفتاح: النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٤٥.
- سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، دار ابن خلدون، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٩.

- سلام، عاطف: الثورة البابكية وأثرها في الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
- السيّد الحَمِيرِي، إسماعيل بن محمد (١٠٥-١٧٣هـ/٧٢٣-٧٨٩م): ديوان السيد الحميري، تحقيق شاكر هادي شكر، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت.
- السيد، أحمد: نقائض ابن المعتز وتميم بن المعز، دار البعث، الطبعة الثانية، قسنطينة، ١٩٨٠.
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ/١٥٠٥م): تاريخ الخلفاء، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٤- المزهرة، مطبعة محمد علي صبح وأبنائه، د.ت.
- الشَّابُّشْتِي، علي بن محمد (٣٨٨هـ/٩٩٨م): الديارات، تحقيق كوركيس عواد، دار المعارف، بغداد، ١٩٥١.
- الشافعي، محمد بن إدريس (١٥٠-٢٠٤هـ/٧٦٧-٨٢٠م): ديوان الشافعي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٢.
- الشيببي، كامل مصطفى: التقية، ضمن «مجلة جامعة الإسكندرية»، المجلد ١٦، ١٩٦٢-١٩٦٣.
- الشريف المرتضى، علي بن الحسين (٤٣٦هـ/١٠٤٤م):
- أ - أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت،
- ب - مسألة في العمل مع السلطان، ضمن «مجلة الفكر العربي»، عدد ٢٣.
- شريف، محمد بديع: الصراع بين الموالي والعرب، دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت.
- شعبان، محمد عبدالحى: الدولة العباسية، المكتبة الأهلية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١.

- شعيرة، عبد الحميد: المرابطون في الثغور البرية العربية الرومية، ضمن «الذكرى الفضية لطفه حسين»، القاهرة، ١٩٦٣.
- الشكعة، مصطفى: الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٥.
- شلبي، سعد: الشعر العباسي، التيار الشعبي، مكتبة غريب، د.ت.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ/١١٥٣م): الملل والنحل، المطبعة الأدبية، القاهرة، ١٣١٧هـ.
- الصابئ، هلال بن عبد المحسن بن إبراهيم (٤٤٨هـ/١٠٥٦م):
- أ - كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، القاهرة،
- ب - رسوم دار الخلافة، تحقيق محمد عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤.
- صالح، أحمد عباس: اليمين واليسار في الإسلام، المؤسسة العربية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٣.
- الصَّفَدِي، صلاح الدين أبو الصفاء أحمد بن القاسم (٥٦٦هـ/١٢٧٠م): الوافي بالوفيات :
- أ - ج ١: تحقيق هلموت ريتير (Helmut Richter)، إسطنبول، ١٩٣١.
- ب - ج ٢: تحقيق س. ديدرينغ (S.Didring)، إسطنبول، ١٩٤٩.
- ت - ج ٣: تحقيق س. ديدرينغ، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٣.
- ث - ج ٤: تحقيق س. ديدرينغ، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩.
- ج - ج ٥: تحقيق س. ديدرينغ، فسادن، ١٩٧٢.
- ح - ج ٧: تحقيق س. ديدرينغ، فسادن، ١٩٦٩.
- خ - ج ٨: محمد يوسف نجم، فسادن، ١٩٧١.

- د - ج ٩ : تحقيق يوسف خان، فسيادن، ١٩٧٤ .
- ذ - ج ١٠ : تحقيق جاكلين سوبله وعلي عمارة، فسيادن، ١٩٨٠ .
- ر - ج ١١ : تحقيق شكريفصيل، فسيادن، ١٩٨١ .
- ز - ج ١٢ : تحقيق رمضان عبدالنواب، فسيادن، ١٩٧٩ .
- س - ج ١٤ : تحقيق س. ديدرينغ، فسيادن، ١٩٨٢ .
- الصولي، أبوبكر محمد بن يحيى (٣٣٥هـ/٩٤٦م)
- أخبار أبي تمام، تحقيق محمود شاكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري، د.ت
 - أخبار البحري، تحقيق صالح الأشر، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٥٨ .
 - أخبار الراضي والمتقي، تحقيق جون هيوورث ديون، مطبعة الصاوي، بغداد، ١٩٣٥ .
 - أخبار الشعراء المحدثين، تحقيق جون ه (J. H Dunne)، مطبعة الصاوي، بغداد، ١٩٣٤ .
 - أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، تحقيق جون هيوورث ديون، مطبعة الصاوي، بغداد، ١٩٣٦ .
 - الأوراق، تحقيق جون هيوورث ديون.
- ضيف، شوقي :
- أ - الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، .
 - ب - العصر العباسي الأول، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٧٦ .
 - ت - العصر العباسي الثاني، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٥ .
- طاهر، علي جواد: نشر الشعر وتحقيقه في العراق، مطبوعة موزعة خلال المؤتمر التاسع والعشرين للمستشرقين، باريس، ١٩٧٣ .

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ/٩٢٣م): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦-١٩٦٨.
- العاملي، محسن الأمين: أعيان الشيعة، مطبعة ابن زيدون، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٣٥.
- العاملي، محمد بن حسن: الفصول المهمة في أصول الأئمة، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٧٨هـ.
- العباسي، عبدالرحمن بن عبدالرحمن (٩٦٣هـ/١٥٥٠م): معاهد التنصيص، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧.
- عبدالرازق، علي: الإسلام وأصول الحكم، تحقيق محمد عمارة، بيروت، ١٩٧٢.
- عبدالصمد بن المُعَدَّل (٢٤٠هـ/٨٥٥م): شعر عبدالصمد بن المعذل، تحقيق زهير غازي زاهد، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧١.
- عبدالكريم، جودت يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الجزائرية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤.
- عثمان، فتحي: الحدود الإسلامية البيزنطية (٣ أجزاء)، القاهرة، ١٩٦٦.
- العجلاني، منير: عبقرية أسلام في أصول الحكم، مطبعة النضال، دمشق، د.ت.
- العُرْفِي، إسماعيل: في الشعبوية، دمشق، ١٩٧٩.
- العزيز، حسين قاسم: البابكية، مكتبة النهضة (بغداد) ودار الفارابي (بيروت)، د.ت.
- العث، يوسف: تاريخ عصر الخلافة العباسية، در الفكر، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٢.
- عَلِي، أحمد: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، مكتبة الحياة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦١.

- العلوي، هادي: في السياسة الإسلامية، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٤.
- علي بن الجهم (١٩٠-٢٤٩هـ/٨٠٦-٨٦٣م): ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم/ دمشق، د.ت.
- العلي، صلاح أحمد: استيطان العرب في خراسان، ضمن «مجلة كلية الآداب»، بغداد، ١٩٥٩.
- عليان، عبدالفتاح محمد: قرامطة العراق، القاهرة، ١٩٧١.
- عمارة، محمد: الإسلام وفلسفة الحكم، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٩.
- عمر، فاروق :
- أ - العباسيون الأوائل، الجزء الثاني، دار الفكر.
- ب - بحوث في التاريخ العباسي، دار القلم، الطبعة الأولى، بغداد.
- ت - الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، مكتبة المثنى، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٧٧.
- غرايبة، عبدالكريم: العرب والأتراك، جامعة دمشق، ١٩٦١.
- فازيلييف، ألكسندر ألكسندروفيتش (Vasiliev, Alexander Alexandrovich): العرب والروم، ترجمة محمد عبدالحميد شعيرة، دار الفكر العربي، ١٩٣٤.
- فروخ، عمر: تجديد التاريخ في تعليه وتدوينه، دار الباحث، بيروت، ١٩٨٠.
- الفياض، عبدالله: تاريخ البرامكة، مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٤٨.
- القرآن الكريم.
- القاضي عبدالجبار بن أحمد الأسعد آبادي (٤١٥هـ/١٠٢٥م): المغني في أبواب العدل والتوحيد، القاهرة، د.ت.

- القاضي، وداد:
- أ - الكيسانية في تاريخ الأدب، دار الثقافة، بيروت،
- ب - جوانب من الفكر السياسي للسان الدين بن الخطيب، ضمن مجلة «الفكر العربي»، رقم ٢٣.
- القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف (-٦٤٦هـ/١٢٤٨م): المحمدون من الشعراء، تحقيق رياض عبدالحميد مراد، دمشق، ١٩٧٥.
- القلقشندي، علي بن الحسين (٤٣٦هـ/١٠٤٤م): مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤.
- كراتشكوفسكي، إغناطي لوليانوفيتش (Ignati Ioulianovitch Kratchkovski): دراسات في تاريخ الأدب العربي، ترجمه من الروسية معشراني، موسكو، ١٩٦٥.
- الكندي، أبو عمرو محمد بن يوسف (٣٥٠هـ/٩٦١م): كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق ر. جست (R. Guest)، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨.
- لامبتون، آن كثارين سوينفورد (Lambton, Ann Katharine Swynford): الفكر السياسي العربي، ضمن «تراث الإسلام»، سلسلة «عالم المعرفة»، رقم ٨، الكويت، د.ت.
- ماجد، عبدالمنعم: العصر العباسي الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)
- أ - الأحكام السلطانية، والولايات الدينية، القاهرة، د.ت،
- ب - في سياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، ضمن مجلة «الفكر العربي» عدد،
- ت - قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٩.

- ث - كتاب أدب الدنيا والدين، المطبعة الأميرية، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٢٥.
- المبرد، محمد بن يزيد (-٢٨٦هـ/٨٩٩م): الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، د.ت.
- متز، آدم (Adam Mez): الحضارة العربية، ترجمة محمد أبوريدة، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٥٧.
- مجهول (ق٥٥هـ/ق١١م): كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق دو خويه وب. دو يونغ (De Goeje et P. de Yong)، المجلد الثالث، بريل ١٨٦٩، والمجلد الرابع، تحقيق عمر السعدي، دمشق، ١٩٧٢.
- المحاسني، زكي: شعر الحرب في أدب العرب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١.
- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (-٣٨٤هـ/٩٩٤م):
- أ - أخبار شعراء الشيعة، اختصره محسن الأمين العاملي، تحقيق، محمد هادي العاملي، المكتبة الحيدرية، النجف، الطبعة الأولى،
- ب - معجم الشعراء، تحقيق عبدالستار فراغ، مكتبة النوري، دمشق، د.ت.
- ت - الموشح، تحقيق، أحمد بجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥.
- مروان بن أبي حفصة (١٠٣-١٨٢هـ/٧٢١-٧٩٧م): شعر مروان بن أبي حفصة، تحقيق حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣.
- مروة، حسين: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٠.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (-٣٤٥هـ/٩٥٦م):
- أ - إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، النجف، الطبعة الرابعة، ١٩٥٥
- ب - التنبيه والإشراف، تحقيق عيسى الصاوي، بغداد، ١٩٣٨

- ت - مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بيللا، بيروت، ١٩٧٣.
- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ/٨٢٢-٨٧٥م): صحيح مسلم؛ تحقيق أبو قتيبة نظر بن محمد الفريابي، دار طيبة، ٢٠٠٦.
- مصطفى، شاکر: دولة بني العباس، الطبعة الأولى، الكويت، د.ت.
- المظفر، محمد رضا :
- أ - عقائد الإمامية، الطبعة الرابعة، بيروت، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٣٥
- ب - الخلافة والإمامة العظمى، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٤١هـ.
- معروف، نايف محمود: الخوارج، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٧.
- معمر، علي يحيى: الإباضية في موكب التاريخ، القسم الأول، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٤.
- المنجد، صلاح الدين: بين الخلفاء والخلفاء في العصر العباسي، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٤.
- ناصر خسرو علوي (٤٥٠هـ/٩٥٨م): سفرنامه، ترجمها عن الفارسية يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٥.
- النجار، رجب: حكايات الشطار والعيارين في العصر العباسي، ضمن «عالم المعرفة»، رقم ٤٥، الكويت، د.ت.
- النص، إحسان: العصبية القبلية وأثرها على الشعر الأموي، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق، ١٩٧٣.
- النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى (٣٠٠هـ/٩١٢م): فرق الشيعة، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٩.

- النووي الشافعي، محيي الدين يحيى بن شرف (٦٧٦هـ/١٢٧٦م): رياض الصالحين من كلام المرسلين، الكويت-بيروت، ١٩٧٠.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب (٧٢٣هـ/١٣٣٣): نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب، د.ت.
- الهجرسي، محمود: محمد بن عبد الملك الزيات صاحب التتور، ضمن «سلسلة العالم العربي» رقم ٤٦، القاهرة، د.ت.
- هدارة، مصطفى: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.
- وات، مونتغمري (Montgomery Watt): الفكر السياسي الإسلامي، ترجمة س. حديدي، دار الحدائثة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١.
- الوطواط، أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى (٧١٨هـ/١٣١٨م): كتاب غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، المطبعة الأدبية الأميرية، القاهرة، ١٣١٨هـ.
- وكيع، محمد بن خلف (٣٠٦هـ/٩١٨م): أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي (٧٦٨هـ/١٢٦٧م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٣٧هـ.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله يعقوب بن عبد الرحمن (٦٢٦هـ/١٢٢٩م):
 أ - معجم الأدياء، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، مطبعة البابي، القاهرة، د.ت
 ب - معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (٢٨٤هـ/٨٩٧م):
 أ - تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠

ب - مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، تحقيق ويليام ج. ميلوورد

(William G. Milward)، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٢.

1. BROCKELMANN, Carl : Histoire des peuples et des Etats islamiques, Traduction M. Tazrout, Payot, Paris 1949.
2. CANARD, Marius : Byzance et les Musulmans du Proche-Orient, Variorum Reprints, London, 1973.
3. POPOVIV, Alexandre : Ali ben Mohammed et la révolte des esclaves à Basra, thèse de doctorat d'université dactylographiée, Faculté des lettres, Sorbonne, Paris, 1952.
4. Rékaya, M : Mise au point sur Théophobe et l'Alliance de Babek avec Théophile (833/834-839/840)» . in Byzantion (French) 44: 43 - 67.
5. Sourdel, Dominique
 - L, Islam, Editions Que sais-je;?
 - La politique religieuse des successeurs d, Al-Mutawakkil, In «Studia Islamica», XIII ;
 - Le Vizirat abbaside, Damas, 1959-1960.
6. Zambaur, Emile, De : Manuel de généalogie pour l'histoire de l' Islam , Lafaire, Hanouvre, 1927.

المحتوى

- تصدير، أ. عبدالعزيز سعود البابطين ٣
- تقديم ٧
- التمهيد: الخلافة أو السلطة في الفكر الإسلامي ١١
- الفصل الأول: الشعر والخلفاء العباسيون ٢٧
- تنظيم الدعوة العباسية: ٢٧
- إبادة الأمويين ٢٩
- الأحقية بالخلافة بين العباسيين والطلبين ٥١
- الحق الإلهي ٥٢
- الاستناد إلى القرابة من الرسول ﷺ ٦٢
- التتقصُّ من قدر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ٧١
- موقف عبد الله بن المعتز ٧٢
- المظاهر الدينية لدى الخلفاء العباسيين ومحتواها السياسي ٧٧
- الكنى العباسية والألقاب الفخرية ٨١
- الصراع على السلطة داخل البيت العباسي ٨٥

٩٦	- العباسيون والفرس
١٠٠	- العباسيون والأتراك
١١٧	- الجيش العباسي
١١٩	● الفصل الثاني: الشعر ورجال الدولة
١١٩	- الشعر والوزراء
١٣٧	- نكبة البرامكة
١٥١	- الشعر والعسكر
١٥٧	- الشعر والقضاة
١٦٩	- الشعر والكتاب وباقي الموظفين
١٧٧	- الشعر ونزعتا الشعوبية والعروبية
١٩٥	● الفصل الثالث: الشعر والعلاقات الخارجية
٢٢٥	● الفصل الرابع: الشعر والمعارضة
٢٢٥	- الشعر والمعارضة المذهبية
٢٢٥	- الشعر والشيعة
٢٣٠	أ - الانتفاضات الشيعية في العصر العباسي
٢٤١	ب - الشعر الشيعي
٢٦٨	ج - خصائص الشعر الشيعي

- ٢٦٨ - الصدق العاطفي:
- ٢٦٩ - القوة والحماس
- ٢٦٩ - الأسلوب
- ٢٦٩ - الحزن
- ٢٧٠ - الشعر والخوارج
- ٢٨٠ - الشعر والقرامطة
- ٢٩٣ - الشعر والمعارضة الشعبية
- ٢٩٣ أ - أسباب الانتفاضات والثورات في العصر العباسي
- ٣٠٠ - التذمر الشعبي في العصر العباسي
- ٣١٠ ب - الشعر وثورة بابك
- ٣١٨ ج - الشعر وثورة الزنج
- ٣١٨ - من هو علي بن محمد؟
- ٣٣٥ ● الفصل الخامس: الشاعر في البلاط العباسي
- ٣٣٥ أ - الشعر السياسي والمدح
- ٣٣٩ ب - نحو البلاط
- ٣٤٣ ج - مرتبة الشاعر في هرم البلاط والمراسيم الخاصة به
- ٣٤٦ د - يأس شعراء البلاط

٢٤٨	هـ - القدح والغيرة واختبار الشاعر
٢٥١	و - شكليات الاستقبال ومراسيمها
٢٥٣	ز - عادات الشعراء في الإنشاد
٢٥٨	ح - الأعطيات والجوائز والهدايا
٣٦٢	- خاتمة القول حول القيمة التوثيقية للشعر السياسي في العصر العباسي
٣٦٦	- قائمة الخلفاء العباسيين في العصرين الأول والثاني
٣٦٨	- فهرس المصادر والمراجع
٣٩٢	- المحتوى

